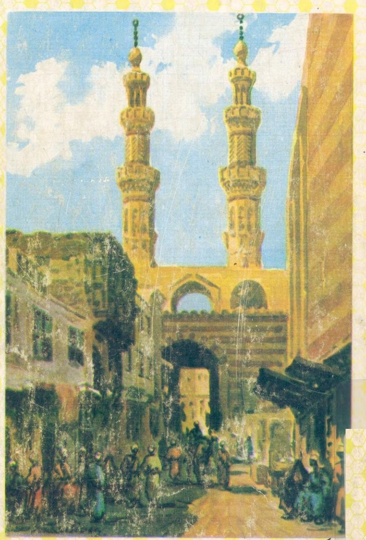
في
التاريخ العباسي والفاطمي



اذ الدكتور
ار العبادى
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعة الإسكندرية.

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش. الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤٨٣٩٤٧٢ - الإسكندرية


مكتبة
طريق العلم

في

التاريخ العباسي والفاطمي

تأليف

الدكتور

أحمد مختار العبادي

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٣

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ الدولتين العباسية والفاطمية . ويلاحظ أن كانتا الدولتين قامتا على أثر دعوة أو دعاية سرية منظمة تتشابه في كثير من الوجوه . وكما اعتمد العباسيون على الموالي من الفرس في خراسان شرقاً، اعتمد الفاطميون على الموالي من البربر في المغرب غرباً . كذلك اتخذ كل فريق من مذهب التشيع أساساً لدعوته ، فالعباسيون لم يأخذوا البيعة باسمهم مباشرة ، بل دعوا للرضى من آل محمد ، اي لشخص معين من آل البيت يتفق عليه فيما بعد . كذلك اندمجوا في الشيعة الكيسانية وسموا أنفسهم بالهاشميين ، وهي كلمة عامة قد تنسب إلى الشيعة الكيسانية التي اندمجت في فرق شيعية أخرى واتخذت اسم الهاشمية . فالدعوة العباسية بدأت شيعية في الأصل ثم تحولت بعد نجاحها إلى خلافة سنية كما يبدو من سير الحوادث .

أما الدولة الفاطمية ، فإنها لم تنحرف عن ميدأ التشيع الذي قامت عليه دعوتها ، مستغلة موجة السخط والتذمر التي انتابت العلويين بعد ان قبض أبناء عمومتهم العباسيون على الحكم . ولما نجح الفاطميون في تأسيس دولتهم بالمغرب ، ظلوا على مبادئهم الاسماعيلية المعادية للعباسيين .

على أن موضع الأهميّة هنا ، ، هو أن الدولة الفاطمية أخذت تتوسع على

حساب الخلافة العباسية ، واقتطعت من أراضيها أجزاء مهمة في قلب العالم الإسلامي مثل افريقية ومصر والشام واليمن والحجاز والنوبه ، مما جعل تاريخها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الدولة العباسية . لهذا أفردنا لكل دولة من الدولتين دراسة مستقلة تضمنت في بعض أجزائها علاقاتهما ببعضهما وبغيرهما من الدول الأخرى .

وسرنا في ترتيب موضوعات الكتاب وفق التقسيم التقليدي المعروف للتاريخ في العصر الوسيط .

فالقسم الأول من الكتاب وهو التاريخ العباسي قسمناه إلى عصوره التاريخية المختلفة في خمسة فصول : الفصل الأول عن نشأة الدولة العباسية ، تكلمت فيه عن مآثر الدولة العربية الراحلة وعوامل سقوطها ثم انتقلت إلى الدعوة العباسية ومراحلها وعوامل نجاحها ، ثم المميزات العامة للدولة الجديدة .

وفي الفصل الثاني ، تكلمت عن خلفاء العصر العباسي الأول وما قاموا به من أعمال سياسية وعمرانية على أساس أن شخصياتهم لعبت دوراً كبيراً في توجيه سياسة هذا العصر الذهبي من تاريخ الدولة العباسية .

أما الفصل الثالث أو ما يسمى بالعصر العباسي الثاني ، فقد تكلمت فيه عن سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية وما نتج عن ذلك من نزعات استقلالية أدت إلى قيام دول مستقلة في اطراف الدولة شرقاً وغرباً مثل الدول الطاهريه والصفارية والسامانية والغزنوية شرقاً . والطولونية والاخشيدية في مصر والشام غرباً .

وقد أدى هذا التفكك السياسي إلى ضعف الخلافة العباسية ذاتها ووقوعها تحت سيطرة بني بويه الفرس الشيعة مدة قرن من الزمان ، وهو ما يسميه المؤرخون بالعصر العباسي الثالث ، وقد ضمنت هذا العصر في للفصل الرابع من الكتاب .

أما الفصل الخامس والأخير ، فقد تكلمت فيه عن دولة الأتراك السلاجقة وما تمخض عنها من دويلات مستقلة عمت الشام والجزيرة والعراق وفارس .

وعرفت باسم الاتابكيات . وقد سمي هذا العصر بالعصر العباسي الرابع ، وهو آخر عصور الدولة العباسية .

اما القسم الثاني من الكتاب وهو تاريخ الدولة الفاطمية ، فقد قسمناه أيضاً إلى خمسة فصول . تناول الفصل الأول قيام الدولة الفاطمية في المغرب والصراع السياسي والمذهبي الذي قام بينها وبين الدولة الأموية السنية في الأندلس .

وتكلمت في الفصل الثاني عن انتقال الدولة الفاطمية إلى مصر وما صحب ذلك من أعمال مختلفة مثل تأسيس القاهرة ، وبناء الجامع الأزهر ، ومحاولة غزو الشام . ثم اختتمت هذا الفصل بذكر بعض المميزات العامة التي تميزت بها هذه الدولة في مقرها الجديد .

وفي الفصل الثالث ترجمت لخلفاء العصر الفاطمي الأول في مصر وهم المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر ، على اعتبار ان شخصياتهم لعبت دوراً كبيراً في توجيه سياسة هذا العصر المعروف بعصر الخلفاء .

أما العصر الفاطمي الثاني ، وهو موضوع الفصل الرابع ، فقد اصطلح

المؤرخون على تسميته بعصر الوزراء ، على اعتبار ان السلطة كانت بيد الوزراء أمـا الفصل الخامس والأخير ، فقد اقتصر على السياسة الخارجية للدولة الفاطمية ، وعلاقاتها مع جيرانها كالزيريين في المغرب ، والأمويين في الأندلس ، والكلبيين في صقلية ، وأشراف مكة في الحجاز ، والصليحيين في اليمن ، والبويهيين والسلاجقة في العراق وفارس ، ثم الزنكيين في الشام وهم الذين انتهت على أيديهم الدولة الفاطمية .

والله ولي التوفيق .

احمد مختار العبادي



الفصل الأول

نشأة الدولة العباسية

١ ـ مآثر الدولة العربية وعوامل سقوطها

٢ ـ الدعوة العباسية

٣ ـ مميزات الدولة الجديدة

١ ــ مآثر الدولة العربية وعوامل سقوطها :

قامت الدولة العباسية على انقاض الدولة العربية . ويجدر بنا قبل الكلام عن هذه الدولة الجديدة أن نصفي حساب الدولة العربية المنهارة ، فنبين مميزاتها ومآثرها التي خلدت ذكراها ، ثم نعدد عيوبها ومثالبها التي أدت إلى سقوطها .

والمراد بالدولة العربية هي الدولة التي قامت بقيام الاسلام واتسعت بالفتوحات الكبرى التي قام بها العرب أيام الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية . ثم انتهت الدولة العربية بسقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ ﻫ (٧٤٩م) .

فالدولة العربية اذن هي ظاهرة تاريخية مركبة نبتت صغيرة أيام الدعوة الاسلامية ثم أخذت تنمو وتتسع أيام عمر بن الخطاب في عصر الخلفاء الراشدين ثم في أيام الوليد بن عبد الملك في عصر الخلافة الأموية حتى شملت أجناس المشرق والمغرب .

وهكذا نجد أن الدولة العربية مرت في ثلاث مراحل : مرحلة الدعوة الاسلامية ، ومرحلة الخلفاء الراشدين ثم مرحلة الخلافة الأموية ، فالدولة الأموية هي المرحلة

الثالثة والأخيرة من مراحل نمو الدولة العربية ، وقد انتهت على أيدي العباسيين سنة ١٣٢ هـ .

ولقد وصفت هذه الدولة بالعربية لأن الجنس العربي هو الذي كان حاملا لواءها ومصرفاً لشئونها حتى نهاية الدولة الأموية . فلما قامت الدولة العباسية آل الأمر إلى الأعاجم أو إلى الشعوب التي تحولت إلى الاسلام كالفرس والترك والبربر ..

وقد لاحظ المؤرخون هذا الفرق بين الدولتين ، فقالوا ان دولة بني العباس دولة اسلامية ودولة بني أمية دولة عربية .

وسقوط الدولة العربية في حد ذاته أمر طبيعي ، لأن الدول ــ كما يقول ابن خلدون ــ كالأفراد والكائنات الحية تمر في ادوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء . انما المهم هنا ما تتركه هذه الدول من آثار ايجابية تخلد ذكراها . مآثر الدولة العربية كثيرة نكتفي بذكر اهمها وهي :

أولا : انها زادت في مساحة الدولة الاسلامية الجديدة ، فدفعت حدودها شرقاً إلى اواسط اسيا ، وغرباً إلى المحيط الأطلسي . ففتحت بلاد ما وراء النهر على يد قتيبه بن مسلم ، واقليم الهند في شمال غرب الهند على يد محمد بن القاسم الثقفي والمهلب بن أبي صفره ، كما فتحت الشام على يد خالد بن الوليد ، ومصر على يد عمرو بن العاص ، والمغرب والاندلس وجزر البحر المتوسط على يد عدد من كبار القادة العرب أمثال عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيرهم .

ثانياً: الدولة العربية صبغت هذه المساحة الشاسعة من الاراضي بالصبغة العربية وذلك عن طريق نشر الجنس العربي في انحاء تلك البلاد. فكثير من القبائل العربية قد تركت موطنها الأصلي في الجزيرة العربية ، وهاجرت إلى البلاد المفتوحة بقصد المعيشة فيها والدفاع عنها واتخاذها وطناً لها .

فهذه الهجرات لم يكن الغرض منها استغلال البلاد وثرواتها كما يفعل

المستعمرون حديثاً ، وانما كانت تهدف إلى الاستقرار فيها والاختلاط بأهلها والمشاركة في تعميرها ، فهو استعمار بمعناه الحقيقي أي تعمير وانشاء على غرار ما فعله الاغريق والفينيقيون القدماء حينما ضحوا بوطنهم في سبيل المعيشة في البلاد التي فتحوها ونشر جنسهم وثقافتهم فيها .

ثالثاً : إلى جانب انتشار الجنس العربي حرصت الدولة العربية على نشر اللغة العربية في انحاء البلاد المفتوحة وذلك عن طريق تعريب الدواوين الحكومية فيها ، ففي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك ، حلت اللغة العربية محل اللغات المحلية التي كانت سائدة في ادارة تلك البلاد كاليونانية والفارسية واللاتينية ، كذلك ضرب الدينار العربي وحل محل العملة البيزنطية في مصر والشام . وكان من نتيجة هذه السياسة القومية العربية ان اقبل الناس على تعلم اللغة العربية للعمل في دواوين الحكومة من جهة ولفهم القرآن وتعاليم الاسلام من جهة أخرى .

رابعاً : من مآثر الدولة العربية ايضاً اهتمامها بتدوين الحديث النبوي الشريف فمن المعروف أن المسلمين الأوائل تجنبوا بأمر من الرسول تدوين الحديث كي لا يشغل المسلمون بشيء آخر غير كتاب الله . وقد ظل الحال على هذا الوضع معظم القرن الأول الهجري . غير أن هذه السياسة لم تمنع بعض المسلمين من كتابة بعض الاحاديث بصفة شخصية ،وكانت النتيجة أن وضعت احاديث نبوية لا يعرفها كبار الصحابة والتابعين . لهذا رأت الدولة الأموية جمع وتدوين الاحاديث الصحاح وذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز .

والاحاديث النبوية تعتبر نموذجاً للبلاغة واللغة العربية الفصحى، فهي تلي القرآن من هذه الناحية فضلاً عن انها المصدر التشريعي الثاني للاسلام،لهذا اقبل الناس على دراستها،وساعد ذلك على انتشار اللغة العربية بين المسلمين وقد نبغ من الموالي المهتمين بدراسة الأحاديث عدد كبير مثل الامام الليث بن سعد المصري وابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري صاحب كتاب الجامع الصحيح .

وهكذا نجد أن الدولة العربية كانت لها سياسة عربية مرسومة وموضوعة وقد نجحت في ذلك نجاحاً كبيراً بحيث أصبحت لغتها العربية أداه التخاطب الوحيدة بين ابناء العالم العربي إلى اليوم وهذا يعتبر من مآثرها كدولة عظيمة .

عوامل سقوط الدولة الأموية :

على الرغم من النجاح الكبير الذي احرزته هذه الدولة في فتوحاتها وفي سياسة التعريب التي قامت بها ، فان المعارضة كانت تحيط بها من كل جانب ولم تكن هذه المعارضة عنصراً واحداً أو حزباً واحداً بل كانت عناصر واحزاباً كثيرة .

العنصر العربي :

اذا تناولنا العنصر الحاكم وهو العنصر العربي ، نجد أنه كان عنصراً قوياً فعالا ، الا أنه كانت تسوده المنازعات القبلية القديمة بين اليمنية والمضرية (القيسية) وكان الولاه انفسهم إما يمنيين أو مضريين وكثيراً ما كانوا يتحيزون لعصبيتهم فتقع حروب دامية تنتهي أحياناً بقتل الوالي نفسه ، كما حدث مثلا لقتيبة بن مسلم المضري فاتح اقليم ما وراء النهر .

وبدلا من ان يعمل خلفاء بني أمية على حسم هذا النزاع ، اذا بهم ينحازون إلى فريق دون آخر مما ساعد على اتساع الهوة بين العصبيتين. فالخليفة الوليد بن عبد الملك أخذ جانب المضرية ، ومن كبار عماله المضريين الحجاج بن يوسف الثقفي وقتيبة بن مسلم . ثم جاء بعده سليمان بن عبد الملك ، وكان حانقاً على الحجاج وقتيبة لاعتراضهما على توليته ، فانحاز إلى اليمنية ، ومن ابرز رجاله يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي اليمني . ثم جاء عمر بن عبد العزيز ، فحاول التوفيق بين العصبيتين ، غير ان هذا الوفاق لم يلبث ان زال بعد وفاته ، إذ جاء يزيد الثاني بن عبد الملك وأخذ جانب المضرية ثم تلاه هشام بن عبد الملك فانحاز إلى اليمنية في بادىء الأمر ثم تحول عنهم إلى المضرية مما اثار غضب اليمنية . وقد ازداد غضبهم في عهد الوليد الثاني بن زيد بن عبد الملك عندما انحاز

هذا الخليفة إلى المضرية ، فثار عليه اليمنيون وقتلوه . وولي بعد ذلك ابن عمه يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك ، فانضم إلى اليمنية الذين كانوا سبباً في توليته . وأخيراً جاء مروان بن محمد فتعصب للمضرية وقضى على ثورات اليمنية . ولا شك أن هذه الحروب الداخلية قد شغلت الخلافة الأموية واستنفدت قوتها . هذا ويلاحظ أن شعراء العرب في ذلك الوقت كان لهم تأثير كبير في إذكاء نار هذه العصبيات ، ومن يقرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة ، تبدو له هذه الظاهرة بوضوح .

الحزب الشيعي :

المقصود بالشيعة هم شيعة علي بن أبي طالب الذين كانوا يرون أن الخلافة حق لعلي ولاولاده من بعده. وقد حمل هذا الحزب لواء المعارضة ضد الدولة الأموية. وثار من أئمة هذا الحزب العلوي عدد كبير من ابناء علي ، الا أن هذه الثورات منيت بالفشل . واضطر انصار هذا الحزب أن يعملوا في السر والخفاء ، وأن يختفوا في المناطق البعيدة عن مركز الدولة مثل خراسان والمغرب إلى أن يحين الوقت المناسب لظهورهم . وقد عرفت هذه السياسة باسم « التقية » لأنها تقوم على اتقاء خطر السلطة الحاكمة ومداراتها .

حزب الخوارج :

هؤلاء هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب في قضية التحكيم وكانوا حزباً جمهورياً — إن صح هذا التعبير الحديث — لا يؤمن بالوراثة كأساس لنظام الحكم ، ولا يرى حصر الخلافة في جنس معين أو بيت معين ، بل يرى أن الخلافة لله أي للأمة ، يكون الاختيار فيها هو الأساس ولو اقتضى الأمر اختيار عبد حبشي ما دام مستوفياً لشروط الخلافة .

لهذا كان هذا الحزب معارضاً للأمويين لأنهم جعلوا الخلافة ملكاً وراثياً . وقد اشترك هؤلاء الخوارج في الفتن التي قامت ضد الدولة الأموية كما انتشر عدد

كبير منهم في المناطق البعيده عن السلطة المركزيه للخلافة الأموية بدمشق . لهذا كانت خراسان وبلاد المغرب حقلا خصباً لنشاط هذه القوة المعارضة للدولة .

الموالي :

والموالي هم أهالي البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الاسلام . وهؤلاء كانوا في عهد الدولة الأموية يعاملون معاملة غير معاملة العرب ، فقد حرموا من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب . حرموا من الوظائف الكبرى في الدولة ، ومن العطاء الذي يستحقونه نظيراً التحاقهم بالجيش ، بل وفرضت عليهم الجزية رغم اسلامهم .

وهذه التفرقة لم يكن مصدرها الاسلام ، لأن الاسلام لم يفرق بين العناصر والاجناس . بل ينص صراحة على أن المسلمين أخوة في الدين ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » وإنما مصدر هذه التفرقة هو سياسة الدولة الأموية التي تقوم على اساس سيادة الجنس العربي .

ومن يتصفح الشعر العربي في عهد الدولة الأموية ، يجد تعبيراً واضحاً لهذه السياسة العربية . فالعربي في نظر الشعراء قد خلق ليسود ، بينما خلق غيره ليخدم ، وصاروا لا يفخرون إلا بمن كان الدم العربي يجري في عروقه ، ويحتقرون من سواه ، ويميزون بين الصريح والدخيل . وكل هذا كان مدعاة لتذمر الموالي .

وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) اصلاح هذه الحالة فأمر عماله بأن يضعوا الجزية عمن اسلم قائلاً عبارته المشهورة :

« ان الله بعث محمد هادياً ولم يبعثه جابياً » .

وكان من أثر هذه السياسة العمرية أن ازداد اعتناق أهل الذمة للاسلام ولكن في الوقت نفسه نقص ايراد بيت المال في الوقت الذي كانت فيه الدولة في حاجة ماسة إلى بذل الأموال في مشروعاتها التوسعية وفتوحاتها الكبرى .

ومن هنا حدث تضارب بين السياسة المالية والسياسية الدينية في الدولة ، وانتهى الأمر بفشل هذه السياسة بعد موت صاحبها عمر بن عبد العزيز ، والعودة من جديد إلى فرض الجزية على الموالي . ولهذا يرى بعض المؤرخين أن سياسة عمر الاصلاحية ، كانت سبباً غير مباشر في سقوط الدولة الأموية ، لأنها ايقظت في نفوس الموالي آمالا كبيرة لم تلبث أن خابت بعد موته .

انتشر التذمر الاقتصادي والاجتماعي بين الموالي في كل مكان وصاروا ينضمون إلى كل خارج على الدولة الأموية . كذلك ظهر هذا التذمر ايضاً على شكل حركة كلامية وهي المعروفة بحركة الشعوبية . وهذه الحركة كانت تطالب بالمساواة بين الشعوب مستندة في ذلك على قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن اكرمكم عند الله اتقاكم » .

(قيل إن المقصود بالقبائل هم العرب ، والشعوب هم المسلمون من غير العرب) وقد عرف اصحاب هذه الحركة ايضاً باسم اهل التسوية لأنهم كانوا ينادون بالمساواة .

فالشعوبية حركة اجتماعية أدبية سياسية هدفها الطعن في السيادة العربية وفي الجنس العربي ، وليس في الدين الاسلامي بطبيعة الحال لأن اصحابها مسلمون .

وكان موالي خراسان أكثر الناس تذمراً لأنهم اسلموا قبل غيرهم في البلاد الاخرى ، وشاركوا العرب في جهادهم ضد الترك في بلاد ما وراء النهر ، وضد الهنود في اقليم السند بل وفي فتح مصر ايضاً حيث نسمع عن فرقة من الفرس كانت تدعى بالحمراء شاركت في جيش عمرو بن العاص .

وعلى الرغم من كل هذه الخدمات فان الدولة حرمتهم من عطاء الحرب وفرضت عليهم الجزية لدرجة أن بعض العناصر العربية في خراسان قامت بحركات ثورية تنتصر فيها لاخوانهم الخراسانيين ضد سوء ادارة بني أمية . ومن زعماء هذه الحركة نذكر أبا الصيداء صالح بن طريف الذي عاقبته الدولة بالسجن بعد

اخماد ثورته سنة ١٠٨هـ . وجاء بعده الحارث بن سريج الذي قام بثورته (سنة ١١٦هـ) يدعو فيها إلى العمل بالكتاب والسنة ، وهاجر إلى أراضي الترك وأخذ يقاتل معهم جيوش الدولة الاموية احتجاجاً على سياستها التعسفية نحو الموالي . واستطاع والي خراسان نصر بن سيار أن يقنع الخليفة الأموي بالعفو عن الحارث بن سريج فعفا عنه ، غير أن ابن سريج لم يلبث طويلاً حتى عاد ورفع راية العصيان من جديد ضد الدولة الاموية وانتهى الامر بقتله سنة ١٢٨هـ . (١)

على أن هذه الحركة لم تخمد بموت ابن سريج اذ لم يكد يمضي على وفاته عام واحد حتى اشعل ابو مسلم الخراساني نار الثورة على بني أمية . ويكفي للدلالة على تأييد الموالي الفرس لهذه الثورة أن اللغة الفارسية كانت هي اللغة السائدة في جيش أبي مسلم .

(١) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، تعريب حسن ابراهيم حسن ، ومحمد زكي ابراهيم ، ص ٦٠ — ٦٣ (القاهرة ١٩٣٤) .

٢ ــ الدعــوة العباسية

قامت الدولة العباسية على اثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالي ثلث قرن تقريباً ، فضمت إلى صفوفها كل العناصر المعادية للأمويين وكلمة دعوة هي المقصود بها حديثاً كلمة الدعاية ويقابلها في المصطلح الاوربي الحديث كلمة Propaganda فالشرق الإسلامي قد عرف الدعاية من قديم وان كان الغرب المسيحي لم يعرفها الا في العصور الحديثة المتأخرة .

والغرض من الدعاية هو استعمال طرق مختلفة شريفة أو ملتوية للاعلان عن مبدأ أو فكرة بقصد تهيئة الافكار لقبول هذا المبدأ أو هذه الفكرة .

وأول دعاية قامت في الدولة الاسلامية هي دعوة العباسيين التي نظمت تنظيماً دقيقاً باسم الرضى من آل محمد وتمكنت في النهاية من أن تؤدي الغرض المقصود منها ، وهو اسقاط الدولة الأموية واقامة الدولة العباسية . ثم قامت بعد ذلك دعوة سرية أخرى باسم المهدي المنتظر تمخضت عنها قيام الدولة الفاطمية في المغرب .

هذا بخصوص كلمة دعوة ، أما تسميتها بالدعوة العباسية ، فنسبة إلى العباس ابن عبد المطلب عم النبي ومؤسس هذه الاسرة العباسية التي لعبت دوراً كبيراً في

التاريخ الاسلامي . العباس لم يكن ذا سابقة في الاسلام ، فقد اسلم في عام فتح مكه ، أي أن اسلامه كان اسلام ضرورة . ولهذا لم يكن من المعقول أن يطمع العباس في الخلافة بعد وفاة الرسول نظراً لتأخر اسلامه .

ولما كان التاريخ الاسلامي قد دون معظمه في عصر الدولة العباسية ، فقد حرص المؤرخون بطبيعة الحال على اظهار مؤسس هذه الاسرة بمظهر المؤيد للاسلام منذ ظهوره ، وأنه لم يقف من الرسول موقفاً معادياً كما فعل بقية أعمامه امثال أبي لهب وأبي جهل ، بل على العكس عمل على حمايته واخذ في هذا السبيل عهداً على أهل المدينة بحمايته عند بيعة العقبة ، كما ظل يكاتب النبي سراً بعد هجرته إلى المدينة ، وأنه اسلم قبل وقعة بدر . كذلك وضعت احاديث نبوية لم تثبت صحتها تشيد بفضل العباس وتتنبأ بصيرورة الخلافة إلى ابنائه من بعده حتى تقوم الساعة .

والواقع ان العباس لم يكن له نفوذ كبير في الاسلام بدليل انه بعد وفاة الرسول لا نسمع له ذكراً هاماً . تشير بعض الروايات فقط إلى اهتمامه بتوليه ابن اخيه علي بن أبي طالب ، اذ قال له « امدد يدك لنبايعك » ، وهذا يدل على أنه لم يكن له أي طموح في الخلافة .

وتوفي العباس في سنة ٣٢هـ في خلافة عثمان بن عفان وكان سنه ثمان وثمانين سنة . وقد أعقب اولاداً كثيرين نذكر منهم ابنه الثاني عبدالله بن العباس الذي من نسله جاء البيت العباسي . أما بقية ابناء العباس فلم يكن لهم عقب باق .

عبدالله بن العباس شخصية علمية فريدة ، معروفة لدى الادباء والعلماء واللغويين اذ كان يؤخذ عنه رواية الحديث وتفسير القرآن . ولم يكن عبدالله يطمع في الخلافة لايمانه القوي بحق علي بن أبي طالب فيها . ولهذا انضم اليه وايده ، وولاه علي بن أبي طالب البصرة واعمالها . وبعد مقتل علي ، ترك البصرة ورحل إلى الحجاز حيث أقام بالطائف مسالماً للأمويين إلى أن توفي في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٦٨هـ . ولقد انجب عبدالله بن العباس ولداً اسماه عليا لأنه ولد في

نفس الليلة التي قتل فيها الامام علي سنة ٤٠هـ .

علي بن عبدالله بن العباس شخصية غامضة غير واضحة كوضوح شخصية أبيه . نعلم أن الامويين استدعوه إلى الشام أيام الخليفة عبد الملك بن مروان واقطعوه قرية في البلقاء بشرق الاردن اسمها الحميمة . ولعل اهتمام الامويين بهذا المكان بالذات راجع إلى غرض سياسي اساسه الشك والتوجس في نوايا هؤلاء القوم فجعلوهم تحت اشرافهم ورقابتهم بالشام . وتوفي علي في الحميمة سنة ١١٨هـ وانجب ولداً اسمه محمد .

يعتبر محمد بن علي بن عبدالله بن العباس الشخصية القوية . والعباسي الحقيقي الذي أظهر طموحاً نحو الخلافة وسعى سعياً سرياً منظماً لنيلها .

ولكن ما هو الحق الشرعي الذي استند عليه محمد والعباسيون من بعده كأساس للمطالبة بالخلافة ؟ .

العباسيون يسوقون في ذلك قصة لها طابع قصصي يفسرون بها هذا الحق الشرعي لخلافتهم . تقول هذه الرواية أن الامام ابا هاشم بن محمد بن الحنفية [1] ابن علي بن أبي طالب امام الشيعة الكيسانية والملقب بالمهدي ، زار الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، وأن سليمان لمس فيه ذكاء ونشاطا وعلما وفصاحة فتخوف منه لعلمه أن الشيعة هم الحزب المنافس لبني أمية ، ودس من تعقبه وسقاه لبنا مسموماً . وشعر ابو هاشم بالسم يسري في بدنه فأدرك أنه ميت لا محالة ، وكان بالقرب من بلدة الحميمة فعرج عليها ، وهناك لقي علي بن عبدالله بن العباس ، فأخبره بأنه هالك لا محالة ولا عقب له ، وأنه متنازل له عن حقه في الخلافة وسلم له زمام الدعوة الكيسانية .

---

(١) سمي بابن الحنفيه لأن أمه خولة بنت قيس بن جعفر الحنفي ، كانت من عرب بني حنيفة وهم فرع من بكر بن وائل العدنانية ، وكانت منازل بني حنيفة في اليمامة . أما تسميتهم بالكيسانية فنسبه إلى أبي عمرو كيسان قائد حرس المختار بن عبيد الله الثقفي الذي ثار بالكوفة ودعا لمحمد بن الحنفية (المهدي) سنة ٦٦ هـ ثم تمكن الا مويون من قتل المختار سنة ٦٧ هـ . ولهذا سمي أتباع هذه الفرقة بالكيسانية والمختارية والهاشمية .

وعلى أساس هذه الوصية أو هذا التنازل ، ورث محمد بن علي العباسي جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للشيعة الكيسانية واستغلها لصالحه كصاحب حق في الخلافة . هذه هي الوصية التي يستند عليها العباسيون كأساس شرعي لخلافتهم . غير أن عدداً كبيراً من المؤرخين لا يقتنعون بصحة هذه الرواية للاسباب الآتية .

اولا : اذا كان هذا التنازل قد حدث فعلا لكان للعباسيين الحق في الافصاح عنه ، ولكننا نجد دعوتهم تلقى باسم آل البيت أو آل محمد . ولا شك أن الغرض من ذلك هو التمويه أو التعمية عن الشيعة بوجه خاص ، وهذا دليل يهمل فكرة التنازل .

ثانياً : من الرسائل التي تبودلت في صدر الدولة العباسية بين الامام العلوي محمد النفس الزكية (حفيد الحسن بن علي بن ابي طالب) وبين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، يتبين لنا أن العلويين والعباسيين اجتمعوا في أواخر ايام الدولة الأموية ، واتفقوا على أنه في حالة سقوط الخلافة الأموية يكون خليفة المستقبل الامام محمد النفس الزكية . وكان أبو جعفر المنصور حاضراً في هذا الاجتماع ، فلو ان فكرة التنازل وقعت لاعترض أبو جعفر المنصور على ذلك أو أشار اليها في رسائله .

ثالثاً : العباسيون بعد أن استقر لهم الأمر ، حاولوا أن يحيطوا خلافتهم بشيء من الشرعية ، فطبقوا عليها قانون الوراثة في الشريعة الاسلامية على اعتبار أن الخلافة تركة بعد النبي . فقالوا إنهم من نسل العباس عم النبي ، بينما العلويون من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي ، والعم في الميراث والعصبية مقدم على ابن البنت . ففي الرسائل التي تبودلت بين المنصور العباسي وبين محمد النفس الزكية ، نجد كلاماً في هذا المعنى حينما يقول له المنصور : وأما قولك انكم بنو رسول الله (صلعم) ، فان الله تعالى يقول في كتابه : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » . ولكنكم بنو بنته ، وانها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ،

ولا يجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ؟ » [1]

وأشاع العباسيون هذه النظرية في البلاد ووجدوا من الشعراء والأدباء من يؤيد هذه الفكرة مثل قولهم :

أني يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الاعمام !

فاذا كان التنازل قد وقع حقاً ، فلم اتجه العباسيون إلى هذا الحل ؟

الواقع ان العباسيين وجدوا حزبين متعارضين وهما : الامويون والعلويون . وكان الحزب العلوي أقرب الحزبين اليهم بحكم قرابتهم للرسول . ولهذا وجهوا نشاطهم السياسي نحو هذا الحزب الذي يتفق معهم . ثم جاءت وفاة أبي هاشم آخر امام للشيعة الكيسانية اذ لم يكن له عقب بعده ، فاستغل العباسيون هذه الفرصة واندمجوا في الدعوة الشيعية الكيسانية ووضعوا تلك الرواية التي تقول بأن هاشم بن محمد بن الحنفية سلم زمام الدعوة الكيسانية للعباسيين قبل وفاته .

وقد حرص العباسيون على اخفاء اطماعهم نحو الخلافة ، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل تحت هذا الستار البراق المبهم « الرضى من آل محمد » يعني لشخص معين من آل البيت يتفق عليه فيما بعد . كذلك سموا انفسهم بالهاشميين وهي كلمة عامة قد تنسب للشيعة الكيسانية التي اندمجت في فرق شيعية أخرى واتخذت اسم الهاشمية ، وقد تنسب ايضاً للامام ابي هاشم بن محمد بن الحنفية أو لهاشم بن عبد مناف جد الجميع علويين وعباسيين . فالدعوة العباسية بدأت شيعية في الاصل ثم تحولت بعد نجاحها إلى خلافة سنية كما يبدو من سير الحوادث .

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو أن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس هو العباسي الحقيقي الذي سعى لنيل الخلافة . ومن مقره بالحميمة أخذ ينظم الدعوة أو الدعاية تنظيما سريا دقيقياً ويرسل الدعاة والنقباء العمال الى الجهات

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٥٣٩ .

الملائمة لهذه الدعوة واهمها خراسان وهى البلاد التي تشمل كل الهضبة الايرانية حتى بلاد ما وراء النهر . لأن كل العناصر المعارضة للامويين والساخطة على سياستهم قد تجمعت في هذا الاقليم بالذات .

ومما يدل على الاهتمام الامام محمد بخراسان كمسرح لهذه الدعوة الجديدة تلك الكلمة التي وجهها لدعاته حينما وجههم الى الامصار المختلفة ، اذ قال لهم فيها :

«اما الكوفة وسوادها ، فشيعة علي وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف (أى بالحياد) وتقول كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية [1] مارقة ، وأما أهل الشام فلا يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، هناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الاهواء ولم يتوزعها الدغل ، وهم جند لهم أبدان واجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب (يشير الى شجاعتهم) وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة (اشارة الى التلمر). وبعد ، فاني اتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق». [2]

هذه الكلمة السابقة تبين بوضوح وضع كل قطر اسلامى واتجاهه ، وتفضيل العباسيين لخراسان دون سائر الاقطار الأخرى ، كما سبق أن ذكرناه .

وانبعث الدعاة الى خراسان متنكرين فى زي أصحاب المصالح المشروعة كالتجار والباعة وأصحاب الحوانيت أو كمعلمين ومتصوفة ... الخ . وكانوا يدعون الناس في سرّ وكتمان ، ولكن داعية اثناء عشر نقيبا ، لكل نقيب سبعون عاملا ، والعمال يشرفون على الخلايا السرية التي تندس بين الجماهير فى جميع الامصار .

---

(١) يعني أنها تدين بالمذهب الخارجي نسبة إلى حروراء وهي بلدة بالقرب من الكوفة كان قد التجأ اليها بعض الخارجين على علي بن أبي طالب .

(٢) يلاحظ أن خراسان كلمة فارسية مركبة معناها مطلع الشمس .

وكان هؤلاء الرجال في العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف وقوة كي يتمكنوا من احراز النجاح المطلوب. وكانت دعوتهم تنصب على الثورة وقلب الدولة الاموية متخذين في ذلك الشعارات الجذابة التي تستهوي نفوس الموالي كالمناداة بالمساواة التي ينص عليها الاسلام ، والتنبيه على أن هذه البلد هي بلدهم قبل أن تكون للعرب مثل قول القائد قحطبة بن شبيب «يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لأبائكم».

وقد حرص العباسيون على اخفاء اطماعهم في الخلافة عن الناس ، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل لشخص من البيت النبوي يعين فيما بعد ، الرضى من آل محمد وعلى اعتبار أن اهل البيت هم احق الناس بالحكم . وكان الفرس يميلون لهم لأن الحسين تزوج منهم بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ،

وكان الدعاة يبلغون اخبارهم الى القائم بالكوفة ، وهذا بدوره يبلغها الى الامام محمد بالحميمة . ويرجع اهتمام العباسيين بمدينة الكوفة كمركز لدعوتهم ومقر لكبير دعاتهم ، الى مركزها الهام في المواصلات . وكان الدعاة في بعض الأحيان يكتشف أمرهم فيعذبون أو يقتلون ولا سيما في ولاية أسد بن عبدالله القسري الذي لقي دعاة العباسيين على يديه محنة كبرى ولم تتقدم دعوتهم الا بعد وفاته سنة ١٢٠هـ.

وتنبغي الاشارة هنا الى شخصية عظيمة كان لها دور كبير في خدمة الدعوة العباسية ، وهي شخصية بكير بن ماهان داعي العباسيين بالكوفة . فلقد استطاع هذا الرجل بفضل ثرائه وغناه أن ينفق على الدعوة ويدعم اركانها . فيروي الطبري أن بكير بن ماهان اعطى الامام محمد العباسي أربعة قضبان من فضة وآخر من ذهب كما سلمه كل ماله فاصبحت له معه صلة وثيقة .

وفي سنة ١٢٥ هـ توفي الامام محمد بن علي بالحميمة وخلفه ابنه ابراهيم كما توفي بكير بن ماهان بالكوفة وخلفه صهره أبو سلمة الخلال ، الذي لقب فيما بعد بوزير آل محمد .

وفي تلك الاوقات اتصل بالامام ابراهيم شاب من نوابغ الشبان لم يتجاوز سنه

الواحد والعشرين عاما اسمه عبد الرحمن وكنيته ابو مسلم الخراساني .

عن اولية أبي مسلم لا نعرف شيئا كثيرا ، يقال انه كان مولى فارسيا وأن اسمه الحقيقي بهزدان . ويصفه ابن خلكان بأنه كان قصير القامة ، أسمر اللون ، جميل الوجه ، أحور العين ، عريض الجبهة ، وافر اللحية ، خافض الصوت ، فصيحا بالعربية والفارسية ، لم ير ضاحكا أو مازحا في وقته ، ولا يكاد يقطب في شيء من احواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه السرور ، وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئبا .

تلقى أبو مسلم أصول الدعوة بالكوفة ، فاسترعى انتباه رجال الحزب العباسي، فأخذوه وقدموه لامامهم ابراهيم الذي لمس فيه ذكاء خارقا وارادة حديدية فأيقن أنه الشخصية التي يمكن أن يعول عليها في هذا الامر ، لهذا ولاه رئيسا للدعاة في خراسان وأوصى شيوخ الدعوة بطاعته .

هناك رواية تقول بأن أبا مسلم عربي الاصل وانه من ولد سليط بن عبد الله ابن العباس ، وتستشهد في ذلك بعبارة للامام ابراهيم وردت في كلامه الى أبي مسلم يقول فيها «يا عبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت».

ولا شك أن هذه الرواية موضوعة لأن جميع القرائن تدل على أن ابا مسلم مولى فارسي عمل على اسقاط دولة العرب واحياء دولة العجم . ويبدو أن أبا مسلم نفسه هو الذي اصطنع لنفسه هذا الاصل العربي وهذا النسب النبوي لغرض خطير في نفسه . فالمعروف ان ابا مسلم بعد أن تم له اسقاط الدولة الاموية صار يملك من القوة والنفوذ ما يمكنه من تحقيق اطماعه في الخلافة ذاتها ، ولكن كانت تنقصه الشرعية في الحكم لتحقيق مآربه ، اذ لا يتأتى ذلك الا بأن يكون من أهل البيت . ولهذا نجد بعد ذلك الخليفة العباسي المنصور عندما قتل أبا مسلم الخراساني يوجه اليه هذه التهمة الخطيرة بقوله :

«وتزعم انك من ولد سليط بن عبد الله بن العباس ؟» وفي هذه اشارة الى أنه اصطنع لنفسه نسبا عربيا .

نعود الى ما كنا بصدده وهو أن الامام ابراهيم وجد في أبي مسلم الشخص الذي يعتمد عليه في الأمر ، فأرسله الى خراسان .

وينسب الطبري الى الامام ابراهيم وصيه أوصى بها أبا مسلم قبل رحيله وهذه الوصية وان كانت لم ترد في المصادر التاريخية الاخرى الا انها تعطينا فكرة عن الوضع السياسي في خراسان كما تلخص سياسة ابي مسلم في هذه المنطقة يقول له :

«يا عبد الرحمن ، انظر الى هذا الحي من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم ، واتهم ربيعة في أمرهم — أي كن على حذر منهم . وأما مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه».

قام أبو مسلم بأمر الدعوة في خراسان سنة ١٢٩هـ ، فضم اليه الموالي الفرس وهم الاغلبية المطلقة ، ثم اخذ يستميل القبائل اليمينية مستغلا الخصومات القبلية التي بينها وبين المضرية .

وكان والي خراسان نصر بن سيار مضريا ، وقد حاول أن يجمع كلمة العرب ضد الفرس كما حاول تسوية الخلاف مع اليمينية فكتب اليهم يحضهم على ترك العصبية واستعان في ذلك بملكته الشعرية اذ أخذ ينظم شعرا في هذا المعنى ويذيعه بين القبائل مثل قوله :

من كان يسألني عن أصل دينهم ... فإن دينهم أن تهلك العرب

غير أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام دسائس أبي مسلم فرفض اليمينية الصلح واشترط زعيمهم الكرماني عزل نصر بن سيار من ولاية خراسان .

ولما قويت شوكة أبي مسلم ، جاهر بالدعوة علنا وأشعل النار على قمم الجبال لجمع الانصار ، كما اتخذ هو وأصحابه اللون الأسود شعارا في ملابسهم وألويتهم ولذا عرفوا بالمسودة . والمعروف ان العباسيين اتخذوا اللون الاسود شعارا لهم حزنا على الشهداء من آل بيت النبي الذين قتلهم الامويون . غير أن هناك فريقا من المؤرخين يرون أنه ليس هناك ثمة علاقة بين سواد الألوية ومسألة الحزن والحداد . ويدللون

على ذلك بأن بعض الذين ثاروا على الدولة الاموية قبل ذلك مثل أبي حمزة الخارجي وأبي الحارث بن سريج ، اتخذوا اللواء الاسود شعارا لهم . وفي ذلك يقول الشاعر الكميت موجها كلامه الى الحارث بن سريج :

والا فارفعوا الرايات سودا   على أهل الضلالة والتعدي

فكأن هناك علاقة بين سواد الألوية وبين محاربه الضلال والخروج عن مبادىء الاسلام . يضاف الى ذلك ما ترويه المصادر من أنه كانت للرسول راية تدعى العقاب من صوف أسود مربعه رسم فيها هلال ابيض ، وانه كان يحملها في حروبه مع الكفار. [1]

فلعل العباسيين أرادوا أن يتمثلوا عهد الرسول في كفاحهم مع بني أمية . هذا وتجدر الاشارة هنا الى أن شعار الأمويين كان البياض سواء في دمشق شرقاً أو في قرطبة غرباً .

وكيفما كان الأمر فان أبا مسلم الخراساني استطاع في وقت يسير أن يسيطر على زمام الموقف في خراسان، وشعر الوالي نصر بن سيار بخطورة الحالة فكتب الى الخليفة الاموي مروان بن محمد يطلب منه مدداً لانقاذ الموقف وانشده شعراً كثيراً نذكر منه الأبيات المشهورة التالية :

أرى بين الرمـاد وميض جمر   ويوشك أن يكون لـه ضرامُ
فان النـار بالعودين تـذكى   وان الحرب مبدؤهـا كلام
أقول من التعجب ليت شعري   أأيقـاظ أميـةُ أم نيـام ؟

غير أن الخليفة الأموي كان مشغولا هو الآخر باخماد ثورات الخوارج ، فرد عليه قائلا : « احفظ ناحيتك بجندك » . ولكنه في الوقت نفسه اخذ يبحث عن اسم الهاشمي الذي قامت الثورة من اجله ، وتوصل اخيراً الى معرفته عن

---

(١) عبد الحي الكتاني : التراتيب الإدارية في المدينة المنورة العلية - ١ ص ٣٢١ (الرباط ١٣٤٦ هـ) .

طريق خطاب مرسل من الامام ابراهيم الى ابي مسلم الخراساني وقع في يده ، فأمر الخليفة بالقبض على ابراهيم بالحميمة ، وسجنه في مدينة حران في شمال العراق حيث أمر بقتله بعد ذلك .

وكان الامام ابراهيم عند القبض عليه قد أوصى لأخيه ابي العباس بالإمامة من بعده ، وطلب منه الرحيل بأخوته وأهله من الحميمة الى الكوفة . فساروا اليها سراً وهناك علم رئيس الدعاة أبو سلمة الخلال بقدومهم فأنكر ذلك وقال وخاطروا بأنفسهم وعجّلوا ، وأراد أن يبقيهم خارج الكوفة ثم سمح لهم مكرهاً دخول المدينة حيث أنزلهم في مخبأ رطب بدار أحد الموالي ، وكتم أمرهم عن جميع القواد والشيعة نحواً من شهرين الى أن تم لهم الأمر .

وفي خلال ذلك الوقت استطاع أبو مسلم الخراساني بما تجمع لديه من جيوش بأن يهزم نصر بن سيار وان يستولي على مدينة مرو عاصمة خراسان سنة ١٣١ هـ واضطر نصر بن سيار ان يفر هارباً الى العراق تتبعه الجيوش العباسية ، ولكنه مات في الطريق بنواحي الري في نفس السنة ١٣١ هـ عن سن متقدمـــة (حوالي ٨٥ سنة) .

وبينما كان أبو مسلم يقوم باتمام فتح خراسان ، واصلت جيوشه زحفها نحو العراق بقيادة قحطبة بن شبيب ، واضطر عامـــل العراق يزيد بن هبيرة الى الانسحاب والتقهقر نحو مدينة واسط جنوبي العراق والتحصن بها .

أما عامل الكوفة محمد بن خالد بن عبد الله القسري ، فانه لم يستطع الصمود أمام العباسيين ، فسلم لهم المدينة ، وهنا يظهر أبو العباس من مخبئه ويدخل المسجد الجامع بالمدينة حيث يعلن أبو سلمة الخلال امامته ويطلب من الناس مبايعته بالخلافة فيبايعونه في ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ ثم يخطب أبو العباس خطبته التاريخية المشهورة التي اوردها الطبري في تاريخه (حـ ٦ ص ٨٢) .

في هذه الخطبة ينوه أبو العباس بفضائل أهل البيت وحقهم الشرعي في الخلافة لقرابتهم من الرسول ثم يهاجم الأمويين وسياستهم ويعدد مساوئهم ثم

يتكلم عن مبادىء العباسيين واهدافهم وسياستهم المستقبلة .

فهو خطاب رسمي موضوع على غرار الخطب البرلمانية الرسمية . وواضح من صيغة الخطبة والفاظها المرنة الجذابة أنها كانت موضوعة ومعدة من قبل أي انها لم تكن مرتجلة . ثم ان الطبري يقول بأن العباس لم يستطع اتمام الخطبة لمرضه ، فقعد على المنبر وقام عمه داود بن علي فأكمل الخطبة ، وهذا دليل آخر على أنها كانت معدة من قبل . والغرض من ذلك بطبيعة الحال أن يكون وقعها في النفوس أقوى وأشد من الكلام المرتجل فتؤثر في الناس التأثير المطلوب وتستميل الأحزاب المختلفة.

بقي على أبي العباس أن يحارب الخليفة الأموي مروان بن محمد لكي يتم له القضاء على الدولة الأموية فأرسل لقتاله عمه عبد الله بن علي . وهناك على ضفاف نهر الزاب الأعلى بالقرب من الموصل التقى الفريقان ودارت بينهما معركة فاصلة دامت يومين في جمادى الآخر سنة ١٣٢ هـ وانتهت بانتصار الجيش العباسي وهزيمة الجيش الأموي وغرق معظمه في نهر الزاب .

وهذه الهزيمة لا ترجع الى القائد نفسه مروان بن محمد ، لأنه كان من الناحية العسكرية أكفأ من خصمه عبد الله بن علي . وانما ترجع الى الخصومات والعصبيات القبلية التي كانت في جيشه بحيث لم يجد مروان من يطيعه أو يستمع لأوامره فكان اذا أمر قبيلة غطفان مثلا ان تنزل الى الميدان ، قالوا له قل لقبيلة قضاعة أن تنزل اولا ، وهكذا كان الحال مع كل قبيلة .

فجيش مروان كان متفرق الكلمة غير مكترث بأوامر قائده ، في الوقت الذي كان فيه الجيش العباسي متحمساً ومتحداً وفي حالة معنوية جيدة .

بعد هذه الهزيمة قرر مروان الفرار الى مصر والاعتصام بها معتمداً على غناها وكثرة خيلها ورجالها . غير أن مروان ما كاد يدخل مصر حتى لحقت به جيوش العباسيين ، كما قاتلته العناصر اليمينية المقيمة في مصر ، وانتهت المطاردة عند بلدة بوصير بالاشمونين (مصر الوسطى) حيث قتله العباسيون في أواخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) .

لم يبق للأمويين بعد ذلك مدافع سوى يزيد بن هبيرة الفزاري الذي كان والياً على العراق ثم انسحب بجيوشه الى مدينة واسط وتحصن بها . ولم تتمكن الجيوش العباسية بقيادة أبي جعفر (المنصور) اخي الخليفة من الاستيلاء عليها عنوة فاكتفت بحصارها .

ولما قتل مروان رأى يزيد بن هبيرة أنه لا فائدة من المقاومة ، فاتفق مع ابي جعفر على التسليم مقابل تأمين حياته . فوافق أبو جعفر على ذلك واكرمه في بادىء الأمر ولكنه لم يلبث أن غدر به وقتله لأن بقاءه خطر على الدولة . وهكذا ينتهي آخر مدافع عن الدولة الأموية .

٣ ـ مميزات الدولة الجديدة

١) الناحية الدينية :

قامت الدولة العباسية على انقاض الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ وامتد حكمها خمسة قرون الى أن سقطت اخيراً على أيدي المغول بزعامة هولاكو حفيد جنكيزخـــان سنة ٦٥٦ هـ .

وعلى الرغم من أن الاسرة العباسية الحاكمة كانت أسرة عربية هاشمية ، الا انها اعتمدت في بادىء الأمر على الموالي الفرس كما رأينا ، ولهذا لم يعد للجنس العربي تلك المكانة المرموقة التي كانت له ايام الدولة العربية . كذلك يلاحظ أن الخليفة الأموي كان اشبه بشيخ قبيلة يستمد سلطانه من القوى المادية ومن رضى رؤساء القبائل العربية . أما الخليفة العباسي فقد اتسمت سلطته بالقداسة وصار سلطانه مستمداً من الله سبحانه وتعالى . فالخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين يقول في احدى خطبه :

« أيها الناس ، انما انا سلطان الله في أرضه اسوسكم بتوفيقه وتأييده وحارسه على أمواله . اعمل فيه بمشيئته وارادته ، فاسألوا الله أن يوفقني الى الرشاد .

فنظرية الخلافة قد تغيرت في عهد العباسيين وأصبحت تشبه تماماً نظرية الحق الالهي في الحكم التي كانت سائدة بين الفرس قديماً أيام الساسانيين والتي سادت أوروبا في بداية العصور الحديثة باسم Di vine right of Rule

ولقد اندمجت هذه النظرية في نفوس المسلمين حتى صارت عقيدة يؤمنون بها . والفضل في ذلك يرجع الى الدعاية التي قام بها العباسيون لهذه الفكرة لدرجة انهم استخدموا في سبيل تدعيمها وترويجها احاديث نبوية لم تثبت صحتها تبرر لهم هذا الحق الى يوم القيامة . ولعل هذا هو السر في بقاء الخلافة العباسية مدة طويلة وفي تمتعها بمركز الزعامة الروحية في العالم الاسلامي حتى بعد زوالها من بغداد . يروي السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين انه حينما سقطت الخلافة العباسية وزالت من بغداد على ايدي المغول « خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وان الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله واتخذوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة » (1) وازاء هذه المكانة المقدسة التي تمتعت بها الخلافة العباسية في العالم الاسلامي ، حرصت مصر على احيائها من جديد في القاهرة ، وقد تم لها ما أرادت سنة ١٢٦١ م على عهد السلطان الظاهر بيبرس . واستمرت الخلافة العباسية قائمة بالقاهرة الى ان احتل الاتراك العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ م فقضوا على الخلافة واستأثر السلطان العثماني بالسلطتين الزمنية والروحية معاً .

٢) من الناحية السياسية :

نلاحظ أن العباسيين قد خلطوا السياسة بالدين وهم في هذه الناحية يختلفون عن الأمويين ، الذين اتهموا بالخروج عن الدين والاهتمام بالمصالح الدنيوية لدرجة أن الثورات التي قامت في عهدهم اتخذت صبغة دينية واعتصمت بالاماكن المقدسة مما أوقع الأمويين في الحرج واضطرهم الى ضرب الكعبة والاعتداء على أهالي مكة والمدينة لاخماد تلك الثورات مما أساء الى سمعتهم الدينية .

---

(1) السيوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٣٠٩ .

أما الخلفاء العباسيين فعلى العكس من ذلك ، أقاموا سياسة ممزوجة بالدين وأعلنوا انهم يريدون احياء السنة واقامة العدل وارجاع الخلافة الحقة بدلا من الملك الذي اقامه الامويون . فاحاطوا أنفسهم بهالة من الدين وجذبوا الفقهاء والعلماء حولهم ، وتلقبوا بالأئمة ، وارتدوا بردة الرسول كرمز لسلطتهم الدينية وذلك في المناسبات الخاصة كصلاة الجمعة والعيدين ، وفي ذلك يقول البحتري في مدح الخليفة المتوكل العباس :

وَوَقَفْتَ في بُرْدِ النبيِّ مذكِّراً لله تُنْذِرُ تارةً وتُبَشِّرُ .

والبردة رداء من الصوف يسدل على الكتفين ، واستعمله العرب قبل الأسلام وبعده . ويروى أن الرسول كانت له بردة من هذا النوع وأنه القاها يوماً على كتفي الشاعر كعب بن زهير تعبيراً عن تقديره لشعره . ويقال إن معاوية بن أبي سفيان اشتراها من ولد كعب ثم حفظت بعد ذلك في خزانة الخلفاء أيام العباسيين . ولما استولى هولاكو على بغداد حاول حرقها ولكنها انقــذت من براثنه وهي الآن محفوظة بمدينة القسطنطينية [1] .

كذلك استغل العباسيون فكرة المهدوية والعصمة أو المهدي المنتظر التي كانت أمل الغد عند جماهير الشعب المتعبة التي تنتظر المخلص الذي يخلصها مما هي فيه إلى حياة أفضل . ولهذا راجت هذه العقيدة بين جماهير الناس ، وصارت بمثابة الشعار الديني والسياسي الذي يرفعه كل ناقم على ظلم بني أمية أو ظلم بني العباس بعد ذلك . ولقد استغلها الشيعة وغالوا في استعمالها ، واستغلها

---

(١) يلاحظ في هذا الصدد أن قصيدة الشاعر الصوفي شرف الدين محمد البوصيري (ت ١٢٩٤ م) المعروفة بالبردة ، اسمها في الأصل هو « الكواكب الدرية في مدح خير البرية » . أما سبب تسميتها بالبردة فيرجع إلى أن البوصيري مرض يوما مرضا عضالا فجاءه الرسول في المنام وألقى بردته على كتفيه فشفي على الأثر ولم تلبث هذه المعجزة ان ذاعت واشتهرت حتى صار اسم البردة منذ ذلك الوقت عنوانا لهذا القصيدة . وقد ترجمت هذه القصيدة إلى الفارسية والتركية وكتبت حولها الشروح الكثيرة ونهج على منوالها عدد من الشعراء نذكر منهم أحمد شوقي في قصيدته المعروفة « نهج البردة » .

الحارث بن سريج في ثورته على الأمويين ولقب نفسه بالمهدي . كذلك عمل بها الأمويون أيضاً واوجدوا مهدياً اسمه السفياني وهو الذي سيعيد ملك بني أمية . وكان من الطبيعي أن يستغلها العباسيون ايضاً بعد توليهم الحكم لقطف ثمار الثورة على الأمويين دون شركائهم وابناء عمومتهم العلويين . فاصطنعوا الأحاديث النبوية الموضوعة لتثبيت دعواهم بان المهدي منهم، وأن يخرج وأصحابه مـــن خراسان حاملين الرايات السود ، مما ينطبق على الأحداث التاريخية التي توالت من قبل . كذلك استغل المنصور ثاني الخلفاء العباسيين هذه العقيدة حينما لقب ابنه وولي عهده بالمهدي [1] .

من كل ما تقدم نرى أن العباسيين قد استفادوا من الدين لتثبيت مركزهم السياسي وفي ذلك يقول ابن طباطبا في كتابه الفخري في الآداب السلطانيـــة : « ان هذه الدولة قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فكان اخيار الناس يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة .

ولكي يزيد الخلفاء العباسيون في مهابتهم وقداستهم اتبعوا بعض عادات الأكاسرة الفرس مثل الاحتجاب عن الرعية والظهور في وسط ستار كثيف من الاتباع ونشأت نتيجة لذلك وظيفة الحجابة ، فلم يعد الخليفة يرى كما كان الحال من قبل الا بعد برنامج واتيكيت محكم دقيق عند مقابلته .

كذلك وجدت طريقة خاصة للتسليم على الخليفة مثل الانحناءات وتقبيل الارض أو ذيل الثوب وهذه كلها تقاليد فارسية لأن السلام عند العرب كان ببسط اليد أو ضربها .

والى جانب الحجابة وجد للخليفة ايضاً بلاط يموج بالخدم والحشم والجواري بحيث أصبح هذا البلاط نظاماً من نظم الدولة التي تؤثر في سياستها .

---

(١) راجع (أحمد أمين : المهدي والمهدوية ص ١٢ (سلسلة اقرأ) ، احمد علي : ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ص ٣٢ – ٣٣) .

كذلك استحدث العباسيون خطة الوزارة باختصاصاتها المعروفة ، وهو نظام فارسي قديم وليس من مستحدثات الاسلام . ولهذا اختلف اللغويون حول أصل وزير هل هو من كلمة Wi-chir الفارسية أي الرئيس الذي يحكم ، أم هو عربي من الوزر (بسكون الزاي) وهو الثقل والعبء ، أو من الوزر (بفتح الزاي) وهو الملجأ أو المعتصم ، بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه ملجأ اليه في الأمور الهامـة .

ومهما يكن من شيء فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة طـه « واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، اشدد به ازري وأشركه في أمري . كذلك عرفه العرب ايام الرسول وفي عهد الخلفاء الراشدين [1] وخلفاء بني أمية من حيث أن الخلفاء كانوا يرجعون الى مستشارين أو أصحاب رأي فيما يحتاجون اليه من أمور . فهؤلاء كانوا يقومون بعمل الوزير الا أنهم لم يحملوا هذا اللقب الا نادراً [2] .

ثم جاءت الدولة العباسية على اكتاف الفرس ، ومتأثرة بنظمهم وتقاليدهم . فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد مقننة ، من أهمها الاشراف على الشئون المالية ، فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات ، وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بايرادات الدولة ومواردها الاقتصادية ، في مختلف الاقاليم والامصار . وقد حفظت لنا المراجع الاسلامية عدداً من قوائم الخراج التي كانت تمثل ايرادات الدولة العباسية مثل قائمة الجهشياري (ت ٣٣١هـ) في كتابه الوزراء والكتاب ، وهي تمثل الخراج في عصر الرشيد [3] (١٧٠–١٩٣هـ) ، وقائمة ابن خلدون في مقدمته ، وهي منسوبة الى عصر المأمون [4] (١٨٩–٢١٨هـ) ،

---

(١) يقال ان العرب الذين اختلطوا بالروم والفرس قبل الاسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم ، كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي ، كذلك كان حال عمر مع أبي بكر .

(٢) كان الكاتب يقوم مقام الوزير في الدولة الأموية .

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢١٨ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٧٩ ، محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ ص ٢٧١ .

وقائمة ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك ، وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري . وقائمة قدامه بن جعفر (٣٣٧هـ) في كتابه الخراج وصنعه الكتابة وهي تمثل الخراج الكلي للدولة العباسية [١] .

فالوزير بحكم اختصاصه كان هو المشرف على ديوان الخراج في الدولة (الدخل) ، كما كان هو المشرف ايضاً على ديوان النفقات (المنصرف) . وقدرة الوزير تظهر حينما يحدث عجز في الميزانية بين الدخل والمنصرف ، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافي الأمر وسد العجز .

والى جانب هذه النواحي المالية والاقتصادية ، كان الوزير ايضاً هو المختص بفن الانشاء ، وذلك — كما يقول الماوردي في الاحكام السلطانية — كي يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه . ولهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة ، لأنه هو الذي يتولى بنفسه الاشراف على ديوان الرسائل الذي سمي فيما بعد بديوان الانشاء .

كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل الخلفاء ، وان يكون دارساً كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم... الخ .

هذا وكان للوزير العباسي لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية كما كانت له دار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة .

وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين اصبح لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية ، طابع جديد لم يوجد من قبل .

يقول ابن خلدون في تحديد اختصاصات الوزير العباسي :

---

(١) نشر دي خويه De Goeje نبذا من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه (ليدن ١٨٨٩) راجع كذلك (محمد ضياء الدين الريس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ٤٢٢ — ٤٣٥) .

« فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الرجوه ، وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه ، واضيف اليه النظر فيه . ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ... فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان أيام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب ، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك » (١) .

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية كأسرة البرامكة ، وبني سهل ، وبني طاهر ، وبني الفرات وبني ابلجراح ، وبني خاقان وبني وهب ... الخ .

وحينما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين ، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة الى الوزارة ، وهنا اخذت الوزارة معنى آخر ، فبعد أن كانت وزارة تنفيذ ، اصبحت وزارة تفويض ، أي بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ ، صار الخليفة يفوض الى وزيره تصريف جميع أمور الدولة بينما بقي هو كالمحجور عليه . (٢)

ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بني بويه الفرس ، أنف هؤلاء من اتخاذ لقب وزير ، وطمعوا في ألقاب الامارة والسلطنة ، فاتخذوا لقب أمير الامراء . ثم جاء من بعدهم الاتراك السلاجقة ، فاتخذوا لقب سلطان ، وصار بيدهم – كما حدث للبويهيين من قبل – الأمور السياسية والحربية معاً .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٢) راجع الفرق بين اختصاصات وزارتي التنفيذ والتفويض في كتاب (الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٦ وما بعدها) .

أما لقب وزير ، فقد ظل باقياً ، الا أن مكانته في الدولة انحطت بعد أن زالت عنه جميع اختصاصاته ، وصار عمله محدوداً ككاتب للخليفة أو كاتم لاسراره .

الناحية الحربية :

نلاحظ أن الدولة الاموية بحكم وجودها في الشام ، وقربها من البحر الابيض المتوسط كانت سياستها متجهة نحو هذا البحر فأنشأت اسطولا بحرياً قوياً سيطر على مياهه وشل حركة الاسطول البيزنطي فيه ، كما استطاعت أن تمد سواحلها غرباً حتى شملت بلاد المغرب والاندلس وجزر البحر المتوسط . فالدولة الاموية تعتبر دولة من دول البحر المتوسط .

أما الدولة العباسية فانها ابتعدت عن البحر واتجهت نحو المشرق الذي هو سر نجاحها ، واتخذت بغداد عاصمة لها بدلا من دمشق . وقد نتج عن ذلك أن ضعف نفوذها في المغرب الاسلامي مما أدى الى استقلال تلك الأطراف الغربية عن نفوذها . فاستقلت الاندلس على يد صقر قريش عبد الرحمن الداخل الأموي . كما استقل المغرب الاقصى على يد الأدارسة العلويين . أما المغرب الاوسط فقد استقل به بنو رستم الخوارج الاباضية .

وقد اكتفى العباسيون باقامة دولة حاجزة Buffer state موالية لهم في المغرب الأدنى وهي دولة الأغالبة ، لتكون درعاً واقياً لدولتهم من أخطار الشيعة والخوارج في المغرب .

على أن نفوذ العباسيين وان كان قد ضعف في المغرب ، الا أنه قد قوي في المشرق ، فابن الاثير في كتابه الكامل يشير في حوادث سنة ١٣٤ هـ الى أن جيوش أبي مسلم الخراساني ، استطاعت أن تهزم الجيوش الصينية التي اخذت تتدخل في بلاد تركستان . وقد عادت الجيوش العباسية محملة بالغنائم من متاع الصين كالأواني الخزفية المنقوشة والديباج المزخرف ، ويبدو أن هذا هو أول ذكر

للاحتكاك الحربي بين المسلمين والصين في المراجع الاسلامية ، كذلك يلاحظ أن الحضارة الاسلامية قد اخذت تسود منذ ذلك الوقت بلاد أواسط آسيا بدلا من الحضارة الصينية [1] .

هذا ، وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية الى أربعة عصور :

العصر العباسي الأول أو دور النفوذ الفارسي (١٣٢–٢٣٢هـ/٧٥٠–٨٤٧ م)

العصر العباسي الثاني أو دور النفوذ التركي (٢٣٢–٣٣٤هـ/٨٤٧–٩٤٥ م)

العصر العباس الثالث أو دور نفوذ البويهيين الفرس (٣٣٤–٤٤٧ هـ/ ٩٤٥ – ١٠٥٥ م)

العصر العباسي الرابع أو دور النفوذ السلجوقي التركي (٤٤٧ – ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ – ١٢٥٨ م)

ويلاحظ أن هذا التقسيم وضعه المؤرخون لمجرد تسهيل دراسة تاريخ هذه الدولة ، لأن التاريخ – كما هو معروف – تيار مستمر غير مقطع .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٤٥٣ .

الفصل الثاني

العصر العباسي الاول

(١٣٢ — ٢٣٢ هـ = ٧٥٠ — ٨٤٧ م)

١ ــ أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي

٢ ــ أبو جعفر المنصور

٣ ــ محمد المهدي

٤ ــ موسى الهادي

٥ ــ هارون الرشيد

٦ ــ محمد الأمين

٧ ــ عبد الله المأمون

٩ ــ ابو اسحاق محمد المعتصم بالله



١ ـ أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي

الخليفة العباسي الأول هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي (١٣٢ـ١٣٦هـ) ويلاحظ وجود تشابه بين اسمه واسم عمه عبد الله بن علي الذي كان واليا على الشام.هذا التشابه جعل المؤرخين يلقبون الخليفة بعبد الله الأصغر ويلقبون عمه بعبد الله الأكبر . كذلك جرت العادة تلقيب هذا الخليفة بلقب السفاح بمعنى السفاك للدماء وذلك استناداً على المذابح التي حدثت في عهده ، واستناداً على العبارة التي وردت في خطابه الذي ألقاه بالكوفة حين قال :

« يا أهل الكوفة ، انتم اهل محبتنا ومنزل مودتنا ... وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير ! ! »

وقد علق المغفور له الاستاذ عبد الحميد العبادي على ذلك برأي جديد يقوم على أن هناك التباساً وقع بين اسم الخليفة وعمه ، وأن لقب السفاح المقصود به العم وليس الخليفة ، واستند في ذلك على الأدلة التالية : ـ (١)

اولا : أن كلمة سفاح من الناحية اللغوية لها عدة معان منها السفاك للدماء

(١) عبد الحميد العبادي : صور وبحوث من التاريخ الاسلامي حـ ٢ ص ٧٠ (الاسكندرية ١٩٤٨).

ومنها الكريم المعطاء الذي يسفح الدنانير ومنها الفصيح اللسان . فالكلمة التي وردت في خطاب أبي العباس لأهل الكوفة تتفق مع معنى الكرم ، فهو كريم معطاء مع اصدقائه وثائر مبير مع اعدائه ، فهو يستعمل اسلوب الترغيب والتهديد وهو أسلوب معروف عند العرب في اساليبهم الخطابية التي تتضمن المعاني المتقابلة .

ثانياً : المصادر التاريخية الأولى الموثوق بها كالطبري واليعقوبي والدينوري والجهشياري ، لا تنسب هذا اللقب الى الخليفة فهي تكتفي بالقول « امير المؤمنين أبو العباس » ولم يرد اسم السفاح في كتابات المؤرخين الا منذ القرن الرابع الهجري .

ثالثاً : في كتاب الا‹ ة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، نجد اشارة صريحة على أن السفاح هو عبد الله بن علي، فيقول : ذكروا أن أبا العباس ولّى عمه عبد الله بن علي الذي يقال له السفاح على الشام». كذلك نجد نفس الصراحة في كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف أندلسي مجهول ، فيقول : « وقتل مروان في مصر فسير برأسه الى السفاح بالشام ثم سير برأسه الى أبي العباس » ثم يضيف « وأخذ السفاح يمثل بأهل الشام فقتل النساء والصبيان » .

رابعاً : الكتب التاريخية التي تلقب أبا العباس بالسفاح كتب تعتمد أحياناً على القصص والروايات التي تستهوي القارىء مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني وكتاب مروج الذهب للمسعودي . ولذلك نلاحظ في رواياتها خلطاً واضطراباً فيما يتعلق بحوادث هذا العهد .

خامساً : اجمعت روايات المؤرخين على أن الخليفة العباس كان متصفاً بالحلم وكرم الاخلاق ويكره سفك الدماء . ولعل هذه الصفات كان لها أثر كبير في توليته العهد قبل أخيه ابي جعفر الذي كان أكبر منه سناً . وإن كان من المعروف كذلك أن أبا العباس كان من أم عربية تدعى

ريطة الحارثية (من بني الحارث) بينما كانت أم أبي جعفر أم ولد اسمها سلامه ، وهذا كان لـــه دخل ايضاً في تفضيـــل أبي العباس على أخيـــه .

حقيقة إن عصر الخليفة أبي العباس كان مليئاً بالمذابح ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لدولة ناشئة لا يزال مصيرها في كفة القدر ، غير أن هذه المذابح لم يقم بها الخليفة نفسه وانما اعمامه الذين لا يقدر على ردهم وهم :

داوود بن علي وكان يحكم الحجاز واليمن ، وسليمان بن علي وكان والياً على البصره واعمالها كالبحرين وعمان ، واسماعيل بن علي وكان والياً على الاهواز بايران ، وصالح بن علي الذي ولي مصر ، ثم عبد الله بن علي الذي كان والياً على الشام .

وهذا الاخير هو أشهر الجميع قسوة وبطشاً وسفكاً للدماء ، يؤثر عنه انه قتل ألوفاً من الأمويين وانصارهم . ويكفي ان نشير الى مذبحة نهر أبي فطرس بين فلسطين والأردن . التي قتل فيها عدداً كبيراً من أمراء الأمويين ثم فرش عليهم بساطاً وأخذ يتناول طعام الغذاء فوقه وهو يسمع أنينهم وحشرجتهم حتى اذا ما « فرغ من طعامه قال : ما أكلت أكلة أطيب من هذه الأكلة » ثم حفر بئراً وألقاهم فيه . ولم يقتصر عبد الله بن علي ، على تلك المذابح بل أمر بنبش قبور خلفاء بني أمية كي يمحو آثارهم من الوجود . وله في هذا الصدد شعر يقول فيه :

بني أميـــة قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكـــم بالأول الماضي

فكل هذه الأعمال الوحشية هي التي جعلت الناس يطلقون عليه لقب السفاح.

أما الخليفة أبو العباس فهو بريء من هذه المجازر ، والشيء الوحيد الذي يؤخذ عليه هو مسألة قتله لوزيره وداعي العباسيين بالكوفة أبي سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد . والتهمة الموجهة اليه هي محاولة نقل الخلافة مـــن العباسيين الى العلويين وهي تهمة خطيرة . على أن هذا القتل ايضاً فيه شيء من

الغموض ، وتنسبه بعض الروايات الى أبي مسلم الخراساني الذي أرسل من قتله ليلا وادعى أن الخوارج هم الذين قتلوه .

أهم الأعمال التي قام بها أبو العباس :

أولا : البحث عن عاصمة لدولته : كان الخليفة أبو العباس حينما بويع بالخلافة مقيماً بمدينة الكوفة . ويبدو أنه لم يكن مطمئناً لأهلها فنزل في مكان قريب منها عرف بهاشمية الكوفة واتخذها مقراً له ولحاشيته سنة ١٣٢ هـ . غير أنه لم يمكث فيها طويلا وانتقل في سنة ١٣٤ هـ الى مدينة الأنبار شمالي الكوفة على نهر الفرات – ويبدو أن هذه المدينة اعجبته اذ بنى بجوارها مدينة لنفسه عرفت بهاشمية الأنبار أقام بها حتى وفاته سنة ١٣٦ هـ .

ثانياً : اخماد الفتن والثورات الداخلية التي قامت ضد الحكم العباسي . ويلاحظ أن معظم هذه الثورات قامت في المناطق الغربية مثل فلسطين والشام والجزيرة التي كانت مركزاً للنفوذ العربي ثم شعرت بأن هذا النفوذ لم يلبث أن زال منها وتحول الى خراسان ويلاحظ أن هذه الثورات كانت ترفع الأعلام البيضاء وتسمى نفسها بالمبيضة كدليل على عصيان العباسيين المعروفين بالمسودة .

من هذه الثورات نذكر ثورة حبيب بن مره في اقليم البثينة بفلسطين ، وثورة أبي الورد بالشام ، وثورة ابن اسحاق بن مسلم أحد قواد مروان بن محمد ، بالجزيرة شمالي العراق . ويلاحظ أن هذه الثورات كانت اقليمية متفرقة .

بدأت في فلسطين ثم الشام ثم الجزيرة ، فكأنها كانت تقترب من مركز الخلافة بالعراق شيئاً فشيئاً ، ولكن كان ينقصها التنظيم والتضامن ولهذا استطاعت جيوش الخلافة العباسية أن تقضي عليها في الحال .

ثالثاً : من ناحية الحروب الخارجية في عهد هذا الخليفة ، نلاحظ أن الدولة البيزنطية انتهزت فرصة الاضطرابات التي صحبت قيام هذه الدولة وهاجمت المناطق الشمالية للدولة الاسلامية وهي منطقة الثغور او العواصم . فأرسل الخليفة

أبو العباس عمه عبد الله بن علي والي الشام على رأس حملة عسكرية لتأمين الحدود الاسلامية . واتجه عبد الله بن علي شمالا لتنفيذ هذه المهمة سنة ١٣٦هـ ، ولكنه في اثناء الطريق علم بموت الخليفة العباسي ، فتوقف عن التقدم وأخذ يستعد لمحاربة الخليفة الجديد أبي جعفر المنصور ، وانتزاع الخلافة منه مستغلا الجيش الذي معه لتحقيق اطماعه .

أما من جهة الشرق ، فالمعروف أن أبا مسلم الخراساني كان يحكم هذه الجهات الشرقية وقد سبقت الاشارة إلى الانتصارات التي احرزها على الجيوش الصينية في اواسط آسيا سنة ١٣٤هـ .

على أن هذه الانتصارات التي احرزها أبو مسلم لم تزد الخليفة العباسي الا خوفاً وارتياباً منه بسبب ازدياد نفوذه واشتداد بأسه . والواقع أن أبا مسلم كان يحس في قرارة نفسه بأنه صاحب الفضل الأول في قيام الدولة العباسية وانه لولاه لما قامت لهم دعوة. هذا فضلاً عن أن الخراسانيين كانوا يرون فيه بطلا قومياً ويأتمرون بأمره لهذا كان كثيراً ما يخالف أوامر الخليفة ويعترض على نقل السلطة من أيدي القواد إلى أعمام الخليفة ، وكان أبو جعفر (المنصور) يشعر بخطورة أبي مسلم اكثر من أخيه الخليفة ، ولهذا أشار عليه بقتله وقال له « لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً»ولكن الخليفة رفض أن يتعرض له بسوء خوفاً من المتاعب التي قد تنجم عن قتله لا سيما وأن الدولة لا زالت في حاجة إلى مجهودات أبي مسلم وإلى جنوده الخراسانيين الذين كانوا في ذلك الوقت دعامة الدولة العباسية .

على أن سياسة التريث هذه ، لم تمنع أبا العباس من أن يعمل على مضايقة أبي مسلم والحد من نفوذه ، فيروى على سبيل المثال أن أبا مسلم خرج في سنة ١٣٦هـ لتأدية فريضة الحج مصطحباً معه عشرة آلاف جندي فأمره الخليفة باصطحاب ألف فقط كما أوعز إلى اخيه أبي جعفر بأن يحج في نفس السنة كي تكون له امارة الحج بدلا من أبي مسلم . وقد استاء أبو مسلم من هذا التصرف اذ علق على ذلك بقوله : « أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ؟ » .

هذه هي أهم الاحداث التي وقعت في عهد الخليفة ابي العباس وهي كلها اعمال تدعيم للدولة الناشئة . وتوفي ابو العباس سنة ١٣٦هـ وخلفه أخوه أبو جعفر .

٢ ـ أبو جعفر المنصور

(١٣٦ ـ ١٥٨ هـ = ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م)

ولي بعد أخيه أبي العباس وكانت الدولة لا تزال مضطربة ولم تتوطد أركانها بعد غير أن المنصور استطاع أن يدعم أركانها بفضل تجاربه وحزمه ودهائه وطول مدة حكمه بحيث يمكن القول انه المؤسس الحقيقي للدولة العباسية . ونستطيع ان نلخص اعماله في النقاط التالية :

أولاً : التخلص من عمه عبدالله بن علي :

كان عليه أولا أن يحارب عمه عبدالله بن علي الذي خرج عن طاعته وبايع لنفسه بالخلافة في مدينة حران بالجزيرة معتمداً على الجيش الذي تحت قيادته . وكان هذا الجيش قد أعد في بادىء الأمر لغزو بلاد الروم كما سبق ان بينا ، ولكن عبدالله بن علي أراد أن يستخدمه في تحقيق أطماعه في الخلافة مدعياً أن الخليفة أبا العباس أقامه ولياً لعهده حينما أرسله لقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

ولقد تصرف المنصور في معالجة هذا الخطر تصرفاً حكيماً دل على أنه لا يحكم العواطف في المسائل السياسية . فحقده على أبي مسلم لم يمنعه من الاستعانة به في القضاء على عمه عبدالله بن علي ، اذ لا يفل الحديد الا الحديد كما يقال . ثم ان الجيش الذي كان تحت امرة عمه كان يضم عدداً كبيراً من الخراسانيين ، وكان المنصور يأمل في أن يستميلهم عن طريق أبي مسلم الخراساني . يروي الطبري أن أبا مسلم قال للخليفة المنصور حين أبدى مخاوفه من حركة عمه : « أنا اكفيك أمره ان شاء الله ، ان عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصونني ».

وبدأت الحرب بأن خرج أبو مسلم من العراق متظاهراً بأنه يريد الشام وأرسل خطاباً إلى عبدالله بن علي يخبره فيه بأن الخليفة قد ولاه على الشام وأنه لم يأمره بقتاله . هذه الحيلة لم تدخل على عبدالله بن علي الذي كان متحصناً بمدينة نصيبين شمال العراق ، وهي مركز استراتيجي هام من الناحية الحربية لأنها تقع على الطريق المؤدي إلى الشام . غير أن الجنود الشاميين في جيش عبدالله بن علي ، خافوا على أهليهم في الشام من أبي مسلم وجنوده الخراسانية ، فألحوا على عبدالله بن علي بالسير إلى الشام وترك نصيبين حتى استجاب لطلبهم . وما كاد عبدالله يترك نصيبين حتى تحول ابو مسلم إلى المدينة واستولى عليها لأهميتها الحربية .

وهنا يرى عبدالله بن علي على أنه لا مفر من قتال أبي مسلم . ويقال انه لكي يتجنب خطر انضمام الخراسانيين الذين في جيشه إلى ابي مسلم ، أمر بقتلهم جميعاً مما ادى إلى اضعاف جيشه .

ودامت الحرب بين أبي مسلم وعبدالله بن علي حوالي ستة اشهر تمكن فيها أبو مسلم من الانتصار على خصمه سنة ١٣٧هـ . وفر عبدالله بن علي إلى اخيه سليمان والي البصرة واختفى عنده مدة ثم سلمه سليمان إلى المنصور سنة ١٣٩هـ بعد ان أخذ له اماناً من الخليفة ، ولكن المنصور سجنه ثم تخلص منه سنة ١٤٧هـ. وهكذا تخلص المنصور من منافسه الأول .

ثانياً : التخلص من أبي مسلم الخراساني :

ازداد طغيان أبي مسلم بعد انتصاره على عبدالله بن علي لدرجة أنه ـ كما يقول الطبري ـ « كان يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين ، فيقرأه ثم يلوي شدقه على سبيل السخرية منه » .

ولقد أراد المنصور أن يشعره بأنه احد عماله فأرسل اليه رسولا ليحصي عليه الغنائم التي غنمها في الحرب مع عمه عبدالله بن علي . فغضب ابو مسلم وقال « أؤتمن على الأرواح ولا أؤتمن على الأموال ؟ » وتناول لسانه ابا جعفر ، وأراد قتل الرسول لولا تدخل أصحابه .

ثم خرج أبو مسلم من الجزيرة غاضباً متجهاً إلى خراسان . ويبدو أنه كان عازماً على الخلاف والعصيان بدليل أنه لم يمر على الخليفة بالعراق لاستئذانه في العودة كما جرت العادة بذلك .

ورأى المنصور أن عودة أبي مسلم إلى خراسان معناه اعتصامه بأهلها واستقلاله بحكمها ، فيصعب بذلك اخضاعه والتغلب عليه . لهذا حاول المنصور صرفه عن خراسان كي يبعده عن منطقة نفوذه ، وكتب اليه : قد وليتك الشام ومصر ، فهي خير لك من خراسان ، فارسل إلى مصر من احببت ، وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين » .

ولا شك ان المنصور أراد من وراء هذا التعيين أن يضعف من مركز أبي مسلم لكره اهل الشام للخراسانيين فضلاً عن ابعاده عن انصاره الخراسانيين وجعله بالقرب من مركز الخلافة فتسهل بذلك مراقبته .

غير ان ابا مسلم فطن لغرض المنصور اذ علق على ذلك بقوله : « هو يوليني الشام ومصر ، وخراسان لي ! ! » . ثم واصل سيره نحو خراسان . عندئذ لجأ المنصور إلى سياسة اللين وأساليب الدهاء فأخذ يؤمنه ويستميله ويسترضيه كما أرسل اليه من يخوفه من مغبة معصية الامام والرجوع دون اذنه . وما زال المنصور يستعمل سياسة الترغيب والتهديد حتى انخدع أبو مسلم وذهب للقائه بمدينة المدائن التي

كان قد انتقل اليها من هاشمية الكوفة . فأحسن المنصور استقباله في أول الأمر ثم واجهه بالتهم المنسوبة اليه . وقد اورد الطبري نص هذه المحاورة التي دارت بين الرجلين ، وهي في مجموعها تدل على عداوة قديمة بينهما ، الا انها تتضمن في الوقت نفسه اتهاماً خطيراً لأبي مسلم بمحاولة الوصول إلى الخلافة عن طريق ادعاء النسب العباسي اذ يقول له المنصور :

« ألست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك ، والكاتب إليّ تخطب أمينة بنت علي ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله بن عباس ؟ لقد ارتقيت — لا أم لك — مرتقى صعباً ... »

فقال له أبو مسلم : ليس هذا يقال لي بعد بلائي وما كان مني ! . فقال له المنصور : والله لو كانت أمة مكانك لأجزت ناحيتها ، انما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا . »

وبعد أن انتهى المنصور من مواجهة خصمه بالتهم المنسوبة اليه ، أمر رجاله المسلحين خلف الستور بقتله في مجلسه (سنة ١٣٧هـ) فتخلص بذلك من اكبر خطر مباشر على الدولة باعتراف المنصور نفسه ، اذ يروى أنه قال لابن أخيه عيسى بن موسى حينما ابدى احتجاجاً على الطريقة التي قتل بها ابو مسلم :

« والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه ، وهل كان لكم ملك في حياته ؟ » . [١]

اضطربت خراسان جميعها لمقتل أبي مسلم . وظهرت من جراء ذلك فرق دينية غريبة عن الاسلام كان أصحابها يظهرون الاسلام ويبطنون دياناتهم المجوسية القديمة . فلما قتل ابو مسلم ، اعلنوا الثورة واتخذوا من مأساته وسيلة لاحياء دياناتهم القديمة واعتبروه رمزاً لحركاتهم الدينية الهدامة .

ومن بين هذه الحركات نذكر الفرقة المعروفة بالمسلمية نسبة إلى أبي مسلم ،

---

(١) راجع (الطبري تاريخ الرسل والأمم والملوك — ٦ ص ١٣٨)

وكانت مبادؤها هي مبادىء الخُرَّمية والمزدكية القديمة (1). وتزعّم حركة المسلمية رجل من صنائع ابي مسلم يدعى سنباذ بدأ ثورته في نيسابور سنة ١٣٧هـ ونادى بإمامة ابي مسلم وقال بانه لم يمت ولن يموت حتى يظهر ويملأ الأرض عدلا ورحمة ويبيد دولة المجوس ويزيل ملك العرب . واضطر المنصور ان يرسل اليه جيشاً كبيراً تمكن من هزيمته وقتله بنواحي طابرستان بعد سبعين يوماً من قيام حركته .

حركة أخرى قامت بعد مقتل أبي مسلم وهي حركة الراوندية نسبة إلى قرية راوند بالقرب من أصفهان . واتباعها يعتقدون في تناسخ الأرواح ويقولون ان روح آدم حلت في الأنبياء واحداً بعد الآخر إلى أن حلت في أبي مسلم ، وأن روح الله حلت في أبي جعفر المنصور . وقد سافر بعضهم من خراسان إلى هاشمية الكوفة سنة ١٤١هـ وأخذوا يطوفون بقصر الخليفة وينادون المنصور بقولهم أنت أنت أي أنت ربنا . وقد حاربهم المنصور بشدة وعنف ، وأنشأ منذ ذلك الوقت حرساً خاصاً من سلاح الفرسان يتناوبون في حراسة القصر الخليفي ليلاً ونهاراً خوفاً من اي هجوم مفاجىء يقع عليه .

وهكذا نرى مما تقدم أن الخليفة المنصور استطاع أن يقضي على هذه الثورات ويقتل زعماءها ، الا أنه مع ذلك لم يقطع دابرها ولم يقض على مبادئها ، اذ نراها تظهر بعد ذلك من وقت لآخر .

وكيفما كان الأمر فان ظهور هذه الحركات بعد مقتل أبي مسلم يدل على مدى النفوذ الذي تمتع به ابو مسلم في تلك الجهات .

ثالثاً : التغلب على ثورة العلويين :

تزعم هذه الثورة العلوية محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن

(1) ذكر نظام الملك في كتابه سياسة نامه أن خرم هي زوجة مزدك ، هربت بعد مقتل زوجها سنة ٥٣١ م من المدائن إلى الري واستمرت تبشر بمبادىء زوجها التي تقوم على شيوعية الأموال والنساء كوسيلة لازالة الخلافات بين الناس ، فسمي أتباعها بالمزدكية نسبة إلى زوجها وبالخرمية تبعا لأسمها ، واستمر هذا المذهب حيا في خراسان حتى مجيء ابي مسلم الذي نجح في ضم هذه العناصر إلى دعوة بني العباس .

أبي طالب المعروف بالنفس الزكية (اي الطاهر من الذنوب) واشترك معه اخوه ابراهيم .

ونلاحظ أن القائمين بهذه الثورة هم الفرع الحسني للعلويين ، أما الفرع الحسيني ويمثله في ذلك الوقت الامام جعفر الصادق ، فانه لم يشترك في الثورة ضد العباسيين بل اتخذ سياسة التريث (التقية) إلى أن يأتي الوقت المناسب . ولهذا كان الامام جعفر الصادق موضع اطراء المنصور في الخطابات التي تبادلها مع محمد النفس الزكية .

وكان محمد النفس الزكية يرى أنه أحق بالخلافة من العباسيين استناداً إلى حقه الشرعي بصفته حفيد الحسن بن علي بن ابي طالب ، واستناداً إلى مبايعه الهاشميين له بالخلافة أواخر الدولة الأموية .

وكان المنصور يشك في نوايا محمد ويخشى طموحه في الخلافة ، وقد ازدادت شكوكه عندما حج سنة ١٤٠هـ وتخلف محمد واخوه وابراهيم عن المثول بين يديه ، وكانا يقيمان في الحجاز في مكان غير معروف .

لهذا اهتم المنصور بالبحث عنهما واستطلاع أخبارهما ، فأوعز إلى ولاته في الحجاز بمراقبة بني الحسن والتضييق عليهما . وحينما حج المنصور سنة ١٤٤هـ قبض على آل الحسن جميعاً وأرسلهم إلى العراق وسجنهم بالكوفة لأنهم يتسترون على المكان الذي يوجد فيه محمد النفس الزكية .

ورأى المنصور بعد ذلك أن يستعمل أساليب الدهاء ليعجل من ظهور محمد ومن قيامه بثورته قبل أن يستفحل خطره . فدس له عيوناً يتظاهرون بأنهم اتباعه ويوهمونه بأن دعوته قد عمت الاقطار . كذلك أوعز المنصور إلى قواده بأن يكتبوا إلى محمد ويخبرونه بأنهم معه ويدعونه إلى الظهور .

وانخدع محمد بهذه الحيلة اذ كان يقول لأتباعه : « لو التقينا مال إليّ القواد كلهم » .[1]

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٥٣١ .

وفي أول رجب سنة ١٤٥هـ خرج محمد النفس الزكية من مكمنه وأعلن عن ثورته في المدينة المنورة ، وكان متفقاً مع أخيه ابراهيم على أن يثور هو الآخر وفي نفس الوقت بمدينة البصرة في جنوب العراق حتى يقع المنصور بين نارين .

ولكن حدث أن مرض ابراهيم بالجدري فتأخرت ثورته مدة شهرين مما أتاح الفرصة للمنصور كي يقضي على الأخوين واحداً بعد الآخر .

اتخذت الحرب صفة كلامية في بادىء الأمر وذلك عن طريق القاء الخطب تبادل الرسائل واستخدام أساليب الدعاية المختلفة ، حيث أخذ كل فريق وشرح وجهة نظره وحقه في الخلافة ويتفاخر بنسبه وحسبه . وقد اورد الطبري بنصوص هذه الرسائل في تاريخه .

وحاول المنصور استعمال طرق اللين والمداراة فدعا محمدا إلى حل الخلاف حلا سليماً واعطاه امانا على نفسه وولده واخوته ومن بايعه ، ووعده بانزاله حيث شاء من البلاد ، كما عرض عليه مبلغاً كبيراً من المال . وقد رد محمد على المنصور بأمان مثله ان هو دخل في بيعته لأنه احق منه بالخلافة ثم اتهم المنصور بأنه رجل لا أمان له مطلقاً قال له : « وأنا اعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي ... وأنا أولى منك وأوفى بالعهد لأنك اعطيتني من العهد والأمان ما اعطيته رجالا قبلي ، فأي الأمانات تعطيني ، أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبدالله بن علي ، أم أمان أبي مسلم ! ؟ » .

وبعد فشل هذه المراسلات أرسل المنصور ولي عهده وابن اخيه عيسى بن موسى على رأس جيش كبير إلى المدينة . ويلاحظ أن المنصور حرص على جعل قيادة الجيش لأحد الأمراء البارزين في الأسرة الهاشمية حتى يكون له تأثير قوي في رفع روح الجنود المعنوية .

وقامت الحرب بين الفريقين وكان وضع محمد في الحجاز سيئاً للغاية من الناحية الاستراتيجية لان الحجاز قطر قاحل فقير في غلاته ورجاله وسلاحه . يضاف إلى ذلك أن المنصور قطع عنه الأقوات والمؤن الواردة اليه من الشام ومصر

وطمر خليج امير المؤمنين في مصر (وهي القناة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر لامداد الحجاز بالغلال) . هذا إلى جانب أن محمداً حفر حول المدينة خندقاً اقتداء برسول الله ، فأتم بذلك الحصار الاقتصادي عليه . فلما وصل الجيش العباسي تخلى عن محمد كثير من اتباعه فضعفت قوته وانتهى بهزيمته وقتله وارسال رأسه إلى المنصور في منتصف رمضان سنة ١٤٥هـ .

ثم تحول القائد عيسى بن موسى بعد ذلك إلى قتال ابراهيم في جنوب العراق . وهناك عند قرية باخمري بالقرب من الكوفة التقى الفريقان في معركة حاسمة هزم فيها الجيش العلوي وقتل ابراهيم في أواخر ذي القعدة سنة ١٤٥هـ ولذا سمي بشهيد باخمري .

هذا وتنبغي الاشارة هنا إلى أن الامام مالك بن أنس امام دار الهجرة (المدنية) اتهم بالميل إلى ثورة محمد النفس الزكية وأنه كان يفتي أهل المدينة خلال هذه الثورة بأنه ليس على مكره يمين أو طلاق . وهو يقصد بذلك أن من بايع ابا جعفر المنصور مكرها، فهو في حل من بيعته وله ان يبايع محمداً النفس الزكية . وقد لحق مالك أذى كبير من جراء ذلك اذ ضربه العباسيون بالسياط ومنعوه من الخوض في هذا الحديث . وعلى الرغم من ان الخليفة المنصور تبرأ من هذا العمل وألقى تبعته على والي المدينة جعفر بن علي ، فان هذا الحادث جعل لمالك بن أنس ومذهبه المالكي مكانه مرموقة في بلاد المغرب والاندلس . فيروي المؤرخون ان كره مالك للعباسيين كان من الأسباب التي جعلت الأمويين في الاندلس يعتنقون المذهب المالكي ويجعلونه المذهب الرسمي لدولتهم وذلك لعدائهم الشديد للعباسيين . كذلك يروي أن الامام ادريس بن عبدالله . — اخو محمد النفس الزكية — الذي فر إلى المغرب الأقصى وأسس دولة الأدارسة هناك ، علق على حادثة الامام مالك بقوله « نحن احق باتباع مذهبه وقراءة كتابة الموطأ ، وأمر بذلك في جميع عمالته » .

وكيفما كان الأمر فانه يبدو أن الخليفة المنصور قد شعر في سنة ١٤٥هـ

وهي السنة التي انتصر فيها على جميع الثورات ، أنه قد صار خليفة حقاً بدون منازع ولهذا عمد إلى تخليد هذا الانتصار فلقب نفسه بالمنصور في تلك السنة .

رابعاً : تأسيس مدينة بغداد [1] :

سبق أن قلنا ان العصر العباس الأول كان عصراً فارسياً في تقاليده ونظمه الادارية وفي حياته الاجتماعية . لهذا كان من الطبيعي ان تكون العاصمة التي اتخذها العباسيون لها نفس هذا الاتجاه الفارسي ، فلم تعد العواصم الاسلامية القديمة صالحة لهذا الاتجاه الجديد : فمدينة دمشق لا تستطيع أن تقوم بهذا الغرض لأنها كانت عاصمة الأمويين من جهة ولأنها مدينة عربية وفي بيئة عربية من جهة أخرى ، والعباسيون اعتمدوا على الفرس ولم يعتمدوا على العرب في قيام دولتهم .

كذلك لم يستقر العباسيون في مكة أو المدينة لأن الحجاز في ذلك الوقت قطر فقير لا يتناسب مع مكانة الامبراطورية الاسلامية آنذاك ، والانسان بطبعه يترك البوادي ليعيش في الحواضر .

أما الكوفة فيغلب عليها التشيع لعلي بن أبي طالب وأبنائه ، والعباسيون لا يستطيعون الاقامة في بلد لا يميل اهله اليهم . وقد رأينا أن الخليفة العباسي الأول ، ابا العباس لم يستطع البقاء في الكوفة وانتقل إلى هاشمية الكوفة ثم انتقل منها إلى هاشمية الأنبار ثم جاء ابو جعفر المنصور فأقام أول الأمر في هاشمية الكوفة ثم انتقل إلى المدائن . ويؤثر عنه انه سب اهل الكوفة بعد القضاء على ثورة إبراهيم العلوي شهيد باخمري فقال : « فخدعة أهل الكوفة ، اهل الشقاق والنفاق والفتن ، أهل هذه المدرة السوداء » .

اما مدينة بغداد فتمتاز بوقوعها على حدود الاقليمين العربي والفارسي اي على مقربة من البيئة الفارسية التي يعتز بها العباسيون . كذلك تمتاز بأهميتها الاقتصادية كمركز تجاري لوقوعها على الطرق والممرات البرية والبحرية المتصلة

(١) انظر الرسم التخطيطي لمدينة بغداد في نهاية هذا القسم الخاص بالتاريخ العباسي .

بقية انحاء المملكة . وتمتاز ايضاً بخصوبة أرضها لوقوعها بين نهري دجلة والفرات ، فنهر دجلة يرويها مباشرة لوقوعها على ضفته الغربية كذلك يتصل بها نهر الفرات عن طريق قنواته المتعددة . هذا إلى جانب حصانة موقعها من الناحية الحربية فيروي اليعقوبي أنه قيل للمنصور بصدد أهمية هذا المكان : « وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر أو قنطرة ، فاذا قطعت الجسور وخربت القناطر لم يصل اليك عدوك » .

ويلاحظ أن كلمة جسر في اللغة تطلق على السفن التي يشد بعضها ببعض بالسلاسل أو الحبال ، وتمتد في مجرى النهر حتى الشاطىء الآخر ، وتغطي بألواح من الخشب كي يعبر عليها الناس والدواب . فالجسر على هذا الوضع متحرك اذ يمكن قطعه ولتح بعض اجزائه لمرور السفن ثم يعاد شده من جديد مثل الكباري في الوقت الحاضر . اما القناطر فهي أبنية ثابتة بعرض النهر . وهذا يفسر عبارة اليعقوبي السالفة الذكر حينما نص فيها على قطع الجسر وتخريب أو هدم القنطرة .

وموضع بغداد معروف من قديم وكانت تقام فيه اسواق موسمية يجتمع فيها التجار ، وقد وجدت هناك نقوش أشورية تفيد بذلك . كذلك كان الحال بالنسبة لاسم بغداد الذي اجمعت الروايات على أنه اسم فارسي موجود من قديم وان كان قد اختلف في اشتقاقه ومعناه . ومن المرجح انه يتكون من كلمتين فارسيتين : بغ ومعناها الله ، وداد ومعناها عطية أي عطية الله . وكل هذا يثبت وجود بلدة قديمة في هذا الموضع .

ولما بنى المنصور هذه المدينة ، أطلق عليها المسلمون أسماء كثيرة ، فقالوا مدينة المنصور نسبة إلى مؤسسها . والمدينة المدورة نسبة إلى شكلها الدائري ، وسميت بمدينة السلام أو دار السلام تشبيهاً لها بالجنة فضلا عن أن السلام اسم من اسماء الله سبحانه وتعالى كذلك يلاحظ أن نهر دجلة كان يسمى بنهر السلام ايضاً وسموها كذلك بالزوراء لأن مداخلها كانت مزورة أو منحنية على شكل

دهاليز أو منعطفات ملتوية لأغراض دفاعية . Bent Entrances [1] . على أن كل هذه الأسماء لم تدم طويلاً اذ غلب عليها الاسم الفارسي القديم بغداد .

وقد استغرق بناء بغداد أربعة أعوام تقريباً من ١٤٥ إلى ١٤٩ هـ (٧٦٢ — ٧٦٦م) وقبل التخطيط أحضر المنصور المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والمساحة وتقسيم الأرض كما جلب اليها الصناع والفعلة من الشام والموصل والبصرة والكوفة وايران . ويروي المسعودي أنه اشتغل في بناء المدينة خمسون ألف عامل يومياً ، وانه انفق عليها ثمانية عشر مليوناً من الدينارات . وقد جعل المنصور على العمال عدداً من المراقبين كان احدهم الامام ابا حنيفة النعمان بن ثابت الذي عهد اليه بعدّ الطوب اللبن والآجر ، فابتكر طريقة لعده بالقضبة توفيراً للجهد والوقت ، فاستفاد الناس من ذلك . [2] .

وروى الطبري أن المنصور أراد أن يعرف رسم المدينة قبل بنائها ، فأمر بأن تخط طرقها بالرماد ، وأن يوضع على تلك الخطوط كرات من القطن مبللة بالنفط وتشعل فيها النار ، ثم نظر اليها والنار مشتعلة فيها فبانت له خططها وأقسامها .

ولقد بنيت بغداد على شكل دائري وهو اتجاه جديد في فن بناء المدن الاسلامية لأن معظم المدن الاسلامية كانت اما مستطيلة كالفسطاط أو مربعة كالقاهرة أو بيضاوية كصنعاء . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها ، او لعل المنصور قد تأثر بهندسة بعض العواصم الفارسية القديمة مثل مدينة همذان مثلاً . المهم هنا أن خطة بناء بغداد تعتبر ظاهرة معمارية جديدة في الفن المعماري الاسلامي .

ويروي الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد أن من مزية الاستدارة وجود مركز المدينة على مسافات متساوية من أجزاء الدائرة كما أنه يعرض كل أجزاء المدينة للشمس والهواء .

---

(١) ناجي معروف : تخطيط بغداد ص ١١ ، ياقوت : معجم البلدان مادة زوراء .
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد حـ ١ ص ٧١ .

كانت المدينة تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وكانت مدرجة الارتفاع نحو الداخل . واذا تتبعنا أجزاء المدينة من الخارج إلى الداخل نلاحظ ما يأتي : —

١ — خندق خارجي تجري فيه المياه عرضة ستة أمتار .

٢ — سور خارجي من الطوب اللبن الكبير الحجم ، يبلغ طول اللبنة الواحدة حوالي ذراع ووزنها نحو ٢٠٠ رطل .

٣ — فراغ كبير عرضه ٣١ متراً به بعض المزارع والاشجار ويعرف بالفصيل الأول .

٤ — سور آخر داخلي يمتاز عن السور الأول بالسمك والارتفاع وبأبراج الحراسة والمراقبة فهو يعتبر السور الأساسي للمدينة . ويقال ان ارتفاعه كان حوالي ٩٠ قدماً وان عرض قاعدته ١٠٥ أقدام ويقل سمكه تدريجياً إلى أن يصبح في اعلاه ٣٧ قدماً .

٥ — فراغ ثان فيه السجن ومساكن الحاشية والقواد ، وهو الفصيل الثاني .

٦ — سور ثالث يحيط بالميدان .

٧ — الميدان او الرحبة في الوسط .

وفي قلب هذا الميدان أو هذه الرحبة بنى الخليفة قصره المسمى بقصر الذهب أو قصر باب الذهب وبنى فوقه قبة خضراء عالية ترى من اطراف بغداد وفي أعلاها تمثال لفارس بيده رمح يتحرك في اتجاه الرمح . وكانت العامة يعتقدون انه يتحرك نحو اعداء الدولة . وبجوار القصر بنى الخليفة المسجد الجامع كما اقام على جوانب الميدان قصور الامراء ودواوين الحكومة المختلفة مثل بيت المال وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الجند وخزانة السلاح ... الخ . وكان المنصور لا يسمح لأحد بالدخول إلى الرحبة الا راجلاً .

وكان في كل سور من أسوار المدينة الثلاثة ، أربعة أبواب حديدية مزدوجة ،

أي أن كل باب منها عبارة عن بابين ، باب خارجي وآخر داخلي ، وبينهما دهليز ورحبة . والابواب الخارجية مزورة عن الأبواب الداخلية ، أي ليست على سمتها كي تكون المداخل إلى المدينة منحنية فيسهل الدفاع عنها . وكان لا يغلق الباب الواحد منها ولا يفتحه إلا جماعة من الرجال ، فيدخل الفارس بالعلم ، والرامح بالرمح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثني الرمح .

وكانت هذه الأبواب تؤدي إلى الجهات الرئيسية الأربع في العالم الاسلامي وهي : —

١ — باب خراسان في الشمال الشرقي وقد بنى المنصور خارجه قصراً على الدجلة سماه قصر الخلد .

٢ — باب الشام في الشمال الغربي

٣ — باب البصرة في الجنوب الشرقي

٤ — باب الكوفة في الجنوب الغربي [١]

وهذه الأبواب كانت تفضي إلى قلب الميدان عن طريق أربع طرق رئيسية . أما الأسواق فقد اقيمت في بادىء الأمر على جوانب هذه الطرق ، وقد أدى ذلك إلى اختلاط التجار القادمين من البلاد الأخرى بسكان المدينة ، وكان هذا موضع انتقاد احد بطارقة الروم حينما زار بغداد في عهد المنصور اذ عاب على المدينة سكنى التجار والسوقة فيها ، لأن كثيراً من الجواسيس يتنكرون في زي التجار ثم يندسون في داخل المدينة فيعرفون اسرارها وأخبارها وينصرفون دون أن يفطن اليهم أحد بل وربما استطاع بعضهم أن يفتح ابواب المدينة لرفاقه ليلا وفي هذا خطر على الخليفة . [٢]

(١) اليعقوبي : البلدان ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد حـ ١ ص ٧٤ ، ناجي معروف : تخطيط بغداد ص ١٣ .

(٢) الطبري : نفس المرجع حـ ٦ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

ولقد أدرك المنصور قيمة هذا النقد ، فبنى في جنوب المدينة ربض الكرخ المعروف حتى اليوم ، ونقل اليه الأسواق من المدينة كما بنى فيه مسجداً خاصاً كي يصلي فيه أهل الأسواق حتى لا يدخلوا المدينة . وقد وصف اليعقوبي اسواق الكرخ بقوله : « ولكل تجارة شوارع وحوانيت معلومة ، ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ، ولا يباع صنف مع غير صنفه ، ولا يختلط اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم ، فكل أهل تجارة منفردون بتجارتهم ، وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم » . [1]

لم يكتف المنصور ببناء بغداد بل بنى في عام ١٥١ هـ مدينة اخرى باسم الرصافة أو رصافة بغداد أو بغداد الشرقية لأنها تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة في مقابل بغداد الغربية ثم ربط بين المدينتين بجسور ثلاثة على نهر دجلة . ولقد بنيت الرصافة في الأصل لتكون معسكراً للجيش الخراساني الذي يقوده ابنه المهدي ثم ما لبثت الرصافة أن نمت وازدهرت حتى فاقت بغداد حسناً واتساعاً وفي ذلك يقول الشاعر العباس علي بن الجهم :

عيون المهابين الرصافـة والجسر
جلبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

امتد العمران بين بغداد الغربية والشرقية واختفى الخندق المحيط بها فصارت بغداد ممتدة على جانبي نهر دجلة شرقاً وغرباً ويقال ان عدد سكانها في عهد هارون الرشيد بلغ اكثر من مليون نسمة ، وهكذا تحولت من مدينة خاصة للخليفة وحاشيته إلى مدينة عامة لسكنى الرعية .

وفي العصر العباسي الثاني انتقلت الخلافة العباسية إلى القسم الشرقي من المدينة أي بغداد الشرقية وكانت النتيجة أن أخذت بغداد الشرقية تمتد جنوباً حيث انتشرت مزارع الخلفاء والأمراء ، وانتقل الناس إلى الجنوب كي يستقروا حول هذه الضياع والقصور ، فنتج من ذلك بغداد الحالية وقد تم ذلك في القرن

(١) اليعقوبي : البلدان ص ٢٣٩ .

الخامس الهجري حينما احاط الخليفة العباس المستظهر بغداد الحديثة بسور لا يزال باقياً إلى اليوم . اما بغداد القديمة الغربية والشرقية فقد زالت معالمها بسبب الفيضانات والاضطرابات والفتن خصوصاً وأن مبانيها كانت من الطوب اللبن . ولم يبق من معالمها الا القليل مثل سوق الكرخ .

فموقع بغداد الحالية اذن هو امتداد لبغداد الشرقية نحو الجنوب .

بغداد في العصور الاسلامية الوسطى كانت عاصمة العالم الاسلامي كله ، ومقرا للخلافة العباسية صاحبة السلطان الشرعي على جميع الأقطار الاسلامية ، فهي لم تكن مثل الفسطاط أو دمشق أو قرطبة عاصمة قطر بعينه ، بل كانت مدينة دولية Cosmopolite . ولهذا اكتسبت صفة عالمية ، وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس والملل والنحل ، اسلامية وغير اسلامية ، فهناك الهنود والفرس والفرنج والصينيون وغيرهم . وكل هذه العناصر لم تسكن بغداد بأشخاصها فقط بل بثقافاتها وتجارتها وفنها وعلمها ، فأصبحت بغداد المدينة الممتازة على غيرها من المدن Cité par Excellence في العلوم والصناعات والفنون المختلفة . وهذه الصفة العالمية التي اتصفت بها بغداد جعلت انتاجها أيضا يكتسب صفة عامة لا صفة محلية ، فقصص ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني وتاريخ الطبري ، كلها تقدم لنا موضوعات عامة تمثل الحياة الاسلامية بمختلف مظاهرها . كذلك ازدهر فن الموسيقى والغناء في بغداد في هذا العصر العباسي الأول على يد اسحاق الموصلي وتلميذه زرياب الذي هاجر الى المغرب والاندلس ونشر هناك أصول الموسيقى الشرقية التي ما زالت اصداؤها تسمع حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس تحت اسم الموسيقى الأندلسية . وكل هذا يدل على أن الحضارة المزدهرة التي اختصت بها بغداد قد غذت الروح الاسلامية في مختلف الاقطار غذاء تاما . ولا شك ان المنصور ببنائه لمدينة بغداد قد سجل عملا خالدا على مر العصور .

خامساً : سياسة المنصور الخارجية :

علاقته بالدولة البيزنطية : تتركز سياسة المنصور الخارجية أولا في الخطر

المجاور لبلاده وهو الخطر البيزنطي ، وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة انشغال العباسيين بمشاكلهم وثوراتهم الداخلية ، وأخذوا يغيرون بقيادة الامبراطور قسطنطين الخامس على ثغور المسلمين الممتدة من أعالي الفرات شرقا الى البحر الأبيض المتوسط غربا . فدمر حصونها وعاث فيها فسادا وتخريبا .

لهذا كان أول عمل اهتم به المنصور هو اعادة تحصين تلك الثغور وتنظيم وسائل الدفاع فيها . وكانت هذه الثغور تنقسم الى منطقتين رئيسيتين :

١ ــ منطقة الثغور الجزرية وهي التي خصصت للدفاع عن الجزيرة أو شمال العراق ، ومن اهم حصونها ملطية والمصيصة ومرعش .

٢ ــ منطقة الثغور الشامية وتقع غرب الثغور الجزرية وقد خصصت للدفاع عن الشام ومن أهم حصونها طرسوس وأطنة .

فالمنصور حصن هذه المناطق ، وجعل لها حكما اداريا مستقلا ، وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين ومنحهم الاقطاعات والمزارع وبنى لهم البيوت والاصطبلات ، انفق فيهم الأموال عن سعة ، كما وضع لهم نظاما يسيرون عليه في غاراتهم على الأراضي البيزنطية وهو نظام الصوائف والشواتي .

وقد امتازت منطقة الثغور الشامية بأن الحملات التي تخرج منها كانت برية وبحرية في آن واحد . وقد لعبت اساطيل الشام ومصر دورا مشتركا هاما في غزوات هذه المنطقة . (١)

وهكذا استطاع المنصور أن يضع حدا لمطامع البيزنطيين وعدوانهم بفضل هذا النظام الثغري الذي وضع نواته والذي ازدهر في عهد خلفائه من بعده .

سياسته نحو المغرب والأندلس :

المسألة الثانية التي اهتم بها المنصور في سياسته الخارجية هي محاولة استعادة

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩١ – ١٩٢ ، حسن محمود ، احمد الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٥٦ وما بعدها .

المغرب والأندلس الى الخلافة العباسية كما كانت في عهد بني أمية . لقد كانت الدعوة في المغرب والاندلس منذ الفتح العربي لتلك البلاد قائمة لخلافة دمشق الاموية التي ما كاد ينتهي أجلها سنة ١٣٢ هـ حتّى سيطرت على تلك البلاد دويلات وخلافات اسلامية مستقلة تدين بمذاهب مختلفة .

ففي عهد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور قامت في المغرب دولتان خارجيتا احداهما تدين بالمذهب الصفري [1] ، وهي دولة بني مدرار أو بني واسول الصفرية، التي قامت في منطقة سجلماسة (تافيلالت الحالية) في جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ(٧٥٧م). ومؤسسها كان سودانيا أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الصفري . أما تسميتها بدولة بني مدرار أو بني واسول فنسبة الى اسم ثالث ملوكها أبي القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار ، والذي استمر ملك هذه الدولة في ابنائه من بعده .

والدولة الخارجية الثانية هي الدولة الرستمية الاباضية [2] التي قامت في المغرب الأوسط سنة ١٤٤هـ (٧٦١م) ومؤسسها رجل فارسي الأصل وهو عبد الرحمن بن رستم . وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت التي بناها عبد الرحمن بن رستم سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) وتقع قريبا من تياريت Tiaret في ولاية وهران Oran غربي الجزائر . ولم تلبث هذه المدينة ان ازدهرت وهاجر اليها التجار والعلماء والطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي حتّى صارت تسمى بالعراق الصغير تشبيها لها بالعراق الصاخب بمختلف الاجناس والملل والنحل .

ومذهب الخوارج انتشر في المغرب منذ أيام الأمويين ولقي نجاحا كبيرا بين البربر لأنه يقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس معين ويرى تركها لاختيار الأمة فهي التي تختار الشخص الصالح لها بغض النظر عن حسبه أو نسبه أو جنسه أو لونه ما دام مستوفيا لشروط الخلافة .

---

(١) الصفرية نسبة إلى زياد بن محمد الأصفر ولهذا فهم يعرفون أيضا بالزيادية .
(٢) الاباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض المري .

لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعي والسياسي ، فاتخذوا عنوانا للمعارضة القومية ضد اي سيادة تفرض عليهم . وكانت الصفرية والاباضية اكثر مذاهب الخوارج رواجا في المغرب ، واكثرها اعتدالا وتسامحا مع المخالفين اذا قورنت بغيرها من المذاهب الخارجية الأخرى مثل مذهب الأزارقة في المشرق . فالصفرية والاباضية لا يرون اباحة دماء المسلمين ولا يرون جواز سبي النساء والأولاد ولا يرون قتال أحد سوى جيش الحكومة . ولا زالت دعوة الاباضية قائمة في المغرب في جنوب طرابلس الغرب وفي جبل نفوسة بليبيا ، وكذلك في منطقة مزاب في جنوب الجزائر .[1]

ولم تقتصر هذه الحركات الاستقلالية على المغربين الاقصى والأوسط ، بل امتدت ايضا الى المغرب الادنى الذي يطلق عليه اسم افريقية . وذلك عندما استقل بها بعض المغامرين وقطعوا الخطبة للمنصور ، ونزعوا شعار العباسيين .

ولم يقف المنصور أمام هذه الحركات مكتوف الأيدي ، بل أرسل الحملات العسكرية ، البرية والبحرية ، الى المغرب لاعادة سلطان الخلافة على تلك البلاد ، وقد منيت بعض هذه الحملات بالهزيمة ، وأخيرا استطاع القائد محمد بن الأشعث الذي كان واليا على مصر ان يدخل القيروان ويسيطر على افريقية .

وهكذا تمكن المنصور من استعادة المغرب الأدنى للخلافة ، الا أن نفوذه لم يتجاوز هذه البلاد الى داخل المغرب حيث ظل الرستميون في المغرب الأوسط ، والمداريون في المغرب الأقصى يحكمون تلك البلاد حكما مستقلا .

وما يقال عن المغرب يقال أيضا عن الأندلس التي فر اليها عقب سقوط الدولة الأموية أمير أموي وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي لقب بالداخل لدخوله الأندلس . واستطاع هذا الأمير بمساعدة القبائل اليمنية أن ينتصر على المضرية ويستقل بحكم الأندلس . وظن اليمنيون أن عبد الرحمن سوف يكون أداة طيعة في أيديهم ، وأنهم سيكونون أصحاب النفوذ في البلاد نظير

(١) راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٤ وما بعدها) .

المساعدات الحربية التي قدموها له . ولكن عبد الرحمن رفض مطالبهم ، وقابل استياءهم بانضمام صريح الى أعدائهم المضرية . وقد أثار هذا العمل غضب اليمنيين وظلوا ينتظرون الفرصة المواتية للاطاحة بحكمه .

وطمع الخليفة المنصور في استرداد الأندلس واعادتها الى الخلافة كما كان الحال في عهد الدولة الاموية ، فاتفق مع زعيم عربي من سكان مدينة باجة Beja في غرب الاندلس (جنوب البرتغال حاليا) اسمه العلاء بن مغيث الجذامي ، ووعده بامارة الاندلس ان هو انتصر على خصمه وبعث اليه بلواء الدولة العباسية ، وبسجل تعيينه على الاندلس .

اخذ ابو العلاء يدعو الناس سرا الى طاعة الخليفة المنصور ، واستطاع ان يضم اليه العناصر الساخطة على عبد الرحمن ولا سيما القبائل اليمنية التي كانت تريد الانتقام من عبد الرحمن بسبب ميله الى المضرية .

وبعد أن اشتد بأسه قام العلاء بثورته في مدينة باجة سنة ١٤٧هـ (٧٦٤م) فتوجه اليه عبد الرحمن لمحاربته ، لكن العلاء انتصر عليه انتصارا كبيرا ، وحاصره في مدينة قرمونة بالقرب من اشبيلية . وأمام هذا الخطر جمع عبد الرحمن جنوده ، وأشعل نارا عظيمة ، وصاح فيهم قائلا : «امامنا الآن طريقان اما النصر أو الموت فاخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع» ! ثم رمى بقراب أو جفن سيفه في النار ، فثارت الحمية والنخوة في نفوس جنوده ، وألقوا بأجفان سيوفهم في النار ثم اندفعوا خلف قائدهم الذي استطاع أن يخترق الحصار بهجوم جريء خاطف ثم انقض على الجيش المحاصر وشتت شمله وقتل قائده العلاء وعددا كبيرا من رجاله .

ويروى أن عبد الرحمن أخذ رأس العلاء وحشاه بالملح والكافور ثم وضعه في قفة مع السجل واللواء العباسي وأرسله مع أحد الحجاج الأندلسيين وأمره بأن يضعه أمام سرادق المنصور الذي حج في تلك السنة . فلما رأى المنصور رأس العلاء انزعج وقال : الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان (يقصد عبد الرحمن)

بحرا !! ». كذلك يروي المؤرخون ان المنصور سأل أصحابه يوما عن الرجل الذي يستحق أن ينال لقب صقر قريش . فذكروا له أسماء عدد من كبار الشخصيات الاسلامية ومن بينها اسم الخليفة المنصور نفسه ولكنه أجابهم بالنفي ثم قال ان صقر قريش هو هذا الامير الشجاع عبد الرحمن الذي ذهب الى الاندلس شريدا طريدا واستطاع بذكائه وشجاعته أن يؤسس هناك ملكا عريضا . ومنذ ذلك الوقت صار عبد الرحمن يلقب بصقر قريش .[1]

سادساً : صفات المنصور :

يروي الطبري أن المنصور كان طويل القامة نحيفا ، أسمر اللون ، خفيف العارضين ، وكان في خلقه الجد والصرامة والبعد عن اللهو والترف . حكي أنه سمع مرة جلبة في القصر ، فسأل عنها ، فأخبروه بأن خادما من خدامه قد جلس بين الجواري يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن . فأمر بكسر الطنبور على رأس الخادم واخراجه من القصر .

كذلك يؤثر عن المنصور أنه كان يباشر أعماله بنفسه ويدقق في الأمور المالية ، ويحرص على ادخار الأموال والاقتصاد في النفقات ، ولهذا وصفه الناس بالبخل ، ولقبوه بابي الدوانيق أو الدوانيقي (الدانق هو سدس الدرهم ، والدينار عشرون درهما).

ويروي الطبري أن شاعرا من الشعراء دخل على المهدي بن المنصور ومدحه بأبيات من الشعر ، فأمر له المهدي بعشرين ألف درهم ، فكتب صاحب البريد[2] الى المنصور يعلمه بذلك . فكتب المنصور الى ابنه خطابا يلومه فيه بقوله : «انما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة ، أربعة آلاف درهم !» ثم أمر بالبحث عن الشاعر واحضاره ، فلما جيء به ، قال له المنصور : اتيت غلاماً غراً فخدعته ؟ فأجاب : « نعم أتيت غلاما غرا كريما وخدعته» ثم طلب منه المنصور أن يسمعه القصيدة التي قالها ، فلما أنشده اياها قال المنصور : « والله

(١) ابن الخطيب : كتاب أعمال الاعلام ص ٩ وما بعدها .

(٢) كان صاحب البريد يقوم مقام رجل المخابرات اليوم.

لقد أحسنت ، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم ثم أمر باعطائه أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي منه .

هذه السياسة في مجموعها وان كانت تبدو في مظهرها بخلا ، ألا أنها في الحقيقة سياسة اقتصادية حكيمة مكنته من الانفاق على مرافق الدولة الهامة مثل الانفاق على الجيوش وعلى الحروب التي كان لا بد منها للقضاء على الثورات التي هددت الدولة من كل جانب ، ومثل بناء عاصمة جديدة للدولة . وقد استطاع المنصور في النهاية أن ينتصر على خصومه ، وان يبني مدينة بغداد بفضل حرصه على ادخار الأموال واستعداده لأي كارثة تصيب الدولة .

يروي الطبري أن المنصور أوصى ابنه المهدي بقوله :

«وانظر هذه المدينة (أي بغداد) فانها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك فيها كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية (أي الأسرة العباسية)، ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها ، فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا».

سابعاً : ولاية العهد :

بقيت مسألة اخيرة اهتم بها المنصور وهي مسألة ولاية العهد بعده . فالمعروف أنها كانت لابن أخيه عيسى بن موسى ، وليست لأبنه المهدي . لهذا أخذ المنصور يستعمل مع ابن أخيه وسائل الارهاب والترغيب حتى أجابه الى طلبه وخلع نفسه منها سنة ١٤٧هـ ، فصارت ولاية العهد للمهدي أولا ثم لعيسى بن موسى بعده . وقد علق أحد رجال الكوفة حينما رأى عيسى بن موسى متقدما عليه المهدي في الخلافة بقوله :

«هذا الذي كان غدا فصار بعد غد»

وتوفي أبو جعفر المنصور سنة ١٥٨هـ وهو عائد من الحج وخلفه ابنه محمد المهدي .

٣ ـ محمد المهدي
(١٥٨ ــ ١٦٩ هـ = ٧٧٥ ــ ٧٨٥ م)

أمتدت خلافته حوالي عشر سنوات ، وجاء الى الحكم والبلاد منهوكة القوى من كثرة ما أريق فيها من دماء ، فكان الناس كما وصفهم المنصور في وصيته لابنه : «اني تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيرا لا يرجو الا غناك ، وخائفا لا يرجو الا أمنك ، ومسجونا لا يرجو الفرج الا منك».

ولذلك كان من الضروري أن يتخذ المهدي سياسة لينة يداوي بها الجراح والنفوس ، ويجمع بها الشمل : من ذلك مثلا انه رد معظم الاموال التي صودرت على عهد أبيه الى أصحابها ، كذلك أطلق سراح المسجونين السياسيين ولا سيما العلويين منهم ، وأمر لهم بأرزاق وصلات . كذلك عمل المهدي على استرضاء أهل الحجاز الذين سبق أن عاملهم المنصور بكل شدة وعنف لتأييدهم ثورة محمد النفس الزكية . فحينما حج المهدي سنة ١٦٠هـ ، وزع على أهل الحجاز أموالا طائلة ، وأعاد اليهم الغلال والحبوب الواردة من مصر والشام . وكان المنصور قد قطعها عنهم خلال ثورة محمد النفس الزكية . كذلك ضم الى حرسه الخاص عددا من الجنود الحجازيين يبلغ الخمسمائة كوسيلة لاسترضائهم ، أو لحفظ التوازن بين العجم والعرب في جيشه .

اما من جهة أهل الشام ، فقد عمل المهدي ايضا على اكتساب مودتهم فزارهم في بلادهم ونزل دمشق والقدس وفرق عليهم الأموال ، وعمل على ازالة الخلافات التي بين القبائل المختلفة هناك .

ولقد حرص المهدي على اقامة العدل بين الناس ، فكان يجلس مع القضاة في بغداد عند النظر في المظالم ، كما اتخذ بيتا له نافذة من حديد كي يضع فيه الناس عرائض شكواهم ، فيمكن بذلك النظر فيها دون ابطاء أو تأخير .

والواقع ان عهد المهدي امتاز بالهدوء الداخلي وبالمشروعات الاصلاحية التي تعود على الرعية بالخير والنفع كبناء المدارس والمستشفيات ، والاهتمام بشؤون التجارة ومسالكها ، وانشاء شبكة من الطرق العامة جعلت من بغداد مركزا تجاريا عالميا . واهتم المهدي بصفة خاصة بطريق الحجاج المؤدي الى مكة ، فأقام القصور والمحطات والمصانع (أي خزانات المياه) على جانبيه ، كما وضع فيه الحراس لحمايته . كذلك استحدث البريد على هذا الطريق ومده الى اليمن ، فهولي اول خط بريدي بين العراق والحجاز واليمن . وكان البريد ينقل هناك على ظهور الخيل والابل والبغال . ولا شك أن الاموال الطائلة التي تركها المنصور قد ساعدت المهدي على تنفيذ هذه المشروعات والانفاق عليها .

مشكلة الزنادقة :

أهم المشاكل الداخلية التي اعترضت حكم المهدي هي مشكلة الزنادقة أو المراطقة في الدين . وقد اطلقت في الأصل على اتباع الديانات المجوسية الفارسية القديمة كالزردشتية والمانوية . وتنسب الزرادشتية الى مؤسسها زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد ، وتقول بأن الوجود قائم على مبدأين اساسيين هما الخير والشر أو النور والظلام . وبما أن النور مصدره الشمس والشمس من نار ، لهذا قدسوا النار وعبدوها . فزرادشت هو منشيء الطائفة المجوسية وله كتاب مقدس يعرف باسم الأفستا . والمانوية فرع من الزرادشتية وتنسب الى مؤسسها ماني في القرن الثالث الميلادي ، وأتباعها لهم نزعة صوفية هدامة تحض الناس على الزهد وعدم الزواج

والانتاج ، ويرون أن الخير في العدم المطلق . وقد كتبوا شروحا وتأويلات حول كتاب الافستا عرفت باسم الزند . ولهذا قيل ان كلمة زنديق أو زنديك بالفارسية تعني متبع الزند .[1]

ولعل اهتمام المهدي بأمر الزنادقة راجع الى ظهور بعض هذه الحركات الالحادية في عهده . وقد سبق أن أشرنا الى فرق المسلمية والراوندية التي ظهرت بعد مقتل أبي مسلم الخراساني في عهد المنصور . ولقد استمرت هذه الموجة الالحادية في عهد المهدي ايضا . ونذكر على سبيل المثال ثورة المقنع سنة ١٥٩هـ، وهو رجل فارسي من مدينة مرو ومن رجال أبي مسلم المقربين اليه واسمه هاشم بن حكيم . وقد لقب بالمقنع لأنه كان يضع على وجهه قناعا أو نقابا موشى بالذهب كي يخفي وجهه الدميم المشوه ، أو كما يزعم أتباعه — كي يحجب الذات الالهية التي تجسدت فيه عن عيون الناس الدنسة الغير جديرة بالنظر اليه .

نادى المقنع بمبادىء الراوندية التي تقول بالحلول والتناسخ وأن روح آدم حلت في الانبياء الى أن وصلت الى أبي مسلم ثم حلت في المقنع بعده . فهي حركة سياسية دينية متصلة بشخصية الزعيم الفارسي أبي مسلم . ولهذا انتشرت هذه الثورة في خراسان وبلاد ما وراء نهر جيحون .

ولقد حاربه المهدي بكل شدة وعنف الى أن قضى عليه هو واتباعه سنة ١٦٣هـ

الا أن نهاية المقنع يحوطها الغموض اذ يبدو أنه أحرق نفسه بالنار في اللحظة الأخيرة كي يثير الاعتقاد بأنه صعد الى السماء . أما أتباعه فقد انتحروا بطريقة أخرى ، اذ يروي ابن الأثير انه لما حاصرت جيوش المهدي افراد هذه الطائفة ، شربوا سما زعافا أماتهم جميعا مما يدل على تعصبهم الشديد لمبادئهم .

على أن اخماد ثورة المقنع لم تقض على مبادئه التي ظلت باقية منتشرة مما جعل المهدي يهتم بأمر هذه الحركات الالحادية الهدامة ، فأنشأ لها ديوانا جديدا سماه ديوان الزنادقة ، وقد خول له الخليفة سلطات واسعة منها الحكم بالاعدام على كل

---

(١) عبد العزيز الدوري : العصر العباسي الأول ص ١١٠ .

من يدان بهذه التهمة . كذلك كان للزنادقة سجن خاص سمي بسجن الزنادقة .
على أنه يلاحظ أن تهمة الزندقة لم تقتصر على اتباع الديانات والأفكار الفارسية القديمة ، بل صارت تطلق ايضا على اصحاب النزعات التحررية ضد التقاليد القديمة وقد انتشرت هذه النزعة في اوساط المثقفين بصفة خاصة . كذلك اطلقت على الماجنين المستهترين لافراطهم في شرب الخمر والمجون . كذلك القيت هذه التهمة في بعض الاحيان على الاشخاص الغير مرغوب فيهم سياسيا كوسيلة للانتقام أو التخلص منهم . وكانت النتيجة أن قتل كثير من الناس ظلما تحت ستار الزندقة .

ومن الشخصيات الهامة التي وجهت اليها تهمة الزندقة الكاتب المعروف الفارسي الأصل عبد الله بن المقفع الذي ترجم عددا من أمهات الكتب عن الفارسية مثل كتاب كليلة ودمنة الهندي الأصل . ويقال انه قتل لاسباب اخرى سياسية وهي تزوير بعض الوثائق الرسمية الخاصة بصياغة الأمان الذي أعطاه المنصور لعمه عبد الله بن علي ، اذ كان هو الذي تولى صياغته . كذلك تذكر الشاعر الضرير الفارسي الأصل بشار بن برد الذي قيل ان المهدي رآه في البصرة يؤذن وهو سكران فاتهمه بالزندقة وضربه بالسياط حتى مات . وقيل انه قتل بدسيسة وزير المهدي يعقوب بن داود لأن بشار هجاه . وفي عهد الرشيد اتهم البرامكة بالزندقة لانهم كانوا يشجعون المناظرات الكلامية بين علماء المسلمين وغير المسلمين في الموضوعات المختلفة . كذلك اتهم الشاعر ابو نواس بالزندقة لنزعته التحررية ... الخ

ومن يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني يجد أخبارا وتراجم كثيرة لهؤلاء الزنادقة .

سياسة المهدي نحو العلويين :

سبقت الاشارة الى أن المهدي عمد الى التقرب من العلويين فأطلق سراح المسجونين منهم ، ورد اليهم الاموال التي صودرت منهم . ولكنه في الوقت نفسه اهتم بتتبع أخبارهم . ويقال انه استوزر يعقوب بن داود لأنه كان يقول بما تقول

به الشيعة الزيدية ، ولانه اشترك في ثورة محمد النفس الزكية ، فكان ملما بأخبارهم . فالمهدي حينما استوزره أراد أن يأنس العلويون بحكمه من جهة ، وليعرف أخبارهم بواسطته من جهة اخرى .

وكيفما كان الأمر فان العلويين لم يثوروا في عهد المهدي وانما ثاروا في عهد ابنه الهادي بعد ذلك .

سياسة المهدي الخارجية :

هي امتداد لسياسة أبيه العدائية نحو البيزنطيين ، ونحو الأمويين في الأندلس. أما من جهةالبيزنطيين ، فنجد أن المهدي يواصل تحصين ثغوره المتاخمةلهم ، ويوجه اليهم الحملات المتتابعة . ولم يكتف بذلك بل قرر أن يقود احدى هذه الحملات بنفسه سنة ١٦٥هـ مصطحبا معه ابنه هارون . وعندما بلغ بلدة ابلستان أو ابلستين في آسيا الصغرى ، اضطر المهدي الى العودة الى بغداد تاركا قيادة الجيش في يد ولده هارون . وواصل هارون زحفه مخترقا آسيا الصغرى ، ومدمرا حصون البيزنطيين فيها حتى بلغ مضيق البسفور . واضطرت الامبراطورة ايرين Irene ، التي كانت تحكم كوصية على ابنها قسطنطين السادس ، اضطرت الى طلب الصلح ، وعقدت هدنة بين الطرفين سنة ١٦٥هـ (٧٨٢م) لمدة ثلاث سنوات تعهدت فيها بدفع جزية سنوية . وقد اظهر هارون في هذه الغزوة من الشجاعة والبسالة ما أهله لحمل لقب الرشيد .

اما فيما يتعلق بسياسة المهدي نحو الاندلس ، فهي استمرار لسياسة أبيه في محاولة استرجاع الاندلس الى الدولة الاسلامية .

اشترك المهدي في مؤامرة كبرى للقضاء على عبد الرحمن الداخل في الاندلس. واشترك معه ثلاثة رجال : أولهما كان واليا مغامرا ببلاد المغرب واسمه عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، ويلقب بالصقلبي ، تمييزا له عن والي آخر بهذا الاسم ، ولانه كان يشبه الصقالبة في مظهره من حيث طول القامة وشقرة اللون .

...

أما الرجل الثاني فيدعى سليمان بن يقظان الأعرابي حاكم مدينة سرقسطة Zaragoza في شمال اسبانيا وتعرف بالثغر الأعلى لأنها كانت قاعدة الخطوط الدفاعية الأمامية في الأندلس . وكان هذا الوالي على خلاف مع الأمير عبد الرحمن لأسباب سياسية ، لأن عبد الرحمن كان يميل الى المضرية ويعادي اليمنية التي ينتمي اليها هذا الوالي الأعرابي .

اما الرجل الثالث فهو شخصية أوروبية كبيرة ، وهو شرلمان اقوى ملك في اوروبا في ذلك الوقت . وقد رحب شرلمان بمشروع غزو الأندلس لانه سيكسبه نفوذا أدبيا كبيرا في العالم المسيحي وفي الخلافة العباسية الاسلامية فضلا عن أنه سيزيد من قدره على منافسه امبراطور الدولة البيزنطية بالقسطنطينية . وكان شرلمان في الواقع في حاجة ماسة الى مثل هذا النفوذ الديني والسياسي لأنه سيساعده في تنفيذ مشروعه الذي كان يسعى الى تحقيقه في ذلك الوقت وهو اعادة تكوين الامبراطورية الرومانية الغربية .

وكانت الخطة المتفق عليها هي أن يعبر شرلمان بجيوشه جبال البرتات (البرانس) Pirineos شمال اسبانيا ويتجه الى مدينة سرقسطة فيسلمها له ابن الأعرابي . وفي نفس هذا الوقت يأتي ابن حبيب الفهري من المغرب في اسطول قوي ويهاجم الساحل الشرقي الاندلس وينزل في مدينة مرسية Murcia ، وبهذا يطوقون عبد الرحمن ويقضون عليه ثم يعلنون أن البلاد للخليفة العباسي صاحبها الشرعي وأن شرلمان صديقه وحليفه .

وقد تبدو هذه المؤامرة محكمة في تدبيرها الا أنها في الواقع كانت صعبة في تنفيذها من الناحية الاستراتيجية ، لأن نقل الجيوش من مكان الى آخر في هذه البلاد الوعرة وفي هذه الأوقات المحددة ، أمر ليس من السهل تنفيذه. حتى في عصرنا الحديث مع وسائل النقل الحديثة، فما بالنا بوسائل العصر الوسيط ! وكيفما كان الأمر فقد نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهري بجيشه واسطوله على ساحل مرسيه سنة ١٦٠هـ (٧٧٧م) قبل أن يصل شرلمان في الميعاد المتفق عليه . وانتهز عبد الرحمن الداخل هذه الفرصة وسارع في مهاجمة ابن حبيب قبل أن ينضم

اليه بقية حلفائه . وكانت خطة عبد الرحمن في حروبه دائما ، أن ينازل اعداءه متفردين كي يسهل عليه القضاء عليهم واحدا بعد الآخر . وهذه هي الطريقة التي سار عليها نابليون بونابرت في العصر الحديث وكانت سر عظمته .

وهكذا استطاع الأمير عبد الرحمن أن يباغت ابن حبيب عند ساحل مرسية فيقضي عليه ويحرق اسطوله .

وفي سنة ١٦١هـ (٧٧٨م) أتى شرلمان من فرنسا وعبر جبال البرانس متجها الى سرقسطة . وهناك خرج والي المدينة سليمان بن الأعرابي لاستقباله خارج المدينة ، غير أن أهالي سرقسطة رفضوا تسليم مدينتهم لملك مسيحي فقاموا بثورة تزعمها رجل منهم اسمه الحسين بن يحيى الانصاري وأغلقوا ابواب المدينة في وجه شرلمان وحليفه سليمان بن الأعرابي . واضطر شرلمان بعد ذلك أن يحاصر المدينة لأخذها بالقوة ، ولكنه في ذلك الوقت بلغته الأنباء من بلاده أن القبائل السكسونية الجرمانية قد قامت بثورة خطيرة في المانيا ، وأنها تركت الديانة المسيحية وارتدت الى ديانتها الوثنية القديمة . واضطر شارلمان الى العودة الى بلاده سنة ١٦٢هـ وصحب معه سليمان بن الأعرابي كأسير حرب لأنه كان السبب في فشل حملته على الأندلس .

وبينما كان شرلمان يعبر جبال البرانس عائدا الى بلاده ، اذا بسكان هذه المناطق الجبلية ويعرفون باسم البشكنس Vascos ، يهاجمون مؤخرة جيشه ويقضون عليها . ويقال ان هذا الهجوم كان بالاشتراك مع قوة عربية يقودها ابناء سليمان ابن الأعرابي الذين أرادوا الانتقام لأبيهم .

هذا الهجوم الاسباني العربي المشترك على الجيش الفرنسي أدى الى افناء مؤخرة هذا الجيش وقتل قائده واسمه رولان Roland . وقد ظهرت بعد هذه الحادثة بمدة طويلة ملحمة فرنسية تشيد ببطولة هذا الضابط الفرنسي ، وتصف هذه المعركة وصفا اسطوريا بعيدا عن الحقيقة التاريخية . وقد عرفت هذه الملحمة في الأدب االفرنسي باسم اغنية رولان Chanson de Roland .

مما تقدم نرى ان العباسيين قد فشلوا للمرة الثانيةفي استرجاع الاندلس، والفضل

في ذلك يرجع الى صعوبة تنفيذ المؤامرة واتساع نطاقها ، كما يرجع ايضا الى شجاعة الامير عبد الرحمن وسرعته في مهاجمة اعدائه . وبعد فشل هذه الحملة سار عبد الرحمن الى سرقسطة واستولى عليها سنة ١٦٣هـ وعاقب الخونة فيهما .

شخصية المهدي :

تختلف شخصية المهدي عن شخصية أبيه المنصور من حيث ميله الى الترف والبذخ ، وحبه للصيد وخروجه اليه مع خاصته وحاشيته . ولعل ذلك ناتج عن حياة الهدوء والاستقرار التي امتاز بها عصر المهدي . ولم يلبث هذا الترف والرخاء أن عم حياة القصر الخلافي ، وصار للخليفة لأول مرة بلاط يضم حاشيته وكبار رجال العلم والأدب والفن .

وكانت النتيجة أن صار للجواري نفوذ كبير في شؤون الدولة ، ونذكر على سبيل المثال الخيزران التي كانت في الاصل جارية مغربية ثم تزوجها المهدي وانجب منها موسى الهادي وهارون الرشيد . وتشير المراجع الى أن المهدي وقع تحت تأثير زوجته الخيزران الى ان مات وكان قصرها مقصدا لذوي الحاجات في الدولة .

بقيت مسألة أخيرة في عهد المهدي وهي مشكلة ولاية العهد من بعده ، فقد حرص المهدي على خلع عيسى بن موسى منها ، ونقلها الى ولديه موسى الهادي ثم هارون الرشيد على التوالي . يروي الجهشياري أن عيسى بن موسى رفض هذا الطلب في بادىء الأمر ، فاستعمل معه المهدي سياسة الضغط والتهديد والترغيب لكي يخلع نفسه وهي السياسة التي استعملها معه المنصور من قبل . واضطر عيسى بن موسى أن يجيب المهدي الى طلبه ، فخلع نفسه ونال في مقابل ذلك عشرين ألف دينار وقطائع كثيرة ثم بايع المهدي لابنه موسى الهادي سنة ١٥٩هـ ثم بايع لابنه هارون الرشيد بولاية العهد بعد الهادي سنة ١٦٦هـ.

وتوفي المهدي سنة ١٦٩هـ.

٤ ـ موسى الهادي

خلافة الهادي كانت مدتها قصيرة ، حوالي سنة تقريبا . وأهم حدث في عهده هو ثورة العلويين في الحجاز سنة ١٦٩هـ بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ابن عم النفس الزكية .

ويبدو أن سياسة اللين التي اتبعها المهدي مع العلويين من قبل قد فشلت ، اذ نجد الهادي يتبع معهم سياسة شديدة قاسية . فيقطع عنهم الأرزاق والصلات التي أجراها لهم أبوه المهدي ، كما يأمر عماله بمراقبتهم والتضييق عليهم . ولا شك أن أخلاق الهادي التي تتسم بالقسوة والشراسة ، كانت من العوامل الهامة التي ينبغي أن يعمل حسابها عند الكلام عن دوافع هذه الثورة . أما السبب المباشر للثورة فهو أن والي المدينة من قبل الهادي أمر بضرب الحسن بن محمد النفس الزكية مع بعض اصحابه لأنهم شربوا نبيذا ثم وضع في اعناقهم حبلا وطاف بهم في انحاء المدينة المنورة . هذا الحادث أثار غضب رئيس العلويين في ذلك الوقت وهو الحسين ابن علي السالف الذكر ، فقام بثورته واستولى على المدينة ثم اتجه الى مكة في موسم الحج ، فانضم اليه بعض الحجاج والعبيد .

وفي مكان يسمى فخ بين مكة والمدينة تقابل العلويون مع الجيوش العباسية في معركة عامة سنة ١٦٩هـ هزم فيها العلويون وقتل قائدهم الحسين الذي سمي بقتيل فخ كما قتل الحسن بن محمد النفس الزكية الذي كان السبب المباشر في قيام هذه الثورة .

هذه الثورة لم تخرج عن كونها ثورة علوية ككل الثورات العلوية التي قامت من قبل ومن بعد ، غير أن المراجع العربية افاضت في الكلام عنها بسبب النتائج الهامة التي ترتبت عليها .

ذلك لأن في هذه الموقعة فر اثنان من كبار العلويين أحدهما ادريس بن عبد الله الذي فر الى المغرب الأقصى حيث أسس هناك دولة علوية مستقلة وهي دولة الادارسة ، كما أسس فيها عاصمته مدينة فاس سنة ١٧٢هـ أما العلوي الثاني فهو اخوه يحيى بن عبد الله الذي فر الى بلاد طبرستان بالمشرق وظل هناك مختفيا . وفي عهد الرشيد أعلن العصيان ، فارسل اليه الرشيد جيشا بقيادة الفضل بن يحيى البرمكي . واستطاع الفضل بمهارته أن يقنع يحيى العلوي بقبول الصلح والأمان حقنا للدماء فقبله بعد أن كتب له الرشيد أمانا بخطه . غير أن الرشيد لم يكن مطمئنا الى نيات يحيى فحدد اقامته في بغداد تحت اشراف البرامكة . وسنرى فيما بعد أن من بين اسباب نكبة البرامكة ، اطلاقهم سراح يحيى العلوي وتركه يرحل الى الحجاز . هذا ومن المعروف أن ادريس ويحيى كانا أخوين لمحمد النفس الزكية ، وابراهيم .

شخصية الهادي :

المراجع العربية تصف الهادي بالقوة الجسمانية وبالغلظة والشراسة . فيحكي أن أحد الخوارج اقترب منه ليقتله ، وكان الهادي بمفرده ، فلم يتحرك الى أن قرب منه الخارجي فصاح : اقتلاه ! فظن الخارجي أن وراءه أحد من الحراس ، فالتفت وراءه فهجم الهادي عليه وانتزع سيفه وقتله . وهذا يدل على رباطة جأشه . كذلك يقال عن الهادي أنه كان يثب على فرسه وعليه درعان من الفولاذ ، وهذا يدل على قوته .

وكان الهادي ايضا يحب الغناء والشرب واللهو ، فقرب اليه ابراهيم الوصلي المغني العراقي المشهور وابنه اسحاق الموصلي . ويقال انه اعطى ابراهيم الموصلي خمسين ألف دينار لأنه غناه ثلاثة ابيات اطربته . ولهذا كان ابراهيم يقول : «والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب».

كذلك كان الهادي يميل الى سماع الأدب والتاريخ ، فيروي الطبري أن الهادي كان يجالس مؤرخا حجازيا اسمه عيسى بن دأب كان يحدثه عن الأقطار الاسلامية وأخبارها وفضائلها وعيوبها . وكان الهادي يدعو له بمتكأ يتكىء عليه في مجلسه ولم يفعل ذلك مع أحد غيره في مجلسه .

عرف عن الهادي ايضا غيرته الشديدة ، كان يغار من أخيه الأصغر هارون الرشيد لأن أبواه كانا يؤثرانه عليه منذ طفولته . ولعل قصة الخاتم التي يرويها الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب ص ١٧٤ تعطينا فكرة عن غيرة الهادي من أخيه ، يقول : «كان المهدي وهب للرشيد خاتما نفيسا له قيمة جليلة ، فلما استخلف موسى الهادي ، طلب الخاتم من أخيه فامتنع عن ذلك . ولما أصر الهادي على طلبه ركب هارون الى نهر دجلة ورمى الخاتم فيه وانصرف وهو يقول : يفعل الآن ما يشاء فبلغ ذلك موسى فاغتاظ عليه . ولما توفي موسى الهادي واستخلف هارون ، ركب وفي يده خاتم نفيس آخر ، فلما صار الى الموضع الذي رمى فيه الخاتم الأول ، رمى بالخاتم الذي معه ، وأمر باحضار الغاصة ، فلم يزالوا يطلبون حتى وجدوا الخاتم الاول سليما فتفاءل به الرشيد وصار يتختم به ويؤثره على غيره من خواتيمه .

كذلك كان الهادي يغار من أمه الخيزران وذلك لأنها كانت لها كلمة مسموعة في بغداد وكان الناس يتوافدون على دارها لقضاء حوائجهم . فيروى أن الهادي منعها من التدخل في شئون الدولة ، وقال لها غاضبا :

«والله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصّي أو خدمي ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك»؟ فانصرفت عنه غاضبة .

بقيت بعد ذلك المشكلة التقليدية الأخيرة وهي مشكلة ولاية العهد . فقد حاول الهادي خلع أخيه هارون من ولاية العهد والمبايعة لابنه جعفر الذي كان لا يزال طفلا . وتشير الروايات الى أن الرشيد كاد يرضخ لطلب أخيه اولا أن أستاذه يحيى بن خالد البرمكي نصحه بالمماطلة والخروج الى الصيد تهربا من الخليفة .

عندئذ لجأ الهادي الى استعمال الشدة ، فأمر بألا يصحب الرشيد أحد من الحراس ولو بحربة واحدة ، فاجتبه الناس وتركوه ، ولم يجترىء أحد أن يسلم عليه وعلم الهادي أن تعنت هارون في موقفه كان بتحريض من يحيى البرمكي ، فاستدعى يحيى وكلمه في خلع هارون ، فأجابه بكلام دل على ذكائه ودهائه اذ قال له : «يا أمير المؤمنين ، انك ان حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم ايمانهم ، وجرأتهم على حل العقود التي تعتقد لهم . ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته». فوافقه الهادي على رأيه .

غير أن الهادي لم يلبث أن عاد ثانية الى رأيه الأول تحت تأثير بعض رجال الحاشية والقواد لدرجة أن بعضهم خلعوا هارون وبايعوا لجعفر من تلقاء أنفسهم تقربا الى الخليفة وانساق الهادي وراء هذه السياسة فقبض على يحيى البرمكي وصمم على قتله ، ولكن الهادي مات فجأة قبل أن يحقق غرضه .

وفاة الهادي يحيطها الغموض ويقال فيها روايتان :

الاولى رواها الطبري وتفيد بأن الهادي مات من قرحة كانت في جوفه .

والثانية ترويها مصادر متعددة كالمسعودي والفخري وتشير الى أن أمه الخيزران هي التي قتلته بسبب حجره عليها من ناحية ، وبسبب خوفها على ابنها هارون من جراء مشكلة ولاية العهد من ناحية أخرى ، خصوصا وأن الخيزران كانت تحب هارون وتؤثره على أخيه الهادي منذ طفولته .

غير أن هذه الرواية تبدو ضعيفة لأن عاطفة الأمومة تتغلب على أية نزعة اجرامية من هذا القبيل . ومما يدل على ضعف هذه الرواية ، ما ترويه المصادر من

أن الهادي حينما حضرته الوفاة استدعى والدته واستسمحها واعتذر لها بقوله: «وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك . ولم اكن بك عاقا بل كنت لك صائنا وبرا واصلا».

وتوفي الهادي سنة ١٧٠هـ وولي بعده أخوه هارون الرشيد . ويقال انه في هذا اليوم بالذات انجب الرشيد ولده عبد الله المأمون ، فقالوا في ذلك : مات خليفة ، وولي خليفة ، وولد خليفة .

٥ ــ الخليفة هارون الرشيد

١٧٠ ــ ١٩٣ هـ = ٧٨٦ ــ ٨٠٩ م

يعتبر من أشهر خلفاء العباسيين واكثرهم ذكرا حتى في المصادر الاجنبية كالحوليات الألمانية على عهد الأمبراطور شرلمان التي ذكرته باسم Aron والحوليات الهندية والصينية في اقصى المشرق التي ذكرته باسم Alun أما المصادر العربية فقد أفاضت الكلام عنه لدرجة أن اخباره قد امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص : فهو يصور أحيانا بصورة الخليفة المسرف في الترف والملذات ويصور أحيانا بصورة الخليفة الورع المتدين الذي تسيل عبراته عند سماع الموعظة والبطل المجاهد الذي أمضى معظم حياته بين حج وغزو ، فكان يحج عاما ويغزو عاما وانه أول خليفة عباسي قاد الغزو بنفسه .

كذلك كان يصور بصورة الخليفة الحذر الذي يبث عيونه وجواسيسه بين الناس ليعرف أمورهم وأحوالهم ، بل كان احيانا يطوف بنفسه متنكرا في الاسواق والمجالس ليعرف ما يقال فيها .

والواقع ان هذه الصور المتباينة للرشيد ما هي الا انعكاس للعصر الذي عاش

فيه بمحاسنه ومساوئه ، وهو العصر العباسي الأول أو العصر الاسلامي الذهبي حيث الحضارة والعلم والازدهار والبذخ من جهة ، والدسائس والمؤامرات من جهة أخرى . فشخصية الرشيد هنا هي شخصية عصر اكثر مما هي شخصية انسان .

عن حياة الرشيد قبل الخلافة ذكرنا اشارات منها قبل ذلك ، وقلنا انه ابن الخليفة المهدي من زوجته البربرية أو المغربية الخيزران التي كان لها نفوذ كبير في الدولة ، وأن اسرة البرامكة الفارسية هي التي أشرفت على تربيته . كذلك أشرنا الى الحملة العسكرية الكبيرة التي قادها هارون ضد الامبراطورة البيزنطية ايرين ، ووصل فيها الى ابواب القسطنطينية . وهذا النصر جعل له شهرة كبيرة في الاوساط الشعبية بصفة خاصة . وفي خلال هذا الوقت أي في سنة ١٦٥ هـ تزوج هارون ابنة عمه زبيدة بنت جعفر ، وكان أبوها قد مات في شبابه وهي في الثالثة من عمرها ، فكفلها جدها أبو جعفر المنصور الذي اطلق عليها اسم زبيدة لبضاضتها وبياض لونها ، ولما مات المنصور أشرف على تربيتها عمها المهدي واعتنى بتعليمها وتهذيبها ، فنشأت نشأة طيبة وأحبها بنو العباس جميعا ، ولكن الخيزران اختارتها لولدها هارون فتزوجها في حفل كبير بهيج أفاضت كتب التاريخ في وصفه .

وقد انجب الرشيد من زبيدة ولده محمد الأمين في شوال سنة ١٧٠هـ ، أما ولده الآخر عبد الله المأمون فقد ولد قبل الأمين بأربعة أشهر (ربيع الأول سنة ١٧٠هـ) من جارية فارسية تدعى مراجل . الفترة الأولى من خلافة الرشيد كان النفوذ فيها بيد أمه الخيزران بالتعاون مع البرامكة . وفي ذلك يقول الطبري : «وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور ، وكان يحيى البرمكي يعرض عليها ويصدر الأوامر عن رأيها» . ولما توفيت الخيزران سنة ١٧٤هـ ، أنفرد البرامكة بالسلطان حتى عام ١٨٧هـ حينما نكبهم الرشيد وقضى على سلطانهم وصادر أموالهم .

من هم البرامكة :

البرامكة أسرة فارسية عريقة قديمة . وكلمة برامكة مشتقة من كلمة برمك وهي ليست اسما لشخص ، وانما هي لقب أطلق على سادن أو كاهن معبد

قديم في مدينة بلخ قاعدة طخارستان عند نهر جيحون . وكان هذا المعبد بوذيا تقام فيه العبادة البوذية وله مواسم عظيمة يحج اليه فيها البوذيون من مختلف الجهات كالهند والصين وفارس حيث كانت الديانة البوذية منتشرة بكثرة في تلك الجهات . وكان هذا المعبد يسمى النوبهار وهي كلمة هندية الأصل بمعنى المعبد الجديد (نوفا فيهاري) (Nuova Vihari) لهذا كانت أسرة البرامكة المتولية شئون هذا المعبد ذات شأن عظيم خصوصا وأنه لم يكن يتاح لأحد أن يتولى مثل هذه الأعمال الجليلة في الحياة الدينية الا اذا كان عريق النسب .

ويقال ان هذه الأسرة اعتنقت الاسلام على المذهب الشيعي في زمن الدولة الأموية بعد أن فتح المسلمون أواسط آسيا ، وأن برمك أسلم زمن عبد الملك بن مروان وأنه كان رجلا عالما بالطب والتنجيم ، وانه عالج الأمير مسلمة بن عبد الملك وشفاه من مرضه .

على أن أول من اتصل بالعباسيين من البرامكة فهو خالد بن برمك الذي يتضح من اسمه (خالد) أنه نشأ مسلما .

ولقد اشترك خالد في الدعوة العباسية وقام فيها بدور بارز وهو تقسيم الغنائم في جيش قحطبة بن شبيب قائد ابي مسلم الخراساني . وفي عهد الخليفة العباسي الأول ، أبي العباس ، ولي ديوان الخراج وديوان الجند . وبعد مقتل أبي سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد ، استوزره الخليفة أبو العباس ثم أبو جعفر المنصور ، غير أن خالدا رفض أن يتلقب بلقب وزير لأنه شؤم على صاحبه وعرضة لبطش الملوك ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أسوأ العالمين حالا لديهم	من تسمى بكاتب أو وزير
ونجا خالد بن برمك منها	اذ دعوه من بعدها بالأمير

ولقد لمع اسم خالد بوجه خاص في بناء بغداد اذ بذل في ذلك مجهودات كبيرة ، ويروي في هذا الصدد أن المنصور حينما عزم على هدم ايوان كسرى بالمدائن للاستفادة من احجاره في بناء بغداد ، استشار في ذلك خالد بن برمك ، فأشار عليه

بألا يفعل ذلك لأن بقاء هذا البناء الشامخ دليل على عظمة الاسلام وقوة المسلمين الذين استطاعوا القضاء على مثل دولة هذه آثارها !! فقال له المنصور فيك نزعة أعجمية !! وأصر المنصور على نقل الايوان ، فنقل منه جزءا ، ثم أوقف العمل فيه عندما توفرت مواد البناء من الجهات الاخرى .

توفي خالد بن برمك سنة ١٦٣هـ بعد أن أنجب رجلا يعتبر واسطة عقد الأسرة البرمكية وهو يحيى بن خالد . هذا الرجل يعتبر أشهر شخصية في اسرة البرامكة لما تميز به من مهارة وادارة وهي ميزة اتقنها الفرس . عهد اليه الخليفة المهدي تأديب ولده هارون فرباه أحسن تربية وزوده بنصحه وارشاده حتّى ضمن له الخلافة معرضا حياته للخطر . وكان هارون لا يناديه الا بقوله «يا أبتي» .

ولما ولي هارون الرشيد الخلافة عرف ليحيى فضله وتضحيته فاستوزره وزارة تفويض وهي الوزارة التي تستغني عن توقيعات الخليفة على عكس وزارة التنفيذ التي يباشرها الخليفة بنفسه . ويؤثر عن الرشيد أنه قال ليحيى في هذا الصدد : «قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقي اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى» . ودفع اليه بخاتم الخلافة .

وقام يحيى بادارة شئون الدولة خير قيام ، وكان يساعده في ذلك ولداه : الأفضل وجعفر .

أما الأفضل ، فكان أخا للرشيد من الرضاعة ، وكان اداريا ماهرا ، وقد لمسنا مهارته في اخماد ثورة يحيى بن عبد الله العلوي دون أن يسفك دما . كذلك كان كريما سخيا ولا سيما مع الشعراء والأدباء أمثال العالم اللغوي عبد الملك الاصمعي والشاعر أبي نواس . وقد ولاه الرشيد بلاد المشرق (خراسان وطبرستان وأرمينيا وبلاد ما وراء النهر) وهو منصب كبير لم يكن يتولاه الا الامراء من الأسرة العباسية وقد قام الأفضل هناك بأعمال انشائية عظيمة الشأن مثل حفر الترع والقنوات وبناء المساجد والزوايا ... الخ فحسنت سيرته في تلك البلاد . هذا وتمتاز

اخلاق الأفضل بالجدية الصارمة الوقورة فضلا عن أنه كان لا يشرب النبيذ ويقول في هذا الصدد : «لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته». وهذه الصفات جعلته لا ينسجم مع حياة القصر والبلاط لانها لا تتناسب مع طبيعته ، ولهذا فضل أن يعيش بعيدا عن هذا الجو ، فعينه الرشيد على بلاد المشرق كما ذكرنا .

أما جعفر البرمكي وهو أصغر سنا من الأفضل ، فقد ولاه الرشيد على المغرب أي الجزيرة والشام ومصر وافريقية . وكان شابا مرحا فصيحا بليغا لبقا ، وهذه الصفات جعلته محبوبا لدى الرشيد ، فاستبقاه في بغداد كي يكون قريبا منه ونديما له في مجالسه وكان يناديه بأخي .

وهذه الثقة الكبيرة التي اولاها الرشيد لجعفر قد جعلت له نفوذا في الدولة ومن أمثلة ذلك ما يرويه المؤرخون عن حادثة الأمير عبد الملك بن صالح العباسي حينما زار جعفر البرمكي وطلب منه أن يتوسط لدى الرشيد كي يحقق له بعض المطالب ، فاذا بجعفر يقوم بتحقيق رغباته كلها قبل استشارة الخليفة .

مما تقدم نرى أن الرشيد أعطى البرامكة سلطات واسعة ، وافسح لهم المجال في الاشراف على جميع مرافق الحياة العامة : في الادارة والأموال ، والعلوم والفنون ، بحيث لم يتركوا ناحية من هذه النواحي الا وشملوها بنظرهم وعطفهم ، فاستمالوا النفوس وصارت لهم في قلوب الناس مكانة عالية .

أسباب نكبة البرامكة :

يروي الطبري أنه في المحرم سنة ١٨٧هـ بعد أن عاد الرشيد من الحج ووصل الى الأنبار ، دخل الى فراشه مبكرا على غير عادته ، فلما انصرف جعفر من عنده أرسل وراءه مسرورا كبير خدمه وأمره بضرب عنقه ، وقبل أن تنقضي تلك الليلة أمر الرشيد بالقبض على يحيى البرمكي وأبنائه وجميع افراد أسرته ، وحبسهم ومصادرة أموالهم كما فرق الكتب على الولاة بالأقاليم بالقبض على انصارهم وحذر الناس من ايواء أحد منهم . وهذا يدل على أن الخطة كانت مبيتة ولم تكن مفاجئة على الاطلاق .

وعلى الرغم من اهتمام المؤرخين بهذه الحادثة الا أن اسبابها ودوافعها ظلت غامضة ومجهولة . وقد اعترف المؤرخون أنفسهم بذلك ، «يقول الطبري مثلا : وأما سبب غضب الرشيد على البرامكة فانه مختلف فيه» ويقول اليعقوبي : والناس في اسباب السخط عليهم مختلفين». ويقول ابو الفدا : وقد اختلف الناس في سبب ذلك اختلافا كثيرا». كذلك يقول المسعودي : واختلف في سبب ذلك . وهكذا .

ومن هذا نرى أن المؤرخين اختلفوا في تعليل اسباب نكبة البرامكة مما جعلهم يتخبطون في ذكر اسبابها ، ويرجحون بعضها على البعض الآخر .

فهناك فريق يرجع نكبة البرامكة الى استئثارهم بالأموال حتى قيل أن جعفر البرمكي انفق على بناء داره عشرين مليون درهم غير الأثاث والرياش والخدم وما الى ذلك من اسباب الترف والبذخ في الوقت الذي كان الرشيد فيه يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه حتى إنه قال يوما : «ان ضياعهم ليس لولدي مثلها وتطيب نفسي لها». غير أن هذا الدافع يبدو ضعيفا لأن الرشيد كان في امكانه في هذه الحالة أن يصادر أموالهم دون أن يوقع بهم .

فريق آخر من المؤرخين يرى أن السبب في نكبتهم هو اتهامهم بالزندقة ويدللون على ذلك بأن يحيى البرمكي كان يجمع في داره العلماء من أهل النحل والأديان المختلفة ويجعلهم يتناظرون مع العلماء المسلمين في بحوث فلسفية : في الكون والقدم والحدوث والحياة والعدم والحركة والسكون وفي الامامة أنص هي أم اختيار .....الخ .

لهذا اتهم البرامكة بالزندقة وهي تهمة غامضة لأن أي شخص كان معرضا لمثل هذه التهمة بالحق وبالباطل خصوصا اذا أظهر شيئا من التسامح وحرية الرأي . ولهذا فان هذه التهمة تبدو كذلك ضعيفة اذ أنها لو صحت لاتخذها الرشيد حجة قوية لادانتهم واثارة الرأي العام ضدهم .

فريق ثالث يرى أنهم كانوا يضمرون نقل الخلافة إلى العلويين بدليل اطلاقهم

سراح يحيى بن عبدالله العلوي دون استئذان الخليفة. وقد استغل هذا الحادث ضد البرامكة أسوأ استغلال . على أن هذا الانقلاب المزعوم يبدو صعباً في تحقيقه ولو فرضنا أن البرامكة نجحوا في تحقيقه فانهم لن ينالوا مجداً أو نفوذاً اكبر مما في ايديهم فعلاً ، هذا فضلاً عن أن بعض المؤرخين أمثال المسعودي في مروج الذهب يرى أن يحيى العلوي قد قتل بعد أن تسلمه الرشيد مما يدل على أن الروايات غير مجمعة على أن يحيى كان في يد جعفر البرمكي .

فريق رابع من المؤرخين ومن بينهم الطبري ، يرجعون نكبة البرامكة إلى قصة العباسية أخت الرشيد . وملخص هذه القصة ان الرشيد كانت له اخت اسمها عباسة أو العباسية وكانت أديبة مثقفة وكان الرشيد يحب مجالستها ، وفي نفس الوقت كان يحب مجالسة صديقه جعفر البرمكي ، ولكي يجمع بينهما في مجلس واحد في حضرته عقد لجعفر على أخته زواجاً صورياً كي يستطيع أن ينظر اليها ويتحدث معها في مجلسه فقط . ولكن حدث أن اتصل جعفر بالعباسية اتصال الازواج فحملت منه ، وولدت غلاماً أرسلته بعيداً إلى مكة خوفاً من الرشيد . وظل الأمر مستوراً حتى وقع خلاف بين العباسه وبين بعض جواريها ، فأنهت الجارية أمرها إلى الرشيد وأخبرته بمكان الصبي ومع من هو من جواريها وما عليه من الحلى التي زينته بها أمه . ولما حج الرشيد في تلك السنة ، أرسل في طلب الصبي ومن معه من حواضنه . فلما احضروه ، سأل اللواتي معهن الصبي فأخبرته بمثل القصة التي اخبرته بها الجارية على عباسة فأراد قتل الصبي ثم عدل عن ذلك ، ولما عاد من الحج انتقم من البرامكة .

هذا هو ملخص قصة العباسية التي يظهر فيها الخيال والاختراع . وواضح أن القصد منها هو الحط مكانة الرشيد وطعنه في كرامته وعرضه. ولا شك أنها من وضع الشعوبية الفارسية التي ارادت الانتقام من الخليفة الهاشمي العربي الذي أوقع بالبرامكة العجم. ولا شك أن الرشيد لا يمكن أن يطعن في رجولته ومروءته بمثل هذه الصورة المزرية التي تصوره يجمع بين أخته وجعفر بزواج صوري .

وقد زيف ابن خلدون هذه القصة في مقدمته وهاجمها بشدة ، كذلك نجد

الاصفهاني في كتابه الاغاني لا يذكر هذه القصة بل لا يذكر العباسة اطلاقاً مع أن هذا الكتاب يهتم بأمثال هذا القصص . ويروي الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب أن أحد الأدباء سأل مسروراً السياف الذي قتل جعفر عن سبب ايقاع الرشيد بالبرامكة ، فأجابه مسرور : «كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ، لا والله ما لشيء من هذا أصل » .

هذا ويفهم من كلام ابن حزم في جمهرة انساب العرب ان العباسة كانت متزوجة من أمير عباسي يدعى محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس ، وأنها كانت تعيش معه في البصرة . ولو افترضنا جدلا أن هذه القصة صحيحة لاقتصر الرشيد على معاقبة المجرم فقط دون باقي أسرته ولكنه عاقب البرامكة جميعاً وزج بهم في السجن وصادر أموالهم ومنع الشعراء من رثائهم . ومات يحيي والفضل في السجن قبل وفاة الرشيد ، أما سائر البرامكة فقد عفا عنهم الأمين بعد ذلك .

والواقع ان نكبة البرامكة ترجع إلى حد كبير إلى ذلك الصراع الخفي الذي كان قائماً بين حزبي العرب والعجم والذي ظل مستمراً بعد ذلك أيام الأمين والمأمون ثم جاء المعتصم فاضطر إلى استخدام عنصر جديد في الادارة والجيش وهو العنصر التركي .

ففي عهد الرشيد يظهر الصراع بين العرب والعجم بوضوح حينما عهد إلى ابنه الأمين بولاية العهد من بعده سنة ١٧٥هـ وذلك تحت تأثير الحزب العربي الممثل في زوجته زبيدة وحاجبه الفضل بن الربيع . والغريب في هذه البيعة أنها تمت في وقت مبكر عندما كان الأمين صغيراً في الخامسة من عمره مما يدل على أنها كانت لها دلالة خاصة وهي ضمان الخلافة للعصبية العربية . ولم يرض الجانب الفارسي وعلى رأسه البرامكة بهذا الوضع بطبيعة الحال ، فأخذوا يسعون لدى الرشيد حتى نجحوا في جعله يعهد إلى ولده المأمون بولاية العهد بعد الأمين سنة ١٨٢هـ، على أن يتولى المأمون ولاية المشرق بعد وفاة أبيه، بمعنى أن خلافة الأمين بعد وفاة والده تصبح على بلاد المشرق خلافة صورية . ومعروف أن المأمون كان من أم فارسية ولهذا أيده البرامكة .

وفي سنة ١٨٦هـ حج الرشيد ومعه ولداه الأمين والمأمون، وهناك في البيت الحرام (أي في الكعبة) ، أخذ الرشيد على ولديه المواثيق المؤكدة بأن يخلص كل منهما لأخيه ، وأن يترك الأمين للمأمون كل ما عهد اليه من بلاد المشرق : ثغورها ، وكورها ، وجندها ، وخراجها ، وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها وبريدها . وسجل الرشيد هذه المواثيق على شكل مراسيم وعلقها في الكعبة لتزيد في قدسيتها ويؤكد تنفيذها . ، كما كتب منشوراً عاماً للآفاق بهذا المعنى .

مثل هذا التقسيم الذي لم يحدث من قبل في الدولة الاسلامية نلاحظ فيه هذا الصراع الخفي بين العرب والعجم ، فالعرب ضمنوا الخلافة للعربي النسب ، والعجم بزعامة البرامكة ضمنوا الشرق لرجل اخواله عجم . فالعصبية العنصرية ظاهرة في هذا الاجراء السياسي الغريب .

ولقد انتقد المؤرخون والشعراء هذه السياسة الخاطئة التي اتبعها الرشيد ، ومثال ذلك قول ابن الأثير : « وهذا من العجائب ، فان الرشيد قد رأى ما صنع ابوه المهدي وجده المنصور بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد وما صنع اخوه الهادي معه ليخلع نفسه من ولاية العهد . فلو لم يعاجله الموت لخلعه ثم هو يبايع للمأمون بعد الأمين ، « وحُبُّكَ الشيء يعمى ويصم »[1] ، [2]

ويقول في ذلك شاعر معاصر :

رأى الملك المهذب شر رأى	بقسمته الخلافة والبلادا
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدى لها الكُرَبَ الشدادا
ستجري من دمائهم بحور	ذواخر لا يرون لها نفادا
فوزْرُ بلائهم أبداً عليه	أغَيّاً[3] كان ذلك أم رشادا

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذ العرب يوغرون صدر الرشيد ضد البرامكة ويحذرونه من استبدادهم بالأمر وخلعهم له . وصار الرشيد يتلقى رقاعاً

(١) هذه العبارة « وحبك الشيء يعمي ويصم » حديث عن الرسول (صلعم) .

(٢) ابن الاثير الكامل ج٦ ص ٦٥.

(٣) الغية بفتح الغين أو كسرها : الضلال .

غفلاً من التوقيع تصور خطورة الحالة . ومن أمثلة ذلك تلك الرقعة الشعرية التي تقول .

قل لأمين الله في أرضه	ومن اليه الحل والعقدُ
هذا ابن يحي قد غدا ملكاً	مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره	وأمره ليس له رد
ونحن نخشى أنه وارث	ملكك ان غيّبك اللحد

كذلك يروى ان السيدة زبيدة كانت تنفر من البرامكة وأن جعفر البرمكي كان يتعمد عدم تنفيذ أوامرها حتى انها شكته إلى الرشيد واضطر الرشيد أن يعتب على جعفر في ذلك .

ولا شك أن كثرة الدسائس والسعايات قد أفزعت الرشيد وجعلته يشعر بأنه صار مغلوباً على أمره وأن البرامكة شاركوه في سلطانه بشكل أخل بتوازن الدولة وسلامتها مما اضطره إلى التخلص منهم . والعباسيون عموماً كانوا حساسين من هذه الناحية السياسية ولهذا قتلوا كل من شكوا في اخلاصه . ولعل هذا الشعور هو الذي دفع المنصور إلى الاطاحة بأبي مسلم ، والرشيد إلى نكبة البرامكة ، والمأمون إلى التخلص من الفضل بن سهل ، والمعتصم إلى قتل قائده الافشين .

وهكذا تنتهي نكبة البرامكة بانتصار العرب في هذه الجولة . وقد تولى الوزارة بعدهم الفضل بن الربيع نصير الحزب العربي ، كما تولى الرشيد أمور الحكم بنفسه فنراه يتنقل في أرجاء دولته ويقود الجيوش ضد الثائرين وضد البيزنطيين .

سياسة الرشيد الخارجية :

اشتهرت شخصية الرشيد في أوربا نتيجة لعلاقته الودية مع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة شرلمان (٧٦٨–٨١٤م) فقد قامت بين الرجلين صلات ود وصداقة وتبودلت بينهما السفارات والهدايا في المدة التي بين ٧٩٧ ، ٨٠٦هـ . ولا شك أن المصالح السياسية كانت من وراء هذا التفاهم الودي بين الملكين .

فشرلمان أراد من وراء هذا التحالف ان يضعف من نفوذ منافسه امبراطور الدولة البيزنطية ، بينما استغل الرشيد هذا الحلف ضد أعدائه البيزنطيين والأمويين في الأندلس على السواء . وكان شرلمان قد أنشأ اسطولا في البحر المتوسط وبسط حمايته على الجزر الشرقية أو جزر البليار في شرق اسبانيا (ميورقة ومنورقة ويابسة) مهدداً بذلك ، السواحل الأندلسية الشرقية . وقد اضطر عاهل الأندلس الحكم الأول الربضي (٧٩٦ — ٨٢٢م) أن يشن الغارات البحرية على تلك الجزر حتى اضطرت اخيراً إلى الخضوع لنفوذ حكومة قرطبة في عهد ولده عبد الرحمن الثاني (الأوسط) سنة ٨٤٨ م .

على أن المهم هنا هو أن معلوماتنا عن تلك السفارات المتبادلة بين الرشيد وشرلمان ، مستمدة من المراجع الأوربية فقط . أما المصادر العربية فانها لم تشر اليها اطلاقاً للأسف . وهو أمر عجيب حقاً خصوصاً وأن تلك المراجع العربية أشارت إلى سفارات أخرى تبودلت بين خلفاء الأمويين والعباسيين وبين الملوك المعاصرين لهم . فابن عبد ربه مثلاً في كتابه العقد الفريد يشير إلى سفارة أرسلها ملك الهند إلى هارون الرشيد ، وأن هذه السفارة كانت تحمل الهدايا الثمينة ، وأنها استقبلت في بغداد استقبالا رائعاً .

ويرجع بعض المؤرخين الأوربيين أمثال بارتولد وبروكلمان أن بعض التجار العراقيين الذين ذهبوا إلى مدينة اكس لا شابل قاعدة شرلمان ، انتحلوا صفة السفراء الناطقين باسم الخليفة الرشيد لدى شرلمان ، من غير تفويض » ولهذا لم يرد ذكرهم في المراجع العربية . على أنه يلاحظ أن ما نسميه اليوم بالسلك الدبلوماسي لم يكن معروفاً في العصور الوسطى سواء في الشرق أو الغرب ، وكان اعتماد الجانبين في اداء هذه المهام الدبلوماسية على العلماء والفقهاء في اغلب الأحيان .

أما علاقة الرشيد بالبيزنطيين ، فكانت علاقة حرب وعداء كما كانت على عهد أبيه وجده . فالرشيد واصل استكمال تحصينات ثغوره المتاخمة للبيزنطيين ،

وأقام منطقة جديدة بين شمال الجزيرة وشمال الشام أطلق عليها أسم منطقة العواصم (اي التي يعتصم فيها الجند) وجعل قاعدتها مدينة منبج في شمال شرق حلب ، ورتب فيها جيشاً دائماً . كذلك اهتم بمنطقة الثغور الشامية التي على الحدود بين آسيا الصغرى وسوريا ، فعمر فيها طرسوس وأطنة أو أدنه ، وعين زربه [1] ، كما أقام فيها حصوناً جديدة مثل الهارونية بين مرعش وعين زربة . وبلغ من اهتمام الرشيد بمناطق الثغور أن ولي عليها ابنه الثالث أبا القاسم الملقب بالمؤتمن كذلك اهتم الرشيد بتقوية الجيش العباسي حتى صار من أقوى جيوش العالم في ذلك الوقت ثم وجه الحملات المتكررة على المواقع البيزنطية في آسيا الصغرى. وقد سبقت الاشارة إلى الحملة الضخمة التي قادها الرشيد وهو أمير ضد الامبراطورة ايرين وانتصر عليها وقد ظلت ايرين بعد ذلك تدفع الجزية السنوية إلى أن ماتت ، ثم خلفهـــا الامبراطور نقفور الأول Nicephorus I سنة ٨٠٢ ، الذي نقض الهدنة وطلب من الرشيد أن يرد اليه الجزية التي دفعتها ايرين من قبل معللا ذلك بقوله في خطاب له إلى الرشيد :

« من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد، فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيذق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها اليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المبادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك » .

وقد غضب الرشيد من هذه الرسالة غضباً شديداً ورد عليها برسالة مماثلة قال فيها « بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » .

ثم خرج الرشيد على رأس جيش كبير بلغ تعداده ١٣٥ ألفاً سوى الأتباع

---

(١) هذه البلدة عين زربه ازدهرت أيام سيف الدولة الحمداني ثم خربتها الحروب ثم سميت ناورزا .

والمطوعة ، وتوغل في آسيا الصغرى حتى بلغ مدينة هرقلة [1] عاصمة كورة بيثينيا ، فحاصرها واستولى عليها عنوة سنة ٨٠٦م . وأعقب ذلك توجيه حملات متلاحقة بقيادة كبار قواده أمثال داود بن عيسى ، وشراحيل بن معن بن زائدة ، ويزيد بن مخلد ، هزمت جيوش البيزنطيين ودمرت حصونهم ، واضطر الامبراطور نقفور أن يتناسى خطابه ويعترف بهزيمته ويتعهد بدفع الجزية من جديد . وفي ذلك يقول الطبري :

« وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه ، وولي عهده وبطانته ، وسائر أهل بلده ، خمسين ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس أبنه استبراق [2] بدينارين ، كما تعهد بألا يعيد ترميم الحصون التي دمرها الرشيد » ويبدو أن الضربات التي وجهها الرشيد إلى الدولة البيزنطية كانت عنيفة وحاسمة بدليل انها لم تحاول الاستفادة بعد ذلك من الفتنة التي دبت بين الأمين والمأمون في استعادة ما فقدته في عهد الرشيد .

أما عن سياسة الرشيد نحو المغرب والأندلس فنلاحظ أنها تقوم على سياسة الاعتراف بالأمر الواقع في تلك البلاد وعدم الخوض في مغامرات غير مأمونة العواقب كما فعل أبوه المهدي وجده المنصور ولهذا اكتفى بمحالفة جارهم القوي شرلمان ، كما أقام في افريقية دولة مستقلة في نطاق التبعية للخلافة العباسية وهي دولة الاغالبة التي كانت بمثابة ثغر عباسي أو دولة حاجزة Buffer State لحماية أطرافه الغربية من أخطـــار الخوارج ، والأدارسة ، والامويين ، فضلاً عن البيزنطيين . ولم يلبث ابراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الدولة أن شرع في بناء مدينة جديدة على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان سماها العباسية وجعلها قاعدة لامارته سنة ٨٠٠م (١٨٣هـ).

---

(١) تسمى هرقلة اليوم باسم اركلي وتشتهر بمناجم الفحم .

(٢) استبراق هوستوراكيوس Stauracius بن نقفور . ومـــن المعروف أن نقفور قتـــل في معركة ضد البلغار سنة ٨١١ ونجا ابنه ستوراكيوس بجرح بليغ وعين حماه ميخائيل الأول امبراطورا للدولة البيزنطية .

نهاية الرشيد :

كان الرشيد رغم كل هذه الاعمال العظيمة التي قام بها ، يشعر في قرارة نفسه بقلة الحيلة أمام المنافسات والتيارات الخفية في داخل مملكته ، وأن نكبة البرامكة لم تكن حلا للموقف . فهناك ولداه الأمين والمأمون يضمران الشر لبعضهما البعض ، ومن ورائهما حزبا العرب والعجم ينتظران خاتمة الرشيد ليستأنفا نضالهما من جديد . ولذا نجد الرشيد في أواخر أيامه وحيداً حزيناً يخفي علته التي سيموت منها عن الناس . اذ يؤثر عنه أنه كشف عن بطنه لأحد أصدقائه فاذا عليها عصابة من حرير ثم قال له : هذه علة اكتمها عن الناس كلهم ، وكل واحد من ولدي على رقيب ، وما منهم أحد الا وهو يحصى أنفاسي ويستطيل دهري . »

واشتدت العلة بالرشيد وهو في طريقه إلى خراسان للقضاء على ثورة رافع ابن الليث. وتوفي بمدينة طوس (مشهد الحالية في شمال شرق ايران) ودفن بها في جمادي الاخر في سنة ١٩٣ﻫ (٨٠٩م) .

٦ ــ محمد الأمين

١٩٣ ــ ١٩٨ﻫ = ٨٠٩ ــ ٨١٣م

مدة خلافة الأمين لم تكن طويلة ، بدأت منذ وفاة أبيه الرشيد وانتهت بعد حكم دام خمس سنوات تقريباً . وأهم شيء في عهده هو النزاع الذي قام بينه وبين أخيه عبدالله المأمون . وهذا النزاع يعتبر استمراراً للصراع القائم بين العرب والعجم . وكان يمثل الحزب العربي الأمين وأمه زبيدة ووزيره الفضل بن الربيع . أما الحزب الفارسي فيمثله المأمون ووزيره الفضل بن سهل.ومر النزاع بين الأمين والمأمون في مرحلتين :

المرحلة الأولى كانت دبلوماسية سلمية انتهت سنة ١٩٥ﻫ . والمرحلة الثانية كانت مرحلة حرب مسلحة انتهت بمقتل الأمين سنة ١٩٨ﻫ .

بدأ النزاع على شكل مراسلات وسفارات متبادلة بين الأخوين حول مشكلة العهد المعلق في الكعبة . فالمأمون يرى التمسك بنصوص هذا العهد الذي يقضي باستقلاله بشئون خراسان خلال حكم أخيه الأمين . أما الأمين فيرى نفسه خليفة للمسلمين ويستطيع التصرف في أمور خراسان كما تقضي بذلك المصلحة العامة

وأن النص على ولاية المأمون لخراسان لا يعني استقطاع هذه الولاية من الخلافة نهائياً ، بل ينبغي أن يكون للخليفة شيء من النفوذ وذلك بأن يضع على خراسان بريداً . لهذا طالب الأمين بوضع نظام للبريد تابع له في خراسان ، ولكن المأمون رفض هذا الطلب ، لماذا ؟

للاجابة على ذلك ينبغي أن نعلم أن نظام البريد عندهم لم يكن كما نقول نحن اليوم البوسته أي أنه لم يكن بريداً للجمهور بل بريداً خاصاً بأعمال الدولة وسلامتها ، ومهمته التجسس على عمال الدولة وابلاغ العاصمة في أقرب وقت مستطاع بما يجري في الاقاليم من أحداث سياسية واقتصادية وغيرها . ولقد عرف هذا النظام من قديم عند الرومان والفرس ولهذا قيل أن لفظ بريد اصله لاتيني Veridus بينما ذهب البعض الآخر إلى أن أصله فارسي معرب . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من أدخل نظام البريد في الاسلام نقلاً عن البيزنطيين في الشام ثم جاء عبد الملك بن مروان فأدخل عليه عدة تحسينات .

ويقال ان لفظ بريد أطلق في بادىء الأمر على الدابة التي تركب لمهمة رسمية ، ثم اطلق على الراكب نفسه ، ثم اطلق على المسافة التي يقطعها الراكب ، وقد قدرها الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال أي أن البريد هو مسافة اثني عشر ميلاً .

وكان المشرف على هذه الادارة يسمى بصاحب البريد وجرت العادة أن يكون رجلاً أمينا يكتب الأخبار بدقة وأمانة . واهتم العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه في ادارة شئون دولتهم. وقد بلغ ذروة الأزدهار في أيام الرشيد وعلى يد وزيره يحيى البرمكي الذي احاط المملكة بشبكة دقيقة من خطوط البريدكي يتوخى السرعة في تلقي الأخبار واصدار الأوامر . وقد قسمت هذه الخطوط أو المسافات إلى محطات ، وفي كل محطة عدد من العمال والخيل والبغال والجمال وكل ما يحتاج اليه عامل البريد من زاد وعلف ومياه . كذلك كان هناك ما يمكن أن

نسميه بالبريد الجوي ونعني بذلك الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة . وكان لهذا الحمام ابراج خاصة في جميع انحاء المملكة مثل محطات البريد البري ولكنها تزيد عنها في المسافة ، فاذا نزل الحمام في مركز من هذه المراكز نقل البراج الرسالة التي بجناحه إلى طائر آخر كي يصل بها إلى المرحلة التي تليها وهكذا . وكان الايجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل اذ يستغني فيها عن البسملة والمقدمات والألقاب ويكتفي بذكر التاريخ والساعة والمطلوب في صيغة مختصرة وبخط دقيق عرف بالغبار لأنه مثل قوات الغبار .

ولا شك أن ادارة البريد بما كانت تحتويه من سجلات وقوائم بأسماء المحطات والمسافات التي بينها ، قد أفادت اصحاب المسالك أو الجغرافيين العرب بمادة خصبة في ابحاثهم الجغرافية التي قدموها الينا في كتبهم المعروفة باسم المسالك والممالك .

يتضح مما تقدم أن نظام البريد كان نظاماً دقيقاً يربط المملكة بقائدها ويطلعه على كل ما يتجدد فيها أولا بأول .

ومن هنا نفهم لماذا اهتم الأمين بوضع نظام للبريد في خراسان ، ولماذا رفض المأمون هذا الطلب .

ولا شك أن مطامع رجال الحاشية في بلاط كل من الأمين والمأمون ، كانت من العوامل التي زادت في اتساع الخلاف بين الأخوين : فالفضل بن الربيع ينصح الامين بأن يستدعي أخاه المأمون إلى بغداد حتى يظفر به كرهينة ويفصل بينه وبين جنده . والفضل بن سهل يوعز إلى المأمون بالاعتذار عن الذهاب إلى بغداد بحجة أن أمور خراسان تستدعي البقاء فيها . وهنا طلب الأمين من المأمون أن يتنازل له عن بعض كور خراسان بحجة أن مال خراسان يكفيها ، أما مال العراق فلا يكفيه ، ولكن المأمون رفض هذا الطلب برسالة رقيقة حازمة قال فيها :

«فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك ، وأنا مذعن بطاعتك ولا قطيعتك، وأنا

على ايثار ما تحب من صلتك ، وارض بما حكم الحق في أمرك ، أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام » .

وغضب الأمين من رفض المأمون لمطالبه وأرسل اليه رسالة يخبره فيها بين الاذعان لشروطه أو التعرض لنار لا قبل له بها . ولكن المأمون لم يأبه لهذا التهديد ورد عليه بأنه لا يخشى في الحق لومة لائم .

وبعد فشل هذه المفاوضات السلمية اصبح الاحتكام للسيف أمراً لا مفر منه . ففي أوائل سنة ١٩٥ﻫ أمر الأمين بوقف الدعاء للمأمون بعده وأعلن البيعة لابنه موسى ولقبه الناطق بالحق ونقش اسمه على السكة ، وكان هذا بمثابة خلع للمأمون ، ثم بعث من سرق الكتابين بالكعبة وحرقهما . وأمام هذا الاعلان رأ المأمون أن يستعد للحرب ، فجهز جيشاً كبيراً وحشده على حدود خراسان في منطقة الري ، وولى عليه قائدين من اتباعه المخلصين :

القائد الأول هو طاهر بن الحسين ، وكان قائداً حديثاً لم يعرف بعد في الاوساط العسكرية ولكنه اثبت مقدرة حربية في هذا النزاع ولا سيما في حصار بغداد والاستيلاء عليها . وقد ولاه المأمون بعد ذلك ولاية خراسان التي صار حكمها متوارثاً في أبنائه من بعده ، وهذا دفع المؤرخين إلى تسمية ولاية خراسان بالدولة الطاهرية .

اما القائد الثاني فكان هرثمة بن أعين الذي يرجع اليه الفضل في اعداد جيش المأمون اعداداً قوياً .

أما الأمين ، فلم يكن موفقاً في اختيار قواده ، اختار في بادىء الأمر رجلاً من كبار رجال الدولة وهو علي بن عيسى بن ماهان ، وكان هذا الرجل والياً على خراسان أيام الرشيد ، ولذا كان يعرف أحوالها حق المعرفة ، ولكنه كان مكروهاً من الخراسانيين لأنهم لم ينسوا له ظلمه وقسوته .

تقدم علي بن عيسى بن ماهان نحو الري لقتال طاهر بن الحسين دون أن

يستعد له استعداداً كافياً . وذلك لأنه كان يستهين بشأن طاهر لحداثته . وكان يقول في هذا الصدد « مثل طاهر لا نستعد له » . ولكن هذه المعركة انتهت بهزيمة علي بن عيسى وقتله سنة ١٩٥ﻫ . وأرسل الأمين جيوشاً أخرى عديدة إلى الري ولكن مصيرها كان الهزيمة والفشل .

ولقد استنفدت هذه الجيوش موارد الأمين فلم يستطع تجريد جيوش أخرى ، وهنا يتحول المنتصر إلى الهجوم ، وتنتقل الحرب من مداخل خراسان إلى مداخل العراق » ويتقدم الجيش الخراساني نحو بغداد . ولقد اتفق القائدان طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين على ان يقوم الاول بمهاجمة بغداد من الغرب بينما يهاجمها الثاني من ناحية الشرق . وتقدم الجيشان حتى بلغا أرباض بغداد حيث حدثت معارك مختلفة بين الفريقين . ولم يكن جيش الأمين قوياً كما لم يكن قواده في حالة معنوية عالية ، فقد استمال العدو بعضهم بالهدايا والهبات فانضموا اليه واحداً بعد الآخر .

على أن الذين أبلوا في هذا الحصار هم أهل بغداد ولا سيما جماعة العيارين أو الفتيان . والعيار في اللغة هو الشخص الذكي الكثير الحركة والتنقل . وقد ظهرت حركة العيارين بشكل خاص في مدينة بغداد ابان الفتنة بين الأمين والمأمون واتخذت طابعاً شعبياً لأنها جمعت أفراداً من مختلف الطوائف والمذاهب المختلفة ، فكان العيارون من السنة والشيعة ، وفيهم أولاد الفقراء وأولاد الأغنياء الا أن أغلبهم كان من الفقراء والمحتاجين . وكان لهم نظام خاص أشبه بنظام الفرسان السائد في العصور الوسطى فكان لهم رؤساء وقواد ونقباء وعرفاء ومحلات مختلفة في بغداد. وكان مثلهم الأعلى هو علي بن ابي طالب فتى الاسلام الأول . وكانوا لا يلبسون الا الضروري من الملابس ويضعون على رؤوسهم خوذة من الخوص وفي يد كل واحد منهم ترس أو مجن من خوص محشي بالحصى والرمل ، وفي اليد الأخرى مقلاع ، وتحت ابطه مخلاة فيها حجارة ، أي انهم كانوا لا يستعملون السلاح ، فاذا ما انتهت سهام المهاجم قذفوه بالحجارة بواسطة المقلاع .

ويعتقد بعض المؤرخين أن هذه الحركة هي نواة حركة الفتوة التي بعثها الخليفة

العباسي الناصر لدين الله في القرن السادس الهجري والتي كانت تهدف إلى تنظيم الشباب وخلق جيل يتحلى بالمبادىء السامية والأخلاق الكريمة والعادات الحسنة.[1]

ولقد دافع العيارون عن بغداد ببسالة نادرة ، وضربوا أمثلة رائعة في الصمود والشجاعة . فيروى على سبيل المثال أن خراسانياً من قواد طاهر بن الحسين خرج يوماً إلى القتال ، فنظر إلى قوم عراة لا سلاح معهم ، فقال لأصحابه : « لا يقاتلنا الا من ترى !! استهانة بأمرهم واحتقارا لهم . فقيل له : « نعم هؤلاء العيارون هم الآفة » . فقال لهم : أف لكم حين تنهزمون من هؤلاء وانتم في السلاح والعدة والقوة . ثم تقدم هذا القائد الخراساني إلى أحد العيارين وأخذ يرميه بالسهام ، فكان كلما رمى بسهم استتر منه العيار فوقع في باريته (درقة من الخوص) أو قريباً منها ، فيأخذه العيار ويصيح « دانق » أي ثمن السهم دانق قد احرزه . فلم يزالا كذلك حتى فني سهام الخراساني ، ثم حمل عليه العيار ورماه بحجر من مخلاته في مقلاع ، فما اخطأ عينه ، فخر الخراساني على الارض وهو يقول : ليس هؤلاء بانس .

وعلى الرغم من مقاومة هؤلاء الفتيان ، فقد استطاعت جيوش المأمون أن تضرب حصاراً حول بغداد ، فاشتد الجوع بالأهالي لدرجة أن الأمين صرف كل ما لديه من أموال على جنوده واضطر إلى طلب الأمان والتسليم .

وفضل الأمين أن يسلم نفسه للقائد هرثمة لكبر سنه من جهة ، ولقسوة طاهر بن الحسين من جهة أخرى . وغضب طاهر من هذا الاجراء لأنه أراد أن يكون له شرف أسر الأمين . وأخيراً اتفق القائدان على ان يتولى هرثمة مهمة القبض على الأمين بينما تعطى شارة الخلافة (القضيب والبردة) لطاهر .

وخرج الأمين وأتباعه عابرين نهر دجلة في سفينة صغيرة لم تلبث بفعل الزحام

---

(١) راجع (عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٢٨٢) وكذلك(حسين أمين : العيارون ونشاطهم الشعبي في بغداد، مجلة التراث الشعبي ، العدد الثاني ١٩٦٣).

أو بفعل طاهر أن انقلبت . واستطاع الامين أن يسبح إلى الشاطىء . وهناك هجم عليه الجنود الخراسانيون وقتلوه وارسلوا رأسه إلى المأمون وبذلك تنتهي خلافة الأمين .

بقيت مسألة أخيرة تنبغي الاشارة اليها وهي أن المؤرخين دأبوا على ذم الأمين ووصفه بكل وصف رديء بينما أشادوا بالمأمون ورفعوا من شأنه .

ولا شك أن الشعوبية لعبت دوراً كبيراً في اختلاق أمثال هذه الروايات التي وصفت الأمين بالضعف والغدر والتبذير والاستهتار .... الخ .

والواقع ان الامين لم يكن ضعيفاً أو غداراً كما تريد هذه الكتب أن تصوره ولكن تربيته المترفة بحكم الوسط الذي عاش فيه جعلته قليل الصرامة ، بعيداً كل البعد عن اخلاق العباسيين الأوائل الذين عرفوا بالقسوة والشدة . يروى أن احد اتباع الأمين التمس منه أن يقبض على ولدي المأمون اللذين كانا في بغداد وأن يهدد بهما المأمون ، فغضب الأمين عند سماعه ذلك وقال : « وتدعوني الى قتل ولدي وسفك دماء أهل بيتي ؟ ان هذا لتخليط » . والى جانب ذلك فان الامين كان رجلا مثقفاً واسع الاطلاع في اللغة والفقه والأدب والتاريخ وقد شهد بذكائه اساتذته الذين أشرفوا على تعليمه كالكسائي والأصمعي . لهذا نجد أن الأمين كان موضعاً لمديح ورثاء شعراء عصره .

هذا وينبغي أن نلاحظ كذلك أن الأمين لم يكن موفقاً في رجاله ، فلم يكن لديه من الساسة والقواد من يضارع الفضل بن سهل أو طاهر بن الحسين . وهذا كان له اثر كبير في نجاح سياسة المأمون .

الخليفة عبد الله المأمون

١٩٨ – ٢١٨ هـ = ٨١٣ – ٨٣٣م

قلنا إن المأمون ولد في سنة ١٧٠ هـ في اليوم الذي ولي أبوه فيه الخلافة . وكانت أمه أم ولد فارسية تدعى مراجل . اشتراها الرشيد لتلد له لأن زبيدة أبطأت في الحمل فولدت له عبد الله المأمون ثم حملت زبيدة بعد ذلك بقليل وولدت محمد الأمين ، فوقع بين الوالدتين التحاسد مثل الذي حدث بين سارة وهاجر امرأتي ابراهيم الخليل ، ولم يلبث هذا التحاسد أن سرى في الحاشية ومنه الى سائر رجال الدولة . فانضم العرب بزعامة الفضل بن الربيع الى جانب الأمين ، بينما انضم الفرس بزعامة البرامكة ثم الفضل بن سهل الى جانب المأمون . وانتهى الصراع بمقتل الأمين وتولية المأمون .

سياسة المأمون الداخلية :

اتسمت سياسة المأمون بأنها جمعت بين المواقف المتناقضة التي يصعب التوفيق بينها ، فهو يميل الى الفرس تارة ثم الى العلويين تارة أخرى ثم يميل الى

السنة تارة ثالثة فاستطاع بتلك السياسة المرنة أن يجمع بين المواقف المتناقضة وأن يرضي جميع الاحزاب ويتغلب على معظم الصعاب .

لقد نشأ المأمون وتربى على حب الفرس ثم بويع بالخلافة وهو بخراسان ولهذا لم ينتقل الى بغداد مقر الخلافة العباسية بل ظل مقيماً في مدينة مرو بخراسان مدة ست سنوات تقريباً ، انتقل بعدها الى بغداد سنة ٢٠٤ هـ . ويقال إن سبب ذلك هو أن المأمون كان يخشى أهل بغداد أنصار أخيه ، وقيل كذلك ان وزيره الفضل بن سهل هو الذي أقنعه بذلك كي يكون مركز الدولة بين الفرس في خراسان .

وكيفما كان الأمر فان بقاء المأمون في مكان بعيد من مملكته قد تسبب عنه بعض الأزمات السياسية خصوصاً وأنه فوّض ادارة البلاد الى وزيره الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل الذي ولاه المأمون على العراق وتزوج ابنته بوران . ومعروف عن بني سهل انهم كانوا فرساً ولهم ميول فارسية .

ولقد أثار تحيز المأمون للفرس غضب اهل العراق من بني هاشم ووجوه العرب فأشاعوا بأن بني سهل قد حجبوا الخليفة واستبدوا بالرأي دونه .

لهذا نجد أن أول ثورة قامت ضد المأمون كانت ثورة عربية عراقية تزعمها قائد عربي اسمه ابو السرايا السري بن منصور الشيباني ، وكان مركزها مدينـة الكوفة جنوب العراق . وقد انضم الى هذه الثورة عدد كبير من العلويين الناقمين على بني العباس ونجح أبو السرايا أول الأمر نجاحاً كبيراً وانتصر على الجيوش التي أرسلها اليه الحسن بن سهل والي العراق ، واستولى على البصرة والقادسية ، وضرب نقوداً باسمه . ورأى الحسن بن سهل أن يستعين بخبرة القائد هرثمة بن أعين الذي سبق للحسن بن سهل أن طرده من العراق وأمره بالذهاب الى خراسان تخلصاً منه . فبعث اليه يسترضيه ويتلطف اليه الى أن قبل قيادة الحملة الموجهة ضد ابى السرايا . واستطاع هرثمة أن يقضي على تلك الثورة ويقتل قائدها ويشرد أتباعها سنة ٢٠١ هـ .

أما من جهة سياسة المأمون نحو العلويين فكانت تتسم بالعطف والتسامح وكأنه أراد بذلك أن يتلافى مغبة السياسة القاسية التي سلكها آباؤه العباسيون نحوهم من قبل . ويلاحظ أن ميل المأمون الى العلويين يتفق مع ميوله الفارسية اذ كانت أمه وزوجته فارسيتين ، وكان الفرس يعتقدون ان العلويين هم وحدهم أحق بالخلافة بسبب صلة النسب التي تربطهم بآل علي منذ أن تزوج الحسين بن علي ابنة يزدجرد الثالث ملك الفرس الساساني . لقد قام المأمون في هذا السبيل بحركة سياسية غريبة احتار المؤرخون في تفسيرها ، وهي انه في سنة ٢٠١ هـ اتى بأمير علوي وهو الامام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وهو الامام الثامن عند الامامية الاثني عشرية وبايعه بولاية عهده ، ولقبه بالرضا من آل محمد ، وزوجه ابنته أم حبيب ، وأمر جنوده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الثياب الخضراء شعار العلويين وكتب بذلك الى سائر انحاء المملكة . وعلي الرضا هو ابن الامام موسى الكاظم الذي اشتهر بزهده وورعه وقد لقب بالكاظم لأنه كان يحسن الى من يسيء اليه . ويقال إن الإمام جعفر الصادق حول الامامة من بعده من ابنه اسماعيل الى ابنه موسى الكاظم بسبب اتهام اسماعيل بشرب الخمر . وقد أدى هذا التحول الى انقسام الشيعة الى اسماعيلية واثني عشرية . ويبدو أن هذا الانقسام قد دفع بأعداء موسى الكاظم الى الايقاع به عند الرشيد ، فأفهموه بأنه عازم على الخروج عليه ، وان الناس يحملون اليه خمس أموالهم ويعتقدون امامته فقبض عليه الرشيد وحبسه في بغداد فظل فيها الى ان مات سنة ١٧٣ هـ ولا يزال قبره يزار الى الآن في حي الكاظمية بالكرخ في الجانب الغربي من بغداد وهو حي للشيعة . ولقد نشأ ابنه علي رضا نشأة صالحة فكان مثل ابيه موسى الكاظم على جانب كبير من العلم والورع حتى قيل يوماً للشاعر ابي نواس : « علام تركت مدح علي بن موسى والخصال التي تجمعن فيه ؟ » فقال : « لا استطيع مدح امام كان جبريل خادماً لأبيه ، والله ما تركت ذلك الا اعظاماً له ، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله :

قيل لي أنت أحسن الناس طـــرا   في فنـــون مـــن الكلام النبيه

فعلام تركت مدح ابن مــوسى والخصــال التي تجمعن فيه ؟
قلت : لا أستطيع مــدح امام كان جبريــل خادماً لأبيــه

وأغلب الظن ان المأمون حينما جعل علياً الرضا خليفة من بعده ، واتخذ رايات العلويين الخضر شعاراً بدلا من رايات العباسيين السود ، انما كان مدفوعاً في ذلك بشعور ديني وسياسي يرمي الى كسب رضاء العلويين والخراسانيين على السواء .

الا انه يبدو مع ذلك أن المأمون لم يكن مخلصاً تماماً في تحويل الخلافة الى العلويين بدليل انه تراجع عن كل هذه الاجراءات حينما دعت الضرورة الى ذلــك .

فيروي المؤرخون أن العراقيين حينما بلغهم الخبر ، هاجوا وثاروا ورفضوا مبايعة علي الرضا وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس وخلعوا المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي خليفة عليهم ولقبوه بلقب المبارك .

وتضيف الرواية أن أخبار هذه الفتنة في العراق لم تصل الى المأمون وأن الفضل ابن سهل كان يتعمد اخفاءها عنه ، وان القائد هرثمة بن أعين حاول أن يصل الى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الأحوال بالعراق ولكن الفضل بن سهل دبر له من قتله . ومن الطريف أن الشخص الوحيد الذي تجرأ على اخبار المأمون بأخبار هذه الفتن هو علي الرضا ولي عهده عندئذ انتبه المأمون للخطر المحدق به ، وخرج من مرو الى مدينة طوس ليستمد القوة بالصلاة على ضريح والده الرشيد . وفي خلال الطريق قتل وزيره الفضل بن سهل وهو في الحمام بمدينة سرخس . وحينما بلغ مدينة طوس مات صهره علي الرضا من جراء اضطراب في الجهاز الهضمي وان كانت كتب الشيعة تتهم المأمون بقتله وذلك بأن دس اليه من اطعمة عنباً أو شراباً مسموماً . وهناك في طوس دفن علي الرضا في جوار الرشيد — ولم تلبث أن قامت حول مقامه مدينة جديدة وهي مدينة مشهد التي حلت محل مدينة طوس القديمة ، وهي تعتبر اليوم من أهم الاماكن الشيعية المقدسة بعد كربلاء . وفي

قصيدة للشاعر المتشيع دعبل بن علي الخزاعي يمدح فيها علي الرضا ويهجو الرشيد مشيراً الى اجتماع قبريهما في طوس بقوله :

قبران في طوس : خير الناس كلهم   وقبر شرهم ، هذا من العبر !!

وقرر المأمون بعد ذلك العودة الى بغداد بعد أن زالت الاسباب التي دعت الى غضب أهلها ، فوصلها سنة ٢٠٤ هـ حيث أقبل الناس على مبايعته والترحيب به ، وعفا المأمون عن عمه ابراهيم بن المهدي ، ثم عزل الحسن بن سهل من ولاية العراق بعد مدة قصيرة وأمر الناس بلبس السواد مرة ثانية ، وبذلك قطع صلته بابن سهل وهذا يذكرنا بموقف الرشيد بأسرة البرامكة .

على أن المأمون وان كان قد تخلص من بني سهل الا انه اعتمد على اسرة أخرى فارسية الأصل وهي أسرة طاهر بن الحسين الذي ولاه المأمون على خراسان سنة ٢٠٥ هـ واستمر الحكم في أبنائه من بعده فقامت بذلك في خراسان أول امارة شبه مستقلة في الدولة العباسية وهي الدولة الطاهرية .

ثورة الاقاليم :

لا شك أن ضعف السلطة المركزية في بغداد نتيجة للفتن والحروب التي تخللت عصر الأمين وأوائل عصر المأمون قد انتقلت عدواها الى الاقاليم الاسلامية الاخرى كما شجعت بعض الولاة على التهاون بمصالح الناس وارهاقهم بكثرة الضرائب والاعباء المالية المختلفة ، مما أدى الى جنوحهم للثورة والعصيان .

ففي أوائل عصر المأمون كانت الأحوال في مصر مضطربة اذ انتقلت اليها عدوى الخلافات بين الأمين والمأمون ، ففريق كان يؤيد الامين ، وفريق آخر مع المأمون وفريق ثالث بزعامة السري بن الحكم وأولاده يعمل لحسابه الخاص ويضرب فريقاً بآخر بغية الاستقلال بمصر . وتصادف في ذلك الوقت أن قامت ثورة في الاندلس (اسبانيا) ضد أميرها الحكم الاول الأموي ، وهي المعروفة بثورة الربض لأنها قامت في ربض من أرباض (ضواحي) العاصمة قرطبة .

وقد عاقبهم هذا الأمير بهدم ديارهم ، وحرق حيهم ، وحرث أرضه وزراعتها ، ونفيهم من الأندلس . فعبر بعضهم الى المغرب حيث استقروا في مدينة فاس عاصمة الأدارسة الجديدة ، وشاركوا في بنائها وتعميرها . أمـا البعض الآخر فقد واصلوا سيرهم في البحر شرقـاً حتى بلغوا شواطىء الاسكندرية فنزلوا في ضواحيها في أوائل عصر المأمون وكانت الاحوال في مصر مضطربة كما قدمنا . وانتهز الاندلسيون المهاجرون فرصة هذه الفتن ، واستولوا على مدينة الاسكندرية بمعاونة أعراب البحيرة ، وأسسوا فيها امارة اندلسية مستقلة عن الخلافـة العباسية دامت اكثر من عشر سنوات .

وعندما استتب الأمر للخليفة المأمون ، أرسل قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين الى مصر لاعادة الأمور الى نصابها سنة ٢١٢ هـ (٨٢٨ م) فأرسل الى هؤلاء الاندلسيين يهددهم بالحرب ان لم يدخلوا في الطاعة . فأجابوه الى طلبه حقناً للدماء . واتفقوا معه على مغادرة الديار المصرية وعدم النزول في أرض تابعة للعباسيين . ثم اتجهوا في مراكبهم الى جزيرة كريت وكانت تابعة للدولة البيزنطية فاستولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي [١] . وهناك أسسوا قاعدة لهم احاطوها بخندق كبير فعرفت بالخندق ، ثم انتقل هذا الاسم الى الاوربية على شكل Chandax ثم Candia كانديا وهو اسم المدينة الحالية التي تعرف ايضاً بالاسم اليوناني Herakleon وصارت كريت منذ ذلك الوقت قـاعدة بحرية أسلامية ضد الدولة البيزنطية [٢] .

غير أن الأوضاع في مصر لم تستقر بعد حملة عبد الله بن طاهر بن الحسين بسبب تعسف الولاة وفداحة الجزية وكثرة الاعباء الملقاة على كاهل المصريين . ففي سنة ٢١٦ هـ قام الأقباط بثورة خطيرة عمت الوجه البحري كله . واستمرت

---

(١) نسبة إلى فحص البلوط بنواحي قرطبة .

(٢) من المعروف أن جزيرة كريت ظلت في يد المسلمين ما يقرب من قرن ونصف ثم استعادها البيزنطيون سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) على يد نقفور الثاني فوقاس في عهد الأمبراطور رومانوس الثاني .

الثورة ثمانية أشهر حتى اضطر الخليفة المأمون ، وكان في الشام وقتئذ ، أن يذهب الى مصر بنفسه لتهدئة الحالة . وغضب الخليفة على والي مصر وقتئذ واسمه عيسى ابن منصور وأنبه بقوله : « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعالك وفعل عمالك ، حملتم الناس مـــا لا يطيقون ، وكتمتوني الخبر حتى تفاقم الأمـــر واضطربت البلد » . ثم أمر بعزله وحاول المأمون في بادىء الامر أخذ الثوار باللين ، فوسط بينه وبينهم اسقفاً معروفاً باسم دنيس Denys ولكن الوساطة لم تنفع فاضطر الى استعمال الشدة والعنف لاخماد تلك الثورة . ويروي في هذا الصدد أن الخليفة استفتى فقيهاً مالكياً في معاملة الثوار ، فقال له الفقيه « ان كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا يحل دماؤهم وأموالهم » فقال المأمون : « أنت تيس ومالك أتيس منك ! هؤلاء كفار لهم ذمة اذا ظلموا تظلموا الى الامام وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم . وواضح من هذه العبارة أن المأمون يعترف بوقوع ظلم على الرعية ولكنه لا يقر مبدأ الثورة المسلحة كحل للمشكلـــة .

كذلك قامت القبائل والعشائر العربية في الشام والجزيرة بثورات مختلفة بقيادة زعيم عربي اسمه نصر بن شبث . وكانت هذه الثورات موجهة ضد النفوذ الفارسي لميل المأمون الى جانب الخراسانيين . وقد استطاع القائد عبد الله بن طاهر تهدئة هذه القبائل بالحزم والشدة تارة وبالاستصلاح تارة أخرى اذ رفع عن كاهلهم الكثير من الضرائب .

هذا وتنبغي الاشارة كذلك الى ثورة الزط التي قامت في جنوب العراق بنواحي البصرة . وتقول المراجع عنهم انهم جيل من السند في شمال غرب الهند ، انتقلوا الى المنطقة الواقعة على الخليج العربي . والجدير بالذكر أن هذا الاسم « الزط » هو تعريب للكلمة الفارسية جت Jat وأغلب الظن أنهـــا هي نفسها اصل الاسم الذي يطلق على الغجر او النور في اسبانيا وهو خيتانو Jitanos أو في انجلترا باسم Gipsies .

وقد تكاثر عدد الزط وتزايدت قوتهم في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حتى

غلبوا على طريق البصرة ، وأرسل اليهم المأمون عدة حملات في سنتي ٢٠٥ ، ٢٠٦ هـ ، غير أنه لم يستطع القضاء على ثورتهم ، بل ان خطرهم ازداد حتى فرضوا المكوس على السفن الداخلة الى بغداد وحالوا دون وصول الأقوات الى عاصمة الخلافة . واستمر الزط يقاتلون العباسيين الى أن قضى على ثورتهم بعد ذلك القائد العربي عجيف بن عنبسه في عهد الخليفة المعتصم الذي أمر بنفيهم الى مدينة عين زوربة في منطقة الثغور الاسلامية بآسيا الصغرى ، وكانوا نحو سبعة وعشرين ألفاً بين رجال ونساء وأطفال . وبقوا هناك حتى أغار البيزنطيون على مدينة عين زوربة سنة ٢٤١ هـ فأسروا من كان فيها منهم ونقلوهم الى القسطنطينية ، ومن ثم اتجهوا الى مختلف البلاد الأوروبية ومن بينها اسبانيا . وقد اشتهر هؤلاء الزط في المشرق الاسلامي بأنهم كانوا يشتغلون بالغناء والرقص واضحاك الجماهير بأنواع من المحاكاة وضروب من النوادر والحكايات . وقد أشار الى اخبارهم كل من المسعودي في مروج الذهب وابن عبد ربه في العقد الفريد والابشيهي في المستطرف.

النهضة الفكرية في عصر المأمون :

اقترن اسم المأمون بتلك النهضة الفكرية التي ازدهرت في العصر العباسي الاول بوجه عام وفي عصر المأمون بوجه خاص وذلك لأنه شارك فيها بنفسه حتى قيل انه أعلم الخلفاء بالفقه وعلم الكلام وانه فيلسوف الخلفاء وحكيم بني العباس .

اهتم المأمون بجمع تراث الامم القديمة الاخرى وخاصة التراث اليوناني ، فأرسل بعثات من العلماء الى القسطنطينية وجزيرة قبرص للبحث عن نفائس الكتب اليونانية ونقلها الى بيت الحكمة في بغداد . وكان هذا البيت بمثابة معهد علمي يضم مكتبة لنسخ الكتب ، وداراً لترجمتها الى العربية ، وكان له مدير ومساعدون ومترجمون ومجلدون للكتب . وقد بلغ من شغف المأمون بالثقافةالاغريقية أن أرسطو ظهر له في المنام مؤكداً له أنه لا يوجد تعارض بين العقل والدين . ولعل هذا المنام يتصل اتصالا وثيقاً بسياسة المأمون نحو تأييد طائفة المعتزلة التي

تعتبر من أهم الحركات في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، والتي تمثل اتجاهاً عقلياً حراً .

حركة الاعتزال :

من المسائل الهامة التي تعرض لها العقل من قديم وخاض فيها فلاسفة اليونان والزردشتيون (المجوس) والنصارى والمسلمون ، مسألة الجبر والاختيار أي هل الانسان حر الارادة يعمل ما يشاء وانه مسؤول عن عمله ، أو أنه مجبور في أعماله وأن القدر هو الذي يحكم جميع أعماله من خير وشر وأن الله كتب له أعمالا لا بد أن تصدر منه ، وهو الذي قدر له أن يثاب أو يعاقب لأنه عالم بكل شيء وعالم بما يصدر عن كل فرد من خير أو شر .

وقد وردت آيات في القرآن تدل على الجبر : « فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » . وهناك آيات تدل على الاختيار : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . وقد سمي هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة وله قدرة على أعماله ، بالقدرية أو المعتزلة ، بينما عرفت الطائفة الأخرى بالجبرية والسلفيـــة .

واختلف العلماء حول سبب تلقيب المعتزلة بهذا اللقب ، فالبعض يرجعه الى اعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حلقة استاذهما الحسن البصري بسبب اختلافهما معه في بعض المسائل الفقهية . والبعض الآخر يرى أن الاعتزال للفرقة نفسها لأنها اعتزلت أو خالفت الأقوال السابقة وأحدثت رأياً جديداً .

وكيفما كان الأمر فان الكثيرين من المعتزلة لم يرضوا عن هذه التسمية التي اطلقت عليهم ، وانما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد .

أما العدل :

فلأنهم نزهوا الله من أنه كتب على الناس المعاصي ثم عذبهم عليها ، وقالوا بأن الانسان حر فيما يفعل ومن أجل هذا عذب على ما يفعل وهذا عدل ، فالناس

هم الذين يخلقون اعمالهم وانهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعــدل .

أما التوحيد :

فلأنهم نفوا أن يكون لله صفات من غير ذاته أو زائدة عن ذاته ، كالسمع والبصر والقدرة والعلم ، بل الله سميع بصير عالم قادر بذاته وليست هناك صفات زائدة عن ذاته وإلا صار القول تعديداً لله من ناحية وتجسيداً أو تجسيماً له من ناحية أخرى وهذا مستحيل على الله لأنه الله واحد لا شريك له ، ومنزه عن تلك الصفات التي تشبهه بمخلوقاته . لهذا قالوا بضرورة تأويل تلك الصفات وعدم الأخذ بظاهرهـــا .

وكنتيجة طبيعية لنفي الصفات ، نفى المعتزلة أن يكون القرآن صفة من صفات الله ، وقالوا بأن القرآن مخلوق كسائر المخلوقات وليس كلاماً قديماً أزلياً لم يخلقه الله ، لأن الله وصفاته وحدة لا تقبل التجزئة ومحال أن يكون القرآن صفة من صفاته لأنه لو كان كذلك لكان هو وذاته وبقية صفاته شيئاً واحداً ، ونحن نرى أن في القرآن امراً ونهياً وخبراً واستخباراً ووعداً ووعيداً ، فهذه حقائق مختلفة ، وخصائص متباينة ، ومن المحال أن يكون الواحد متنوعاً الى خواص مختلفة . قال الله تعالى « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وقال ايضاً « وجعل الظلمات والنور » فكل ما جعله الله قد خلقه . فالله هو خالق القرآن ومبتدعه ومخترعه .

ولقد نشأت حركة الاعتزال في البصرة وسرعان ما انتشرت في العراق ، وكانت دينية في بادىء الأمر الا انها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة فتكلمت في الامامة وشرط الامام ، وتأثرت بالشيعة في قولهم بحرية الارادة وتأويل النصوص ، كما تأثر بمبادىء المعتزلة بعض خلفاء بني أمية أمثال يزيد بن الوليد ومروان بن محمد . وفي العصر العباسي الاول صار للمعتزلة مدرستان : مدرسة البصرة ، ومدرسة بغداد . واستفاد المعتزلة من الفلسفة اليونانية واستعانوا بها في نظرياتهم وجدلهم وصبغوها بصبغة اسلامية كما هو واضح في كلام النظّام والجاحظ .

فالمعتزلة هم الذين حكموا عقولهم في البحث وخلقوا علم الكلام في الاسلام وهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين كاليهود والنصارى والمجوس . ولم تلبث مبادؤهم ان انتشرت في العالم الاسلامي حتى اقصى المغرب وقد أشار اليعقوبي والبكري والادريسي الى أن مملكة الأدارسة في فاس كانت موطناً للاعتزال ، وأن قبيلة أوربة البربرية التي ساندت المولى ادريس كانت تدين بالاعتزال وأن عبد الله والد المولى ادريس كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة .

والواقع ان دين الاسلام دين توحيد وتنزيه ، والمسلمون عموماً يمتازون بالتوحيد على أساس الاعتقاد بأن « لا اله الا الله وحده لا شريك له » . غير أن أهل السلف من المسلمين وقفوا عند بعض الآيات التي يدل ظاهرها على التجسيم مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ومثل قوله : « ثم استوى على العرش » ومثل « انه سميع بصير » فقالوا اننا نؤمن بوحدانية الله ولا نذهب وراء ذلك ، وتحرجوا عن ابداء آرائهم وقالوا اننا ان دخلنا في تفصيل ذلك كان تفسيرنا وتأويلنا من كلامنا وليس من كلام الله ، وهذا يعرضنا للخطأ ، فيجب أن نتحرز من ذلك . أما المعتزلة فكانوا أجرأ من هؤلاء السلفية فقالوا يجب تأويل هذه الآيات تأويلا يتفق مع التنزيه ، ولا نكتفي بالايمان الغامض لأن العقل لا يقنع بالغموض وله حق الشرح والتأويل والتوفيق بين الآيات .

من هذا نرى أن الخلاف بين المعتزلة والسلف يقوم على سلطة العقل ومداها وحدودها ، فالمعتزلة يرون أن لا حدود للعقل ، بينما يرى السلف أن عقولنا اضعف عن ادراك هذه الصفات الالهية وانه ينبغي أن نؤمن بها كما جاءت والا تعرضنا للزلل [1] .

المأمون والمعتزلة :

كان المأمون يؤيد المعتزلة فيما يقولونه لأنه اكثر حرية واكثر اعتماداً على العقل ، وكتب رسائل في تأييد آرائهم ، ووافقهم فيما ذهبوا اليه من أن القرآن

---

(١) راجع (ابن حزم : كتاب الفصل في الاهواء والملل والنحل ج٣ ص ١٦٦ وما بعدها) وكذلك (احمد أمين : فجر الاسلام ص ٢٨٥ وما بعدها ، ضحى الاسلام ج٣ ص٢١ وما بعدها).

مخلوق : واستغل نفوذه في حمل الناس على القول بذلك ، فكتب الى والي بغداد يطلب منه امتحان القضاة في مسألة القرآن ، وأن يأخذ على القضاة عهداً بألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن ، وأن يعاقب من لم يقل بهذا الرأي . كذلك شجع المأمون المناظرات الكلامية والبحث العقلي في المسائل الدينية كوسيلة لنشر العلم وازالة الخلاف بين العلماء . لهذا قوي نفوذ العلماء في دولته ومن أشهرهم ابراهيم النظّام (ت ٢٢٠ هـ) وأبو الهذيل العلاف (ت ٢٣٥ هـ) وأبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٤ هـ) .

سياسة المأمون الخارجية :

كانت سياسة المأمون نحو دولة الفرنجة أو الامبراطورية الرومانية المقدسة ، استمراراً لسياسة والده الرشيد التي تقوم على مصادقة هذه الدولة الأوربية الغربية . وعلى الرغم من أن وفاة شرلمان حدثت في العام التالي من خلافة المأمون سنة ٨١٤م ، الا أن ذلك لم يحل دون استمرار سياسة التفاهم مع ولده لويس التقى ، اذ تشير المصادر الاوربية الى هذا الامبراطور أرسل سفارة الى البلاط العباسي أيام المأمون سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

أما عن علاقة المأمون بجيرانه الروم أو البيزنطيين فكانت سياسة عدائية على غرار سياسة آبائه من قبل .

ويستفاد من كلام المؤرخين أن المأمون استغل فرصة الفتنة الداخلية التي تزعمها توماس الصقلبي ضد الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني سنة ٨٢١ م ، وأخـذ يمده بالمال والسلاح كي يعينه على فتح القسطنطينية والاستيلاء على الحكم . كما أوعز الى بطريق القسطنطينية أن يتوج هذا الثائر امبراطوراً ليصبغ حركته بصبغة شرعية ولكن الدولة البيزنطية كشفت أخبار هذه الاتصالات وانتهى الأمر بهزيمة توماس الصقلبي وقتله على أبواب القسطنطينية سنة ٨٢٣ م .

ولم يتردد المأمون في السنوات الاخيرة من حياته من قيادة جيوشه بنفسه والتوغل في الأراضي البيزنطية بآسيا الصغرى . وكان في بعض الاحيان يسند قيادة تلك

الحملات الى ابنه العباس ، وقد كانت وفاة المأمون في آخر غزوة من غزواته في الاراضي البيزنطية شمالي مدينة طرسوس نتيجة لاصابته بالحمى هناك .

أما عن علاقة المأمون بدولة الأغالبة في افريقية أو المغرب فنجد أنها كانت كذلك استمراراً لسياسة والده التي تقوم على الاعتراف بحكم هذه الاسرة على على اساس الاستقلال الذاتي مع التبعية للخلافة العباسية . وكان يحكم هذه الدولة في عهد المأمون الأمير زيادة الله الاول بن ابراهيم بن الأغلب (٢٠١ — ٢٢٣ ھ). ويؤثر عن هذا الأمير انه لم ينحرف عن الدعاء للمأمون حينما اغتصب الخلافة عمه ابراهيم بن المهدي ببغداد . فلما عادت الخلافة الى المأمون شكر له ذلك .

ويروي المؤرخون أن المأمون حينما عين قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين والياً على مصر سنة ٢١١ ھ ، كتب الى زيادة الله الأغلبي يأمره بالدعاء لعبد الله ابن طاهر ، فلم يرض زيادة الله بذلك وأمر بادخال رسول المأمون عليه ليلة وقد حل شعره وهو ثمل ونار عظيمة بين يديه في كوانين وقد احمرت عيناه ، فهال الرسول منظره . وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه « يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة [1] ؟ هذا ما لا يكون أبداً ! » ، ثم مد يده الى كيس يجنبه فيه ألف دينار فدفعه للرسول وصرفه . وكانت في الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بني ادريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه بعد» [2] .

وهذا النص السابق يدل بوضوح على أن زيادة الله هدد المأمون بمبايعة الأدارسة والدعاء لهم بدلا من العباسيين اذا ما فكر المأمون في خدش استقلاله الذاتي واجباره على عمل لا يرضيه وقد فهم المأمون ذلك وتراجع عن مطلبه .

وظل زيادة الله الأغلبي حليفاً وتابعاً مخلصاً للمأمون ومجاهداً لأعدائه البيزنطيين في حوض البحر المتوسط . وقد تمت في عهده عملية من اكبر العمليات البحرية في التاريخ الاسلامي وهي الاستيلاء على جزيرة صقلية التابعة للبيزنطيين .

(١) يقصد عبد الله بن طاهر بن الحسين الذي كان أصله من موالي قبيلة خزاعة .

(٢) ابن الخطيب : أعلام الاعلام — القسم الخاص بالمغرب — ص ١٧ ، نشر احمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني .

ففي سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) أمر زيادة الله بالغزو اليها ، واسند قيادة الحملة الى قاضي القيروان أسد بن الفرات بن سنان [1] . ويؤثر عن هذا القائد العالم أنه حينما رأى حوله الجنود والخيول والطبول والبنود قال « يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط وما رأيت ما ترون الا بالأقلام ! فاجهدوا أنفسكم واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه ، واصبروا على شدته ، فانكم تنالون به الدنيا والآخرة !

وكان هذا الجيش الفاتح يتكون من عشرة آلاف فارس معظمهم من الفرس الخراسانيين — وأسد بن الفرات واحد منهم — والبقية من الأفارقة والاندلسيين المقيمين في افريقية . وكان ابحارهم جميعاً من ميناء سوسة في اسطول من مائة مركب الى جنوب جزيرة صقلية حيث ثبتوا اقدامهم في مدينة مازرة Mazara وغيرها من النواحي المواجهة للساحل التونسي جنوباً . ويروي المؤرخون أن مجاعة شديدة حاقت بجنود المسلمين حتى أكلوا لحم الخيل والدواب ، ومضى مندوب عنهم يدعى ابن قادم الى أسد بن الفرات وقال له : « ارجع بنا الى افريقية ، فان حياة رجل مسلم أحب الينا من أهل الشرك كلهم » . فقال له أسد : « ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خير كثير » . فأبى عليه الناس ذلك ، وثاروا عليه ، فأراد أسد بن الفرات حرق المراكب ، فبدرت من ابن قادم كلمة سيئة ، فقال أسد : « على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان » ثم تناوله أسد وضربه ثلاثة أو اربعة أسواط ، وكأنه ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، فتم له ما أراد ، وعادت العزيمة الى الأنفس ، فقاتل الروم قتالا شديداً حتى هزمهم . ولقد استشهد هذا المجاهد الكبير عند اسوار مدينة سرقوسة Syracuse شرقي الجزيرة سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) بعد أن وطد الحكم الاسلامي في بعض نواحيها . وكتب زيادة الله بن الأغلب الى الخليفة المأمون يبشره بفتح صقلية .

---

(٢) كان أسد بن الفرات من موالي بني سليم وأصله من خراسان من نيسابور وولد بحران سنة ١٤١ هـ . ويؤثر عنه أنه كان يقول: أنا الأسد، والأسد خير الوحوش، وأبي الفرات والفرات خير الماء، وجدي سنان ، والسنان خير السلاح .

من كل ما تقدم نرى أن عصر المأمون كان عصراً حافلا بجليل الأعمال السياسية والحربية والعلمية . وقد توفي المأمون اثناء جهاده للبيزنطيين بالقرب من مدينة طرسوس في آسيا الصغرى سنة ٢١٨ هـ وهو في الثامنة والأربعين من عمره وكان قد عهد بالخلافة من بعده الى اخيه أبي اسحاق المعتصم فأحسن بذلك الى أسرته والى نفسه .

٩ ـ أبو اسحاق محمد المعتصم بالله

٢١٨ ـ ٢٢٧ ، ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م

تذكر المصادر أن المأمون كان يميل الى أخيه المعتصم لشجاعته وقوة شكيمته ومتانة خلقه وهي صفات تضمن له تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته ، ولهذا قدمه على ولده العباس في ولاية العهد . وتضيف تلك المصادر أن عدداً كبيراً من الجنود رفضوا مبايعة المعتصم بالخلافة بعد وفاة المأمون وارادوا تولية العباس بن المأمون ولكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة حسماً للفتنة واحتراماً لوصية أبيه . ولقد أفاض المؤرخون في وصف شجاعة المعتصم وقوته الجسمانية : فهو يحمل ألف رطل بسهولة ويمشي بها خطوات ، ويلوي عموداً من الحديد حتى يجعله طوقاً ، ويضغط على الدينار باصبعه فيمحو كتابته ... الخ وكل هذه الروايات هي من باب الاساطير الشعبية التي تدل على ان المعتصم كان جندياً شجاعاً بطبعه ويعتز بقوته البدنية كصفة من هذه الصفات العسكرية . غير أنه يلاحظ أن المعتصم كان الى جانب تلك الصفات رجلا محدود الثقافة ضعيف الكتابة ، مما يحمل على الاعتقاد بأن تأييده للمعتزلة في رأيهم القائل بخلق القرآن ، كان تنفيذاً لوصية أخيه المأمون وليس نتيجة لثقافة عالية .

اهم شيء يتميز به عهد المعتصم هو اهتمام هذا الخليفة باقتناء الجنود الأتراك وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر (أي نهر جيحون) مثل : سمرقند ، وفرغانة ، وأشروسنة ، والشاش ، وخوارزم . وكان ذلك اما عن طريق النخاسة أي الشراء ، واما عن طريق الأسر في الحروب ، واما عن طريق الهدايا التي كان يؤديها ولاة هذه الاقاليم على شكل رقيق الى الخليفة أو الوزير حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة في الاقاليم التركية . ومن ثم صارت أقاليم ما وراء النهر مصدراً هاماً للرقيق التركي الذي صارت تجارته أعظم مهنة هناك على حد قول بعض المؤرخين الأوربيين .

ولقد امتلأت بغداد في عهد المعتصم بأولئك الجنود الترك الذين بلغت عدتهم بضعة عشر ألفاً . وقد ألبسهم المعتصم أفخر الملابس ، وسمح لهم بركوب الخيل في شوارع بغداد مما ادى الى اصطدامهم بالناس في الطرقات ، واثارة سخط أهل العاصمة . واضطر الخليفة نتيجة لذلك الى الانتقال الى سامرا التي بناها على مسافة مائة كيلو متر شمالي بغداد لتكون عاصمة له ، ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار. وما زالت توجد من بقايا هذه المدينة مئذنة جامعها ذات السلالم الخارجية (الملوية) التي على طراز الأبراج البابلية القديمة المعروفة باسم الزكورات . ويرى بعض المؤرخين أن ميل المعتصم للجنس التركي يرجع الى أن أمه كانت تركية اسمها ماردة أو مارية ، وهذا الرأي صحيح من غير شك ، الا أنه يلاحظ أيضاً أن المعتصم حينما استخدم العنصر التركي أراد أن يتخلص من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء . اذ أنه وجد أن سياسة الدولة قد صارت بسبب المنافسة الشديدة بين العرب والعجم أشبه برجل يركب جوادين في وقت واحد . فهو على شفا السقوط .

وكان المأمون قبل ذلك قد لمس هذه الحالة وأقبل على استخدام المماليك الاتراك في حرسه ، ثم جاء أخوه المعتصم فتوسع في استخدام هذا العنصر الجديد اعتقادا منه خطأ بأنهم مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس ومن العصبية التي عرف بها العرب . ولكن هذه السياسة عادت على البلاد بضرر كبير سوف

تظهر نتائجه فيما بعد منذ مقتل المتوكل بن المعتصم سنة ٢٤٧ هـ(٨٦١ م)، اذ أخذ هؤلاء الاتراك يتدخلون في شئون الدولة حتى صار « الخليفة في أيديهم كالأسير ، ان شاؤا أبقوه ، وان شاؤا خلعوه ، وان شاؤا قتلوه .

الحدث الثاني الذي يمتاز به عصر المعتصم هو قضاؤه على الثورات الداخلية التي استعصت على أخيه المأمون من قبل وهي ثورة الهنود الزط التي هددت مرافق الدولة في جنوب العراق ، وقد قضى عليها القائد العربي عجيف بن عنبسة سنة ٢٢٠ هـ . ثم ثورة بابك الخرمي الفارسي التي قامت في الاقاليم الجبلية الشمالية بنواحي أذربيجان وقد قضى عليها القائد الفارسي الاصل حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين وهو لقب ملوك اقليم اشروسنة الذي كان اباؤه أمراء عليه من قديم . وقد تخلص المعتصم من قائده الافشين بعد هذا النصر العظيم الذي أحرزه على الخرمية . فقد اتهمه البعض بالارتداد عن الاسلام ، بينما اتهمه البعض الآخر بأنه كان ينوي الخروج عن طاعة العباسيين والاستقلال ببلده أشروسنه. وكيفما كان السبب فان حياة هذا القائد انتهت في السجن بعد أن منع عنه الطعام حتى مات.

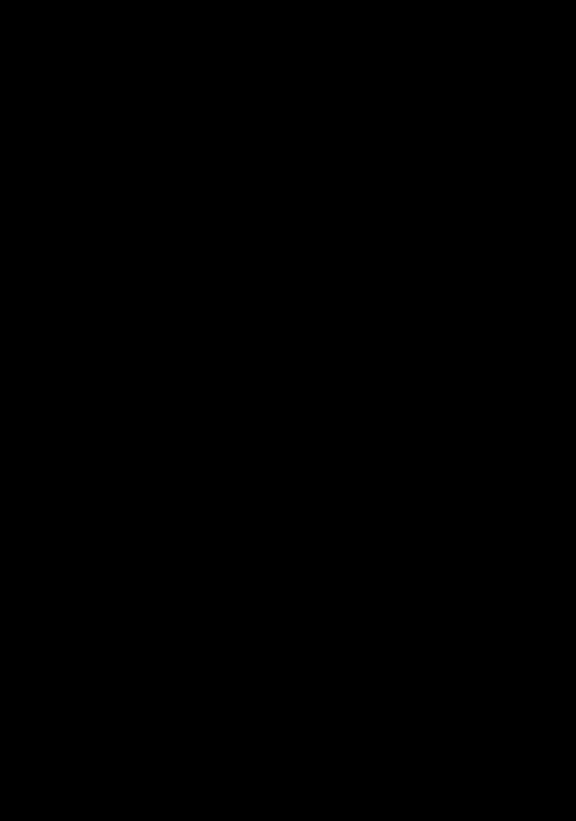
أما الحدث الثالث والأخير الذي يمتاز به عصر المعتصم ، فهو انتصاره الحاسم على البيزنطيين في عمورية بآسيا الصغرى سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) . ومن أخبار هذا الفتح أن الامبراطور تيوفيل البيزنطي انتهز فرصة انشغال المعتصم في مطاردة الخرميين وأغار على الحدود الاسلامية وهاجم مدينة زبطره Azopetra وهي أقرب الثغور الاسلامية إلى بلاد الروم، فأحرقها وخربها وقتل رجالها وسبى نساءها وأطفالها . وغضب المعتصم لهذا الحادث خصوصا وأنه كان يعتز بهذه المدينة لأنها كانت مسقط رأس والدته . ويضيف ابن الأثير ان امرأة هاشمية أخذت تصيح عندما وقعت في أسر الروم : « وامعتصماه » ! فلما بلغ ذلك المعتصم أقسم بأن ينتقم من الروم وأن يخرب مدينة عمورية Amorium مسقط رأس والد الامبراطور البيزنطي وأهم مدينة في الاناضول . ثم جمع المعتصم جيشا كبيرا تولى قيادته بنفسه ، ويقال ان اسم عمورية كان منقوشا على درع كل جندي من جنود المسلمين .

وتقدم المعتصم بجيوشه حتى التقى بجيش تيوفيل فهزمه وخرب مدينة انقرة ثم حاصر مدينة عمورية التي تقع بجوار انقره ، وبعد حصار شديد تمكن المعتصم من اقتحام المدينة عنوة وتخريبها وأسر من فيها . وهكذا انتقم المعتصم من الروم على ما فعلوه في زبطره ، وكان انتقاما رائعا وصفه الشاعر أبو تمام بالقصيدة التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

ويقال ان المعتصم كان يريد أن يواصل فتوحاته إلى القسطنطينية لولا أن اكتشف مؤامرة دبرها ابن أخيه العباس مع القائد عجيف بن عنبسه الذي سبق أن قضى على ثورة الزط . فاضطر المعتصم أن ينهي الحرب مع الروم ، ويقبض على العباس وعجيف ويمنع عنهما الماء إلى ان ماتا .

ولم يعش المعتصم بعد ذلك طويلا اذ أنه أصيب بمرض قضى عليه في أوائل سنة ٢٢٧ هـ .



الفصل الثالث

العصر العباسي الثاني

عصر النفوذ التركي والدول المستقلة فيه

(٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ = ٨٤٧ ـ ٩٤٥ م)

١ ـ سيطرة الاتراك على الخلافة العباسية والدول المستقلة في العصر العباسي الثاني

٢ ـ الدول المستقلة في مصر والشام

ا ـ الدولة الطولونية

ب ـ الدولة الاخشيدية

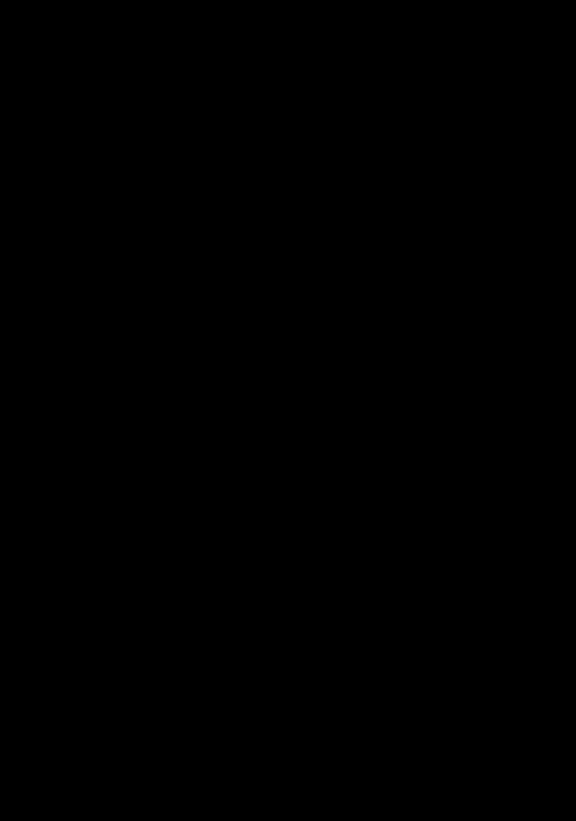
٣ ـ الدول المستقلة في المشرق الاسلامي

ا الدولة الطاهرية

ب الدولة الصفارية

جـ الدولة السامانية

د الدولة الغزنوية



١ ـ سيطرة الاتراك على الخلافة العباسية والدول المستقلة

سيطر الأتراك على الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم ، ولم يقتصر نفوذهم على العاصمة فحسب ، بل شمل الولايات الاسلامية الأخرى ، إذ أخذ الخلفاء يقطعونهم تلك الولايات مقابل جزية معينة يؤدونها لبيت المال . وقد جرت العادة أن يبقى هؤلاء الولاة الأتراك إلى جوار الخليفة في العاصمة بغـداد أو سامرا ، ويرسلون من ينوب عنهم في حكم تلك البلاد .

ومن ثم أخذ خطر هؤلاء الأتراك يستفحل حتى قيل إن الخليفة المعتصم ندم في أواخر حياته على اصطناعه الأتراك . ففي حديث له مع أحد رجال أخيه المأمون ، نراه يظهر اعجابه بالرجال الذين اصطنعهم المأمون أمثال طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر ، ويبدي أسفه على قواده الأتراك بقوله : « وانا اصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشناس ففشل رأيه ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه »[1] .

غير أن أسف المعتصم جاء بعد فوات الأوان ، إذ لما ولى من بعده ابنه

(١) الطبري ـ ٧ ص ٣١٧ .

الواثق ، أمسك الأتراك بناصية الخلافة حتى أصبح الخليفة مكتوف الأيدي مسلوب السلطان . ولما حاول أخوه المتوكل الذي ولي بعده سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) أن يقف في وجههم ويحد من نفوذهم ، فتكوا به ليلا قبل أن يتمكن منهم سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) [١] . ومنذ ذلك الوقت سيطر الاتراك على الدولة تماما حتى صارت في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون . ولابن طباطبا في كتاب الفخري في الآداب السلطانية ، عبارة تصف تلك الحال في الدولة العباسية يقول فيها « واستولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على الخلافة ، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير إن شاءوا ابقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه » . [٢]

وخلف المتوكل ابنه المنتصر بالله الذي خضع لسياسة الأتراك في بداية الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ثار عليهم وصار يسبهم بقوله : « هؤلاء قتلة الخلفاء » . فأغروا به طبيبه ابن طيفور ، ودفعوا له مبلغا كبيرا من المال ، ففصده بريشة مسمومة ، فمات بعد ستة أشهر من خلافته . وأقام الأتراك بعده المستعين بن محمد بن المعتصم (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) الذي لم يلبث هو الآخر أن تنكر لهم وفر محتجا من سامرا إلى بغداد ، فما كان من قادة الترك أمثال وصيف وبغا ، إلا أن أقاموا ابن عمه المعتز بن المتوكل في الخلافة ، ومن ثم قامت حرب أهلية بين المستعين والمعتز عدة أشهر ، اختلت فيها أحوال البلاد الاقتصادية وارتفعت الأسعار ، وانتهى الأمر بانتصار المعتز ومقتل المستعين [٣] .

ولم ينعم المعتز بالحكم طويلا (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) رغم أنه كان مستضعفا مع الأتراك ، ويخشاهم كثيرا ، ويعمل على مداراتهم ودفع خطرهم حتى صار موضع تهكم معاصريه . يروي صاحب الفخري « أنه لما جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : أنظروا كم يعيش وكم

---

(١) اتهم المنتصر بالمشاركة في قتل والده ، وقد نفى عن نفسه هذه التهمة مدعيا أن الوزير ابن خاقان هو الذي قتله أخذا بثأر أبيه .

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٢٠ .

(٣) ابن الأثير جـ ٧ ص ٤٩ — ٥٠ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي جـ ٣ ص ٨

يبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك ! ! فلم يبق في المجلس إلا من ضحك » [1] .

ولقد صدق قول هذا المتهكم الظريف ، إذ أن نهاية المعتز كانت على يد الأتراك عندما خلعوه وعذبوه وقتلوه سنة ٢٥٥ هـ .

وأقام الأتراك من بعده المهتدي بن الواثق الذي بدأت في عهده ثورة الزنج الخطيرة في جنوب العراق بقيادة علي بن محمد واستمرت بعد ذلك أربع عشرة سنة هددت خلالها كيان الدولة العباسية [2] .

وحاول المهتدي أن يوقع ، بين قادة الترك كوسيلة للتخلص من نفوذهم ؛ ولكنهم فطنوا لمحاولته وقتلوه قبل أن يمر عام على توليته سنة ٢٥٦ هـ .

واستمر الخلفاء العباسيون العوبة في يد القواد الترك لا حول لهم ولا قوة حتى إنه يروى أن الخليفة المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) فكر في الهروب إلى مصر ، واتصل فعلا بواليها الأمير محمد الأخشيد في مدينة الرقه سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) ، غير أن أمير الأمراء التركي توزون علم بأنباء هذه المفاوضات واعتقل الخليفة المتقى وخلعه من الخلافة ثم كحّله (أي سمل عينيه) جزاء له على هذا العمل . وفي بداية عهد الخليفة المستكفي حل النفوذ البويهي الفارسي محل النفوذ التركي سنة ٣٣٤ هـ .

ولعل أصدق وصف لتلك الحالة التعسة التي مر بها الخلفاء العباسيون في تلك المرحلة السالفة ، هو قول الشاعر العلوي دعبل (المتوفي سنة ٢٤٦ هـ) :

خليفة مات ، لم يحزن له أحـــد وآخر قام ، لم يفرح به أحـــد
فمرّ ذاك ومـــرّ الشؤم يتبعُـــه وقام ذا فقام النحس والنكد [3] .

(١) ابن طباطبا : نفس المصدر ص ٢٢١ .
(٢) ، (٣) احمد علبي : ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ص ٦٠ .

على أن موضع الأهمية هنا ، هو أن ضعف الخلافة والحكومة المركزية في بغداد قد شجع على قيام حركات انفصالية ونزعات استقلالية في أطراف الدولة .

ويلاحظ في هذا الصدد أن الفتوحات الإسلامية شملت عالما واسعا من الأقاليم والأجناس والشعوب واللغات المتباينة من أواسط آسيا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا . وعلى الرغم من أن هذه الاقطار الواسعة قد اتحدت برباط ديني واحد وهو الإسلام ، إلا أنها لم تتحد في قومياتها أو بيئاتها أو لغتها ، فقد ظل كل اقليم له شعبه وقوميته وبيئته ومصالحه الخاصة به . ثم جاءت الدولة العباسية ومعها فكرة المساواة بين العرب وبين الشعوب المختلفة فأيقظت الروح القومية بين تلك الشعوب .

ولهذا كان من الطبيعي أن ينتزع كل اقليم إلى الاستقلال بشئونه عن السلطة المركزية في بغداد كلما سنحت له الفرصة بذلك .

ولقد انتشرت هذه الحركات الاستقلالية في المشرق الإسلامي بشكل واضح في القرن الثالث الهجري أي في العصر العباسي الثاني . فقامت دويلات مستقلة تركية وفارسية ، ولكن العنصر التركي هو الذي كان سائدا فيها جميعا ، ومثال ذلك الدول الصفارية والسامانية والغزنوية في المشرق ، ومثل دولتي الطولونيين والاخشيديين في مصر والشام .

وتجدر الملاحظة في هذا الصدد أن المشرق الاسلامي كان بالنسبة للخلافة العباسية هو المعين الخصيب الذي تستمد منه قوتها وأنظمتها منذ بداية نشر دعوتها . لهذا حدث نوع من الارتباط بين الشرق والخلافة يقوم على الولاء للخلافة حتى في أشد فترات ضعفها . ونلمس ذلك بوضوح في حرص الدول التي استقلت في المشرق — بما في ذلك مصر والشام — على إعلان تبعيتها وولائها عن طريق الدعاء للخليفة العباسي ونقش اسمه على السكة وارسال الجزية إلى بغداد في كل عام . فهو استقلال ذاتي أو داخلي فقط . وهذه الظاهرة لا نجدها

في دول المغرب الاسلامي التي استقلت استقلالا تاما سياسيا وروحيا عن الخلافة العباسية منذ العصر العباسي الأول مثل الدولة الاموية السنية في الأندلس ، ودولة الأدارسة العلويين في فاس بالمغرب الأقصى ، ودولة بني رستم الإباضية في تاهرت بالمغرب الأوسط ، ودولة بني مدرار الصفرية في سجلماسة (تافيلالت حاليا) جنوبي المغرب الأقصى .

ولا شك أن هذه النزعات الاستقلالية شرقا وغربا ، قد أضرت بوحدة الدولة الإسلامية ، إلا أنها في الوقت نفسه قامت بدور ايجابي في نشر الإسلام فيما وراء الحدود الإسلامية في آسيا وافريقيا واوربا ، فضلا عن أن تنافسها فيما بينها قد ساعد على ازدهار الحضارة الاسلامية في تلك الجهات ، وظهور مراكز حضارية فيها كانت قبلة أنظار العلماء والتجار والشعراء مثل بخاري وسمرقند والقسطاط وقرطبه وفاس وغيرها .

٢ ـ الدول المستقلة في مصر والشام

الدولة الطولونية في مصر والشام :
(٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م)

سبقت الاشارة إلى أن الاتراك سيطروا على الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم، وان نفوذهم لم يقتصر على العاصمة فحسب بل تعداها إلى الولايات الاسلامية الاخرى بما في ذلك مصر ، فيروي الكندي في كتابه « ولاة مصر وقضاتها » ان المعتصم كتب إلى عامله التركي على مصر ويدعى كيدر يأمره باسقاط العرب من ديوان الجند ففعل ذلك . ومنذ ذلك الوقت صار معظم جنود مصر وولاتها من الاتراك بينما تحول العرب إلى الأعمال الزراعية والتجارية إلى جانب اشتراكهم في القتال اذا دعتهم الحكومة إلى ذلك .

ولقد جرت العادة أن تمنح ولاية مصر اقطاعا لهؤلاء الولاة الاتراك ، كما جرت العادة ايضا أن يبقى هؤلاء الولاة إلى بجوار الخليفة في بغداد أو سامرا ويرسلون من ينوب عنهم في حكم مصر .

ومن هؤلاء النواب الأتراك الذين حكموا مصر ، نذكر أحمد بن طولون .

كان أبوه طولون من المماليك الاتراك الذين أرسلهم حاكم مدينة بخاري [1] ضمن هدايا الرقيق التركي إلى الخليفة العباسي المأمون سنة ٢٠٠ هـ . وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى وصل إلى مرتبة قائد الحرس الخلافي . وكانت ولادة ابنه احمد في مدينة سامرا في عهد المعتصم سنة ٢٢٠ هـ وقيل ان طولون تبناه ولم يكن ابنه .

وكيفما كان الامر فان احمد بن طولون نشأ نشأة عسكرية ممتازة في سامرا ، كما درس العلوم الدينية والفقهية في بغداد وطرسوس ، وهما من أهم المراكز العلمية في ذلك الوقت .

وبعد وفاة والده طولون تزوجت امه الأمير باكباك الذي عينه الخليفة العباسي المتوكل بن المعتصم واليا على مصر . فأرسل باكباك احمد بن طولون ليتولى باسمه حكم مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وبعد فترة قصيرة قتل ربيبه باكباك وحل محله في ولاية مصر أمير تركي آخر اسمه ياركوخ . ورأى احمد بن طولون ، لتأمين مركزه ، أن يتزوج ابنة هذا الوالي الجديد ، وكانت نتيجة هذا الزواج ان أقره صهره على مصر وكتب اليه « تسلم من نفسك إلى نفسك » .

وهكذا اتيحت الفرصة لاحمد بن طولون كي يقيم في مصر أول دولة مستقلة في العصر الاسلامي ، ولم يكن يربطه بالخلافة سوى بعض المظاهر الشكلية التي أشرنا اليها آنفا وهي :

١ ــ الدعاء للخليفة في الخطبة يوم الجمعة .

٢ ــ نقش اسم الخليفة على السكة (النقود) .

٣ ــ ارسال جزء من الخراج (الدخل) لدار الخلافة .

ولم يقتصر سلطان ابن طولون على مصر وحدها بل امتد نفوذه إلى بلاد

---

(١) بخاري مدينة الآن في أ. بك ـ بالاتحاد السوفياتي ، وتقع على ملتقى الطرق بين روسيا وفارس والهند والصين ، وأغلب سكانها مسلمون وتشتهر بصناعة السجاد

الشام شمالا وإلى ليبيا غربا ، وقد ساعده على هذا التوسع أن الخلافة العباسية كانت مشغولة في ذلك الوقت باخماد فتنة عظيمة وهي فتنة الزنج او العبيد بجنوب العراق . اضف إلى ذلك ان احمد بن طولون لم يكف عن ارسال الاموال والهدايا إلى كبار رجال الجيش والدولة في بغداد ، وهذا من غير شك قوي من مركزه هناك .

اهم اعمال احمد بن بولون :

أولا : بناء جيش للدولة :

اعد احمد بن طولون جيشا قويا اعتمد عليه في تنفيذ مشاريعه السياسية والحربية . والروايات العربية تقدر ذلك الجيش بتقديرات لا تبدو بعيدة عن الغلو . فالمقريزي يروي في خططه ان ابن طولون : « استكثر من شراء المماليك الاتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشترى العبيد الزنج أربعين الفا ، كما انه استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة الآف حر مرتزق » . وقد بلغ من ضخامة هذا الجيش ان احمد بن طولون بنى لهؤلاء الجنود ثكنات جديدة وهي مدينة القطائع شمالي الفسطاط .

ثانياً : مدينة القطائع :

أسس ابن طولون هذه المدينة في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) واختار مكانها على جبل يشكر بين الفسطاط وتلال المقطم ، عند مكان القلعة حاليا . وبنى فيها قصرا ضخما جعل أمامه ميدانا فسيحا ليستعرض فيه جيوشه ، ثم اختط حول القصر ثكنات جنوده وحاشيته ، وجعل لكل فئة من جنوده قطعة خاصة بها : فالجنود السودان لهم قطعة ، وللجنود الترك قطعة ، وللروم قطعة .. وهكذا ، ولذا سميت بالقطائع . ولقد شيد ابن طولون في الجهة الشرقية من القطائع قناطر للمياه لا تزال بعض عقودها قائمة. وقد وصف هذه القناطر احد الشعراء المعاصرين بقوله :

بناء لو ان الجن جاءت بمثله ... لقيل لقد جاءت بمستفظع نُكْر [1]

(١) زكي حسن : الفن الاسلامي في مصر ص ٦٥

ثالثاً : جامع ابن طولون :

بنى احمد بن طولون بجوار القصر وعلى سفح جبل يشكر مسجده المعروف باسمه حتى اليوم . وقد انتهى من بنائه في سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٩م) كما هو واضح من لوحة حجرية لا زالت مثبتة على احدى دعامات المسجد ومنقوشة بالخط الكوفي.

وكما انه لم يبق من مدينة الفسطاط سوى جامع عمرو بن العاص ، فانه لم يبق من مدينة القطائع سوى جامع ابن طولون ، مع فارق واحد وهو ان جامع عمرو الأصلي لم يبق منه شيء بينما بقي جامع ابن طولون بحالته الاصلية إلى اليوم فيما عدا المئذنة التي أعاد بناءها على صورتها الاولى السلطان حسام الدين لاجين المنصوري أحد سلاطين دولة المماليك الاولى « البحرية » سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) .

وجامع ابن طولون يمثل عمارة المساجد العراقية ، وبهذا يبدأ الفن المعماري في مصر عهدا جديدا ، اذ انه تخلص من التأثيرات البيزنطية التي كانت موجودة من قبل ، وأخذ أصوله من الفن للعراقي ومن الأساليب الفنية العباسية . ويلاحظ ذلك في سلم المئذنة الخارجي الذي يلتف حولها بشكل دائري ، وهو يشبه في ذلك مئذنة المسجد الجامع بمدينة سامرا المشهورة باسم المنارة الملوية . ويرى العالم الاثري كريزويل ان هذه المآذن العراقية صورة متطورة من المعابد الفارسية التي كانت تعرف باسم الزقورات Zikkurat أيـــام السومريين او البابليين [1] ، او معابد النار التي كان يقيمها الساسانيون ، ولا شك ان ابن طولون قد تأثر أثناء حياته الاولى في سامرا بهذا النوع من البناء فطبقه على مئذنته .

والمسجد على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٦٢ مترا ويشغل مساحة قدرها ستة أفدنة ونصف ، فهو أكثر مساجد القاهرة اتساعا . ولقد بنى المسجد بالآجر المكسو بالجص بينما بنيت المئذنة بالحجارة . كذلك استخدمت فيه العقود المدببة المنفوخة لأول مرة في العمارة الاسلامية . كذلك امتاز هذا

(١) نذكر على سبيل المثال برج بابل الذي كما وصفه هيرودوت برج من ثمانية ادوار ويرتقى حوله سلم خارجي .

الجامع بمجموعة زخرفية متنوعة لم تجتمع من قبل في أي أ معماري آخر . ونجد ذلك في اطارات النوافذ والطاقات والعقود والدعامات ، وهي مجموعة زاخرة من أشكال التوريق Arabesques وهي أشكـــال زخرفية مقتبسة من أوراق نباتية وخطوط متعرجة أو متعانقة أو لولبية . كذلك سجل معظم القرآن الكريم بالخط الكوفي في الاطار الخشبي الذي يحيط بجدران المسجد الداخلية .(١)

ولقد جعل ابن طولون في هذا الجامع خزانة بها بعض الادوية والاشربة التي قد يحتاج اليها المصلون . كما عين لهذا الجامع طبيبا خاصا لاسعاف المصلين في الحالات الطارئة فهو بمثابة طبيب اسعاف .

رابعاً : المارستان او البيمارستان :

وهي كلمة فارسية بمعنى المستشفى . وقد بناه ابن طولون لمعالجة المرضى على اختلاف حالاتهم ، والحق به صيدلية لصرف الادوية . فاذا دخل المريض هذا المستشفى، تنزع ثيابه وتقدم له ثياب اخرى ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان، ثم يوضع في مكان تتوفر فيه وسائل الراحة . ويظل المريض تحت العلاج مجانا حتى يتم شفاؤه . فاذا قدمت له دجاجة ورغيف فهذا معناه انه قد شفي ويؤذن له بمغادرة المستشفى . وكان ابن طولون يطوف بانحاء المستشفى اسبوعيا ويتفقد الادوية وأعمال الاطباء ويشرف على المرضى .

خامساً : الاعمال الدفاعية والأسطول :

حصن ثغور مملكته في الشام ومصر مثل عكا ويافا ودمياط والاسكندرية . كذلك بنى حصنا قويا في جزيرة الروضة وزوده بجميع الاسلحة والذخائر للاحتماء به وقت الخطر . وقد سميت الجزيرة وقتئذ بجزيرة الحصن نسبة إلى هذا البناء الحربي العظيم . كذلك انشأ في هذه الجزيرة دارا للصناعة أي لصناعة السفن . هذا ومن المعروف ان هذه الجزيرة لم تسمى بالروضة الا في أيام الفاطميين

(١) راجع (احمد فكرى : المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، عبد العزيز سالم : المآذن المصرية زكي حسن : فنون الاسلام)

في عهد الخليفة الآمر الذي انشأ فيها بستانا عرف بالروضة . ويروي محمد بن منكلي (القرن ٨ هـ) ان عدة المراكب المرصدة للجهاد في أيام احمد بن طولون بلغت مائة شيني . فلما مات وتملك ابنه خمارويه بعده زاد في عددها وعدتها [1] .

سادساً : نقل الخلافة العباسية إلى مصر :

في خلال حكم ابن طولون وقع نزاع بين الخليفة العباسي المعتمد وبين أخيه وولي عهده احمد الموفق الذي استبد بالحكم وسيطر على أخيه الخليفة . وفكر الخليفة المعتمد في الهرب إلى مصر للتخلص من سيطرة أخيه . ورحب ابن طولون بمشروع نقل الخلافة إلى مصر لأنه سيعود عليه بالخير والنفع سواء من الناحية السياسية او الادبية او الاقتصادية :

فاولا — سوف يوفر عليه ارسال الجزية السنوية المعتادة إلى دار الخلافة .

ثانيا — وجود الخليفة في مصر سوف يقوي من نفوذ احمد بن طولون الادبي ويكسب حكمه صفة شرعية ضد محاولات منافسه احمد الموفق .

لهذا أرسل ابن طولون إلى الخليفة المعتمد سنة ٢٦٨ هـ رسالة مع رسول متخفف يحرضه فيها على القدوم إلى مصر ويعده بالعمل على حمايته ونصرته . وقد أورد البلوى في كتابه سيرة احمد بن طولون نص هذا الخطاب الذي يقول ابن طولون فيه :

« قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ما لهفي عنقي من الايمان المؤكده ، وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان انجاد ، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ، ولا يتهيأ لاخيه (الموفق) فيه شيء مما يخافه عليه منه في كل لحظة . فان رأى أمير المؤمنين ، أيده الله ، ذلك صوابا قدمه ان شاء الله ، وأظهر الخروج لهذه القصبة » .

---

(١) محمد بن منكلي : كتاب الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر ، لوحة ٤١ الباب ٢٩ (مخطوط بمكتبة تيمور رقم ٢٣ فروسية ، وتوجد نسخة شمسية بكلية الآداب بالإسكندرية رقم ٩ م)

وانتهز الخليفة المعتمد فرصة اشتغال أخيه الموفق باخماد ثورة الزنج ، وخرج من مدينة سامرا سنة ٢٦٩ هـ متظاهرا بأنه يريد الصيد وهو في الواقع يريد مصر . غير ان الموفق علم بأمر هذه المحاولة وأمر عامل الموصل برد الخليفة إلى بغداد والقبض على جميع من معه من القواد . وبذلك فشل مشروع نقل الخلافة إلى مصر .

وغضب الموفق على احمد بن طولون ، ولكنه لم يتمكن من محاربته لانشغاله بحرب الزنج ولذا لجأ إلى سياسة الكيد والمؤامرات وارسال الجواسيس إلى مصر لاثارة الشعب ضد ابن طولون يروي المقريزي ان ابن طولون اكتشف يوما ان نعله قد فقد من حجرة نومه ثم اذا بالموفق يرسله اليه مع رسول خاص قائلا له: « من قدر على أخذ هذا النعل ، أليس بقادر على أخذ روحك ؟ » ويضيف المقريزي ان سرقة النعل قد كلفت الموفق خمسين الف دينار من الرشاوي .

ولم يقف ابن طولون مكتوف الأيدي أمام دسائس الموفق ، فقد أقام هو الاخر شبكة دقيقة من الجواسيس في العراق ومصر والشام كما كان له ادارة مخابرات في كل مدينة وهم المعروفون بعمال البريد . ولم يتردد ابن طولون في قتل كل من اشتبه في أمره حتى قيل ان عدد ضحاياه كان كبيرا . كذلك أصدر ابن طولون أوامره بلعن الموفق على منابر المساجد في مصر والشام .

سابعاً : توطيد علاقته مع الدولة الاموية في الاندلس :

لعل سياسة التقرب التي اتبعها أحمد بن طولون نحو الامويين في الاندلس ، كانت من باب الكيد للأمير الموفق وأتباعه العباسيين ، اذ يروي المؤرخون ان ابن طولون بنى ضريحا لمعاوية بن أبي سفيان في دمشق ووطد علاقته بالدولة الاموية في الاندلس أعداء العباسيين . ويذكر المؤرخ الاندلسي ابن الفرضى في كتابه تاريخ علماء الاندلس ان عددا من علماء الاندلس رحلوا إلى مصر فرحب بهم ابن طولون وعين بعضهم في مراكز الدولة الهامة . كذلك يروى الرحالة الاندلسي ابن جبير ان الغرباء من أهل المغرب والأندلس في مصر كانوا يسكنون في جامع ابن طولون ويدرسون فيه منذ أيام مؤسسه احمد بن طولون الذي

أجرى عليهم الأرزاق في كل شهر ، وجعل أحكامهم اليهم ، فقدموا من انفسهم حاكما يتحاكمون عنده في طوارىء أمورهم . [1]

صفات ابن طولون :

كان حاكما مستبدا مستنيرا ، اتصف بالقسوة والميل إلى سفك الدماء لتوطيد ملكه . ويبدو أنه كان مضطرا إلى ذلك لمقاومة دسائس العباسيين والشيعة وبعض رجال دولته وأهل بيته وخص بالذكر ولده العباس الذي قام بثورة لعزل والده فكان جزاؤه السجن حتى الموت . على ان هذه القسوة التي اتصف بها ابن طولون كانت تنطوي على قلب انساني رقيق . ويظهر ذلك جليا في بكائه الشديد عند الموعظة ، وفي الاحلام المزعجة التي كانت تنتابه بكثرة ، وفي كثرة الصدقات التي كان يتصدق بها على الناس الفقراء ، وفي حبه لسماع الموسيقى والغناء .

وتوفي احمد بن طولون عام ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) وهو في سن الخمسين بعد أن حكم ستة عشر عاما ودفن بالمقطم ، وقد ترك ذرية كبيرة تقدر بنحو ١٧ من الذكور ، ١٦ من الاناث .

وخلاصة القول ، لقد تمتعت مصر والشام في أيامه بكل مميزات الاستقلال في الحكم والادارة وشعر الناس في عهده بالرفاهية والاستقرار فانتعشت بذلك كل مرافق البلاد .

ابو الجيش خمارويه :

(٢٧٠ — ٢٨٢ هـ = ٨٨٣ — ٨٩٥ م)

خلف أباه احمد بن طولون في ولاية مصر والشام وامتد حكمه اثني عشرة سنة . لم يكن خمارويه رجل حرب بل كان شابا مترفا يميل إلى حياة السلم والرخاء ، ولهذا كادت الشام تضيع من ملكه في أوائل عهده . وتفصيل ذلك ان الأمير الموفق العباسي انتهز فرصة وفاة احمد بن طولون وأرسل جيشا للقضاء على

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٦—٢٧ (طبعة بيروت ١٩٥٩)

الدولة الطولونية ، فاستولى على دمشق وانحدر جنوبا حتى قارب الحدود المصرية ، فخرج اليه خمارويه وتقابل الجيشان عند مدينة الرملة جنوبي فلسطين سنة ٢٧١ هـ وبعد معركة قصيرة هزم خمارويه وانسحب إلى مصر انسحابا مخزيا ، غير ان قائده سعد الأعسر استطاع الثبات والانتصار على العباسيين . ولما علم خمارويه بهذا النصر عاد ثانية إلى الشام واستعاد دمشق وواصل فتوحاته إلى الجزيرة والموصل فاعاد حدود الدولة إلى ما كانت عليه أيام أبيه من حدود العراق شرقا إلى برقة غربا ومن شمال الشام إلى النوبة جنوبا .

ثم عقد خمارويه صلحا مع الموفق والخليفة العباسي المعتمد سنة ٢٧٣ هـ وتضمن هذا الصلح أن تترك مصر والشام لخمارويه وأولاده من بعده ثلاثين سنة . وبمقتضى هذا الصلح كف خمارويه عن لعن الموفق على المنابر وأمر بالدعاء له مع الخليفة .

ثم ساعدت الظروف خمارويه بموت الموفق سنة ٢٧٨هـ وبموت أخيه الخليفة المعتمد بعده بسنة (٢٧٩هـ) فخلا له الجو وتوطد سلطانه في مصر والشام .

وحرص خمارويه على اكتساب رضاء الخليفة العباسي الجديد المعتضد ابن الموفق ، فتوطدت العلاقات بين بغداد والقطائع إلى درجة أن خماويه عرض زواج ابنته اسماء التي تلقب بقطر الندى من الأمير المكتفي بن الخليفة العباسي ، ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق والدها على ذلك وجهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف . وقد أفرد المؤرخون الصفحات الطوال في وصف هذا الجهاز والاشادة بذكره حتى ان بعضهم اعتقد بأن الخليفة أراد بزواج قطر الندى أن يفقر أباها في جهازها وهكذا وقع [1] .

وكيفما كان الأمر فان هذا الوصف يدل على ازدهار الصناعة في مصر وامتلاء أسواقها بمثل هذه المنتجات .

وقد تم هذا الزواج في سنة ٢٨١ هـ وبنى خمارويه القصور والاستراحات

(١) راجع وصف الجهاز في (أبو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة — ٣) .

على جانبي الطريق إلى بغداد كي تتمتع ابنته قطر الندى في أثناء سيرها بكل وسائل الراحة فتشعر وكأنها لم تفارق قصر أبيها .

عناية خمارويه بمدينة القطائع :

اهتم خمارويه بمدينة القطائع وصرف عليها أموالا كثيرة ، ومن المؤسف ان هذه المدينة قد ضاعت معالمها اليوم ولم يبق منها سوى الجامع ، على ان الذي يعوضنا عن هذه الخسارة ان المراجع التاريخية أعطتنا صورة واضحة لهذه المدينة الجميلة وحضارتها الزاهرة . فيروي المقريزي في خططه وأبو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، ان خمارويه حول الميدان الذي كان أمام القصر لعرض الجند إلى بستان جميل تأنق في تنسيقه فغرس فيه الرياحين والزهور على شكل على نقوش وكتابات ، كما كسا جذوع النخل نحاسا مذهبا وجعل بين النحاس وجذوع النخيل أنابيب من الرصاص تجري فيها الماء وتخرج على شكل عيون ونافورات وتنحدر في قنوات إلى بقية انحاء البستان .

كذلك جعل جزءا من البستان حديقة للحيوانات والطيور المختلفة ، وخصص لها ضياعا كاملة لزراعة غذائها . ويقال انه كان لديه سبع اليف يدعى زريق لزرقة عينيه ، وكان يلازم خمارويه ويحرسه أثناء نومه .

ويروي المؤرخون كذلك ان خمارويه بنى في هذه البستان قصرا سماه دار الذهب ، طلى جدرانه بالذهب وجعل فيها صورا بارزة من الخشب على مقدار قامة ونصف تمثل صورته وصور زوجاته والمغنيات اللاتي كن يغنين له . وجعـل على رؤوس هذه الصور الخشبية أكاليل من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة والجواهر ، وجعل في آذانها الاقراط الثقال الوزن المحكمة الصنع ، وقد لونت أجسامها بما يشبه الثياب .

هذا النص يشير بوضوح إلى مهارة المصريين في صناعة التماثيل الخشبية في هذا العصر .

كذلك بنى خمارويه في البستان فسقيه مربعة الشكل ، طول كل ضلع من أضلاعها خمسون ذراعا ، وملأها بالزئبق ، ثم وضع فوقها حشية (مرتبة) من الجلد تنفخ بالهواء ثم تشد بسيور من الحرير إلى أعمدة من الفضة في أركانها الأربعة . فكان الفراش يتحرك عليها بحركة الزئبق فيجلب له نوما هادئا . وذلك لأن خمارويه كان يعاني من أرق أصابه فأشار عليه طبيبه بعمل تلك الفسقية .

ولا شك أن هذا الترف قد أفاد مصر من الناحية الحضارية اذ اذدهر الفن المعماري نتيجة لكثرة الأبنية الجميلة ، كما انتعشت الصناعة والتجارة وامتلأت الأسواق بمنتجاتها المختلفة .

وتوفي خمارويه قتيلا على يد بعض جواريه وهو في طريقه إلى الشام سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) وخلفه ابنه أبو العساكر جيش وكان صبيا أرعنا قتل ثلاثة من أعمامه فغضب عليه قواد جيشه وخرجت الشام عن طاعته وانتهى الأمر بخلعه وسجنه وتولية أخيه الاصغر هارون مكانه .

في ذلك الوقت ظهرت دعوتان جديدتان هددتا مصر من الشرق والغرب . أحدهما قامت في المغرب وهي الدعوة الفاطمية الاسماعيلية والأخرى قامت في المشرق واستولت على جنوب الشام وهي دعوة القرامطة الاسماعيلية ، أولاد عم الفواطم في المذهب والدعوة الاسماعيلية ، ولكن يلاحظ أن حركة القرامطة كانت تتسم بطابع شيوعي مستتر لأنها تقول بالتساوي بين طبقات الناس ، وكانت لها فروع في خراسان واليمن وسوريا .

وفشلت الجيوش الطولونية في القضاء على هؤلاء القرامطة بل كثيرا ما انهزمت أمامهم انهزاما مخزيا . وتنبهت الخلافة العباسية إلى ضعف الطولونيين فصممت على استرداد مصر من أيديهم قبل أن تقع في أيدي القرامطة أو الفاطميين .

وفي سنة ٢٩٢ هـ أرسل الخليفة العباسي المكتفي بالله جيشا إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان المعروف بالكاتب ، كما أصدر أوامره إلى قائد الاسطول

العباسي بالثغور الشامية وهو أمير البحر دميانه بالتوجه إلى مصر . وتمكن الاسطول العباسي من الانتصار على الاسطول الطولوني عند مدينة تنيس (بجوار دمياط عند بحيرة المنزلة) ثم صعد في النيل نحو الفسطاط . وفي الوقت نفسه تقدمت الجيوش البرية مخترقة الشام ومصر بقيادة محمد بن سليمان الذي دخل مدينة القطائع ودمرها تدميرا تاما ولم يستبق منها سوى الجامع وبذلك عادت مصر والشام إلى حكم العباسيين بعد أن تمتعا باستقلال ذاتي لمدة تقرب من أربعين سنة تقريبا .

ولا شك أن أهل الشام ومصر قد أسفوا على سقوط هذه الدولة لأنهم شعروا في عهدها ولأول مرة أن أموالهم كان ينفق معظمها في داخل البلاد على المشروعات الاصلاحية ولا تتسرب إلى خارج البلاد في جيوب كبار الموظفين ببغداد كما كان الحال من قبل .

ومما يدل على تحمس أهل مصر والشام للدولة الطولونية وتعلقهم بها، انه بعد زوال هذه الدولة بوقت قصير قام رجل من أهل الشام يدعى محمد بن الخلنجي ودعا للطولونيين في جنوب فلسطين فانضم اليه عدد كبير من أهل الشام ومصر وجنود الدولة الطولونية المنهارة . واستطاع هذا الثائر أن يهزم جيوش الوالي العباسي على مصر عيسى النوشري وأن يحتل مصر مدة ثمانية أشهر . وأخيرا أرسل اليه الخليفة المكتفي جيشا كبيرا استطاع القضاء على حركته في سنة ٢٩٣ هـ . هذه الحادثة تدل بوضوح على المكانة العظيمة التي تمتعت بها الدولة الطولونية في مصر والشام . والفترة التي تلت هذه الحركة حتى قيام الدولة الاخشيدية وتقدر بنحو ثلاثين سنة (٢٩٣ — ٣٢٣ هـ) كانت مصر ولاية عباسية تابعة للخلافة تبعية مباشرة ويحكمها ولاة من قبل الخلافة العباسية .

وفي خلال هذه الفترة أسس الفاطميون لأنفسهم في المغرب دولة شيعية سنة ٢٩٧ هـ ، وكان مركز هذه الدولة أو هذه الخلافة الفاطمية في افريقية أو المغرب الادنى .

ولقد حاول الفاطميون منذ أيام خليفتهم الأول عبيد الله المهدي غزو مصر من حدودها الغربية وانتزاعها من أيدي أعدائهم العباسيين . فأرسلوا ثلاث حملات برية وبحرية في آن واحد ، الاولى في سنة ٣٠١ ﻫ والثانية في سنة ٣٠٧ ﻫ والثالثة في سنة ٣٢٢ ﻫ . وكانت كل حملة من هذه الحملات تستغرق في العادة سنتين على الأقل ، فتستولي على الاسكندرية وبعض مناطق الوجه البحري ومصر الوسطى مثل الفيوم والاشمونين وتعيش على ما كانت تستولي عليه من الأهالي هناك من اقوات ومؤن .

ولقد فشلت كل هذه الحملات الفاطمية في امتلاك مصر لان الخلافة العباسية في ذلك الوقت كانت من القوة بحيث تستطيع ردهم عن الديار المصرية .

صد الحملة الأولى والثانية القائد مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسي المقتدر ، وصد الحملة الثالثة القائد العباسي التركي محمد الاخشيد الذي استطاع بهذا الانتصار أن يوطد أقدامه في مصر ويستقل بحكمها .

ب ـ الدولة الاخشيدية :

(٣٢٣ ـ ٣٥٨ ﻫ = ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م)

مؤسس هذه الدولة هو محمد بن طغج بن جف الملقب بالاخشيد . والاخشيد لقب تركي كان يتلقب به ملوك أقليم فرغانة في بلاد ما وراء النهر . ويقال ان الاخشيد كان من سلالة هؤلاء الملوك وان كان عامة المؤرخين يشكون في ذلك الأصل الملكي ويقولون بأن محمد بن طغج هو الذي التمس من الخليفة العباسي الراضي تشريفه بلقب الاخشيد وان الخليفة لم يكن يعرف معناه فسأل في ذلك فقيل له انه لقب ملوك فرغانة مثل قيصر وكسري وفرعون والنجاشي . فوافق الخليفة على طلبه خصوصا بعد انتصار الاخشيد على الفاطميين وقال : « لا نبخل عليه بهذا ، اكتبوا له بذلك » .

وكيفما كان الامر فالذي لا شك فيه هو ان محمد الاخشيد كان من أصل فرغاني من بلاد ما وراء النهر وان جده جف كان ضابطا تركيا في جيش الخليفة المعتصم بسامرا وخدم أبوه طغج في جيش احمد بن طولون بنواحي طرسوس في منطقة الثغور وهناك أبلى في جهاد الروم بلاء حسنا . ثم عينه خمارويه واليا على دمشق فعظم سلطانه . وبعد انتهاء الدولة الطولونية انتقل طغج إلى بغداد وهناك دب نزاع بينه وبين الوزير العباسي ابن الحسن وانتهى الأمر بسجنه هو وولده محمد . ومات طغج في السجن في اطلق سراح ولده محمد بعد ذلك .

وشارك محمد في قتال الفاطميين أثناء محاولاتهم في غزو مصر وابلى في ذلك بلاء حسنا فكافأه الخليفة الراضي بأن ولاه على مصر سنة ٣٢٣ هـ . وهكذا أسس الاخشيد ثاني دولة مستقلة عرفتها مصر الاسلامية .

كان محمد الاخشيد من المعجبين بشخصية سلفه احمد بن طولون لدرجة أنه كان كثيرا ما يتشبه به في بلاطه ومواكبه وتصرفاته وأعماله . وقد نتج عن ذلك وجود تشابه بين الدولتين الاخشيدية والطولونية في بعض المظاهر التاريخية والسياسية بوجه عام .

سياسة الاخشيد في الشام :

بعد أن وطد الاخشيد نفوذه في مصر أخذ يفكر في تأمين حدوده الشمالية وذلك بالاستيلاء على الشام ، وهذه السياسة تعتبر سياسة تقليدية سعى اليها كل حاكم استقل بمصر . ويبدو أن الخليفة العباسي كان على علم بنوايا الاخشيد وأطماعه ، ولهذا سارع بتولية أحد قواده وهو محمد بن رائق على جنوب الشام . أما شمال الشام فقد استولى عليه الامراء الحمدانيون أصحاب الموصل وشمال الجزيرة ، وصارت عاصمتهم مدينة حلب . ولهذا نجد ان الاخشيد قضى معظم حياته في صراع مع صاحبي الشام ابن رائق في الجنوب وسيف الدولة الحمداني في الشمال .

أما من جهة حروب الاخشيد مع ابن رائق ، فكانت سجالا استولى فيها

ابن رائق على دمشق وحمص سنة ٣٢٧ هـ ثم انحدر جنوبا نحو الحدود المصرية . فخرج اليه الاخشيد وقابله عند العريش وانتصر عليه انتصارا عظيما ثم أرسل أخاه الحسين بن طغج لمطاردته ولكن ابن رائق اوقع هذا الجيش في كمين قتل فيه الحسين بن طغج عند بحيرة طبرية . ويروي المؤرخون ان ابن رائق تأثر لمقتل الحسين بن طغج فغسله وكفنه وأرسله في تابوت إلى الاخشيد صحبة ابنه مزاحم معزيا ومعتذرا ومقدما ابنه مزاحم فدية له . وكان لهذا العرض الكريم وقع جميل في نفس الاخشيد ، فأكرم مزاحم وزوجه ابنته فاطمة ، وعقد صلح بين الطرفين سنة ٢٣٨ هـ يقضي بأن تكون البلاد الشامية شمالي الرملة لابن رائق .

وبعد سنتين من ابرام هذه المعاهدة أي في سنة ٣٣٠ هـ قتل الحمدانيون ابن رائق ، فانتهز الاخشيد هذه الفرصة واستولى على الشام بدون مقاومة وواصل تقدمه شمالا حتى اصطدم بالدولة الحمدانية .

كان الحمدانيون في ذلك الوقت ناقمين على الاخشيد بسبب حصوله من الخليفة العباسي المتقي على تقليد رسمي يخول له حكم مصر وجميع بلاد الشام . ولهذا انتهز سيف الدولة الحمداني فرصة اقتراب الجيش الاخشيدي من أراضيه بقيادة كافور الحبشي وفاتك الرومي وهما من مماليك الاخشيد ، وهجم عليه بجيوشه وهزمه ثم استولى على مدينة دمشق . واضطر الاخشيد أمام هذه الهزيمة إلى الخروج بنفسه ، فلحق بقواده عند حمص ثم انتصر على الحمدانيين انتصارا ساحقا في وقعة قنسرين في سوريا الشمالية ودخل مدينة حلب واسترد دمشق، ولكنه رغم ذلك آثر أن يتنازل عن حلب وشمال الشام لسيف الدولة الحمداني حبا في مسالمته .

وقد علل بعض المؤرخين ذلك بأن الاخشيد كان قد بلغ في ذلك الوقت السادسة والستين من عمره وكان يخشى أن يموت فيستولي الحمدانيون على أملاكه ولهذا آثر الارتباط معهم بمعاهدة يحفظ فيها ملكه لأولاده من بعده . يضاف إلى ذلك أن الأخشيد كان يعلم تماما بأن من يتولى حكم شمال الشام يتعين عليه محاربة البيزنطيين والدفاع عن الثغور الاسلامية الشامية ، ولهذا رأى ان بقاء الدولة الحمدانية

معناه حماية الثغور الاسلامية بل وحماية ممتلكاته الشامية من غارات البيزنطيين، بينما يستطيع هو أن يتفرغ للاخطار الاخرى المحيطة به وأهمها الخطر الفاطمي في الغرب .

وانتهى هذا الصلح بأن يكون للاخشيد ولاية دمشق وما يليها جنوبا ، ولسيف الدولة الحمداني البلاد الشمالية من حمص إلى حلب . وختمت هذه المعاهدة بزواج سيف الدولة من ابنة أخي الاخشيد ، فتوثقت روابط الصداقة بين الدولتين سنة ٣٣٣ هـ .

محاولة نقل الخلافة العباسية إلى مصر :

حاول محمد الاخشيد نفس المحاولة التي قام بها احمد بن طولون من قبل ، وهي نقل الخلافة العباسية إلى مصر لتكون تحت حمايته . وكانت محاولة الاخشيد سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) حينما استبد الامراء الاتراك بالخليفة العباسي المتقى ، وتقاعس الحمدانيون عن نجدته . ويصف المؤرخون هذا اللقاء بأنه كان في مدينة الرقة في شمال الفرات وان الاخشيد ترجل عن بعد وهو بسيفه ومنطقته وجعبته على سبيل الخدمة ، وقبل الأرض مرارا ، ثم تقدم فقبل يد الخليفة ، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر حيث يكون تحت حمايته ، ولكن الخليفة عز عليه اخر الامر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض وعاد الاخشيد إلى الشام بينما عاد الخليفة إلى بغداد . ولا شك ان الاخشيد أراد من وراء نقل الخلافة العباسية إلى مصر أن يقوي دولته التي أسسها بمصر والشام .

وهكذا فشل مشروع نقل الخلافة إلى مصر للمرة الثانية وبقي هذا المشروع معطلا إلى ان حققه فيما بعد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م)

صفات الاخشيد :

اتصف الاخشيد بالبخل ، وبقوة الساعدين ، وأنه كان له قوس كبير لا

يقدر على استعماله رجل سواه ، كذلك يروي أنه كان مريضا بأعصابه وأنه كانت تنتابه نوبات عصبية من حين لاخر ، ويثور لاقل سبب . ولهذا كان يفضل دائما حياة الراحة والسلم عن حياة الحرب والقتال . الا أنه مع ذلك كان مضطرا إلى الدخول في حروب الشام لتأمين حدود بلاده ، وقد لاحظنا أنه كان يصالح أعداءه وربما يدفع لهم الجزية رغم انتصاره حبا في السلم واراحة أعصابه . هذا وينسب إلى الاخشيد بناء بعض القصور والبساتين مثل القصر والبستان الذي عرف فيما بعد بالبستان الكافوري وكانت مساحته ٣٦ فدان ، ومكانه اليوم سوق النحاسين . كذلك اتخذ حرسا من المماليك الاتراك بلغ عددهم ثمانية الاف مملوك يحرسونه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك . ومات الاخشيد في مدينة دمشق سنة ٣٣٤ ﻫ ودفن ببيت المقدس . وكان قد أوصى بالملك من بعده لابنه أبي القاسم اونوجور على أن يكون كافور الحبشي وصيا عليه لصغر سنه . واستطاع كافور بحكم هذه الظروف أن يستبد بالحكم وأن يصير الحاكم الحقيقي للبلاد .

ابو المسك كافور الاخشيدي :

(٣٣٤ - ٣٥٧ ﻫ = ٩٤٦ - ٩٦٨ م)

كان كافور عبدا حبشيا أسود اللون ، ضخم الجثة ، مثقوب الشفة السفلى ذكيا طموحا مخلصا في عمله . اشتراه الاخشيد من زيات بثمن بخس (١٨ دينار) وجعله ضمن خدمه ثم عكف كافور على الدراسة وتحصيل العلوم المختلفة حتى بلغ في ذلك مرتبة كبيرة أهلته لكي يكون مربيا لولدي الاخشيد وان يلقب بلقب استاذ . وقد ظل كافور يعتز بهذا اللقب حتى بعد أن صار واليا على مصر . وإلى جانب هذه الثقافة العلمية امتاز كافور أيضا بتفانيه في خدمة سيده حتى صار موضع ثقته ومن أقرب المقربين اليه ، فأسند اليه الاخشيد قيادة جيوشه في حروب سيف الدولة الحمداني وغيرها من الحروب الاخرى ثم عهد اليه بالوصاية على أبنائه كما بينا .

حكم كافور في بادىء الأمر مدة ٢٢ سنة كوصي على ولدي الاخشيد : اونوجور الذي مات في سنة ٣٤٩ هـ ، وعلي بن الاخشيد الذي مات سنة ٣٥٥ هـ . ثم حكم كافور بعد ذلك كوالي رسمي على مصر باعتراف الخلافة العباسية، مدة سنتين ونصف انتهت بوفاته .

سياسته الخارجية :

كانت أعمال كافور الخارجية تهدف كلها إلى تأمين حدود بلاده : ففي الشمال حارب الحمدانيين وانتهت هذه الحرب بمعاهدة صلح احتفظت فيها مصر بجنوب الشام بينما بقي الحمدانيون في شمالها كما كان الحال في عهد الاخشيد .

كذلك حارب كافور القرامطة الذين أغاروا على جنوب الشام وهددوا قوافل التجارة والحجاج المتجهة إلى الحجاز . وانتهت هذه الحرب بالصلح أيضا .

وفي الجنوب حارب كافور امراء النوبه الذين تكررت غاراتهم على اسوان وغيرها من مدن الوجه القبلي ، وانتهت هذه الحرب بخضوعهم وتقديم الجزية والرقيق إلى مصر كل سنة . وقد نتج عن ذلك كثرة الجنود السود في الجيش الاخشيدي . وفي الغرب صد كافور غارات الفاطميين ولا سيما في مناطق الواحات ، وطردهم منها ، وفي نفس الوقت عامل رسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي باللطف واللين ، وكان المعز قد دعاه إلى الدخول في طاعته ولكن كافور استطاع بدهائه وكياسته أن يؤخر الغزو الفاطمي لمصر طوال عهده . وقد يدل على ذلك ان دعاة الفاطميين الذين زاروا مصر على ايامه كانوا يقولون : « اذا زال الحجر الاسود ، ملك مولانا المعز الأرض كلها ، » ويقصدون بالحجر الأسود كافور .

وقد شرح أبو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، سياسة كافور ومواهبه السياسية بقوله : « كان كافور خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل ، كان يهادى المعز لدين الله الفاطمي صاحب الغرب ويظهر ميله اليه ، وفي الوقت نفسه

يدعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء » .

صفات كافور :

امتاز كافور بكرم زائد عن الحد على عكس مولاه الاخشيد الذي كان بخيلا . وقد أطنب المؤرخون في الكلام عن سخاء كافور وعطاياه وعن كميات الطعام الهائلة التي كانت تخرجها مطابخه في كل يوم .

كذلك امتاز كافور بحبه للموسيقى والغناء شأنه في ذلك شأن جميع الزنوج . ويقال انه طرب يوما فنسي نفسه ومركزه وأخذ يهز كتفيه طربا ، فلما أفاق لنفسه خجل من الحاضرين وصار منذ ذلك الوقت يحرك كتفيه من حين لاخر حتى يظن الناس انها مجرد عادة ملازمة له او حركة لا ارادية .

امتاز كافور كذلك بحبه للعلم والعلماء وزار بلاطه عدد كبير من فحول الشعراء في ذلك العصر ونخص بالذكر منهم الشاعر ابا الطيب المتنبي الذي ترك بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب واتجه إلى كافور ومدحه طامعا في أن يمنحه حكم بعض الولايات .

ونستنتج من شعر المتنبي ان النظام الذي كان يسود مصر في ذلك الوقت كان نظاما اقطاعيا مطلقا بمعنى ان كل كوره أو محافظة عليها حاكم قوي يضمنها للوالي . ومن أشهر هؤلاء الاقطاعيين القائد الرومي أبو شجاع فاتك الذي كان زميلا لكافور في الخدمة على عهد الاخشيد ، ويرى انه أحق من كافور في حكم مصر ، لهذا كان كافور يلاطفه ويداريه ، وقد زاره المتنبي في اقطاعه بمنطقة الفيوم ومدحه بقصيدة وقال فيها :

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ ... فليُسعِد النطقُ إن لم يُسعد الحالُ
« كفاتك ودخول الكاف منقصةٌ ... كالشمس قلت وما للشمس أمثال .

على ان كافور لم يحقق للمتنبي مطالبه الخاصة بمنحه ولاية من الولايات

المصرية وغضب المتنبي من كافور وانقلب مديحه له إلى هجاء ولا سيما في قصيدته التي مطلعها :

عيدٌ بأية حالٍ عُدْتَ يا عيدُ : بما مَضَى أم لأمرٍ فيك تجديدُ ؟

إلى أن يقول :

لا تشتر العبـد الا والعصـا معه ان العبيد لأنجاس مناكيـد .

ويقال ان المتنبي هرب من مصر في نفس الليلة خوفا من بطش كافور .

مات كافور سنة ٣٥٧ هـ وبعد موته اجتمع رجال البلاط وانتخبوا من تلقاء أنفسهم وبدون الرجوع إلى الخليفة العباسي ، صبيا في الحادية عشرة من عمره يدعى أبو الفوارس احمد حفيد الاخشيد . وكانت النتيجة ان اضطربت شؤون الدولة وكثر شغب الجند . وزادت الحالة سوءا بقصور النيل وما نتج عنه من أزمات اقتصادية استمرت إلى ما بعد الفتح الفاطمي بسنتين.

أما الخلافة العباسية التي استطاعت من قبل أن ترسل قائدها هامؤنس الخادم والاخشيد لصد الحملات الفاطمية السابقة ، فانها في هذه المرة لم تستطع عمل أي شيء من هذا القبيل وذلك لأن أعداءها في الشام ، الحمدانيين في شماله ، والقرامطة في جنوبه ، كانوا يحولون دون وصول جيوشها للدفاع عن مصر . هذا فضلا عن ان الخلافة نفسها كانت من الضعف والاضطراب بحيث لا تستطيع امداد مصر بالمال والرجال . ونتيجة لهذا الضعف السياسي والاقتصادي أصبحت مصر فريسة سهلة لأي غزو خارجي .

وكان الخليفة المعز يعلم تمام العلم بحالة البلاد السيئة ، أطلعه عليها دعاته وجواسيسه بل وكثير من المصريين أنفسهم، يدل على ذلك قوله لأصحابه : «اني مشغول بكتب ترد علي من المغرب والمشرق أجيب عليها بخطي » وقوله أيضا : « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر » .

وفي ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩ م) خرج الجيش الفاطمي بقيادة جوهر

الصقلي أو الصقلبي من مدينة القيروان متجها نحو الاسكندرية تصحبه بعض القطع البحرية . فاستولى على الاسكندرية ووصل إلى الجيزة من نفس السنة ، ثم عبر مخاضة في النيل وانتصر على المقاومة الاخشيدية التي أعدت لقتاله على الشاطيء الشرقي للنيل (بنواحي القناطر الخيرية حاليا) . وذلك في شهر شعبان من نفس السنة ، ثم دخل الفسطاط ظافرا وكان هذا معناه نهاية الدولة الاخشيدية وقيام الدولة الفاطمية الشيعية في مصر . وقد عبر شاعر الفاطميين ابن هانيء الاندلسي عن هذا الحدث الكبير بقوله :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الأمر .

٣ ـ الدولة المستقلة في الشرق الاسلامي

أ ـ الدول الطاهرية :

(٢٦٥ ـ ٢٥٩ = ٨٢٠ ـ ٨٧٢ م)

وأول حركة استقلالية قامت في المشرق كانت الدولة الطاهرية التي أسسها طاهر بن الحسين في خراسان [١] على عهد المأمون ، مكافأة له على المعاونة الحربية التي بذلها في سبيل نصرة المأمون على أخيه الأمين . ومن هنا نلاحظ أن الدولة الطاهرية قامت في الواقع برغبة الخلافة العباسية وتأييدها . وقد اتخذ طاهر مدينة نيسابور في خراسان قاعدة له . ثم خلفه في الحكم ولده طلحة ثم ولده الآخر عبد الله بن طاهر الذي ازدهرت خراسان على أيامه .

---

(١) كلمة خراسان مركبة من « خور » شمس ، و «اسان» شروق أي شروق الشمس وهي تذكرنا بعبارة الامام محمد العباسي التي وجهها إلى دعاته حينما وجههم إلى خراسان لبث دعوته هناك بقوله : اني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق . وكانت خراسان تشمل البلاد الأسيوية الممتدة بين جيحون شرقا إلى فارس غربا إلى سجستان جنوبا وهي تشمل الآن معظم ايران وافغانستان ومقاطعة تركانيا السوفياتية .

وبعد وفاة عبد الله خلفه ابنه طاهر ثم حفيده محمد بن طاهر الذي يعتبر آخر من تولى الحكم من أسرة الطاهريين ، اذ خلفه على حكم خراسان يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية سنة ٢٥٩ هـ . وكان الطاهريون من أصل فارسي من موالي قبيلة خزاعة العربية ، وقد تمتعت خراسان في عهدهم بالأمن والرخاء والازدهار . كذلك يؤثر عنهم أنهم أخلصوا للخلافة العباسية وتعاونوا معها في حفظ الثغور الشرقية من غارت الاتراك ، وفي اخماد الثورات الداخلية التي قام بها العلويون والفرس بنواحي طبرستان . على ان هذه الدولة لم تلبث أن عجزت عن صد حركة الصفارين فسقطت على أيديهم سنة٢٥٩ هـ (٨٧٢)م .

ب — الدولة الصفارية :

(٢٥٤ — ٢٩٠ هـ = ٨٦٧ — ٩٠٣ م)

ومؤسسها هو يعقوب بن الليث الصفار . وقد لقب بالصفار لأنه بدأ حياته صانعا للصفر أي النحاس بأجر قدره ١٥ درهما في الشهر ، ولهذا عرف بهذا اللقب .

ثم التحق يعقوب هو وأخوه عمرو بفرقة المتطوعة التي تكونت لقتال الخوارج في اقليم سجستان في جنوب خراسان ، وكان تابعا لحكم الطاهريين . ولم يلبث يعقوب بكفاءته وقوة شخصيته أن صار زعيما لهذه الفرقة ، وواليا على اقليم سجستان . والمناطق المجاورة له فقوي نفوذه واشتد بأسه .

وعلى الرغم من أن يعقوب كان يريد بحركته التوسعية أن يعيد أحياء دولة الفرس القديمة ، الا أنه حرص على التمسك بطاعة الخليفة العباسي المعتمد ، فكتب اليه بهذا المعنى ، ودعا له على منابره ، وأرسل اليه الهدايا القيمة ، كما هاجم الأراضي الهندية والتركية ليظهر للخليفة أنه يجاهد في سبيل الله ، وأنه يعمل على حماية حدود الدولة وثغورها الجنوبية والشرقية .

غير أن يعقوب لم يستمر طويلا في هذه السياسة الجهادية الخارجية المثمرة

فيما وراء الحدود الأسلامية ، اذ سرعان ما تحول عنها إلى سياسة التوسع في داخل الأراضي الاسلامية على حساب ممتلكات الدولة الطاهرية في خراسان ، فقضى عليها ودخل نيسابور عاصمتها سنة ٢٥٩ هـ .

ولم يكتفي يعقوب بهذا النجاح الذي أحرزه ، بل واصل زحفه غربا نحو مركز الخلافة ، واحتل فارس والأهواز وطلب من الخليفة المعتمد أن يصدر له تقليدا خلافيا بحكم هذه البلاد التي فتحها .

واضطرب الخليفة من ازدياد خطورة الصفارين واقتراب جيوشهم من العراق في الوقت الذي كانت فيه ثورة الزنج تسيطر على اقليم البصرة في جنوب العراق . واضطر الخليفة المعتمد أن يستجيب لمطالب يعقوب الصفار خوفا من أن يقع تحالف بينه وبين صاحب الزنج.

ورأى الخليفة في الوقت نفسه أن يضرب هذه القوة الصفارية بقوة اخرى ناشئة في اقليم ما وراء النهر وهي الدولة السامانية . وكانت هذه الدولة منذ أيام المأمون تابعة لولاة خراسان ، فجاء الخليفة المعتمد واعترف بها كدولة مستقلة استقلالا ذاتيا بأقليم ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ فخلق بذلك قوة مهددة للدولة الصفارية من خلفها في أقصى المشرق .

ولا شك أن يعقوب الصفار قد فطن إلى تلك السياسة العدائية التي تسلكها معه الخلافة العباسية ، الا أنه كان قصير النظر قليل السياسة ، اذ أعلن انه سيتقدم بجيشه نحو العراق لاخضاع الخلافة تحت سيطرته . وهنا لم يجد الخليفة المعتمد بدا من الخروج بنفسه لقتاله وصحب معه أخاه احمد الموفق كقائد للجيش .

وحينما التقى الطرفان ووقع بصر جنود الصفار على الخليفة المعتمد ، تخلوا عن صاحبهم وانضموا اليه ، فحلت الهزيمة بيعقوب الصفار وفر هاربا إلى سجستان في قليل من أتباعه .

وتوفي يعقوب بعد ذلك بقليل سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) وخلفه أخوه عمرو

ابن الليث الذي عمل على تدعيم ملكه في الداخل عن طريق شراء المماليك الصغار من الترك ، فجعل منهم فرقة لحرسه وعكف على اهداء الكثيرين من تلك الفرقة لقادته دون أن يقطع رواتبهم من خزانته ليطالعوه سرا بالأخبار التي لا يستطيع الوصول اليها علنا .

كذلك واصل عمرو بن الليث سياسة أخيه يعقوب التوسعية ، فطالب الخلافة بولاية اقليم ما وراء النهر الذي في أيدي السامانيين . وهنا حانت الفرصة التي كانت الخلافة في انتظارها كي تضرب الصفاريين بالسامانيين ، فأجابه الخليفة إلى طلبه وقام قتال عنيف بين الفريقين انتهى بهزيمة عمرو بن الليث وأسره وسجنه وسقوط دولته على يد اسماعيل بن أحمد الساماني سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) .

ج ــ الدولة السامانية :

(٢٦١ ــ ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ ــ ٩٩٩ م)

الاسرة السامانية اسرة فارسية نبيلة كانت تدين بالديانة الزرادشتية أو المجوسية ، ثم أسلم جدهم سامان خدات أحد أشراف مدينة بلخ وسمى ابنه أسدا تيمنا باسم والي الأمويين على خراسان أسد بن عبد الله القسري الذي أسلم على يديه .

وأنجب أسد بن سامان أربعة أبناء ظهر أمرهم في أيام الخليفة المأمون الذي ولاهم سنة ٢٠٤ هـ على بعض الولايات في اقليم ما وراء نهر جيحون مثل سمرقند وفرغانة والشاش واشروسنه. وحينما اشتد خطر الصفاريين ، أصدر الخليفة المعتمد تقليده بتولية نصر بن أحمد الساماني ولاية جميع بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) فكان هذا بداية الدولة السامانية التي اتخذت من مدينة بخاري عاصمة لها .

وخلف نصر على حكم هذه الولاية أخوه اسماعيل الذي انتصر على الصفاريين

وضم أراضيهم في خراسان وسجستان إلى ملكة كما استولى على اقليم طبرستان بعد أن انتصر على واليها محمد بن زيد العلوي .

ويلاحظ من الفتوحات السابقة أن السامانيين استجابوا مثل أسلافهم الصفاريين لنفس التيار القومي الفارسي فبسطوا سلطانهم غربا على البلاد الاسلامية في خراسان وطبرستان وسجستان ، الا أنهم في نفس الوقت توسعوا أيضا فيما وراء الحدود الاسلامية شرقا ، وجاهدوا الأتراك الوثنيين في أواسط آسيا ونشروا الاسلام بينهم ، فصارت تركستان سندا للاسلام بعد ان كانت مصدر خطر عليه .

كذلك حرصت الدولة السامانية على التمسك بطاعة الخلافة العباسية وكسب مودتها ورضاها . ولعل من مظاهر تلك العلاقات الودية زواج نوح بن منصور الساماني بأبنة عضد الدولة البويهي .

هذا ، ويمتاز العصر الساماني بنهضة علمية وأدبية رائعة جعلت من مدينة بخاري العاصمة مركزا من أهم المراكز العلمية الاسلامية . ويرجع الفضل في ذلك إلى سياسة امراء السامانيين الذين عملوا على احياء اللغة الفارسية وترجمة امهات الكتب العربية إلى تلك اللغة ، كما شجعوا العلماء والأدباء والشعراء حتى عاش في كنفهم عدد كبير منهم أمثال الرودكي أول شاعر فارسي كبير بعد الاسلام ، والطبيب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي Razes المسمى بجالينوس العرب وكان صديقا للأمير منصور بن اسماعيل الساماني وألف له كتاب المنصوري في الطب كعربون لهذه الصداقة . والطبيب الفيلسوف ابن سينا Avicenne الذي ذهب إلى بخاري وعالج الأمير نوح بن نصر الساماني ، ومثل الوزير محمد بن عبد الله البلعمي الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية سنة ٣٥٢ هـ بعد أن حذف منه التفاصيل المملة . وقد اشتهرت ترجمته ، وترجمت بدورها إلى لغات أخرى عديدة ، ومثل الشاعر الدقيقي الذي نظم لنوح بن نصر الساماني منظومة في ألف بيت عن تاريخ الفرس القديم ثم جاء بعده أبو القاسم الفردوسي فوضع ملحمته الشعرية الفارسية المشهورة الشاهنامة (كتاب الملوك) التي يعتبرها

الايرانيون اليوم من مفاخرهم الأدبية لأنها تقص أخبار ملوك الفرس القدماء وقد انتقل الفردوسي بعد ذلك إلى خدمة الغزنويين وأهدى ملحمته للسلطان محمود الغزنوي الذي منحه ٦٠ ألف مثقال من الفضة على عدد أبياتها .

كذلك امتاز العصر الساماني بنهضة صناعية تتجلى بصورة واضحة في الصناعات الخزفية الجميلة التي اشتهرت بها مدينة طشقند ، وفي صناعة الورق التي أخذوها عن الصين وامتازت بها مدينة سمرقند أيام السامانيين وعنها انتشرت في بقية العالم الاسلامي . هذا إلى جانب صناعة السجاد والمنسوجات الحريرية [1] .

وثمة ظاهرة اخرى امتازت بها الدولة السامانية وهي اعتمادها على المماليك الأتراك في جيوشها رغم أصلها الفارسي . وقد شرح لنا الوزير نظام الملك الطوسي [2] في كتابه سياسة نامة (كتاب السياسة) النظام التربوي الذي أتبعه السامانيون في تربية مماليكهم الاتراك بقوله :

« ان مماليك السامانيين يرقون تدريجيا بناء على خدماتهم وشجاعتهم ، وليس اعتمادا على المحسوبية أو الجاه .

فالمملوك عند شرائه يخدم عاما على قدميه ، فيسير مرتديا قباء من القطن يسمى زنداجي [3] بجوار سيده الممتطي صهوة جواده . وليس من المسموح له أن يركب الخيل اطلاقا في عامه الأول من الخدمة والاعوقب أشد العقاب . فاذا أتم المملوك عامه الأول أخبر عريف الدار بذلك حاجب الحجاب ، فيقدم

---

(١) راجع (زكي محمد حسن : كتاب الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي ص ١٦٧) .

(٢) كان نظام الملك وزيرا للسلاجقة في عهد السلطان ملكشاه وقد كتب كتابة سياسة نامة سنة ٤٨٤ هـ باللغة الفارسية على شكل نصائح لسلاطين السلاجقة مستشهدا في كلامه بما كان متبعا في عهد الدولة السامانية . وقد قتل نظام الملك بيد بعض غلاة الاسماعيلية سنة ٤٨٥ هـ . وقد ترجم كتابه إلى اللغة الفرنسية المستشرق الفرنسي شيفر Charles Schefer : Siaset Naméh, Traité de Gouvernement composé pour le Sultan Malik Chah par Nizam oul Mulk, Texte persan, 2 Vols. (Paris 1893).

(٣) زنداجي نسبة إلى مدينة زندنة شمالي بخاري واشتهرت بالملابس القطنية .

الحاجب للمملوك حصانا تركيا بعنان دون سرج ، ثم يمنح المملوك في العام الخامس من خدمته سرجا ولجاما مزينا بنجوم من المعدن ، وسروالا من القطن المخلوط بالحرير ، وبعض الأسلحة التي يحلقها في سرج فرسه . وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ذي قبل . وفي العام السابع يمنح خباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته . وعندئذ يستحق المملوك لقب عريف الدار ، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الاسود الموشاة بالفضة كما يرتدي قباء حريريا كنجويا [1] . ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقي عاما بعد عام ، وتزداد حاشيته تدريجيا إلى أن يصل إلى مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحجاب .

ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملا كبيرا مثل القيام على ولاية من الولايات ، أو فرقة من الفرق العسكرية الا بعد أن ينضج ، وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين » .

يلاحظ من هذا النص السابق أن السامانيين توسعوا في استخدام المماليك الأتراك ووضعوا لهم نظاما تربويا عسكريا اسلاميا يقوم على التدريج والترتيب في تنشئتهم كي يكتسبوا الخبرة اللازمة في مناصب الادارة والقيادة .

ويلاحظ كذلك أن هذا النظام التربوي الساماني كان الأساس الذي سار على منهاجه بعد ذلك عدد كبير من الدول الاسلامية مثل دولة السلاجقة الاتراك وأتباعها من الأتابكة والايوبيين الذين نقلوه إلى مصر والشام وتمخض عنه قيام دولة المماليك التي تبلور وازدهر فيها هذا النظام بشكل راسخ متين مكنها من صد الزحف المغولي شرقا ، والانتصار على المستعمر الصليبي غربا .

ولقد عاشت الدولة السامانية مائة وسبعين عاما ثم انتهت على أيدي الغزنويين من جهة خراسان، والترك القرخانية أو ايلخانات تركستان من جهة بلاد ما وراء النهر وذلك في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) .

---

(١) نسبة إلى مدينة كنجة في اقليم شيروان على ساحل بحر قزوين بجمهورية اذربيجان الآن . وكانت مركزا لتجارة الحرير

د ــ الدولة الغزنوية :

(٣٥١ – ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ – ١٨٦ م)

هي وليدة الدولة السامانية ، ومؤسس هذه الدولة مملوك من مماليك السامانيين الذين تدرجوا في الرقي إلى أن بلغوا مرتبة الامارة ، وهو الأمير البتكين الذي ولاه السامانيون في بادىء الأمر على خراسان ثم على ولاية غزنه في قلب جبال سليماني شمالي الهند . وهناك استطاع البتكين بفضل مماليكه الاتراك أن يقيم دولة مستقلة عن السامانيين الا من ناحية التبعية الاسمية وهي الدولة الغزنوية . سنة ٣٥١ هـ. وبعد وفاة البتكين ، آلت الامور إلى زوج ابنته ومملوكه ناصر الدين سبكتكين الذي حارب بأسم السامانيين في سهول الهند الشمالية وفتح بست وقصدار سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) وهزم جيوش جيبال راجا لاهور وشتت شملهم على حدود البنجاب ثم ما لبث أن أسر جيبال نفسه ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع الجزية . فسبكتيكين يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية .

وجاء بعد سبكتكين ابنه محمود الغزنوي (٣٨٨ – ٤٢١ هـ – ٩٩٨ – ١٠٣٠ م) الذي بلغت الدولة أوجها في عهده ، اذ انه الغى اسم السامانيين من الخطبة في مملكته وخطب للخليفة العباسي القادر بالله الذي أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة . ويؤثر عن السلطان محمود الغزنوي أنه غزا بلاد الهند اثنتي عشرة مرة مدفوعا في ذلك بعامل الجهاد الديني والرغبة في نشر الاسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع بذلك أن يبسط نفوذه إلى ما وراء قشمير والبنجاب وأن يجعل من اقليم البنجاب ولاية اسلامية قاعدتها مدينة لاهور ويحكمها ولاة مسلمون من قبل الغزنوية . وهكذا تعتبر الدولة الغزنوية أول دولة اسلامية في الهند . ومن المعروف أن هذه الاقاليم الشمالية الهندية التي انتشر فيها الاسلام مثل السند والبنجاب والبنغال تكون ما يسمى الآن بدولة الباكستان الاسلامية .

ولقد سادت الثقافة الفارسية أيضا في عصر الغزنويين رغم أنهم أتراك حتى إنه يقال بأن اللغة الأردية التي هي لغة الهند والباكستان وهي مزيج من الفارسية

والسنسكريتية ، ظهرت على عهد محمود الغزنوي ، وصارت لغة الهند الاسلامية .
هذا وقد سبقت الإشارة إلى الشاعر الإيراني الفردوسي أعظم شعراء الفرس الذي عاش في كنف هذه الدولة ونال جائزة السلطان محمود الغزنوي على ملحمته الخالدة « الشهنامه » . كذلك نذكر المؤرخ أبا نصر العتبي (ت ٤٢٨ ﻫ) الذي كتب تاريخا عن حياة محمود الغزنوي وجهاده إلى سنة ٤٠٩ ﻫ وسماه تاريخ اليميني (نسبة إلى لقبه يمين الدولة) وقد ألف هذا الكتاب باللغة العربية لأهل العراق لما رآه من كثرة كتابات الأدباء باللغة الفارسية عن السلطان محمود [١] .
كذلك عاش تحت كنف الغزنويين في غزنة العالم المؤرخ أبو الريحان البيروني الخوارزمي (ت . ٤٤٠ ﻫ) الذي ألف عدة كتب بالعربية والفارسية نذكر منها كتاب القانون المسعودي الذي أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وكتابا في الأحجار الكريمة أهداه إلى السلطان مودود بن مسعود . هذا إلى جانب تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذي تحدث فيه عن الجماعات والطوائف والشعوب القديمة مع ذكر أعيادها واحتفالاتها الدينية والقومية . وقد نشره وترجمه إلى الانجليزية ادوارد سخاو . [٢] وأخيرا وليس آخرا نشير إلى المؤرخ الفارسي أبا الفضل محمد بن حسين البيهقي (ت ٤٧٠ ﻫ) الذي كتب بالفارسية تاريخا للسلطان مسعود ووالده محمود الغزنوي ، عرف بتاريخ البيهقي . [٣] .

ولقد انتهت الدولة الغزنوية على أيدي قوتين وهما قوة الاتراك السلاجقة الذين استولوا على ممتلكاتها في خراسان ، وقوة الغوريين الذين قضوا على ملكها في الهند وأقاموا على أنقاضها ثاني دولة اسلامية هندية وهي الدولة الغورية [٤] .

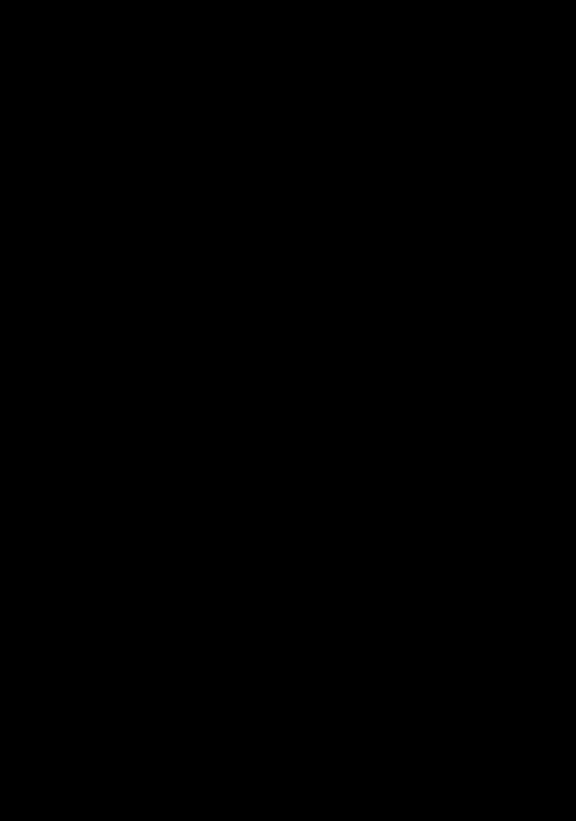
---

(١) طبع تاريخ العتبي في القاهرة سنة ١٢٨٦ ﻫ في جزئين وبه شرح احمد المنيني (ت ١٢٧٢ ﻫ) المسمى الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي .

(٢) نشر النص العربي في ليبزج سنة ١٨٧٨ ، أما الترجمة الانجليزية فهي بعنوان :
The Chronology of Ancient Nations (London 1879)

(٣) نقله إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب ، مطبعة الانجلو سنة ١٩٥٦ .

(٤) سميت بالغورية نسبة إلى مكان نشأتها وهو جبال الغور بين هراة وغزنه .

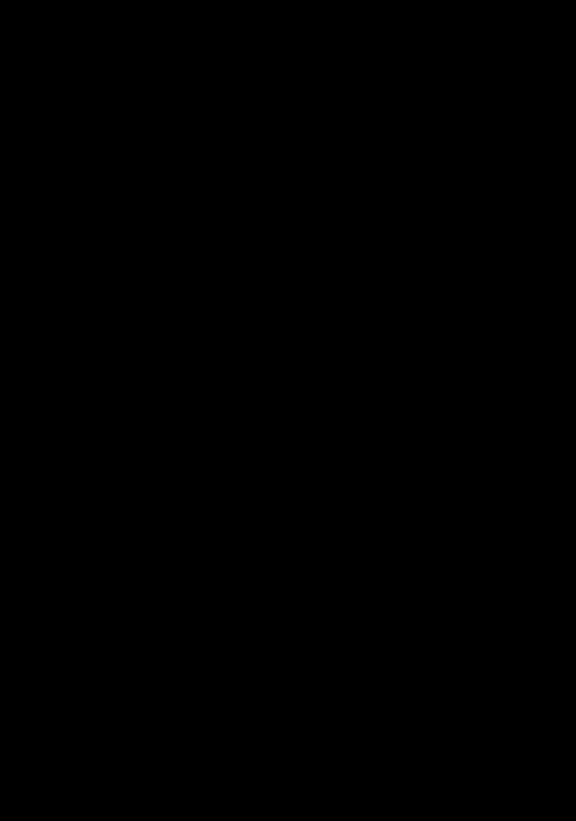


الفصل الرابع

العصر العباسي الثالث

عصر النفوذ الفارسي

دولة بني بويه



عصر النفوس الفارسي
دولة بني بويه
(٣٣٤ – ٤٤٧ هـ = ٩٤٥ – ١٠٥٥ م)

جاء هذا العصر الفارسي الثاني الممثل في دولة بني بويه في فارس والعراق ، كحركة مناهضة للنفوذ التركي الذي سيطر على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري (العصر العباسي الثاني) .

وتنسب هذه الدولة البويهية إلى زعيم فارسي يدعى بويه من اقليم الديلم في جنوب غرب بحر قزوين . ويرجع البعض نسبه إلى آل ساسان ملوك الفرس القدماء ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنه من عامة الناس وان هذه النسبة الملكية قد انتحلت وافتعلت بعد انتقال الملك إلى بني بويه لرفع شأنهم وتمجيد ذكرهم .

وكيفما كان الأمر ، فإن نجم هذه الأسرة بدأ في الظهور حينما التحق بويه هو وأبناؤه الثلاثة : علي وحسن وأحمد ، بخدمة مواطن لهم يدعى مرداويج بن زياد الديلمي الذي كان قد استقل بمنطقة طبرستان والديلم وتغلب على نفوذ الزيدية هناك .

ولقد رحب مرداويج ببني بويه ، ومنح الابن الأكبر علي بن بويه حكم

اقليم الكرج (بفتح الكاف والراء) بين همذان وأصفهان سنة ٣١٨ ﻫ (٩٣٠ م)

غير أن علي بن بويه لم يكتف بحكم هذا الاقليم ، إذ سرعان ما احتل همذان وأصفهان ، واستعان باخوته على ضم مناطق جديدة أخرى في فارس [١] .

ولقد جاء مقتل مرداويج على يد جنوده سنة ٣٢٤ ﻫ (٩٣٥ م) فرصة مواتية لقيام هؤلاء الإخوة بحركتهم التوسعية نحو الجنوب : فاحتل علي بن بويه مدينة شيراز واتخذها مقرا لحكمه ، بينما اتجه أخوه الحسن إلى بلاد الجبال أو عراق العجم فاحتلها واستقر فيها . أما الأخ الثالث احمد بن بويه ، فقد اتجه جنوبا نحو بلاد كرمان والأهواز (خوزستان) فاحتلها وصار بذلك مطلا على العراق مترقبا الفرصة المناسبة للتدخل في شئونه .

وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية في العراق قد تدهورت في ذلك الوقت بسبب تنافس وتنازع الأتراك على منصب إمرة الامراء ، وعجزهم عن دفع أرزاق الجند وحفظ الأمن في البلاد . وشعر أهل العراق بهذا العجز الذي يعانيه امراء الاتراك في اقرار الأمور في البلاد ، وأخذوا يتطلعون إلى أحمد بن بويه على أنه المخلص أو المنقذ لهم من ظلم الأتراك واستبدادهم ، فطلبوا منه المسير إليهم ووعدوه بالمؤازرة والتأييد .

واستغل احمد بن بويه هذه الفرصة وزحف بجيوشه نحو بغداد واحتلها سنة ٣٣٤ ﻫ (٩٤٥ م) ، وبايع الخليفة المستكفي الذي استقبله استقبالا حافلا وقلده منصب أمير الأمراء ومنحه لقب معز الدولة ، لقب كما منح أخاه عليا لقب عماد الدولة ، وأخاه الحسن لقب ركن الدولة .

على ان علاقة البويهين بالخليفة المستكفي لم تلبث أن ساءت بعد شهر واحد فقط بسبب سوء الظن وانعدام الثقة ، إذ اتهمه معز الدولة احمد بن بويه

---

(١) راجع تفاصيل نشأة هذه الدولة في (ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٤ وما بعدها) .

أنه يعمل سرا على إزالته وإعادة الاتراك إلى الحكم ، ثم خلعه وبايع ابن عمه المطيع بالخلافة (٣٣٤ – ٣٦٣ هـ / ٩٤٦ – ٩٧٤ م) .

وهكذا حل البويهيون الفرس محل الأتراك في حكم فارس والعراق ، ولم تكسب الخلافة العباسية شيئا من وراء ذلك ، إذ ظل الخلفاء كما كانوا من قبل في عهد النفوذ التركي ، خلفاء بلا نفوذ ، وليس لهم من السلطة إلا بعض مظاهرها الدينية كالخطبة والسكة وتعيين القضاة وخطباء المساجد ، بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لقب ملك أو شاهنشاه بدلاً من لقب أمير الأمراء الذي كان سائدا في العصر التركي السابق .

على أنه يلاحظ أن البويهيين امتازوا عن الأتراك في أنهم حرصوا على اظهار الطاعة والولاء لمقام الخليفة العباسي أمام الناس نظرا للنفوذ الديني الذي كان يتمتع به بين المسلمين باعتباره الرئيس الأعلى للجماعة الإسلامية . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر أحمد مسكويه (ت ٤٢١ هـ) صورة طريفة لهذه المعاملة عندما وصف في كتابه تجارب الأمم مقابلة عضد الدولة البويهي للخليفة الطائع العباسي سنة ٣٦٩ هـ (٩٨٠ م) بقوله :

« وجلس الطائع على السرير ، وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان ، وعلى كتفه البردة ، وبيده القضيب ، وهو متقلد سيف النبي (صلعم) . وضربت ستارة بعثها عضد الدولة ، وسأل أن تكون حجابا للطائع حتى لا تقع عليه عين أحد من الجند قبله ، ودخل الديلم والأتراك وليس على أحد منهم حديد ، ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين ، ثم أذن لعضد الدولة فدخل ، ثم رفعت الستارة ، فقبل عضد الدولة الأرض ، فارتاع زياد القائد لذلك وقال : ما هذا أيها الملك ؟ ، أهذا هو الله عز وجل ؟! فالتفت عضد الدولة إلى عبد العزيز بن يوسف وقال له : فهمه فقل له هذا خليفة الله في الأرض » . ثم استمر يمشي ويقبل الأرض سبع مرات ، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم ، فقال : استدنه ، فصعد عضد الدولة فقبل الأرض دفعتين

فقال له : ادن اليّ ، ادن إلي ، فدنا وقبل رجله ، وثنى الطائع يمينه عليه وأمره فجلس على كرسي بعد أن كرر عليه : اجلس . وهو يستعفي ، فقال له : أقسمت لتجلس ، فقبل الكرسي وجلس » . [1] .

على أن موضع الأهمية هنا هو أن الخلافة العباسية كما هو معروف خلافة سنية ، بينما كان بنو بويه شيعة على مذهب الزيدية . وكان هذا المذهب قد انتشر في بلادهم الديلم جنوبي بحر قزوين على يد الحسن بن علي الزيدي الملقب بالأطروش (ت ٩١٧ م) .

والزيدية عموما يسوقون الخلافة إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب ، ثم إلى ولده يحيى بن زيد . وهم لا يتبرأون من امامة الشيخين أبي بكر وعمر بن الخطاب مع قولهم بأن عليا أفضل منهما ، أي أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، على عكس الفرق الشيعية الأخرى كالإسماعيلية والاثني عشرية ، فهم رافضه يرفضون إمامة الشيخين .

وعلى هذا الأساس تعتبر الزيدية أقرب الفرق الشيعية إلى السنة ، ولعل هذا هو السر الذي جعل البويهيين يظهرون ولاءهم للخلافة العباسية السنية حرصا على مصلحتهم السياسية ، وتمشيا مع المبدأ الزيدي الذي يدينون به وهو الاعتراف بإمامة المفضول مع وجود الأفضل .

على أن بعض المؤرخين — رغم ذلك — يسوقون في هذا الصدد روايات عديدة مؤداها أن معز الدولة البويهي لما دخل بغداد فكر في القضاء على الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها ، وأنه أعد لهذا الغرض شريفا علويا اشتهر بالديانة وحسن السيرة والصيانة اسمه ابو الحسن محمد بن يحي الزيدي ، وعرض عليه أن يسلمه الخلافة استنادا إلى حقه الشرعي فيها باعتباره من ولد رسول الله (صلعم) . ولكن هذا الشريف العلوي اعتذر عن قبول هذا العرض ، ونصح معز الدولة ، البويهي بالعدول عن هذه المحاولة لأن عامة المسلمين قد اعتادوا

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٤١٧ نشر أمدروز (القاهرة ١٩١٤) .

الدعوة العباسية ، وأطاعوا الخلفاء العباسيين كطاعة الله ورسوله ، ورأوهم أولي الأمر .. وتضيف الرواية أن أبا جعفر الصميري وزير معز الدولة البويهي ، عارض هو الآخر في تنفيذ هذه الفكرة ، ونصح سيده بقوله : « إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان ، وأطاعه الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك . وبنو العباس قوم منصورون ، تعتل دولتهم مرة ، وتصح مرارا ، وتمرض تارة وتستقل أطواراً ، لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ . فاستبعد معز الدولة الفكرة وعدل عن تنفيذها [1] .

ويذهب نفر آخر من المؤرخين أمثال ابن الأثير وابن كثير إلى ان معز الدولة البويهي ، فكر في مبايعة الخليفة العلوي في مصر المعز لدين الله الفاطمي ، بدلا من الخليفة العباسي ، فقال له أحد مستشاريه : « ليس هذا برأي ، فإنك اليوم مع خليفة (أي العباسي) تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى أجلست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ، ولو أمرت بقتله لم تطع بذلك » [2] .

واضح من مضمون ونتائج هذه الروايات السالفة أن السياسة البويهية كانت سياسة عملية واقعية تتمشى مع مصالحها ومبادئها ولا تتعارض مع مبدأ التعايش السلمي مع المذاهب والأديان الأخرى حرصا على بقائها . وقد شرح لنا هذه السياسة المرنة وزير من وزراء بني بويه وهو الصاحب بن عباد عند قوله في احدى رسائله : « والأشراف العلوية بقزوين بينهم وبين سائر الطوائف شحناء لا تسقط جمرتها ، ولا تتجلى غمراتها ، وقد كتبت في ذلك كتابا أرجوه يجمع على الألفة ، ويحرس من الفرقة ، وينتظم على ترك المنازعة ، والجنوح إلى الموادعة ، فان المهادنة تجمل بين الملتين ، فكيف بين النحلتين ، والله نسأل توفيقا لأنفسنا ولهم [3] .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم حـ٢ ص٨٧ وكذلك (حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص٢٧).

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حـ ٦ ص ٣١٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١١ ص ٢١٢

(٣) رسائل الصاحب بن عباد ص ٢١ نشر عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف (القاهرة ١٩٤٧) .

وتنفيذا لهذه السياسة المرنة المتسامحة، حرص البويهيون على اظهار ولائهم للخلافة العباسية السنية ، كما أنهم حرصوا في الوقت نفسه على توثيق علاقاتهم بالخلافة الفاطمية الشيعية في مصر ، وشاركوا في الاحتفالات بالأعياد الشيعية الدينية مثل يوم غديرخم [1] الذي احتفل البويهيون به في بغداد احتفالا كبيرا، فكانت تقام الزينات ، وتفتح الأسواق في الليل ، وتضرب البوقات ، وتشعل النيران عند أبواب الأمراء وكبار رجال الشرطة فرحاً بهذا العيد .

واستمر بنو بويه في الحكم مدة قرن من الزمان ، وكانت عاصمتهم مدينة شيراز ببلاد الفرس ، وإن كان بعضهم قد استقر أيضا في مدينة بغداد التي أسموها دار المملكة .

وقد ولي الخلافة على أيامهم أربعة من الخلفاء العباسيين أولهم المستكفي الذي عزلوه في بداية حكمهم سنة ٣٣٤ ﻫ ثم المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ ﻫ) ، والطائع (٣٦٣ — ٣٨١ ﻫ) ، ثم القادر (٣٨١ — ٤٢٢ ﻫ) الذي انتهت دولة بني بويه في عهده .

وعلى الرغم من أن العصر البويهي كان مليئا بالمنازعات والحروب الأهلية التي قامت بين أبناء هؤلاء الاخوة البويهيين الثلاثة حول الميراث والسلطة ، إلا أنه قد برز من بينهم شخصيات قوية لامعة ساهمت في تقدم وازدهار بلاد العراق وفارس التي خضعت لحكمهم .

ومن أهم هذه الشخصيات شخصية عضد الدولة بن الحسن بن بويه (٣٣٨ — ٣٧٢ ﻫ — ٩٤٩ — ٩٨٢ م) الذي بلغت الدولة البويهية في عهده أوج عظمتها . فلقد نجح هذا الملك في الظهور على إخوته وأبناء عمومته وتوحيد فارس والعراق تحت نفوذه . كذلك حرص على توثيق علاقته بالخليفة العباسي

---

(١) غدير خم (بضم الخاء) واد بين مكة والمدينة به غدير . ويقال ان الرسول (صلعم) خطب عنده بعد رجوعه من حجة الوداع بمكة وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وقال أيضا : علي مني منزلة هارون من موسى . ومن هنا نشأت فكرة الوصية عند عند الشيعة ولقب علي بالوصي .

الطائع فتزوج ابنته ، كما تزوج الخليفة ابنته طمعا في أن تنجب منه ولدا يرث الخلافة من بعده . وفي الوقت نفسه حرص عضد الدولة على توثيق علاقته بالخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر . ولقد أشار أبو المحاسن إلى الرسائل الودية التي تبودلت بين العاهلين في سنة ٣٦٩ هـ ، وأن الملك البويهي اعترف في خطابه للعزيز بإمامة الفاطميين ، وبفضل أهل البيت مظهرا طاعته ومحبته له . وقد رد العزيز على عضد الدولة برسالة من انشاء وزيره يعقوب بن كلس كلها شكر وتقدير وامتنان للملك البويهي . والعجيب في هذا الصدد أن رسالة الخليفة الفاطمي قرئت في حضرة الخليفة العباسي ، كما أن رسالة عضد الدولة أرسلت إلى مصر بعلم الخليفة أيضا ، وهذا يبين مدى الضعف الذي بلغه نفوذ الخليفة العباسي . ولا شك أن هذا التقارب المذهبي بين دولتي البويهيين والفاطميين قد ساعد على تقارب سياستيهما ضد العدو البيزنطي المشترك المجاور لحدودهما ، فتعاونا على دفعه ، ويظهر ذلك من الكتاب الذي أرسله الخليفة العزيز إلى عضد الدولة يقول له فيه :

« لقد علمت ما جرى على ثغور المسلمين من المشركين ... فتأهب إلى الجهاد في سبيل الله » . [1] .

ولقد قام بنو بويه بعدة اصلاحات داخلية في البلاد التي خضعت لنفوذهم مثل العراق وفارس وكرمان والرى وهمذان واصفهان . واهتموا بصفة خاصة باصلاح أنظمة الري وعمل السكور [2] (أي السدود) مما ساعد على تقدم الزراعة في أيامهم .

واستطاع عضد الدولة خلال السنوات الطويلة التي حكمها (٣٥ سنة) ، أن يحقق للدولة العباسية استقرارا وازدهارا بفضل مشروعاته العمرانية مثل السد العظيم الذي شيده عند مدينة شيراز بفارس وعرف باسم باندى أمير أي سد

(١) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٢) السكر بتشديد السين وسكون الكاف ، سد النهر ، والجمع سكور .

الأمير ، ومثل سكر السهيله (أي سد السهيله) الذي أقامه بالقرب من بلدة النهروان في العراق بين بغداد وواسط . وقد أعطانا المؤرخ والوزير المعاصر أبو شجاع محمد بن الحسين الملقب بظهير الدين الروذراوري ، نصا طريفا يصور لنا يقظة هذا الملك واهتمامه بتلك المشروعات العمرانية ، يقول فيه : « وأما ما عمله (عضد الدولة) من الآثار الجميلة ، فإنه جدد بفارس وخوزستان والعراق منها ما هو باقي الأثر عند الناظر شائع الخبر عند السامع . عمد إلى مصالح بغداد فأوجدها بعد العدم ، وأعادها إلى ريعانها بعد الهرم ، واستدر أفاويق الأعمال بعد أن كانت متصرمة واستمد ينابيع الأموال بعد أن كانت مسدمة .... وعمل السكور وأنفق فيها الأموال ، وأعد عليها الآلات ، ووكل بها الرجال ، وألزمهم حفظها بالليل والنهار ، وراعى ذلك منهم أتم مراعاة في آونة المدود الجوارف وأزمنة الغيوث الهواطل ، وأوقات الرياح العواصف . فقيل إنه لما سدّ المطهر بن عبد الله سكر السهيله ، رتب عليه إبراهيم المعروف بالأغر وأمره بالمقام عليه ، ومواصلة تعليته إلى حين انقضاء المدود . قال ابراهيم الأغر : فأقمت على هذا السكر زمانا طويلا والرجال معي ، وشقيت شقاء طويلا ، وكان لي منزل بجسر النهروان وبيني وبينه مدى قريب . فكنت لا أتجانبه على الإلمام به ولا على دخول الحمام إشفاقا من ان يكتب صاحب الخبر بجسر النهروان بخبري . فلما مضت المدة الطويلة على هذه الجملة من حالي ، عصفت ريح في بعض الليالي ، وورد معها مطر شديد ، فدخلت القبة المبنية على السكر استتر بها من الريح والمطر ، واجتهدنا في أن نشعل سراجا ، فلم يدعنا عصوف الريح ، وضجرت وضاق صدري ، ونازعتني نفسي أن أقوم فأمضي في الظلمة إلى جسر النهروان وأبيت في منزلي وأعاود بكرة موضعي . فبينما أنا في ذلك وقد حققت عزمي عليه ، اذ سمعت كلاما على باب القبة ، فقلت لغلامي : أنظر ما هو . فخرج وعاد وقال : إنسان على جمل قد أناخ عندنا . ودخل الرجل وسلم فرددت عليه وقلت للغلام : اشعل سراجا . فقدح وأشعل وجاء بالنار في نفاطة ، فاذا الرجل من خواص عضد الدولة عربي قد ورد من بغداد . فقلت له : ما تشاء ؟

فقال : استدعاني الساعة الاستاذ شكر وقد خرج من حضرة الملك (عضد الدولة) فقال : أمر مولانا أن تمضي إلى سكر السهيلة وتدخل إلى القبة التي هناك ، فان وجدت ابراهيم الأغر هناك ، فاعلمه اننا نجازيه على خدمته وطول ملازمته ، وادفع إليه بهذا الكيس ففيه ألف درهم ليصرفه في نفقته ، وإن لم تجده ، وكان قد دخل داره بجسر النهروان ، فاقصده واهجم عليه في منزله وخذ رأسه واحمله ... وعاد الرجل من وقته وبقيت حيران وعزمت على نفسي ألا أدخل جسر النهروان » [1] .

ومن الأعمال العمرانية التي تنسب إلى عضد الدولة أيضا ، المشهد العظيم الذي شيده على قبر الامام علي بن أبي طالب بمدينة النجف ، والمارستان (المستشفى) العضدي الذي بناه في بغداد لعلاج المرضى ، وفي ذلك يقول أبو شجاع الروذراوري السالف الذكر : « وفعل في تجديد العمران وبناء البيمارستان ، ووقف الوقوف الكثيرة عليه ، ونقل أنواع الآلات والأدوية والأطباء من كل ناحية اليه ، ما يدرك العيان بعضه إلى الآن » [2] ويضيف ابن خلكان بأن هذا المارستان العضدي « ليس في الدنيا مثل ترتيبه ، وقد أعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » [3] .

كذلك اهتم عضد الدولة بتعمير مدينة بغداد ، وكانت قد خربت بتوالي الفتن فيها ، واتخاذ بعض الخلفاء مدينة سامرا حاضرة للدولة . لذلك أعاد بناء ما تهدم من مساجد بغداد وأسواقها ، وأدر الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد . وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها ، وأقام الميادين والمتنزهات فامتلأت هذه الخرابات بالزهر والخضرة والعمارة بعد أن كانت مأوى الكلاب ومطارح الجيف والأقذار ، وجلبت

---

(١) راجع (أبو شجاع الروذراوري : ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ج ٣ ص ٦٨ — ٧٠ ، نشر أمدروز)

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٩ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٨ .

إليها الغروس من فارس وسائر البلاد . كذلك عمل عضد الدولة على تجديد ما ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها وتسويتها ، وأقام جسر بغداد وحصنه بالدرابزينات ، ووكل به الحفظة والحراس » . وأصلح الطريق من العراق إلى مكة ، وأطلق مكوس الحجاج ، كما أطلق الصلات لأهل البيوتات والشرفاء ، والضعفاء المجاورين بمكة والمدينة ، وفعل مثل ذلك بمشهدي علي والحسين عليهما السلام ، وسكن الناس من الفتن ، وأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانيا في عمارة البيع والكنائس والأديرة ، واطلاق الأموال لفقرائهم » [1] .

أما الحياة العلمية والأدبية ، فقد ازدهرت هي الأخرى على عهد بني بويه ازدهارا كبيرا ، ويؤثر عن الملك عضد الدولة أنه أجرى اجرايات على الفقهاء ، والمحدثين ، والمتكلمين ، والمفسرين ، والنحاة ، والشعراء ، والنسابين ، والأطباء ، والحسّاب ، والمهندسين [2] . وبالغ في اكرام العلماء والانعام عليهم ، وصار يقربهم من حضرته ويدنيهم من خدمته ، ويعارضهم في أجناس المسائل ، ويفاوضهم في أنواع الفضائل ، فاجتمع عنده من كل طبقة أعلاها ، وجنى له من كل ثمرة أحلاها . وصنفت في أيامه المصنفات الرائعة في أجناس العلوم المتفرقة : فمنها كتاب الحجة في القراءات السبع لأبي علي الحسن بن احمد الفارسي النحوي [3] ، والكناش العضدي في الطب لعلي بن العباس المجوسي [4] ، وكتاب التاجي في أخبار بني بويه لأبي اسحاق ابراهيم الصابي [5] وكتاب الايضاح

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ٧٠٤ — ٧٠٥ .

(٢) ابن الأثير : نفس المرجع ، مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٣) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي توفي ببغداد سنة ٣٧٦ هـ . وقد جاوز التسعين وكان معتزليا . (ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ط ص ٤٦١) .

(٤) جمال الدين القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٢٢ ، ٤٤٠ .

(٥) يروي ابن خلكان (وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٥) ان عضد الدولة كلف أبا اسحاق الصابي تأليف كتاب في أخبار الدولة الديلمية أي البويهية ، وان الصابي لم يجد في تاريخ الديالمة من المفاخر والأمجاد ما يرضي كبرياء بني بويه فعمد إلى التلفيق واصطناع الأخبار المزيفة ليرضي عضد الدولة ، وكان هذا من أسباب غضب السلطان عضد الدولة عليه فيما بعد وسجنه .

في النحو الذي صنفه له الشيخ أبو علي الفارسي النحوي السالف الذكر . كذلك عمل له العالم الفلكي أبو الحسين بن عمر الرازي كرة كبيرة وزنها ثلاثة آلاف درهم [1] . ولعلها كانت كرة تمثل السماء بما فيها من أجرام ونجوم ، بدليل أن عضد الدولة كان دائما يقول مفتخرا : « أنا غلام أبي الحسين الرازي الصوفي في النجوم ، وغلام أبي علي النحوي في النحو » [2] . وقد يؤيد هذا أيضا أنه في عهد ولده شرف الدولة اقيم في بغداد مرصد للعلوم الفلكية .

وإلى جانب ذلك ، كان عضد الدولة شاعرا يحب الشعراء ، وكان الشاعر المتنبي واحدا ممن اتصلوا به ومدحوه بالقصائد الطوال . وينسب إلى عضد الدولة شعر يدل على قسوته واعتداده بنفسه مثل قوله :

قتلت صناديد الرجال فلم أدعْ ... عدوا ولم أمهل على جيشه خلقاً
وأخليت دور الملك من بعد عزمهم ... فشردتهم غربا وبددتهم شرقـا

وقوله كذلك :

ليس شرب الكأس إلا في المطر ... وغناء مـن جوار في سحـر
غانيـات سالبـات للنهـى ... ناعمات في تضاعيـف الوتر
عضد الدولة وابـن ركنهـا ... ملك الأملاك غلاب القدر [3]

هذا وينبغي أن نشير في هذا الصدد أيضا إلى وزراء بني بويه الذين جمعوا بين الرياسة والعلم ، وعملوا على ازدهار الحركة العلمية في البلاد . ومعظم هؤلاء الوزراء ينتمون إلى الفرس ، ومن أشهرهم أبو الفضل بن العميد (ت ٣٦٠ هـ) ، وأصله من قم احدى المدن الفارسية . وقد وزر للملك ركن الدولة صاحب الرى وهمذان وأصفهان ، وكان له أثر كبير في تنشئة ولده عضد الدولة وتعليمه أصلح

(١) جمال الدين القفطي : المرجع السابق ص ٤٤ .
(٢) أبو شجاع الروذراوري : ذيل كتاب تجارب الأمم جـ ٣ ص ٦٨ .
(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر جـ ١ ص ٣٠٥ ، عبد الفتاح السرنجاوي : النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية ص ١٠٩ .

الطرق لتدبير ملكه في العراق وفارس . لهذا كان عضد الدولة يذكر له دائماً هذا الصنيع ويشيد بفضله ويدعوه بالاستاذ الرئيس [١] . وقد وصف ابن خلكان هذا الوزير بقوله : « كان أبو الفضل بن العميد متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم ، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه ، وكان يسمى الجاحظ الثاني ، وكان كامل الرياسة جليل القدر ، وهو الذي قيل فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » [٢] .وقد قصده المتنبي ومدحه ببعض قصائده ومنها قصيدته التي هنأه فيها بعيد النوروز والتي يصفه فيها بأنه عربي اللسان فارسي الأعياد .

عـــربي لسانـــه فلسفـــي   رايـــه فارسيـــةٌ أعياده [٣]

وكان من أتباع الوزير ابن العميد ، الصاحب اسماعيل بن عباد الذي خلفه في الوزارة بعد ذلك (ت ٣٨٥ هـ) وهو فارسي أيضا ، وقد لقب بالصاحب لأنه كان يصحب ابن العميد ، ثم أطلق عليه هذا اللقب وبقي علما عليه ، ثم سمى بهذا الاسم كل من تقلد الوزارة بعده . وكان ابن عباد هو الآخر أديبا بارعا في فن الترسل وله رسائل منشورة [٤] ، وكذلك له كتاب في الأعياد وفضائل النوروز . هذا إلى جانب اطلاعه الواسع على كل ما يصدر من مؤلفات في المشرق والمغرب . يروى أنه حينما اطلع على كتاب العقد الفريد للأديب الأندلسي المعاصر أحمد بن عبد ربه ، قال عبارته المشهورة : « بضاعتنا ردت الينا » ، وهو يعني بذلك أن الكاتب الأندلسي لم يأت بجديد عما ذكره المشارقة . والواقع إن الصاحب مبالغ في قوله ، لأن كتاب العقد الفريد وإن كان قد كتب على طريقة المشارقة ورتب في فصول كالعقد ، إلا أنه امتاز أيضا بموضوعات اندلسية وبطابع أندلسي خاص يميزه عن الموسوعات الأدبية الأخرى .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٧ ، حسن ابراهيم حسن : الاسلام السياسي جـ ٣ ص ٤٥٨ .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر جـ ٣ ص ١٥٥ ، طه ندا : النوروز في الآداب الاسلامية ص ٨ .

(٤) نشرت رسائل الصاحب بن عباد في القاهرة سنة ١٩٤٧ بعناية عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف .

ومهما يكن من شيء فان الصاحب بن عباد كان علما من أعلام الفكر وقد مدحه عدد كبير من شعراء العرب والأعاجم بدليل قوله هو نفسه : « مدحت والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية »[١] .

ومن وزراء بني بويه نذكر أيضا سابور بن أردشير الفارسي ، وزير بهاء الدولة ابن عضد الدولة ، وقد انشأ في بغداد دارا للعلم وألحق بها مكتبة ضخمة بلغ عدد مجلداتها عشرة آلاف كتاب[٦] . كذلك عاصر أيام بني بويه عدد من أقطاب الأدب والعلم كالفارابي والخوارزمي والمتنبي فضلا عن جماعة اخوان الصفا الذين ازدهرت أفكارهم ووضعوا رسائلهم في عهد البويهيين[٢] .

عاشت دولة بني بويه حوالي مائة سنة ثم أخذت في الضعف والانتقاض نتيجة للانقسامات والحروب التي كثرت بين أفراد الأسرة البويهية . ثم لم تلبث هذه الخلافات أن انتقلت عدواها إلى الطوائف الأخرى كالسنة والشيعة ، والترك والديلم ، فقامت الحروب بينها في شوارع بغداد ، ولا سيما في حي الكرخ الذي كان موطنا للشيعة ويقع في غرب المدينة .

ولقد نتج عن ضعف الدولة البويهية أن صار الخلفاء العباسيون قادرين على التدخل في السياسة ومناوأة النفوذ الشيعي البويهي والفاطمي . ومن مظاهر ذلك أن الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) أمر في سنة ٣٨٢ هـ بوقف النواح والبكاء في بغداد في يوم عاشوراء ، كما رفض تعيين رجل شيعي اختاره البويهيون لشغل منصب قاضي بغداد . واضطر البويهيون إلى الرضوخ ، واكتفوا

(١) ياقوت : معجم الأدباء جـ ٦ ص ١٦٨ ، طه ندا : المرجع السابق .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٧٧ .

(٣) نشر الزركلي رسائل اخوان الصفا في أربعة مجلدات (القاهرة ١٩٢٨) وجمعية اخوان الصفا جمعية سياسية دينية شيعية ، ظهرت في القرن العاشر الميلادي واتخذت مقرها البصره ونزعتهم الفلسفية تأثرت بالفرس واليونان والهنود ، وقد يأخذون من كل مذهب بطرف . كتبوا رسائل كثيرة ومن مؤلفيها ابو سليمان المقدسي ، وأبو حسن الزنجاني ، والعوفي ، وزيد بن رفاعة وغيرهم وتعتبر رسائلهم بمثابة موسوعة علمية في مختلف الموضوعات: في المنطق والرياضيات وعلم النفس والتصوف والتنجيم وفيما وراء الطبيعة وغير ذلك .

بتعيين قاض خاص للشيعة سموه النقيب أو نقيب الطالبيين أو الهاشميين .

ومن مظاهر هذا العداء أيضا ، قيام الشيعة في بغداد بمظاهرة مسلحة سنة ٣٩٨ هـ طالبوا فيها بإقامة الدعوة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله . وصاروا ينادونه في الشوارع : يا حاكم يا منصور !! واضطر الخليفة القادر أن يحاربهم بفرقة من حرسه ، وانتهت المعركة بهزيمتهم واخماد ثورتهم .

نفس هذا العمل يمكن أن يقال بالنسبة لثورة قرواش بن المقلد صاحب الموصل الذي خرج عن طاعة الخليفة القادر سنة ٤٠١ هـ ونشر الدعوة الفاطمية في الموصل والمدائن والأنبار والكوفة ، ودعا للخليفة الحاكم بأمر الله على منابر تلك البلاد . وقد وجه إليه الخليفة القادر العباسي جيشا قضى على حركته .

ولا شك أن سياسة الدولة الفاطمية كانت وراء هذه الاحداث بدليل أن الخليفة القادر لم يكتف بقوة السلاح ، بل لجأ إلى سلاح التشهير بسمعة الفاطميين والطعن في نسبهم في أنحاء العالم الإسلامي . فأصدر في سنة ٤٠٢ هـ محضرا وسميا موقعا بأسماء كبار الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة مثل نقيب الأشراف والشاعر العلوي المشهور الشريف الرضى بن موسى الكاظم [1] (ت ٤٠٦ هـ) . ومما جاء في هذا المحضر : « ... والفاطميون منسوبون إلى ديصان ابن سعيد الخرمي اخوان الكافرين ... أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي ابن أبي طالب . وان هذا الناجم بمصر وسلفه كفار فساق فجار زنادقة .. الخ » [2]

ولما ولى الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) سار هو الآخر على سياسة والده القادر ، فأصدر في سنة ٤٤١ هـ محضرا آخر ضد الفاطميين يتضمن نفس المطاعن التي أثارها أبوه من قبل .

ولا شك أن كل هذا الاضطراب كان مصدره ضعف الدولة البويهية وعدم

---

(١) راجع (المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ص ٣٨ — ٣٩) .

(٢) راجع النص في (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠) .

قدرتها على حسم هذه الفتن كما كان الحال في عهد عضد الدولة واخوته من قبل .

ولقد كانت نهاية دولة بني بويه على يد الأتراك السلاجقة حينما دخل زعيمهم طغرلبك مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وقضى على دولة الملك الرحيم آخر ملوك البويهيين .

الفصل الخامس

العصر العباسي الرابع

عصر النفوذ التركي الثاني

الدولة السلجوقية وأتابكياتها

١) الدولة السلجوقية

٢) الاتابكيات السلجوقية

الدولة السلجوقية واتابكياتها

١) الدولة السلجوقية :

بدا العالم الاسلامي منذ منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) وكأنه صرح قد تقوض بناؤه وصار آيلا للسقوط : فالمشرق الاسلامي مفكك ومنقسم على نفسه بين خلافتين متعاديتين : الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. وكل واحدة منهما قد استنفدت قواها في مشاكلها الداخلية بحيث صارت عاجزة عن حماية حدودها. وانتهزت الدولة البيزنطية هذه الفرصة وأخذت تغير على الحدود الاسلامية المتاخمة لها وتتوغل في أراضيها في شمال الشام والجزيرة .

وفي نفس هذا الوقت كان الغرب الاسلامي يعاني هو الآخر مثل هذا الضعف والانهيار على أثر سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وتفكك الدولة إلى دويلات ضعيفة متنازعة عرفت بالطوائف أو الفرق . وانتهز ملك اسبانيا النصرانية هذه الفرصة وأخذ يغير على ثغور المسلمين ومدنهم بغية طردهم نهائيا من الأندلس .

ولم يكن يوجد في داخل كيان هذه الدول الاسلامية المضمحلة شرقاً وغرباً

ما يبشر بظهور حركة يقظة أو إحياء فيها ، بل كانت في حاجة ماسة إلى دماء فتية جديدة تأتيها وتغذيها من خارج حدودها لا من داخلها كي تنقذها من انهيار محقق . وكان من حسن حظ العالم الاسلامي في ذلك الوقت ان تحققت له هذه المعجزة حينما جاءته من وراء حدوده شرقا وغربا عناصر فتية جديدة مليئة بفتوة البداوة وعنفوانها : فالمشرق جاءته موجات الأتراك السلاجقة الذين دحروا البيزنطيين وطردوهم من آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد الحاسمة سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . والمغرب جاءته من صحراء موريتانيا جنوبا موجات من البربر الملثمين المرابطين الذين وحدوا المغرب ثم عبروا إلى الأندلس وهزموا الاسبان في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) فانقذوا الاسلام هناك ، وأخروا سقوط الأندلس أربعة قرون أخرى .

وحديث الأندلس والمرابطين لا يعنينا هنا في تاريخ العباسيين إلا من حيث هذا الربط والمقارنة بين الأحداث . أما الأتراك السلاجقة فهم مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم الغز أو الأغوز ، أصلها من سهوب تركستان في أواسط آسيا . أما تسميتهم بالسلاجقة فنسبة إلى قائدهم الذي وحدهم وجمع شملهم سلجوق بن دقاق فنسبوا إليه .

وتبدأ أهمية السلاجقة منذ انتقالهم مع زعيمهم سلجوق إلى بلاد ما وراء النهر واعتناقهم للدين الاسلامي على المذهب السني . فقد أتاح لهم اسلامهم فرصة الاستقرار في الأراضي الاسلامية بنواحي بخاري وسمرقند في أواخر القرن الرابع الهجري ، والتعاون مع السامانيين في حماية الثغور الشرقية ونشر الاسلام فيما وراءها بين الأتراك الوثنيين . ثم أخذت جموع السلاجقة تزداد وتنتشر في هذه المنطقة خصوصا بعد سقوط الدولة السامانية ، بحيث لم يأت القرن الخامس إلا وكانوا على استعداد للهجرة غربا نحو خراسان بقيادة طغرلبك حفيد سلجوق . ولا شك أن قيام دول تركية على الحدود الاسلامية الشرقية كالدولة القرخانية والدولة الغزنوية ، قد ساعد هؤلاء الأتراك السلاجقة على عبور نهر جيحون والانتشار غربا في أراضي الخلافة العباسية .

استولى السلاجقة على مرو ونيسابور وبلخ وطبرستان وخوارزم في سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، ثم الجبال وهمذان ودينور والرى وأصفهان (٤٣٣ - ٤٣٧ هـ) . وقد حرصوا خلال زحفهم على اظهار تمسكهم بمذهب أهل السنة ومحاربتهم المذهب الشيعي .

وكانت الخلافة العباسية في ذلك الوقت تعاني من سيطرة الدولة البويهية الشيعية ومؤامرات الدولة الفاطمية التي أحدثت في البلاد اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة . لهذا لم يجد الخليفة القائم العباسي وسيلة أمامه سوى الاستنجاد بزعيم الأتراك السلاجقة طغرلبك للقضاء على هذا الوضع الشاذ الذي كانت تعانيه خلافة بغداد . فأمر بأن يخطب باسم طغرلبك في مساجد بغداد في رمضان سنة ٤٤٧ هـ ، ثم أذن له بدخول بغداد ، وخرج الأمراء والرؤساء والقضاة والنقباء والأشراف لاستقباله في موكب عظيم . وبدخول طغرلبك مدينة بغداد سقطت الدولة البويهية وقامت الدولة السلجوقية .

ولتدعيم الروابط بين الخلافة الهاشمية والسلاجقة الأتراك ، تزوج الخليفة القائم من خديجه (أرسلان خاتون) بنت داود أخي السلطان طغرلبك .

كان لسقوط دولة بني بويه وحلول السلاجقة السنيين مكانها ، وقع سيء في الأوساط الفاطمية في القاهرة . وكان رد الفعل عنيفا ، إذ اتجهت الدولة الفاطمية نحو سياسة الانتقام من حكومة بغداد الجديدة ، وذلك بأن شجعت فتنة القائد التركي أبي الحارث أرسلان البساسيري الثائر على الخلافة العباسية في العراق .

كان البساسيري في الأصل مملوكا تركيا للسلطان بهاء الدولة البويهي ثم أخذ يتنقل في وظائف الدولة إلى أن عينه الخليفة القائم قائداً لحرسه ، وقربه إليه حتى صار لا يقطع أمراً إلا بعد استشارته . وقد أثار ازدياد نفوذ البساسيري حقد الوزير أبي القاسم علي بن المسلمة ، فأخذ يكيد له ويفسد ما بينه وبين الخليفة حتى غضب عليه الخليفة القائم واضطر البساسيري إلى الهرب من بغداد والإقامة في مدينة الرحبة شمالا على نهر الفرات .

ولما دخل طغرلبك بغداد ، اتصل البساسيري بالخليفة الفاطمي في القاهرة ، المستنصر بالله أبي تميم معد ، وطلب منه نجدة لفتح بغداد وطرد السلاجقة منها .

وأمام هذه الأحداث الجديدة ، قرر الخليفة الفاطمي أن يستجيب لنداء البساسيري بغية الانتقام لسقوط الدولة البويهية . قال أبو المحاسن : « إن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار ، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك ، وخمسمائة فرس ، وعشرة آلاف قوس ، ومن السيوف ألوف ، ومن الرماح والنشاب شيء كثير »[1] .

وأخذ البساسيري ، بعد استلام هذا المدد ، ينتظر الفرصة المناسبة للهجوم على بغداد ، وأخيرا ظفر بها في سنة ٤٥٠ هـ عندما خرج طغرلبك من بغداد لمحاربة أخيه ابراهيم ينّال في شمال العراق . فانتهز البساسيري هذه الفرصة وهاجم بغداد واستولى عليها بمعاونة أهل الكرخ ، وهو من أكبر أحياء الشيعة ببغداد ويقع في جانبها الغربي .

وقبض البساسيري على الوزير أبي القاسم بن المسلمة الذي كان سبب خروجه من بغداد ، فقيده وشهّره على جمل وعليه طرطور وعباءة ، وجعل في رقبته قلائد كالمسخرة ، وطيف به بالشوارع ، وخلفه من يصفعه ، ثم سلخ له ثور وألبس جلده وخيط عليه ، وجعلت قرون الثور في رأسه ، ثم علق على خشبة ، وعمل على فكيه كلاّبان من حديد ، فلم يزل يضطرب حتى مات »[2] . أما الخليفة القائم فقد نهبت العامة داره غير أن البساسيري أحسن معاملته وسلمه لوالي مدينة عانه في شمال الفرات بعد أن أرغمه على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود أولاد فاطمة الزهراء . ورفع البساسيري الألوية المصرية في بغداد ، وفي غيرها من الأقاليم والمدن التي فتحها مثل البصرة وواسط ، وخطب للخليفة المستنصر أبي تميم معد على منابرها ، وأرسل إليه يعرفه ما فعل .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١ — ١٢ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المرجع جـ ٥ ص ٧ .

وسر المستنصر سرورا عظيماً لهذا النصر الكبير الذي لم يحدث لأحد من آبائه أو أجداده ، فأقيمت الزينات والأفراح في القاهرة ، ووقفت المغنية نسَبْ الطباله تحت القصر ، وأخذت تنشد وهي تضرب بالطبل ومعها بطانتها :

يـا بـنـي العبـاس ردوا ... مـلك الأمـر معـدْ
مُلْكُكُم مُـلكٌ معـارٌ ... والعـوارى تستـرد [1]

فطرب المستنصر لذلك ، وطلب منها أن تتمنى عليه ، فسألته أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها إياها وسميت بأرض الطبالة وهي من أحسن منتزهات القاهرة ، ومكانها اليوم منطقة السكن التي يحدها من الشمال والغرب شارع الظاهر ، ومن الجنوب شارع الفجالة ، ومن الشرق شارع الخليج المصري [2]

ولقد كان من المنتظر أن يواصل المستنصر تدعيمه لثورة البساسيري بالمال والسلاح ولكنه لم يفعل ، ويرجع المؤرخون سبب ذلك إلى عدم ثقة المستنصر في البساسيري من جهة ، وإلى الأزمة الاقتصادية السياسية الخطيرة التي حلت بمصر في ذلك الوقت وهي المعروفة في كتب التاريخ باسم الشدة العظمى ، من جهة أخرى .

وكيفما كان الأمر فإن ثورة البساسيري لم تدم طويلا ، فبعد انتصار طغرلبك على أخيه ابراهيم ينال ، رجع إلى بغداد وأعاد الخليفة القائم إلى عرشه ، ثم قاتل البساسيري حتى هزمه وقتله وصلبه ؛ فتخلصت الدولة العباسية بذلك من هذه الاضطرابات الداخلية الخطيرة [3] .

وقد توج طغرلبك هذا النصر بالزواج من ابنة الخليفة القائم سنة ٤٥٤ هـ ،

---

(١) المقريزي : الخطط ـ ٢ ص ١١٥ والعواري مفردها العاره والعارية وهي الاعارة أو ما يتداوله القوم فيما بينهم . وقد وردت هذه الأبيات بصورة مختلفة في بعض المراجع الأخرى مثل :

يا بني العباس صدوا ... ملك الأمر معد
ملككم كان معارا ... والعوارى تسترد

(٢) راجع (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ـ ٥ ص ١٢ حاشية رقم ٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ـ ٩ ص ٦٤٩ .

إلا انه لم يعمر بعد زواجه طويلا وتوفي في رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) وهو في سن السبعين .

عضد الدين ألب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ — ١٠٦٣ — ١٠٧٢ م) .

ولي الحكم بعد وفاة عمه طغرلبك ، وأحيا الروح الحربية الاسلامية ، وحمل لواء الجهاد ضد الروم والشيعة على السواء .

يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٣ هـ (١٩٧٠ م) أن السلطان الب أرسلان رأى أن يبدأ بالاستيلاء على حلب وشمال الشام كي يحمي ظهره من الخطر القاطمي قبل التوغل في أرض الروم شمالا . وعلم أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس [1] بهذه الحركة مقدما ، وكان يدين بالمذهب الشيعي ، فجمع أهل حلب وقال لهم : « هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم ، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم . والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتينا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل . فأجاب المشايخ إلى ذلك ، ولبسوا السواد ، وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان . فأخذت العامة حصر الجامع وقالوا : هذه حصر علي بن أبي طالب ، فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها الناس ! ! .

وأرسل الخليفة القائم إلى محمود بن مرداس الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي فلبسها ومدحه الشعراء .

وبعد قليل وصل السلطان ألب أرسلان إلى حلب ، وكان مندوب الخلافة لا يزال بها ، فطلب منه الأمير محمود أن يخرج إلى السلطان ليعفيه من الحضور عنده والمثول بين يديه ، فخرج نقيب النقباء وأخبر السلطان بأن الأمير محمود قد لبس الخلع القائمية وخطب . فقال السلطان : « أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون : حي على خير العمل ؟ (الأذان عند الشيعة) ولا بد له من الحضور ودوس بساطي » . فامتنع محمود من ذلك . فاشتد الحصار على البلد ، وغلت

---

(١) بنو مرداس سلالة من عرب الشام من بني كلاب ينتمون إلى صالح بن مرداس الكلابي الذي استقل بحكم حلب عن الفاطميين سنة ١٠٢٣ م وحموا شمال الشام من هجمات البيزنطيين

الأسعار ، وعظم القتال . فلما عظم الأمر على محمود ، خرج ليلا ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري ، فدخلا على السلطان وقالت له : هذا ولدي ، فافعل به ما تحب . فتلقاهما بالجميل ، وخلع علي محمود ، وأعاده إلى بلاده ، فأنفذ إلى السلطان مالا جزيلا [1] .

لم يكتف ألب أرسلان بالاستيلاء على حلب ، بل أرسل في نفس هذه السنة أميرا تركيا يدعى أتسز بن أوق الخوارزمي إلى جنوب الشام أي إلى فلسطين وكانت تحت حكم الفاطميين ، ففتح مدينة الرملة ، وبيت المقدس وما جاورها من بلاد ما عدا عسقلان مفتاح الطرق المؤدية إلى مصر ، ثم قصد مدينة دمشق وحاصرها وخرب أعمالها وقطع الميرة عنها ولكنه لم يستطع دخولها .

وهكذا يتضح من تحركات جيوش ألب أرسلان في بلاد الشام أنها كانت تهدف إلى ضرب القوى الشيعية في تلك البلاد قبل التوجه شمالا إلى آسيا الصغرى لجهاد البيزنطيين .

كان الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس Romanus Diogenes قد خرج في ذلك الوقت لمهاجمة الديار الإسلامية في نحو مائتي ألف مقاتل من الروم والروس والفرنج والأرمن وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، في تجمل كثير وزي عظيم . ثم تقدم في زحفه شرقا حتى بلغ بلدة ملاذكرد Malazgerd من أعمال خيلاط على الفرات الأعلى شمالي بحيرة فان Van عند أرمينيا . ويبدو أنه كان يريد اختراق ثغور المسلمين من ناحية الجزيرة والتوغل في الأراضي الإيرانية . وفطن ألب أرسلان لخطة العدو وكان في ذلك الوقت قد بلغ أذربيجان في خمسة عشر ألف فارس فقط . فتقدم من فوره لوقف زحف العدو . ويقال إنه انزعج عندما شاهد ضخامة جيش العدو لدرجة أنه أرسل إلى الامبراطور رومانوس يطلب المهادنة ، وكان هدفه من ذلك كسب الوقت ريثما تصله

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٦٣ - ٦٤ .

الامدادات . ولكن الامبراطور أصر على الحرب ومواصلة الزحف وقال : لا هدنة إلا بالري ! [1]

عندئذ قرر السلطان مواجهة العدو ، واختار بأن يكون اللقاء في يوم الجمعة وفي الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر . فلما كانت تلك الساعة صلى بجنوده وقال لهم : « من أراد الانصراف فلينصرف ، فما ها هنا سلطان يأمر وينهي . اني أقاتل محتسبا صابرا ، فان سلمت فنعمة من الله ، وان كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي » ، ثم ألقى القوس والنشاب ، وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط ، وقال : إن قتلت فهذا كفني . ثم زحف نحو الروم ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وأكثر الدعاء ، ثم ركب واندفع نحو العدو وحملت العساكر معه حملة رجل واحد ، فقتل المسلمون في الروم كيف شاؤوا ، وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى ، وأسر ملك الروم رومانوس ، أسره مجاهد مسلم أراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع الملك : لا تقتله فإنه الملك . وسيق الملك إلى السلطان ألب أرسلان فضربه ثلاث مقارع بيده وقال له : ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ ، وافعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح . قال له : فما تظن أنني أفعل بك ؟ قال : إما أن تقتلني ، وإما أن تشهّر بي في بلاد الاسلام ، والأخرى بعيدة ، وهي العفو وقبول الأموال ، واصطناعي نائبا عنك . قال : ما عزمت على غير هذا . وافتدي الامبراطور نفسه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وتعهد أن يرسل إلى ألب أرسلان عساكر الروم في أي وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، وأن تعقد الهدنة بينهما لمدة خمسين سنة . وقد أكرم

(1) الري مدينة قديمة في جنوب ايران وقد اشتهرت في العصر السلجوقي بصناعة الخزف ذي البريق المعدني كما كانت منازلها كما يقول ياقوت من الآجر المحكم الملمع بالزرقة المدهون كما تدهن الغضائر أي الخزف .

الب ارسلان الامبراطور بعد عقد الصلح ، فأرسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها وأطلق له جماعة من البطارقة . ويقال إن الامبراطور سأل قبل رحيله : أين جهة الخليفة » ؟ فدل عليها ، فقام وكشف عن رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة . ثم شيعه السلطان فرسخا ، وأرسل معه عسكرا أوصلوه إلى مأمنه [1] .

تعتبر موقعة ملاذكر أو منزكرد سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) من المواقع الحاسمة في التاريخ إذ نتج عنها نتائج سياسية وحربية خطيرة في تاريخ هذه المنطقة أهمها :

١ ــ مهدت الطريق أمام جيوش المسلمين للتوغل في بلاد آسيا الصغرى واقتطاع هذه الأقاليم الأسيوية من ممتلكات الدولة البيزنطية لأول مرة . فقد وجه إليها ألب أرسلان ابن عمه سليمان قتلمش الذي استوطنها برجاله وأقام هناك دولة سلاجقة الروم ، نسبة إلى بلاد الروم التي قامت فيها . وستكون هذه الدولة هي أطول الدويلات السلجوقية عمرا ، اذ ستظل قائمة إلى أن يقضي عليها الأتراك العثمانيون في أواخر القرن ١٤ م .

٢ ــ كانت هذه الوقعة من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦ م . ذلك لأن أخبار هزيمة الروم وعدم تمكنهم من حشد جيش آخر لرد الخطر التركي ، أثار مخاوف الدول الأوربية . صحيح أن العلاقات بين روما والقسطنطينية كانت عدائية بسبب ما قام بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية من خلاف مذهبي انتهى بانفصال الكنيسة الشرقية في القسطنطينية عن الكنيسة الغربية في روما سنة ١٠٥٤ م أي قبل موقعة ملاذكرد بنحو ثمانية عشر عاما ، إلا أنه على الرغم من ذلك كان الغرب اللاتيني ينظر إلى الدولة البيزنطية على أنها الحصن الأمامي الذي يحمي المسيحية ضد الإسلام في الشرق ، ومن ثم يجب على الغرب المسيحي أن يمد لها يد المساعدة .

وقد اهتم البابوات في روما بأمر هذه المساعدة ، نذكر منهم البابا جريجوري

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٦٦ وما بعدها .

السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) ، والبابا أوربان الثاني (١٠٨٨ — ١٠٩٩ م) فأخذوا يحرضون ملوك أوربا على مساعدة بيزنطه واتخذوا من هذه المسألة عاملا مهما لتحقيق أهدافهم الصليبية .

لم يعش ألب أرسلان بعد هذا النصر مدة طويلة ، إذ تروي المصادر انه اتجه بجيش كبير نحو بلاد ما وراء النهر للقيام بغزوة هناك في بلاد التركستان . ويبدو من كلام ابن الأثير أن تصرفات جنود السلطان أثناء عبورهم نهر جيحون قد أثارت استياء الأهالي وغضبهم لدرجة أن أهالي بخاري وسمرقند أخذوا يتلون القرآن ، ويكثرون الدعاء إلى الله كي يكفيهم شره . ثم حدث أن سب السلطان مستحفظ لقلعه هناك اسمه يوسف الخوارزمي ، فغضب السلطان وأخذ القوس والنشاب وأمر الحراس بتركه ثم رماه بسهم فأخطأه — ولم يكن يخطىء سهمه — فوثب عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته فجرحه جرحا بليغا مات على أثره سنة ٤٦٥ هـ بعد أن أوصى اولده ملكشاه من بعده .

بقي أن نشير إلى أن عصر ألب أرسلان ومن سبقه من سلاطين ، رغم كونه مزدحما بالأعمال الحربية والتحركات العسكرية ، إلا أنه كان في الوقت نفسه مزدهرا في النواحي العلمية والأدبية والفنية . ويلاحظ أن هؤلاء الأتراك السلاجقة في حركتهم نحو الغرب ، قد تحضروا بأول حضارة قابلتهم ، وهي الحضارة الايرانية في عهد السامانيين والغزنويين . وعندما زحفوا إلى آسيا الصغرى وكونوا هناك دولتهم المعروفة بدولة سلاجقــة الروم ، كانت الحضارة الفارسية هي معينهم أيضا . فكانت الفارسية هي لغة الأدب والتــأليف ، وكانت قصور السلاطين تزدان بالفنون الإيرانية وأبيات الشاهنامه الفارسية رغم ما هو معروف من عداء الشاهنامه الصريح للأتراك (١) .

وفي عهد ألب ارسلان ظهر الوزير نظام الملك الطوسي (٢) والشاعر الفلكي

---

(١) طه ندا : النوروز في الآداب الاسلامية ص ٩ .

(٢) نسبة إلى مدينة طوس أو مشهد في شمال شرق ايران قرب مرو وكانت من أهم المراكز للدراسات العلمية والدينية وبها قبور الا مام علي الرضا وهارون الرشيد والغزالي والفردوسي صاحب الشهنامة .

عمر الخيام وان كان دورهما العلمي الحقيقي لم يظهر بوضوح إلا في عهد خلفه السلطـان ملكشاه . كذلك ازدهرت الصناعات الخزفيـة والمعدنية ويكفي أن نشير إلى التحف الجميلة المتخلفة عن هذا العصر مثل الصينية الفضية المحفوظة في متحف بوسطون بأمريكا ، وهي تمثل ذروة الازدهار الفني والجمال الزخرفي في ذلك العصر ، وقد نقش عليها بالخط الكوفي لقب السلطان ألب ارسلان في الوسط وهو : عضد الدين . ثم نقش حول حافتها من الداخل : تقديما للحضرة الأجل السلطان المعظم ألب أرسلان أدام الله ملكه . أمرت به ملكة الزمان ، قبلة أهل العصمة . صنعه حسن القاشاني في تسع وخمسين وأربعمائة [1] .

جلال الدين أبو الفتح ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ ـ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢)

خلف والده ألب أرسلان في حكم الدولة السلجوقية ، وسار على سياسته في محاربة النفوذ الفاطمي الشيعي في الشام . واستطاع قائده أتسز أن يستولي على دمشق بعد عدة محاولات سنة ٤٦٨ هـ . ثم عين السلطان ملكشاه أخاه تتش ابن ألب أرسلان ملكا على بلاد الشام ، وجعل حكمها وراثيا في بيته . وبذلك قامت في دمشق دولة سلاجقة الشام التي منعت أي تقدم من جانب الفاطميين في مصر نحو الشام .

ولقد بلغت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه أقصى أتساعها وقوتها ، إذ امتدت حدودها من أفغانستان شرقا إلى آسيا الصغرى غربا وإلى فلسطين جنوبا . ويرجع الفضل في تدبير هذه الدولة في الواقع إلى الوزير أبي الحسن بن علي قوام الدين نظام الملك الطوسي الذي أخلص في خدمة السلاجقة وأبلى في تدبير شئون دولتهم أحسن البلاء . وبعد وفاة ألب أرسلان وطد هذا الوزير الملك لولده ملكشاه دونا عن سائر أبنائه حسب وصيته ، وصار له بمثابة الوالد بدليل أنه اتخذ لأول مرة لقب أتابك ومعناه الوالد الأمير . وظل الأمر بيده طوال عهد

---

(١) زكي حسن : الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي ص ٢٠٢ واللوحة ١٢٧ ؛ عبد الفتاح السرنجاوي المرجع السابق ص ١٦٥ .

السلطان ملكشاه . وقد أورد ابن الأثير وصفا لتلك العلاقة الوثيقة بين السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك حينما خاطبه في بداية حكمه بقوله : « قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك ، فأنت الوالد ، وحلف له ، وأقطعه اقطاعا زائدا على ما كان ، من جملته طوس مدينة نظام الملك ، وخلع عليه ، ولقبه ألقابا من جملتها : أتابك ، ومعناه الأمير الوالد ، فظهر من كفايته وعدله وشجاعته وحسن سيرته ما هو مشهور »[1] .

كذلك توطدت العلاقات بين السلطان ملكشاه والخلافة العباسية عندما تزوج اثنان من الخلفاء وهما المقتدى والمستظهر من بنات ملكشاه .

أما من الناحية العلمية ، فيعتبر عصر ملكشاه عصرا حافلا بالعلم والعلماء ، كما كان السلطان نفسه مشاركا ومشجعا لهذه النهضة العلمية . ومن أهم الأعمال التي جرت في عهده ، تثبيت تاريخ النوروز[2] (رأس السنة الفارسية) في موعد محدد من كل سنة بحيث يتناسب مع ميعاد جمع الخراج ونضج المحصول .

وقد بذلت محاولات سابقة في هذا السبيل أهمها محاولة الخليفة المتوكل سنة ٢٤٣ هـ التي جعلت موعد النوروز في ٢٧ حزيران (يونيو) من كل سنة : وقد قوبل هذا القرار بالترحاب لأنه أخر جمع الخراج من الناس حتى ينضج المحصول ، ووفر لهم أيضا بهذا التأخير ما يقرب من خمس الخراج المطلوب . وقد مدح البحتري الخليفة المتوكل في هذه المناسبة بالقصيدة التي مطلعها :

لك في المجـــد أول وأخـــير   ومساع صغـــيرهـــن كبـــير

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٨٠ .

(٢) يقال نوروز أو نيروز ، والأول أصح ، ومعناها اليوم الجديد أي بداية السنة عند الفرس . وجرت العادة أن يحتفل الفرس بعيد الحصاد في أول أيام سنتهم الشمسية وهو يوم النوروز . وجرت العادة كذلك أن يجمع الخراج في يوم النوروز في شهر يونيو أي في بداية الصيف ، وان كانت بعض المناطق الفارسية احتفلت به في شهر مارس أي في بداية الربيع . أما في مصر فقد كان الاحتفال بعيد النوروز في أول يوم من توت وهو بداية السنة القبطية (١١ سبتمبر) ففي هذا اليوم يبلغ فيضان النيل ذروته ولهذا اتخذوه مبدأ لسنتهم . راجع (طه ندا : الأعياد الفارسية في العالم الاسلامي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٢) .

غير أن المتوكل قتل بعد ذلك ولم يتم الأمر على ما أراد ، فلما جاء الخليفة المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ) بحث الأمر من جديد ، وأجرى بعض التعديلات حتى استقر الرأي على أن يكون موعد النوروز في الحادي عشر من حزيران ؛ وعرف النوروز الجديد في العالم الاسلامي بالنوروز المعتضدي نسبة إلى الخليفة المعتضد ، وجرى العمل بهذا التقويم المعتضدي في جميع الشئون المالية والزراعية بالدواوين المختلفة ، وتلقاه الناس بالسرور والابتهاج .

ولكن على الرغم من أن هذا النوروز المعتضدي قد ثبت في موعد محدد يتناسب مع تاريخ جمع الخراج وموعد الحصاد في كل سنة ، إلا أنه لم يسلم من العيوب .

ولما ولي السلطان جلال الدين أبو الفتح ملكشاه رأى ضرورة اصلاح عيوب هذا الحساب السنوي الفارسي ، فجمع لجنة من علماء المنجمين أي الفلكيين في سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) لاصلاح هذه العيوب . وكان من بين أعضاء هذه اللجنة الشاعر الفلكي المشهور عمر الخيام صاحب الرباعيات . واستقر رأي اللجنة على تعيين رأس السنة الشمسية (النوروز) في أول نقطة من دخول الشمس برج الحمل بعد أن كان يقع عند توسط الشمس برج الحوت [١] . ولا يزال إلى اليوم في نفس الموعد عند الايرانيين . ويعترف العلماء الأوربيون بأن هذا التقويم الذي توصل إليه العلماء في عهد السلطان ملكشاه يفوق في دقته التقويم الجريجوري . ويسمى هذا التقويم بالتقويم الجلالي نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه ، كما سمي يوم النوروز فيه بالنوروز السلطاني نسبة إليه كذلك [٢] .

ولقد برز في بلاط السلطان ملكشاه ثلاثة من كبار علماء الفرس ، جمعتهم رابطة الزمالة منذ أيام دراستهم في مدينة طوس (مشهد) ، وهم : الوزير نظام الملك الطوسي ، والشاعر عمر الخيام ، والثائر الاسماعيلي الحسن الصباح .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٩٨ .

(٢) طه ندا المرجع السابق .

ولقد كتب الأول – نظام الملك – كتابا بالفارسية بعنوان « سياسة [1] نامه » ، وهو كتاب في الآداب السلطانية على شكل ارشادات ونصائح للحكام السلجوقيين ، وقد أهداه الى السلطان ملكشاه . كذلك تنسب الى هـذا الوزير نظام الملك المدارس النظامية التي بناها في نيسابور وبغداد وبلخ والموصل وهرات ومرو لمقاومة الثقافة الشيعية . وهو يعتبر بذلك أول من بنى المدارس في الشرق الاسلامي .

أما العالم الثاني وهو عمر الخيام (ت ١١٣٢ م) فقد ساهم في اصلاح التقويم السنوي الفارسي (النوروز) السالف الذكر ، كما أنه كتب عدة مؤلفات علمية مثل كتاب « نوروز نامه » الذي تحدث فيه عن سبب وضع عيد النوروز مبينا المراسم والاحتفالات التي كانت تتبع في هذا العيد أيام الملوك الساسانيين [2] . ولعمر الخيام كتاب المصادرات على اقليدس ، ومشكلات الحساب ، وله في الشعر الرباعيات التي نقلت إلى العربية شعرا ونثرا [3] ، وإلى معظم لغات العالم .

أما الشخصية الثالثة فهي شخصية الثائر الشيعي الاسماعيلي الحسن الصباح (ت ١١٢٤ م) الذي اعتنق تعاليم الاسماعيلية فأقصاه نظام الملك عن البلاط السلجوقي . ومنذ ذلك الوقت اتجه الحسن الصباح إلى المعسكر المضاد فزار الخليفة المستنصر الفاطمي بالقاهرة سنة ١٠٧٢ م ثم عاد إلى ايران وتحصن في قلعة ألموت بجوار بحر قزوين . وهناك دعا للخليفة المستنصر الفاطمي ثم دعا لولده نزار من بعده مخالفا في ذلك الدعوة الفاطمية في القاهرة التي أجمعت على المستعلي بن المستنصر . ولهذا عرفت دعوته بفارس باسم الدعوة الجديدة كما عرف أنصارها بالاسماعيلية النزارية ومنهم فئة الحشيشية أو الحشاشين أو الفداوية .

ويتهم البعض الحسن الصباح بقتل صديقه القديم نظام الملك على يد بعض أعوانه من الباطنية ، بينما يرى البعض الآخر أن السلطان ملكشاه هو الذي

---

(١) ترجم المستشرق شيفر Schefer كتاب سياسة نامه إلى اللغة الفرنسية .

(٢) نشر كتاب نوروز نامه في طهران مجتبي مينوى (طه ندا : النوروز في الآداب الاسلامية ص١١)

(٣) نقل الرباعيات شعرا وديع البستاني وأحمد الصافي النجفي واحمد رامي ، ونثرا أحمد حامد الصراف . ونقلها إلى التركية عبد الله جودت .

دبر مقتل وزيره بعد أن سمّم طول حياته واستبداده بالحكم .

وكيفما كان الأمر ، فإن السلطان ملكشاه لم يعش بعد وزيره نظام الملك إلا شهرا واحدا ومات في نفس السنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

وبعد وفاة ملكشاه ولي ابنه بركياروق الذي تبدأ في عهده المنازعات والحروب الداخلية مع اخوته وأعمامه مما أدى إلى تفكك الدولة فيما بينهم ، وعجزها عن صد غارات المغيرين أمثال قبائل الغز والقراخيتاي ، كما هزمت جيوشها أمام شاهات خوارزم ، وانتهى الأمر بسقوط هذه الدولة ، دولة السلاجقة العظام ، بوفاة آخر سلاطينها سنجار دون عقب سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) .

(٢) الاتابكيات السلجوقية :

اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها الاولى على المماليك من الترك ، وورث هؤلاء سياستها ومراميها . والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة في ضوء تاريخهم ، هي أنهم اعتقدوا أنه لا يمكن للفرس والعرب أن يخلصوا في خدمة ساداتهم الاتراك ، وانه من الافضل الاعتماد على وفاء المماليك الاتراك الذين ربوا ونشأوا في البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمرائهم [١] . وصار هؤلاء المماليك يجلبون وهم صغار السن من بلاد القفجاق [٢] ، ثم يربون تربية خاصة على أساس النظام التربوي المملوكي الساماني الذي وصفه الوزير نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق في كتابه سياسة نامة ارشادا للحكام السلجوقيين [٣] . ويضيف نظام

---

(١) أنظر ((Lane Poole : Saladin; P. 9-15))

(٢) بلاد القفجاق أو القبجاق أو القبشاق اقليم بعرض نهر الفولجا بالجنوب الشرقي من الروسيا الحالية وشمال البحر الأسود والقوقاز ، وأهلها من الترك . وكانوا أهل حل وترحال على عادة أهل البدو وفي ضيق من العيش ، وبلا دهم فرضة عظيمة التجار ورقيق الترك . راجع (القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٥٨) وكذلك (Heyd : Histoire du Commerce du Levant au moyen agé tome. 2, p. 559

(٣) أنظر ما سبق ان قلناه بالفصل الثالث في الجزء الخاص بالدولة السامانية .

الملك في ذلك الصدد انه « يجب ألا يتقل على المماليك القائمين على الخدمة الا اذا دعت الحاجة ، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام في كل حين ، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور اذا صدر بأحدهما الأمر . وكذلك يجب أن يقال لهم مرة أخرى كيف ينبغي للشيء أن يكون حتى ينتهجوا اليه سبيله . ولا حاجة إلى التكلف كل يوم باصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان : صاحب الماء ، وصاحب السلاح ، والساقي وأشباه ذلك ، ولمن يكون من الغلمان في خدمة كبير الحجاب وكبير الامراء ، بل يجب ان يؤمروا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد معين ، ومن الخواص عدد معين كذلك ، حتى لا يكون في ذلك مشقة » [1] . ويكمل عماد الدين الاصفهاني[2] الذي عاش بدمشق زمن الملك العادل نور الدين زنكي ، تصوير مماليك السلاجقة في عبارة موجزة حيث يقول : « وكان للسلطان مماليك صغار كأنهم أقمار ، وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء ، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء » [3] .

وكان نظام الملك أشد الناس تمسكا بما جاء في كتابه ، اذ حاطه جيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لأسمه ، فقوى بهم نفوذه إلى حد كبير [4] ، حتى أن السلطان ملكشاه السلجوقي كتب اليه ذات مرة كتابا يقول فيه : « انك استوليت على ملكي وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك ومماليكك ، كأنك شريك في الملك ، أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك ؟ » . فرد عليه الوزير نظام الملك : « كأنك عرفت اليوم اني بساهمك وفي الدولة مقاسمك ، فاعلم أن دواتي مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب » . فكأنما نطق بما به القدر سبق ، فلم يكن بين مقتل الوزير (٤٨٥ هـ) ووفاة

---

(١) راجع (Schefer : Siaset Nameh par Nizam-oul-Mulk p. 138 - 141)

(٢) ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ وقدم بغداد وولي واسط والبصرة ثم انتقل إلى دمشق أيام سلطانها الملك نور الدين زنكي ، وعرفه الأمير نجم الدين ايوب وولده صلاح الدين وتوفى بدمشق سنة ٥٩٧هـ.

(٣) الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ١١٣ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٦ .

السلطان غير شهر واحد [1] . وزاد نفوذ المماليك النظامية بعد موت السلطان ملكشاه إلى درجة مكنت لهم من عزل ابنه محمود وتولية ابنه الآخر بركياروق [2] .

ويقال ان نظام الملك أول من أقطع الاقطاعات للمماليك الاتراك ، فبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقدا ، صار يعطى اقطاعا [3] ، لأن تسليم الأرض إلى المقطعين يضمن عمارتها ، وعناية مقطعيها بأمرها ، وفي ذلك ما يحفظ للدولة السلجوقية قوتها وثروتها . ولذا سار سلاطين السلاجقة على ذلك النظام ، فمنحوا القلاع والمدن والولايات اقطاعا للقادة من مماليكهم الذين سموا الأتابكة ، وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها لهم وقت الحرب . والأتابك لفظ تركي معناه « الاب الامير » [4] ومعناه المربي لابن السلطان ، ثم أصبح لقبا تشريفيا يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة [5] . والوزير نظام الملك أول من تلقب بلقب أتابك ، وقد منحه إياه السلطان ملكشاه حينما فوض اليه تدبير أمور المملكة سنة ٤٦٥ هـ [6] .

وعلى هذا الأساس صار معظم أراضي فارس والجزيرة والشام ، مقسما إلى اقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلاجقة بتفويض من السلطان . وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشا من المماليك في مختلف الولايات ، حتى اذا دعت الحاجة إلى حضورهم للخدمة في الحروب ، جاء الوالي السلجوقي بمماليكه وعدته وسلاحه للمشاركة في القتال . وكانت الطريقة المتبعة في استدعاء تلك الفرق العسكرية هي اطلاق أسهم من معسكر إلى معسكر ، أو من قرية إلى قرية ، اشارة إلى التجمع والاستعداد للحرب ، حتى اذا انتهت الحرب عاد الولاة ومماليكهم إلى اقطاعاتهم ،

---

(١) صدر الدين ابو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال بجامعة البنجاب ص ٦٩ .
(٢) الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٧٦ .
(٣) صدر الدين أبو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ص ٦٨ ، الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٥٥
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨ ، كرد علي : خطط الشام ج ١ ص ٢٧١ .
(٥) انظر (Ency. of Islam, art Atabeg)
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

وصار ذلك عادة في فصل الشتاء على أن يعودوا في الربيع اذا تطلب الأمر [1] .

وعلى الرغم من غلبة الطابع العسكري على الدولة السلجوقية وولاتها من المماليك ، فان ذلك لم يمنعهم من تذوق الفن والادب وتشجيع العلم والعلماء وبناء المدارس ، وسادت تلك الروح الأدبية بين ولاة السلاجقة حتى بعد اضمحلال الدولة السلجوقية .

وهكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة في أيام قوتهم اتخذوا أشخاصا من كبار مماليكهم أطلق عليهم الأتابكة ليكونوا مربين لأولادهم القصّر ، ومنحوهم الاقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الابناء وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب . ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الاقطاعات ، وانتهزوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئا فشيئا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ما عدا الفرع الرومي في آسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أستولى العثمانيون على بلادهم خلال القرن الثامن الهجري (١٤ م) [2] .

والدول الاتابكية كثيرة العدد ، وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد ، الا انها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الاقطاعي الاسلامي . ومن المماليك السلاجقة الذين حكموا وصاروا ملوكا ، بنو أرتق نسبة لجدهم أرتق التركماني أحد مماليك ملكشاه وهم الذين حكموا حصن كيفا (٤٩٥ — ٦٢٩ ﻫ - ١١٠١ — ١٢٣١ م) ، وماردين (٥٠٢ — ٨١١ ﻫ — ١١٠٨ — ١٤٠٨ م) [3] . ثم هناك اتابكة دمشق (٤٩٧ — ٥٤٩ ﻫ — ١١٠٣ — ١١٥٤ م) وأول ملوكها طغتكين وأصله مملوك للملك تتش ابن ألب أرسلان أول سلاجقة الشام ، ثم صار لولده دقاق ، وبعد موت دقاق صار ملك دمشق

(١) راجع (Lane - poole : Saladin, p. 15-21)

(٢) راجع (Lane-poole : The Muhammedan Dinasties p. 159-160)

(٣) أنظر (Lane-poole : Muham. Dynas. p. 168)

لطغتكين واستمر في عقبه ٥٢ سنة [١] . ثم هناك شاهات خوارزم (٤٧٠ — ٦٢٨ هـ — ١٠٧٧ — ١٢٣١ م) وينسبون إلى انوشتكين وهو مملوك تركي لأحد أمراء السلاجقة ، عينه السلطان ملكشاه حاكما على خوارزم (خيوة) ، ورسخت أقدام هذا البيت واتسعت أملاكه ، وعلى أيدي ملوكه اتسز ، وتكش ، وعلاء الدين ، انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر [٢] . ويروي ابو شامة أن علاء الدين كان يمتلك « عشرة آلاف مملوك مثل الملوك » [٣] ، وقد انتهت هذه الامبراطورية الخوارزمية في عهد جلال الدين خوارزمشاه على أيدي المغول سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ومن فلولها كانت بعض البذور التي نبتت منها الدولة المماليكية الاولى في مصر [٤] .

ومن مشاهير الاتابكة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومضر ، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذي بدأ حياته مملوكا للسلطان ملكشاه [٥] . وعن طريق زنكي وابنه نور الدين كان ظهور صلاح الدين الايوبي الذي تأثر بالنظم السلجوقية ، واليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الايوبيين والمماليك .

ومن أمثلة هذه المؤثرات نذكر استخدام الجاليش في مقدمة الجيش . والجاليش عبارة عن خصلة من الشعر شعر الحصان كانت ترفع في أعلى الراية أمام الجيش ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعه [٦] . فهذه العادة جاء بها السلاجقة من المشرق ، ثم انتقلت إلى مصر على يد الايوبيين . ومن

---

(١) صدر الدين أبو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ص ١٩٦ — ١٩٧ .
(٢) ابن الأثير : تاريخ الكامل جـ ١٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .
(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٢٢ .
(٤) أنظر (poliak : Le dialecte des Mamelouks, R. E. I. 1935, Cahier III)
(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٤ — ٢٧ .
(٦) يقول أبو شامة في هذا المعنى (الروضتين جـ ٢ ص ٧٧) وفي موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ تقدمت الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار .

الطريف أنها انتقلت كذلك إلى بلاد المغرب والأندلس مع فرقة الغز التي قادها المملوك قراقوش التقوى [1] أيام صلاح الدين . فابن الخطيب حينما يصف هجوما قام به الجيش المغربي في عهد الدولة المرينية يقول : « فزحفت راياتهم على شأن غز المشارقة من المزمار والطبل وحمل جمة الشعر في أعلان سنان الراية »[2] .

كذلك جلب السلاجقة مع العادات الفارسية والتركية الاخرى نظما جديد في البلاط والمواكب الرسمية لم تستعمل من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين. مثال ذلك حمل الغاشية بين يدي السلطان في الأماكن والمناسبات الحافلة كالميادين والاعياد ونحوها كشعار للسلطنة . والغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، يحملها ركاب الدار بين يدي السلطان ويلفتها يمينا وشمالا . وقد انتقلت هذه العادة إلى مصر والشام على يد صلاح الدين وخلفائه ، واستمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك . ويروي أبو عمرو النابلسي في « كتابه تاريخ الفيوم » [3] ، نادرة تدل على قيمة الغاشية كرمز ملكي ، فيقول ان شيخا مصريا اسمه شهاب الدين الطوسي أمر ركاب داره بأن يرفع الغاشية على أطراف أصابعه كما يصنع بين يدي الملوك . فلما تحدث اليه البعض في ذلك قال : « أنا ملك العلماء كما أن الملوك ملوك الرعايا ! »[4] .

كذلك استحدث السلاجقة نظام المدارس ، وهي منشآت علمية سنية لمحاربة المذهب الاسماعيلي الشيعي . وسار على هذه السياسة نور الدين محمود

(١) نسبة إلى الأمير الايوبي تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين .

(٢) راجع (ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٢٣٩ ، نشر مختار العبادي) .

(٣) عثمان ابراهيم النابلسي (ت ٦٥٦ هـ) : كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية . نشر في مجلة Bulletin d'Etudes Orientales, XVI, 1958-1960 Damas 1861
وقد ألف هذا الكتاب برسم خزانة السلطان الصالح نجم الدين أيوب .

(٤) عثمان النابلسي : المرجع السابق، وكذلك (C. H. Becker : Le Ghashiya comme embleme de la Royauté en Centenario della nascita di Michele Amari volume II p. 148 (palermo 1910)

زنكي في الشام ثم صلاح الدين الايوبي في مصر للقضاء على الدعوة الفاطمية . على أنه يلاحظ في هذا الصدد ان مدينة الاسكندرية عرفت نظام المدارس السنية في أواخر أيام الفاطميين وقبل مجيء صلاح الدين . فأول مدرسة انشئت فيها هي المدرسة الحافظية التي أسسها رضوان بن ولخشي وزير الخليفة الحافظ الفاطمي سنة ٥٣٢ هـ وأسند التدريس فيها إلى الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على زوج خالته أبي بكر الطرطوشي (١) .

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٥٤٤ هـ بنى العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمي مدرسة سنية أخرى بالاسكندرية وأسند التدريس بها إلى الفقيه الشافعي أبي الطاهر احمد السلفي (٢) . غير أن انتشار المذهب السني في ذلك الوقت كان في حدود ضيقة ، وقاصرا على مدينة الاسكندرية دونا عن بقية المدن المصرية ، وذلك بحكم وضعها الجغرافي واتصالها الشديد بالمغرب السني . ولهذا فانه يمكن القول بأن الايوبيين هم الذين اهتموا في الواقع ببناء المدارس في أنحاء مصر والشام متأثرين في ذلك بالسياسة السلجوقية .

كذلك سار الايوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم بالاكثار من المماليك الاتراك واستخدامهم في الإدارة والجيش . وهؤلاء المماليك هم الذين استقلوا بمصر والشام عقب زوال الدولة الأيوبية وكونوا دولة قوية مجاهدة ، خلصت الشرق العربي من الأخطار التي أحدقت به كالخطر المغولي ، والاستعمار الصليبي .

---

(١) راجع (السبكي : طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٤٢ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٨٧ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ، جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية ص ١٢٩) .

(٢) ابن خلكان : نفس المرجع جـ ١ ص ٨٧ ، السبكي : المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٢ .

بعض المصادر الهامة في تاريخ الدولة العباسية

الطبري : تاريخ الرسل والأمم والملوك :

لا شك أن أهم المصادر في تاريخ الدولة العباسية هو تاريخ الطبر ي المعروف بتاريخ الرسل والامم والملوك .

ولد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) في مدينة آمل في اقليم طبرستان وهو اقليم فارسي قريب من بحر قزوين . ولهذا سمي بالطبر ي .

ودرس الطبري على علماء عصره في مختلف أنحاء المشرق الاسلامي واعتمد في ذلك على الرحلة لطلب العلم وهي سنة جرى عليها الأقدمون . فزار مصر والشام وفارس والبصرة والكوفة ثم استقر في بغداد إلى أن مات بها سنة ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) .

لقد تعمق الطبري في دراسة القرآن والحديث والفقه والتاريخ وترك في ذلك آثارا كثيرة نذكر منها كتابه الكبير في شرح القرآن وتفسيره وهو المعروف « بجامع البيان في تفسير القرآن » ، كذلك نذكر موسوعته التاريخية العامة المعروفة « بتاريخ الرسل والامم والملوك » وهي التي تهمنا في دراستنا لتاريخ الدولة العباسية .

وتاريخ الطبري يبدأ بخلق العالم وينتهي بعصر المؤلف نفسه سنة ٣٠٢ ه ، فهو يعتبر أول كتاب جمع كل الروايات التاريخية التي عرفها العرب . وأحداث الكتاب مرتبة على حسب السنين أي على طريقة السنويات وليست على حسب العهود والموضوعات . كذلك اتبعت فيه طريقة الاسناد لضبط صحة هذه الروايات (عن فلان ... عن فلان الخ) وطريقة الطبري في العرض ينقصها التنسيق والترتيب فكتابه أشبه بخزانة من المعلومات التاريخية الغير منظمة ، حشدها المؤلف في كتابه دون نقد أو تأويل لدرجة أنه احيانا يذكر عدة روايات لحادثة واحدة . فتاريخ الطبري عبارة عن ثروة تاريخية طائلة نقلها الطبري عن أصول ضاع معظمها وهذا هو السر في أهمية هذا الكتاب .

فالمؤرخ الحديث اذا تناول هذه المادة التاريخية الخام بالبحث والتأويل والدراسة التحليلية المقارنة ، أمكنه أن يخرج منها بفائده علمية كبيرة .

ومن العجيب أنه رغم ضخامة هذا الكتاب فان الطبري يقول في مقدمته بأنه اختصار لكتاب أضخم من ذلك بكثير وأنه وجد أن الناس أكسل من أن يقرؤا ما جمعه فاكتفى بذلك القدر .

والكتاب نشره المستشرق دي خويه De Goeje في ١٣ جزء ، كما توجد طبعات مصرية ولبنانية مثل طبعة المكتبة التجارية في ثمانية أجزاء والمطبعة الحسينية في اثني عشر جزءا .

وقد كتب المؤرخ والطبيب القرطبي عريب بن سعد (ت ٣٧٠ ه) ذيلا على تاريخ الطبري ، وصل فيها الحوادث التي وقف عندها الطبري أو أهمل ذكرها من سنة ٢٩١ ه إلى نهاية عهد الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٢٠ ه . واهتم بصفة خاصة بتاريخ المغرب والأندلس الذي أهمله الطبري في تاريخه. وقد نشر دي خويه القسم المشرقي من صلة عريب (ليدن سنة ١٨٦٨) أما القسم المغربي فقد تضمنه كتاب البيان المغرب لابن عذاري .

ابن الاثير : كتاب الكامل في التاريخ :

يلي الطبري في الأهمية المؤرخ العراقي المعروف عز الدين بن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ .

ولد ابن الأثير عام ٥٥٥ هـ في جزيرة ابن عمر بالقرب من الموصل ، وهي احدى مدن الجزيرة في شمال العراق ولهذا سمي أحيانا بالجزري .

نشأ عز الدين بن الأثير في بيت علم اذ كان أخوه الاكبر مجد الدين بن الاثير عالما في الحديث ، كما كان أخوه الاصغر ضياء الدين بن الاثير عالما في الادب وبلاغة القرآن .

أما مؤرخنا عز الدين وهو الأوسط ، فقد نحا نحو الدراسات التاريخية وألف فيها كتبا كثيرة نذكر منها أسد الغابة في معرفة الصحابة (نشر محمد صبيح) ، والباهر في تاريخ الدولة الاتابكية بالموصل (نشر عبد القادر طليمات) . على أن كتابه الذي يهمنا في دراستنا فهو تاريخه الكامل أو الكامل في التاريخ ، ويتضمن الاخبار التاريخية منذ بدأ الخليقة وينتهي إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) أي قبل وفاة المؤلف بسنتين .

نشر هذا الكتاب المستشرق الألماني تورنبرج في ١٤ مجلد ، وتوجد طبعة مصرية طبعت في بولاق في ١٢ مجلد ، كما توجد طبعة صادر اللبنانية .

ولقد اعتمد ابن الأثير على الطبري في بعض أجزاء كتابه بل كان ينقل منه أحيانا با لحرف الواحد . ولكنه امتاز عنه ببعض الأشياء وهي :

أولا : حذف الاسناد وأسماء الرواة والتفاصيل المملة .

ثانيا : رأى ابن الأثير أن الطبري وغيره من المؤرخين يذكرون الحادثة الواحدة في سنين متعددة على طريقة السنويات ، وهذا يفقد الحادثة أهميتها . ولهذا عمل على جمع أخبار الحادثة الواحدة في موضع واحد .

ثالثا : عدل في الروايات والأشعار وشرح بعض الاخبار الغامضة التي أوردها الطبري .

رابعا : اهتم بأخبار المغرب والاندلس التي أوردها الطبري بصورة مختصرة .

خامسا : أرخ للأحداث التاريخية التي تلت وفاة الطبري أي من سنة ٣١٠ ﻫ إلى سنة ٦٢٨ ﻫ . وهكذا صار كتابه أكمل وأسهل في الاستعمال من كتاب الطبري . وتوفي ابن الأثير ٦٣٠ ﻫ (١٢٣٣ م) .

المسعودي : مروج الذهب — التنبيه والاشراف :

من المؤرخين العظام الذين أرخوا للدولة العباسية أبو الحسن علي المسعودي الذي ينتسب إلى عبد الله بن مسعود الصحابي .

ولد في بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري ، وتوفي بالفسطاط في منتصف القرن الرابع تقريبا (٣٤٦ ﻫ) . اكتسب علم التاريخ والجغرافيا من رحلاته الطويلة في طلب العلم ، فطاف بأنحاء فارس ثم زار الهند ومنها إلى جزيرة سرنديب أو سيلان ومن هناك ركب البحر إلى الصين وأجال في أقالي بحر قزوين ثم عاد إلى عمان ومنها إلى الشام وفلسطين ثم استقر أخيرا بمصر ومات بالفسطاط .

وكان المسعودي في أثناء أسفاره دائم البحث والتقصي فجمع من المعلومات والحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه اليها أحد . وأخبار المسعودي متنوعة وممتعة حتى شبهه المستشرق كريمر بالرحالة اليوناني القديم هيرودوت ولقبه بهيرودوت العرب .

وكتب المسعودي مؤلفات كثيرة ضاع معظمها للأسف ولم يصل الينا منها سوى كتابين وهما :

١ — كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ويبدأ كالمعتاد بوصف الخليقة وقصص الأنبياء وتواريخ الأمم القديمة كالفرس واليونان والافرنج والعرب القدماء ثم

يدخل في تاريخ الدولة الاسلامية من ظهور النبي إلى أوائل أيام الخليفة العباسي المطيع لله سنة ٣٣٤ هـ .

ولأهمية هذا الكتاب ، اهتم به المستشرقون وترجموه إلى لغاتهم نذكر منهم باربيير Barbier الذي نقله إلى الفرنسية ، وسير نجر Sirenger الذي نقله إلى اللغة الانجليزية . وتوجد طبعة مصرية في أربعة أجزاء .

٢ ـ كتاب التنبيه والاشراف ، وهو كتاب جغرافي تاريخي يتكلم عن الأفلاك والنجوم والرياح والأرض والسكان والانهار ، ثم يتعرض بعد ذلك إلى ظهور الاسلام وسير الخلفاء وأعمالهم حتى سنة ٣٤٥ هـ ، أي قبل وفاته بسنة واحدة . وهذا الكتاب عظيم الأهمية لأنه يحتوي على أخبار لم توجد في كتابه مروج الذهب الذي تنتهي حوادثه في سنة ٣٣٤ هـ ، ولا سيما الأحداث الخاصة بتاريخ القرامطة وعلاقتهم بالعباسيين وقد نشر هذا الكتاب المستشرق دي خويه سنة ١٨٩٤ م . ضمن سلسلة كتب مكتبة الجغرافيين العرب وهو الجزء الثامن منها . كذلك نشرته دار التراث ببيروت حديثا . بالاضافة إلى طبعة القاهرة (١٩٣٨) .

تاريخ اليعقوبي :

من الكتب الهامة التي تناولت تاريخ الدولة العباسية ، نذكر تاريخ ابن واضح اليعقوبي ، واليعقوبي كان معاصرا للطبري ولكنه أكبر منه سنا وتوفي قبله في أواخر القرن الثالث الهجري سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) . ولهذا نجد أن اليعقوبي يكاد يكون معاصرا للأخبار التي يرويها .

ولقد اكتسب اليعقوبي معلوماته التاريخية عن طريق السياحة والرحلة في طلب العلم ، فزار فارس وأرمينيا والهند والشام ومصر على عهد الطولونيين ثم رحل إلى المغرب والاندلس .

وتاريخ اليعقوبي يبدأ بالتاريخ القديم كالمعتاد ثم يتناول التاريخ الاسلامي

إلى أيام الخليفة العباسي المعتمد على الله ٢٥٩ هـ ، ورتبه حسب الخلفاء .

نشر هذا الكتاب في ليدن بهولندا سنة ١٨٨٣ في جزئين ثم نشر ثانية بمدينة النجف بالعراق سنة ١٩٤٠ في ثلاثة أجزاء. وتجدر الملاحظة أن اليعقوبي كان شيعي المذهب ، وربما كان هذا هو الدافع الذي جعل مدينة النجف تهتم بنشره . هذا ، ولليعقوبي كتاب آخر في الجغرافيا اسمه « كتاب البلدان » دون فيه نتائج رحلته . وقد نشره دي خويه (ليدن ١٨٩٢) .

الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب :

هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي المعروف بالجهشياري ، وهو مؤرخ قديم وثقه من طبقة الطبري والمسعودي ويعتمد عليه جدا في العصر العباسي.

والجهشياري كان معاصرا للطبري وتوفي بعده سنة ٣٣١ هـ . وكتابه الوزراء والكتاب يتناول تاريخ الكتابة والوزارة في الدولة الاسلامية منذ قيامها إلى زمن الخليفة المأمون العباسي .

ومن المعروف أن وظيفتي الوزارة والكتابة من أهم خطط الدولة الاسلامية في ذلك العهد . لهذا نجد أن الكتاب له قيمة علمية عظيمة للمهتمين بدراسة التاريخ الاسلامي والأدب العربي .

والكتاب فضلا عن ذلك يتناول تاريخ الخلفاء بحكم اتصالهم بالكتاب والوزراء ، كما يتكلم عن حياة القصور ومظاهر الحضارة الفارسية التي اقتبسها المسلمون عن الفرس وخاصة في النواحي الادارية والسياسية .

ويقع هذا الكتاب في جزء واحد ، نشره أحمد السقا وابراهيم الابياري (القاهرة ١٩٣٨) وقد حذا حذو الجهشياري في تاريخه للوزراء ، بعض المؤرخين أمثال هلال بن المحسن الصابي (ت ٤٤٨ هـ) الذي كتب كتابا بعنوان « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » (بيروت ١٩٣٣) وصل به تاريخ الجهشياري إلى سنة ٣٩٣ هـ .

ابو الفرج الاصفهاني : كتاب الأغاني :

هذا الكتاب يهمنا في معرفة النواحي الاجتماعية والفنية في العصر العباسي ويقع في احدى وعشرين جزءا وقد توفي مؤلفه في منتصف القرن الرابع الهجري (ت ٣٥٦ هـ) وقد اختصره بعد ذلك في القرن السابع الهجري المؤرخ الحموي المعروف جمال الدين بن واصل تحت عنوان : « تجريد الأغاني » نشره في جزئين ابراهيم الابياري .

الخطيب البغدادي : الحافظ أبو بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ ١٠٧٠ م) تاريخ بغداد أو مدينة السلام . يقع هذا الكتاب في ١٤ جزءا ، ويتناول وصف بغداد منذ تأسيسها ، واخبار الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء الذين عاشوا فيها أو وفدوا عليها منذ أيام مؤسسها أبي جعفر المنصور حتى عصر المؤلف . والكتاب مصدر أساسي في تاريخ الدولة العباسية . نشر في القاهرة ١٩٣١ .

أما الكتب التي تناولت نظم الحكم في الدولة العباسية ، فنذكر منها كتاب الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي (ت سنة ٤٥٠ هـ) ، وكتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (ولد سنة ٦٦٠ هـ) ، ومقدمة ابن خلدون (ت سنة ٨٠٨ هـ) .

أما من جهة المراجع الخاصة بتاريخ الدول المنقطعة أو المستقلة في مصر على عهد الطولونيين والاخشيديين وفي الشرق على عهد الصفارين والسامانيين والغزنويين فنذكر منها : —

ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، (توفي ٨٥٢ هـ — ١٤٤٩ م) ونجد فيه دراسة عن تاريخ مصر في عهد الطولونيين والاخشيديين من خلال كلامه عن القضاء في أيامهم . وقد نشره روفن جست R. Guest في آخر كتاب الولاة والقضاة للكندي .

تقي الدين احمد المقريزي :

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ويعرف على سبيل الاختصار

بكتاب الخطط (جمع خطة بكسر الخاء بمعنى الحي) .

وهذا الكتاب يصور لنا الحضارة المصرية الاسلامية بصفة عامة ، اد أن مؤلفه المقريزي فطن لما لحياة الشعوب والجماعات من أهمية تاريخية فوصفها وأعطانا بذلك صورة حقيقية للمجتمع المصري في أفراحه وأتراحه . تكلم عن المواسم والأعياد ومواكب الولاة والأمراء والخلفاء ، كما تكلم عن العواصم المصرية الاسلامية مثل الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة بما فيها من آثار ومنشئات ومساجد الخ . والكتاب يقع في جزئين طبعة بولاق بالقاهرة كما توجد طبعة أخرى طبعتها مطبعة النيل في أربعة أجزاء .

وللمقريزي كتاب آخر اسمه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » يتضمن تاريخا للاقتصاد المصري منذ أقدم العصور إلى أيامه (القرن ١٥ م) فيتكلم عن النميات (النقود) والأوزان والمقاييس والمجاعات والطواعين محاولا تعليل أسبابها وبيان تأثيرها في السياسة المصرية وهو اتجاه جديد في الدراسات التاريخية اذ أن المؤلف يحاول تفسير الظواهر التاريخية بالعلل المادية ، وان كان هذا الاتجاه قد سبقه اليه استاذه ابن خلدون في مقدمته . فالمقريزي قد تأثر بطريقة استاذه عند تأليف هذا الكتاب . وهو في جزء واحد نشره مصطفى زيادة وجمال الشيال .

والمقريزي ولد بالقاهرة وتوفي بها سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤٢ م) أما لفظ المقريزي فنسبة إلى حارة المقارزة بمدينة بعلبك بالشام حيث كانت تقيم أسرته من قبل ثم انتقلت إلى مصر في حياة أبيه .

ابو المحاسن بن تغري بردي : كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

وهو من تلاميذ المقريزي وتوفي في سنة ٨٧٤ هـ . ١٤٦٩ م والكتاب في مجموعة يتناول تاريخ مصر في العصور الوسطى من الفتح الاسلامي حتى منتصف القرن التاسع الهجري أي حتى أيام المؤلف .

ويمتاز هذا الكتاب بحسن العرض والتبويب ، أفرد فيه لكل وال أو امير أو

خليفة حكم مصر ترجمة مستقلة خاصة به ، وفي نهاية هذه الترجمة يعرض الأحداث التي مرت بالعالم الاسلامي في عهد صاحب الترجمة مرتبة على طريقة السنوات .

ومن حسنات هذا الكتاب انه انفرد بتسجيل مقياس النيل في كل سنة ، وهذا له أهميته في تقدير نسبة الرخاء في البلاد .

والكتاب يقع في أجزاء عديدة يهمنا منها الاجزاء الثلاثة الاولى التي تتناول تاريخ مصر والشام أيام الطولونيين والاخشيديين .

أبو عبدالله محمد البلوي (القرن الرابع الهجري)

سيرة احمد بن طولون . نشره محمد كرد علي دمشق سنة ١٩٣٩ .

ابن الداية (القرن الرابع الهجري)

كتاب المكافأة . يتناول سيرة احمد بن طولون .

ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري)

« العيون الدعج في حلى دولة بني طغج » .

نقله ابن سعيد عن المؤرخ المصري ابن زولاق الذي عاصر الاخشيديين (أي بني طغج) وضاعت مؤلفاته ، فحفظ لنا ابن سعيد عنه هذا النص الهام في كتابه المغرب في حلى المغرب نشر كنوت تلكوست .

الحسن بن عبدالله (توفي ٧٠٨ هـ — ١٣٠٨ م)

آثار الأول في ترتيب الدول ويتضمن معلومات هامة عن دولتي الصفارين والسامانيين (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .

نظام الملك (توفي ٤٨٥ هـ ١٠٩٢ م) .

سياسة نامة

كتاب باللغة الفارسية يتضمن معلومات تاريخية هامة من أنظمة الحكم والادارة في الدولة السامانية وكذلك في دولة السلاجقة وقد ترجمه إلى اللغة الفرنسية المستشرق شارل شيفر Schefer في ثلاثة أجزاء (باريس ١٨٩١ — ١٨٩٧) .

مسكويه : أبو علي أحمد (توفي ٤٢١ هـ — ١٠٣١ م)

تجارب الأمم . جزءان

يهتم بصفة خاصة بتاريخ الفترة الأولى من أيام الدولة البويهية حتى سنة ٣٦٩ هـ. ولا يكتفي مسكويه بسرد الأحداث بل يتعرض إلى شئون الجماعات وأحوالها الاقتصادية والعمرانية مما يجعله في عداد الكتب الرئيسية في تاريخ الدولة العباسية . نشرة أمدروز في جزأين (القاهرة ١٩١٥) وترجمه إلى الانجليزية مرجوليوث(اكسفورد سنة ١٩٢١) .

أبو شجاع محمد بن الحسين الملقب بالروذاروري: (ت ٤٨٨ هـ سنة ١٠٩٥م)

كتب ذيلا على كتاب تجارب الأمم لمسكويه ، يحتوي على حوادث ٢٥ سنة ، من سنة ٣٦٩ هـ إلى ٣٨٩ هـ .

هلال بن محسن الصابي (ت ٤٤٨ هـ سنة ١٠٥٦ م)

كتب ذيلا على تاريخ أبي شجاع الروذراوري ، يحتوي على حوادث خمس سنين ، من ٣٨٩ إلى ٣٩٣ هـ .

وقد نشر أمدروز صلة أبي شجاع الروذراوري ، وهلال بن المحسن الصابي في جزأين ، الثالث والرابع (القاهرة ١٩١٥ — ١٩١٩) على أساس أنها تكملة لكتاب تجارب الأمم الذي يقع في الجزأين الاول والثاني. والأجزاء الأربعة السابقة مفيدة في دراسة التاريخ العباسي أيام نفوذ بني بويه

عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ — ١٢٠١ م) .

دولة آل سلجوق (القاهرة ١٩٠٠)

صدر الدين أبو الحسن : علي بن ناصر بن علي الحسيني (توفي في أوائل القرن السابع الهجري) أخبار الدولة السلجوقية . نشر محمد اقبال في جامعة البنجاب (لاهور ١٩٢٣) .

كتب حديثة :

احسان عباس : العرب في صقلية

احمد أمين : ضحى الاسلام
— ظهر الاسلام
— فجر الاسلام

احمد توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا

احمد علبي : ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد

احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام .
— دراسات في تاريخ المغرب والأندلس .

احمد مزيد الرفاعي : عصر المأمون ٣ أجزاء

ارشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط

أماري : المكتبة العربية الصقلية

بارتولد : الحضارة الاسلامية ، نقله عن التركية حمزه طاهر .

جبور عبد النور : اخوان الصفا

جمال الدين الشيال : تاريخ الدولة العباسية

جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي
النظم الاسلامية

حسن احمد محمود وابراهيم الشريف: العالم الاسلامي في العصر العباسي

الدوري (عبد العزيز) : العصر العباسي الأول
دراسات في العصور العباسية المتأخرة

زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي

سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي

سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي
– تاريخ المغرب الكبير

السيده الكاشف : مصر في عصر الأخشيديين

ضياء الدين الريس : الخراج في الدولة الاسلامية

عارف تامر : حقيقة اخوان الصفا

عبد الجبار الجومرد : هارون الرشيد

عبد الحميد العبادي : صور وبحوث من التاريخ الإسلامي

عبد الفتاح السرنجاوي : النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية

على ظريف الأعظمي : مختصر تاريخ بغداد
– مختصر تاريخ البصرة

فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات . تعريب حسن ابراهيم ومحمد زكي ابراهيم

فيليب حتي : تاريخ العرب

لي سترينج : بلدان الخلافة الشرقية ، تعريب جورجيس عواد — بغداد في عهد الخلافة العباسية ، تعريب بشير فرانيس

متـــز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب عبد الهادي أبو ريده ، جـــزءان .

محمد احمد برانق : الوزراء العباسيون
البرامكة في ظل الخلفاء العباسيين

محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية . جزءان

مراجع اوربية :

Barthold : History of Central Asia.

Buckler : Harun ul-Rashid and Charles the great.

Browne : Literary history of Persia.

Encyclopaedia of Islam.

Gaston Wiet : Précis de l'Histoire d'Egypte.

Kremer : The Orient under the caliphs. 2 Vols.

Lane-Poole : The Muhammedan Dynasties —

History of Egypt in the middle ages.

Mamour : Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs.

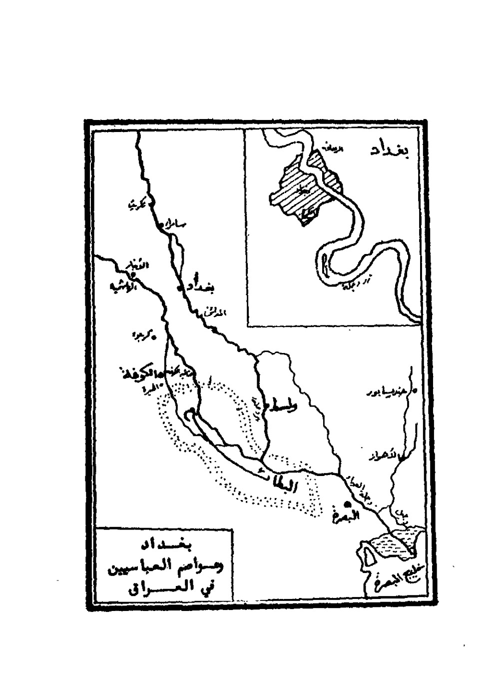
Muir : The Caliphate, its rise decline and fall.

Nickolson . Literary history of the Arabs.

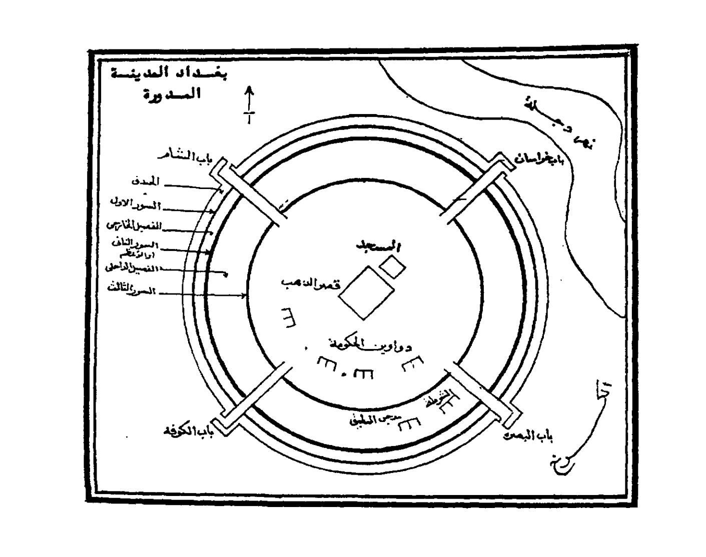
Paul Roux : L'Islam en Asie.

Schefer : Siaset Nameh, Traité de Gouvernement composé pour le sultan Melik-Chah par le vizir Nizam oul Mulk. 3 Vols.

Zaki Hasan · Les Tulunides.



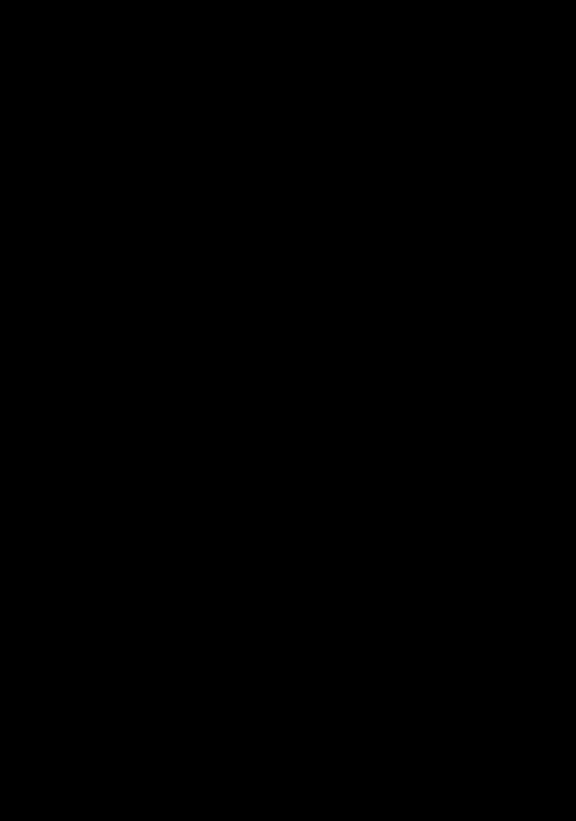
بغداد
تكريت
سامراء
الأنبار
الهاشمية
بغداد
المدائن
كربلاء
الكوفة
الحيرة
واسط
البطائح
البصرة
جنديسابور
الأهواز
خليج البصرة
بغداد
وحواضر العباسيين
في العراق



بغداد المدينة المدورة
باب الشام
الخندق
السور الاول
الفصيل الخارجي
السور الثاني او الاعظم
الفصيل الداخلي
السور الثالث
المسجد
قصر الذهب
دواوين الحكومة
الشرطة
حرس الملحق
باب الكوفة
باب البصرة
باب خراسان
نهر دجلة

القسم الثاني

تاريخ الدولة الفاطمية



الفصل الأول

قيام الدولة الفاطمية في المغرب[1]

نشأة الحزب الشيعي :

ترجع نشأة الحزب الشيعي إلى وقت مبكر في تاريخ الاسلام ، فقد بدأت طلائعه منذ أن توفي النبي (صلعم) سنة ١٢هـ (٦٣٢م) وكان من رأي بعض الصحابة أن أولى الناس بالخلافة هم أهل بيت النبي أي بنو هاشم ، وأولى هؤلاء ابن عمه علي بن أبي طالب . وهكذا نستطيع أن نقول إن الشيعة كانوا أول حزب سياسي ديني في الإسلام . غير أن اجتماع السقيفة المشهور انتهى باختيار أبي بكر للخلافة ، ثم عهد أبو بكر لعمر بن الخطاب بالخلافة تعييناً منه ، ثم أوصى عمر بعده إلى ستة من كبار الصحابة من بينهم علي بن ابي طالب . ولكن انتهى الأمر باختيار عثمان بن عفان :

وقد كان بين بني أمية وبني هاشم تنافس قديم على الرياسة منذ الجاهلية ، فلما ولي عثمان اعتبر بنو أمية الدولة دولتهم ، ومال هو إليهم ميلاً ألب عليه طائفة من المسلمين وانتهى الأمر بقتله . وقد اتهم الأمويون علياً بالمشاركة في دمه ، وهكذا نشب النزاع بين الحزب الأموي والحزب العلوي ، ثم انقلب هذا النزاع إلى

(١) راجع مقالنا (سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ١٩٥٧)

حرب مسلحة تسببت في خلق حزب ثالث انشق من الحزب الشيعي هو حزب الخوارج . وقد استمر النزاع رغم ذلك بين علي ومعاوية حتى قتل علي سنة ٤٠هـ (٦٦٠م) بيد أحد الخوارج ، وانتهى أمر هذا النزاع إلى انتقال الخلافة إلى البيت الأموي ، واستقرارها فيه ملكاً وراثياً .

على ان الأحزاب المعارضة لم تسلم في سهولة ، وكان على الأمويين أن يخمدوا ثوراتهم المتوالية ، فالخوارج طوال الحكم الأموي ظلوا يقاتلون دفاعاً عن مبدأ الخلافة لله أي للأمة وهو ما يشبه الجمهورية الاسلامية . أما الشيعة فقد خرجوا مراراً ، وكان من أهم حركاتهم الثورية خروج الحسين بن علي في أيام يزيد بن معاوية ، وانتهت ثورته بقتله وقتل من معه في مذبحة كربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١هـ (٦٨٠م) (عاشوراء) كما أوقع يزيد بعد ذلك بأهل المدينة من الأنصار في موقعة الحرة سنة ٦٣هـ ، وكان الانصار يعطفون على قضية الشيعة . وهكذا ظلت ضربات الأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج تتزايد على بني أمية حتى انتهت بسقوط دولتهم سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م) [1]

وظن الشيعة أن الدولة اصبحت لهم بعد زوال الحكم الأموي . ولكن خاب ظنهم حين قبض أبناء عمومتهم من بني العباس على ناصية الأمر . وجعلوا الخلافة في بيتهم . وعاد الشيعة مرة اخرى إلى نشاطهم كحزب معارض ، فهم يرون أنهم أحق بالخلافة لأنهم اولاد الرسول من ابنته فاطمة الزهراء . بينما يرى العباسيون أن أباهم العباس بن عبد المطلب هو عم النبي ، والعم في الميراث مقدم على ابن البنت ، فهم على هذا الاساس أولى بالخلافة من العلويين عملاً بقانون الوراثة في الشريعة الاسلامية .

وتمسك العلويون بحقهم ،وقاموا بثورات عنيفة هددت سلامة الدولة العباسية في بعض الأحيان ،غير انخلفاء بني العباس قضوا على تلك الثورات بكل شدة وعنف.
ورأى العلويون ، امام اضطهادات العباسيين وبطشهم ، ان يلجأوا إلى

(١) محمود مكي : التشيع في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٤

سياسة التقية [1] ، أي نشر دعوتهم في الخفاء والتكتّم ليتقوا شر العباسيين ، فاتخذوا ملاجيء سرية يجتمعون فيها ، وقام دعاتهم بنشر مذهبهم في أنحاء البلاد متخفين في زي تجار ومعلمين ومتصوفة وغيرهم من أصحاب المصالح المشروعة .

ولقد تعددت فرق الشيعة التي تطالب بالخلافة ، وهي وإن اختلفت في المظهر الا أنها اتفقت جميعاً في حصر الخلافة في آل علي . وأهم هذه الفرق هي فرق الشيعة الإمامية وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : —

١ — الامامية الاثنا عشرية :

وهي تسوق الخلافة بعد الحسين إلى ابنه علي زين العابدين ، ثم إلى أبنائه وأحفاده من بعده : محمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ثم إلى الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري الملقب عندهم بالمهدي وهو الذي اختفى عام ٢٦٥هـ في مدينة سامرا وظل اتباعه ينتظرون عودته بالوقوف أمام هذا السرداب ، ولذا سموا أيضاً بالواقفية . وعقيدتهم هي العقيدة الرسمية لدولة ايران اليوم .

٢ — الامامية الاسماعيلية :

تتفق مع الاثنا عشرية إلى جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) ويخالفونهم في ابنه موسى الكاظم ، فيسوقون الخلافة إلى أبنه الآخر اسماعيل الذي مات في عهده (١٣٨هـ) ثم إلى أبنائه (أي أبناء اسماعيل) حتى عبيدالله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . فهؤلاء يسمون بالاسماعيلية أو بالسبعية (لأن اسماعيل هو الامام السابع) . وإليهم ينتسب الفاطميون .

٣ — الامامية الزيدية :

يسوقون الخلافة إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ثم إلى ولده يحيي

---

(١) راجع (كامل الشيبي : التقية ، أصولها وتطورها ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية سنة ١٩٦٢) .

بن زيد . وهؤلاء لم يتبرأوا من الشيخين أبي بكر وعمر مع قولهم بان علياً افضل منهما ،أي أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل على عكس الاسماعيلية والاثناعشرية الذين يرفضون امامة الشيخين فهم رافضة.ولهذا تعتبر الزيدية أقرب الفرق الشيعية إلى السنة [1] . ولا زالت سلالتهم في اليمن الآن .

والفترة التي تبدأ بوفاة الامام جعفر الصادق ، وتنتهي بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، عرفت في تاريخ الاسماعيلية بدور الستر ، لانها بدأت في عهد ارهاب واضطهاد للشيعة وأهل البيت مما اضطرهم إلى اتخاذ الستر والتقية خوفاً من العباسيين . فهذه الفترة التي تسمى بدور الستر والتي تبدأ بمحمد المكتوم بن اسماعيل وتنتهي بظهور عبيدالله المهدي ، فترة غامضة كل الغموض ، لأنها كما قلنا بدأت سرية ، ولإن علماء الدعوة الاسماعيلية لم يحاولوا الكلام عنها لأن الستر أصل من أصول مذهبهم ، فمن ضعف العقيدة كشف المستور .

ثم ظهر الفاطميون بعد الستر ، وكونوا دولة قوية ، ولكن غموض هذه الفترة التي سبقت ظهورهم ، كانت مثار خلاف حول نسبهم ، فانتهز السنيون هذه الفرصة وقاموا بحملات عنيفة ضد نسبهم وعقائدهم : فبعضهم يؤيد صحة انتسابهم لعلي وفاطمة ، والبعض الآخر ينفي هذه النسبة عنهم وينسبهم إلى طبيب للعيون فارس من الأهواز يدعى ميمون القداح (من القداحة اي تطبيب العيون) .

في هذة الفترة المسماة بدور الستر نجد نوعين من الأئمة :

١) الأئمة المستورون أو المستقرون وهؤلاء أولاد اسماعيل بن جعفر الصادق

٢) الأئمة المستودعون أو الحجج وهم الدعاة الذين قاموا بالدعوة للأئمة المستورين . وهؤلاء هم ميمون القداح وأولاده من بعده. وميمون القداح كما قلنا

---

(١) لعل سبب اعتدال الزيدية ان يزيداً امامهم تتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة وأخذ كثيراً من تعاليمه . (أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٢٧٠) كذلك يلاحظ أن الزيدية كانت ترى خروج الامام مجاهداً بنفسه مخالفة سياسة الستر والتقية التي اتبعها بنو أعمامهم الاسماعيلية .

كان طبيباً فارسياً كما كان راوية للإمام جعفر الصادق . ويقال إن الامام جعفر جعله ستراً وحجاباً على حفيده محمد بن اسماعيل (محمد المكتوم) أول الأئمة المستورين .

فكأن ميمون القداح هو أول من اتخذه الأئمة المستورون حجة ونائباً لهم ، وأول من بذر بذور الدعوة الاسماعيلية . غير أن المؤسس الحقيقي للمذهب الاسماعيلي هو ابنه عبدالله بن ميمون . فهو الذي وضع أصوله ومراتبه . ثم استمر أولاده من بعده يخدمون هذه الدعوة بالتعاون مع الأئمة المستورين إلى أن تكونت الدولة الفاطمية . فرياسة الدعوة العملية كانت في يد أسرة ميمون القداح . ومما ساعدهم على الظهور ، ما كان يحوط الأئمة المستورين من مظاهر الإمعان في التخفي لدرجة أن بعض هؤلاء الدعاة كانوا يتسمون بأسماء الأئمة المستورين ويتلقبون بألقابهم للتستر عليهم . وهذا هو السبب الذي جعل البعض يخلط بين الفريقين وينسب الفاطميين إلى ميمون القداح .

وقد حاول فريق ثالث من العلماء المحدثين أن يوفق بين الفريقين مثل المؤرخ الهندي مامور Mamour الذي رأى أن ميمون القداح هو نفسه محمد المكتوم الذي أراد التكتم والتستر فانتحل هذا الاسم وامتهن مهنة القداحة (اي طب العيون) كي يتصل بأكبر عدد ممكن من الناس . (١)

ومهما يكن من شيء فمسألة الخلاف حول النسب الفاطمي مسألة قديمة لا يستطيع المؤرخ الخوض فيها ، والذي يهمنا الآن كيف انتقلت الدعوة الاسماعيلية إلى المغرب وكيف قامت الدولة الفاطمية .

ظهور الدعوة الاسماعيلية بالمغرب :

اتخذ التشيع منذ نشأته الأولى اتجاهاً مضاداً للعصبية العربية ، وكما أن التشيع في المشرق اعتمد على الموالي من الفرس فكذلك في المغرب اعتمد على الموالي

(١) راجع (Mamour : Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs p. 68)

من البربر ، ولهذا كانت بلاد شمال افريقيا تربة خصبة لبث الدعوة الشيعية . نضيف إلى ذلك أن بلاد المغرب كانت بعيدة عن السلطة المركزية في بغداد مما جعل من الصعب على الخلفاء العباسيين فرض رقابتهم التامة على تلك البلاد .

ويرجع الفضل الأول في نجاح الدعوة الاسماعيلية ببلاد المغرب إلى الداعية أبي عبدالله الشيعي المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية بالمغرب . على أن هذا الداعية لم يكن أول من دعا للشيعة بالمغرب الاسلامي ، فقد سبقه في هذا المضمار دعاة آخرون مهدوا السبيل لنجاح دعوته . ويروي المقريزي أن الإمام جعفر الصادق أوفد إلى المغرب داعيين أحدهما يعرف بالحلواني والآخر يعرف بأبي سفيان وقال لهما : « إن المغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر » . فذهبا إلى هناك وأخذا يدعوان الناس لطاعة آل البيت حتى استمالا قلوب كثير من قبيلة كتامه [1] وغيرها وظلا هناك إلى أن ماتا .

أبو عبدالله الشيعي :

هو أبو عبدالله الحسين بن احمد بن زكريا ، أصله من الكوفه ، ويعرف بالمعلم لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية . ذهب إلى اليمن وكانت مركزاً هاماً للدعوة الشيعية لقربها من الحجاز مجمع الحجاج . وهناك اتصل بداعي الشيعة فيها واسمه ابن حوشب [2] ، فأخذ يحضر مجالسه ويستفيد من علمه ويمتثل لأمره . ويروي ابن الأثير أن ابن حوشب وثق به فأرسله إلى المغرب ليكمل رسالة أبي سفيان والحلواني .

اتجه ابو عبد الله اولاً الى مكة في موسم الحج ، وهناك التقى برجال من قبيلة كتامة فاختلط بهم ووجد لديهم إلماماً ومعرفة بالمذهب الاسماعيلي .

---

(١) كتامة من قبائل البربر الكبرى ، وكانت تنزل منذ الفتح العربي بين جبال اوراس والبحر المتوسط حول جبل ايكجان بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر ومكانها اليوم بلاد القبائل الحالية Kabylle

(٢) في بعض المصادر يرد هذا الاسم على شكل ابن جيوشب راجع (كتاب بلوغ المرام في من تولى ملك اليمن من الأنام ص ٢٢) .

ثم سألوه عن مقصده فادعى أنه يريد مصر ليعلّم بها فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة ، فقبل الدعوة ونزل عندهم سنة ٢٨٨هـ .

وينقسم تاريخ الدعوة التي قام بها أبو عبدالله الشيعي في المغرب إلى مرحلتين : المرحلة الأولى كانت مجرد دعاية سلمية لجذب الأنصار استغرقت ثلاث سنوات (٢٨٨ — ٢٩١هـ) : ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية وهي جهاد حربي طويل انتهى بالاستيلاء على القيروان عاصمة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية عام ٢٩٧هـ .

مرحلة الدعاية :

استخدم الداعي فيها التنبوء والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية الناس في هذه الناحية من العالم الاسلامي .. يروي ابن الأثير انه حين نزل بافريقية سأل : اين فجّ الأخيار ؟ وهو جبل من جبال كتامة ، ولم يكونوا قد ذكروه له ، فعجبوا من ذلك ودلوه عليه ، فقال : ما سمي إلا بكم ، ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان ، تنصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان (يعني كتامة) . ويضيف ابن الاثير أن الداعي استخدم السحر وصنع من الحيل والطلاسم والرقي والأحجبة ما أذهل العقول فأتاه البربر من كل مكان . كذلك أخذ يبشر الناس بظهور المهدي ويهيءُ عقولهم لقبول فكرته واعتناق المذهب الاسماعيلي .

ولقد لقي أبو عبدالله صعوبات جمة ، إذ أن دعوته احدثت اضطراباً شديداً بين البربر ، وحاول بعضهم قتله ولكنه نجا ، كما حاول بعض رجال العلم مناقشته فقبل الداعي ، ولكن قبيلة كتامة رفضت هذا العرض واعتبرته اهانة لمكانته ، وقامت حروب بين كتامة وبعض القبائل البربرية ، واضطر الداعي إلى الاختفاء ، ولكن هذه المحنة انتهت بانتصار الفريق الذي يحميه ، فكان هذا انتصاراً للدعوة الفاطمية ، وصار أبو عبدالله ذا جند عظيم وسلاح كثير خلاف الأموال التي كان يأخذها من الناس كرسم لدخول المذهب الشيعي .[1]

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص١٣—١٣ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٧٤—٧٧ .

مرحلة الحرب :

عندما شعر أبو عبدالله الشيعي بقوته العسكرية ، بدأ نشاطه الحربي ، ودخل بذلك في المرحلة الثانية من مراحل هذه الدعوة (٢٩١ — ٢٩٧هـ) .

وكان المغرب في ذلك الوقت تسيطر عليه أربع دول وهي : —

١ — دولة الاغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ومقر حكمها المغرب الأدنى أو افريقية ، وامراؤها بنو الأغلب كانوا يحكمون باسم الخلافة العباسية ، وعاصمتهم الرسمية مدينة القيروان ، بينما كانت عاصمتهم الخاصة التي يقيمون فيها مدينة رقاده جنوبي القيروان بأربعة أميال . وكان الأغالبة يمتلكون قوة بحرية هائلة مكنتهم من غزو صقلية ومالطة والسواحل الايطالية الجنوبية .

وعلى الرغم من قوة الأغالبة في حوض البحر المتوسط إلا أن نفوذهم في داخل افريقية كان ضعيفاً مما ساعد على نمو حركة أبي عبدالله الشيعي في الجبال الجنوبية الغربية من دولتهم ، وتمكنه من الاستيلاء على بلادهم سنة ٢٦٦هـ .

٢ - الدولة الرستمية (١٤٤ - ٢٩٦ هـ)

وهي دولة خارجية اباضية [١] ، قامت في المغرب الأوسط (الجزائر) ، ومؤسسها اسمه عبد الرحمن بن رستم الذي يقال إنه من أصل فارسي . وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت قرب تياريت Tiaret الحديثة في مقاطعة وهران غربي الجزائر . وقد ازدهرت هذه المدينة على عهد بني رستم حتى صارت مجمعاً للتجار والعلماء والطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي ، واكتسبت شهرة عالمية لدرجة أنها سميت بالعراق الصغير تشبيهاً لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل . ولجأ عبد الرحمن بن رستم ، لتقوية دولته ، إلى عقد

(١) الاباضية نسبة الى عبد الله بن إباض المرى .

حلف مع دولة خارجية أخرى قامت في سجلماسة في جنوب المغرب وهي دولة بني مدرار . وقد نتج عن هذا التحالف تلك المصاهرة التي تمت بزواج اروي بنت عبد الرحمن، بالمنتصر بن اليسع بن مدرار ملك القبلة (أي الجنوب). ولقد انجب المنتصر من أروي ولداً سماه ميموناً حكم بعده .

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم ١٦٨ھ (٧٨٤م) ترك الأمر شوري في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة ، بينما اتخذ المخالفون جانباً معارضاً ، ولهذا سموا بالنكار أو النكرية :

واستمرت الدولة الرستمية قائمة في المغرب الأوسط ، وعلى علاقة طيبة مع الأمويين في الأندلس إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة ١٩٦ھ (٩٠٩م). على أن سقوط هذه الدولة لم يكن معناه القضاء على مذهب الإباضية في المغرب ، إذ ظل حزبهم باقياً كقوة معارضة للدولة الفاطمية . ولا زلنا إلى اليوم نرى الخوارج الاباضية في منطقة مزاب شرق الجزائر حيث لعبوا دوراً هاماً ضد الاستعمار الفرنسي . [١]

٣ ـ الدولة المدرارية : أو دولة بني واسول (١٤٠ ـ ٣٤٩ هـ) :

وهي دولة خارجية صفرية [٢] ، وعاصمتها مدينة سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى ، وقد اندرست الآن ، وتقوم مكانها الآن مدينة الريساني في منطقة تافيلالت . ويلاحظ أن الصفرية والاباضية كانوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشاراً في المغرب عقب الفتح العربي ، كما كانوا أكثر الخوارج تسامحاً واعتدالاً مع المخالفين لمذهبهم إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحروريين في المشرق . فالصفرية والإباضية لا يرون إباحة دماء المسلمين ولا يرون جواز سبي النساء والذرية بل لا يرون قتال احد سوى جيش السلطان .

---

(١) راجع (سليمان الباروني النفوسي : الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الاباضية جـ ٢ ص ١٤) .

(٢) الصفرية نسبة الى زياد بن محمد الأصفر . راجع (ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث الخاص بالمغرب ص ١٤٦ ، نشر أحمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني) .

ومؤسس الدولة المدرارية كان سودانياً أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الذي بنى العاصمة سجلماسة وقسم مياهها ، وأمر بغرس النخيل فيها . ولا زالت هذه المنطقة (تافيلالت) من أهم مراكز انتاج التمور . ولكن يبدو أن عيسى بن يزيد اخذ يستأثر بالأموال في أواخر ايامه مما أثار معارضة مواطنيه . فيروي البكري ان زعيم المعارضة واسمه ابو الخطاب الصفري ، قال لأصحابه في مجلس عيسى بن يزيد : « السودان كلهم سرّاق حتى هذا ! وأشار إلى عيسى ، فأخذوه وشدوه وثاقاً إلى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل . وولي بعده قاتله ابو الخطاب الصفري الذي تقرب إليه حداد من ربض قرطبة اسمه ابو القاسم بن واسول كان قد صنع سلاحاً جديداً اعجب أبا الخطاب فقربه إليه حتى صار هو المدبر لشئون الدولة . فلما توفي ابو الخطاب ولي مكانه ابو القاسم بن واسول الذي تلقب بالمدرار . ويعتبر ابو القاسم هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة بدليل أنها سميت باسمه فعرفت بالدولة المدرارية أو دولة بني واسول . وقد استمر حكمها في يد أبنائه من بعده إلى أن قضى عليها قائد الفاطميين جوهر الصقلي سنة ٣٤٩هـ .

٤ ـ دولة الأدارسة (١٧٢ ـ ٣٦٣ هـ)

وهي دولة علوية حسنية (نسبة إلى الحسن بن علي) أسسها في المغرب الأقصى ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وبنى عاصمتها مدينة فاس التي أتمها ابنه ادريس الثاني . هذه الدولة العلوية ولو أنها لا تدين بالمذهب الاسماعيلي الفاطمي ، إلا أنها مهدت السبيل من غير شك لداعي الفواطم ، وهيأت الأذهان لقبول دعوته لآل البيت . [1] ولكن على الرغم من ذلك فان هذه الدولة تعرضت لعداء الفاطميين وهجومهم مما اضطر الأدارسة إلى الانسحاب شمالا إلى منطقة جبال الريف حيث تحصنوا هناك في بعض القلاع مثل البصرة وأصيلا وحجر النسر .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٩٨ وما بعدها .

هذه هي الدول الأربع التي كانت تحكم المغرب الكبير عندما قام الداعي الفاطمي أبو عبدالله الشيعي بمرحلته الحربية في المغرب .

وبدأ ابو عبدالله الشيعي جهاده الحربي بالنزول من جبال كتامه (أوراس) إلى سهول الأغالبة ومهاجمة حدودهم الغربية . وحاول أمير الأغالبة زيادة الله الثالث مقاومة هذا الهجوم فأرسل ثلاثة جيوش متوالية ، ولكنها هزمت كلها ، وانتهى الأمر بفرار آخر أمراء الأغالبة زيادة الله الثالث إلى مصر ودخول أبي عبدالله الشيعي مدينة رقادة ثم القيروان سنة ٢٩٦هـ وبهذا ينتهي حكم الأغالبة بافريقية .

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن ابا عبدالله الشيعي خلال انتصاراته الأخيرة ، كان قد ارسل وفداً من كتامة إلى الامام الفاطمي عبيدالله المهدي يدعوه للقدوم إلى المغرب . وكان الامام الفاطمي في ذلك الوقت مختفياً ببلدة سلمية من أعمال حمص عازماً على الرحيل إلى اليمن خوفاً من قرامطة الشام ، فلما وصلته دعوة أبي عبدالله الشيعي حول اتجاهه إلى المغرب .

وبدأ المهدي رحلته مخترقاً الشام وفلسطين ومصر ثم صحراء ليبيا متخفياً في زي التجار حتى لا يقع في أيدي العباسيين الذين كانوا يتعقبونه في كل مكان . وحينما وصل إلى افريقية وجد أن الأغالبة ما زالوا أصحاب البلاد ، وأن الداعي أبا عبدالله الشيعي ما زال في حرب معهم ، فاضطر المهدي إلى مواصلة السير غرباً عبر الصحراء . وحينما وصل إلى مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى ، شك أميرها اليسع بن مدرار في أمره نتيجة لوشاية اليهود [1] المقيمين هناك ، فقبض عليه وسجنه .

في ذلك الوقت كان أبو عبدالله الشيعي قد استولى على القيروان ، فحينما علم

---

(١) كانت سجلماسة بحكم وضعها الجغرافي على حافة الصحراء الكبرى في جنوب المغرب ، مركزاً لتجارة الذهب الوارد من بلاد السودان الغربي في الجنوب . ولهذا اقبل اليهود على هذه التجارة واستقر عدد كبير منهم في هذه المدينة جرياً وراء المال .

بهذا الخبر أسرع بجيوشه إلى سجلماسة بالمغرب لتلخيص سيده . وفي طريقه إلى هناك مر بالدولة الرستمية في المغرب الأوسط ، فأخضعها واستولى على عاصمتها تاهرت سنة ٢٩٦هـ . ثم واصل سيره حتى بلغ مدينة سجلماسة ، فحاصرها وحاول أميرها اليسع بن مدرار مقاومة الجيوش الفاطمية ، ولكنه هزم وقتل ، ودخل أبو عبدالله المدينة ، وأخرج الإمام عبيدالله المهدي من السجن ، وقال للناس وهو بكي متأثراً « هذا هو امامكم » . (١)

وبعد أن انتقم المهدي من يهود سجلماسة لوشايتهم به ، اتجه إلى مدينة رقادة العاصمة الخاصة للأغالبة ، فاتخذها عاصمة له سنة ٢٩٧هـ ، وكان أهلها قد جلوا عنها ، ففرق المهدي دورها على رجال كتامة جند الدولة الجديدة . كذلك اقيمت الخطبة يوم الجمعة باسم الخليفة الجديد الذي تلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، وضربت السكة باسمه ، كما أرسل عماله إلى جميع انحاء البلاد بما في ذلك جزيرة صقلية ، وبذلك ينتهي الدور التأسيسي الأول للدولة الفاطمية .

على أن الدولة الفاطمية في ذلك الوقت ، كانت لا تزال مضطربة ناشئة وفي حاجة ماسة إلى استقرار وتدعيم ، وكان على الخليفة المهدي نفسه أن يقوم بهذه الأعمال .

وأول عمل في هذا السبيل قام به الخليفة المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢هـ) هو اغتيال الداعي أبي عبدالله الشيعي سنة ٢٩٨هـ أي بعد عام واحد من نشأة الدولة الفاطمية . والسبب في ذلك يرجع إلى أن الخليفة الفاطمي كان يريد الاستئثار بالسلطان الذي تأسس باسمه ، بينما كان الداعي يحاول الاستمرار في ادارة شئون الدولة ، ويؤيد ذلك قوله للمهدي : « لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم ، لكان ذلك أهيب لك في أعين الناس » . غير أن المهدي استمر في سياسة جمع السلطات في يده . وقد أثار هذا العمل غضب الداعي وأصحابه ، فأخذوا يتآمرون على قتل المهدي ،

(١) ايفانوف : مذكرات في حركة المهدي الفاطمي ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٣٦ .

ويؤلبون الناس ضده . يروي المقريزي أن أبا العباس شقيق الداعي أخذ يؤنب أخاه بقوله : « ملكت أمراً فجئت بمن أزالك عنه » . ثم أخذ يدعو الناس لعصيان المهدي ويقول لهم : « ان هذا ليس بالذي كنا نعتقد طاعته وندعو اليه ، لأن المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة » . وقد تأثر بعض الناس بقوله حتى إن شيخاً من كتامه دخل على المهدي وقال له : « إن كنت المهدي فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك ، فقتله المهدي في الحال .

ثم علم المهدي من جواسيسه أن الداعي وأصحابه يتآمرون على قتله ، فصمم على التخلص منهم وأخذ في توزيع المتآمرين على الولايات المختلفة ، وأرسل سراً إلى عمال تلك الولايات بقتلهم بمجرد وصولهم . أما الداعي وأخوه أبو العباس فقد وضع لهما من قتلهما وهما في طريقهما إلى القصر الخليفي . ويقال إن الداعي قال للقاتل : « لا تفعل يا بني » . فأجابه : ان الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك » .

وكان لقتل الداعي وقع سيء في نفوس رجال كتامة وأصحاب الداعي ، فقاموا بثورة ضد المهدي ، وزعموا أن أبا عبدالله لم يمت ، وأقاموا طفلاً وقالوا هذا هو المهدي ، فخرج إليهم الخليفة الفاطمي وحاربهم وقتل الصبي وخضعت كتامة من جديد . [1]

أما العمل الثاني الذي قام به الخليفة المهدي لتدعيم أركان الدولة الفاطمية ، فهو بناء العاصمة المهدية . والسبب في ذلك يرجع إلى شعور الفاطميين بالحاجة إلى مكان حصين يحتمون فيه إذا ما تغيرت عليهم نفوس رعاياهم خصوصاً وأن مدينة رقادة كانت تقع في وسط سهل فسيح لا يفي بالأغراض الدفاعية اللازمة . وبنى المهدى عاصمته الجديدة على شاطىء البحر مباشرة بالقرب من تونس وذلك لأنه رأى أن نفوذ الفاطميين في داخل البلاد لا يزال ضعيفاً ، وأنه لا بد من أن يعتمد على اسطوله القوي لحماية العاصمة وتموينها من جهة البحر إبان الأزمات .

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٩٣-٩٧ ، نشر جمال الشيال .

يروي المقريزي أن المهدية كانت عبارة عن شبه جزيرة محاطة بالبحر من معظم نواحيها ، وأن الخليفة المهدي أشرف بنفسه على بنائها ، وأنه أنشأ على ساحلها داراً كبيرة لصناعة السفن نقرت في الجبل وتسع مائة سفينة حربية كبيرة ، هذا إلى جانب صهاريج المياه ومخازن الأقوات ، والمسجد والقصر والدواوين ثم الأسوار المحكمة ذات الأبواب الضخمة التي احاطت بها . ويقال إن المهدي لما فرغ من بنائها قال : « آمنت اليوم على الفاطميات » . وهذا دليل على حصانتها وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ بناء المهدية ، فابن عذاري يحدده بعام ٣٠٠هـ أي بعد انتهاء المهدي من اخماد الثورات التي قامت ضده . أما ابن الأثير فيرى أنها بنيت سنة ٣٠٥هـ ، وأن المهدي انتقل اليها سنة ٣٠٨هـ وأعطاها اسم المهدية نسبة إلى لقبه .[1] ولما كانت المهدية مدينة خاصة ، فان المهدي ابتنى لسائر الناس مدينة أخرى بالقرب منها تسمى زويلة وهي إحدى المهديتين ، وجعل الأسواق والفنادق فيها .

العمل الثالث الذي دعم أركان الدولة الفاطمية قام به الخليفتان القائم بن المهدي (٣٢٢ — ٣٣٤هـ) والمنصور بن القائم (٣٣٤ — ٣٤١هـ) وهو القضاء على ثورة أبي يزيد الخارجي . هذه الثورة كانت خطراً حقيقياً تعرضت له الدولة الفاطمية الناشئة . ولا شك أن خروجها ظافرة من هذه المحنة قد ساعد على تدعيم كيانها .

وصاحب هذه الثورة هو أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيلة زناتة البربرية نشأ في توزر Tozeur في جنوب تونس ، وخالط الخوارج النكارية وهم من الاباضية ، ثم رحل إلى مدينة تاهرت عاصمة بني رستم ، فاعتنق مذهبهم ودخل في زمرتهم . وابتدأت دعوته للمذهب الخارجي سنة ٣١٦هـ وظل يدعو الناس ستة عشر عاماً حتى كثر أتباعه وقوي أمره فجاهر الدولة الفاطمية بالعداء سنة ٣٣٢هـ، وتسمى شيخ المؤمنين . وقد سمي أيضاً بصاحب الحمار لأنه كان يركب حماراً رمادي اللون ، وبجانبه أولاده الأربعة وزوجته التي كانت من أشد المخلصين لدعوته . وكان مشهوراً بتواضعه وزهده ، والخوارج على وجه العموم مشهورون

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٠—٢١ .

بالزهد لأن مذهبهم ديمقراطي يقوم على عدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس معين وانما بتركها لاختيار الأمة فعبد حبشي اذا استوفى شروط الخلافة كان على قدم المساواة مع أي سيد من سادات قريش.

لهذا لقى مذهب الخوارج نجاحاً كبيراً بين قبائل البربر لأنه يناسب وضعهم الاجتماعي والسياسي ، فاتخذوه عنواناً للمعارضة القومية ضد أي سيادة تفرض عليهم كالسيادة العنصرية او المذهبية . وعلى هذا الأساس كانت ثورة أبي يزيد الخارجي ثورة خارجية ذات صفة قومية ضد السيادة الفاطمية .

خرج أبو يزيد الخارجي من جبال تونس الجنوبية واستولى على كل المناطق الجبلية الوعرة في غرب تونس ، ثم اتجه بعد ذلك نحو السهول الشرقية حيث توجد المهدية العاصمة الفاطمية . وحاول الخليفة القائم الفاطمي صد هذا الزحف الجارف ولكنه فشل ، وتمكن أبو يزيد من الاستيلاء على القيروان ورقاده وتونس وانتهى بحصار العاصمة نفسها في جمادي الأولى سنة ٣٣٤هـ . واستمر حصار المهدية ثمانية أشهر حتى اشتد الجوع بالأهالي ، فأكلوا الدواب والميتة وكثر هروبهم عن طريق البحر إلى البلاد المجاورة .

غير أن الظروف سرعان ما تغيرت في صالح الفاطميين ، إذ انضمت اليهم قبيلة صنهاجه وعلى رأسها زيري بن مناد الصنهاجي وهذا الانضمام راجع إلى عداء تقليدي قديم بين قبيلة صنهاجة وقبيلة زناتة التي تناصر أبا يزيد الخارجي . فالحرب في ظاهرها كانت بين خوارج وشيعة ، ولكنها في حقيقة أمرها بين أهل البداوة الرحل أو البربر البتر ومنهم زناتة ، وبين أهل الزراعة والاستقرار أو البربر البرانس ومنهم صنهاجه .

وتشاء الظروف في ذلك الوقت أيضاً أن يموت الخليفة القائم ويخلفه ابنه ابو العباس المنصور سنة ٣٣٤هـ (٩٤٦م) وكان يمتاز عن ابيه سياسة وحزماً ، فاستطاع أن يقود جيوشه إلى النصر التام في وقعة مشهورة تعرف بوقعة يوم الجمعة في ٧ المحرم سنة ٣٣٥هـ (اغسطس ٩٤٧م) ومات أبو يزيد الخارجي متأثراً بجراحه سنة ٣٣٦هـ .

ويبدو ان الخليفة المنصور عمد إلى تخليد هذا الانتصار بتأسيس عاصمته الجديدة المنصورية سنة ٣٣٧هـ (٩٤٩م) .

العمل الرابع الذي ساعد على تقوية نفوذ الدولة الفاطمية في بلاد المغرب يقوم به الخليفة الفاطمي أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ - ٣٦٥هـ - ٩٥٢-٩٧٥م) وينحصر هذا العمل في اخضاع المغرب الأقصى لنفوذ الفاطميين حتّى يتّم توحيد جميع المغرب تحت سلطانهم .

لقد حاول الفاطميون قبل ذلك ايام الخليفة المهدي بسط سلطانهم على المغرب الأقصى ، فنسمع عن الحملة التي سيرها المهدي إلى هناك بقيادة مصالة بن حبوس لإخضاع الأدارسة سنة ٩٢٢م ، كما نسمع عن أمير مكناسة موسى ابن أبي العافية الذي حكم ولايات فاس وسجلماسة باسم الفاطميين ، غير أن النفوذ الفاطمي في المغرب سرعان ما أخذ في الضعف والأفول عندما قام أبو يزيد الخارجي بثورته الخطيرة في المغرب الأوسط وشغل الفاطميون بمحاربته .

ولقد استغل الأمويون في الأندلس هذه الفرصة وبسطوا نفوذهم على طول الساحل المغربي حتّى الجزائر ، كما اقاموا قواعد عسكرية في الثغور المطلة على مضيق جبل طارق مثل طنجة وسبته ومليلة . كذلك عملوا على اصطناع رؤساء الدويلات الصغيرة التي كانت قائمة إذ ذاك في المغرب الأقصى مثل أمير مدينة نكور [1] صالح بن سعيد ، ومثل الأدارسة وقبائل زناتة ومغراوة ، كما استطاعوا اجتذاب حليف الفاطميين موسى بن ابي العافية الذي كان يحكم باسم الفاطميين في هذه المنطقة ، فلم يلبث أن خلع طاعتهم ودعا لخليفة قرطبة الاموي . وارسل له بعض أسرى الفاطميين لعرضهم في شوارع قرطبة .

ثم جاء الخليفة المعز لدين الله الفاطمي فعمل على إعادة فرض النفوذ الفاطمي على المغرب الأقصى ، فأرسل قائده ومولاه جوهر الصقلي إلى هناك على رأس

---

(١) هذه المدينة اندرست ، وتقوم مقامها الآن مدينة الحسيمة Alhucemas في شمال شرق المغرب الأقصى .

حملة قوية سنة ٣٤٧هـ . ولقد نجح جوهر في تحقيق رغبة سيده ، فاخضع القبائل الضاربة في جبال أطلس حتى المحيط الأطلسي ، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على القواعد العسكرية الأموية المطلة على المضيق ، فقد حرص الأمويون في الأندلس على التمسك بها نظراً لأهميتها الاستراتيجية ضد أي هجوم يقوم به الفاطميون على الأندلس من الجنوب .

التفكير في غزو الاندلس :

فكر الفاطميون منذ قيام دولتهم بالمغرب ، في غزو الأندلس غرباً ، كما فكروا في غزو مصر شرقاً . ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة ، وبالجاسوسية من جهة أخرى لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون اهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم او السياحة الصوفية .

وقد رأى الفاطميون أن احتلالهم للأندلس سوف يجعل المغرب الاسلامي كله خاضعاً لهم ، وبهذا ينقسم العالم الاسلامي إلى قسمين : قسم شرقي تابع للخلافة العباسية السنية ، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية الشيعية . وتبدأ اطماع الفاطميين في الأندلس منذ أيام خليفتهم الأول عبيدالله المهدي . ومن بين الجواسيس الذين ارسلوهم إلى الأندلس نذكر ابا اليسر الرياضي (ت ٢٩٨هـ) ، وابا جعفر بن هارون البغدادي (عاش في عهد المهدي والقائم) ، والرحالة ابن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ) الذي يسميه ياقوت الحموي بالتاجر الموصلي [١] مما يدل على انه تستر بالتجارة عند دخوله الأندلس ومن حسن الحظ أن ابن حوقل قد اورد في رحلته نص التقرير الذي رفعه إلى الفاطميين عن الاندلس . ويلاحظ أنه اهتم باظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية مع الإشارة إلى ضعف اهلها وعجزهم عن الدفاع عنها ليحمل مولاه المعز لدين الله الفاطمي على غزو تلك البلاد . ومثال ذلك قوله :

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤٨ . وكذلك (محمود مكي : المرجع السابق)

« وليس لجيوشهم حلاوة في العين ، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ، ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة . وما رأيت ولا رأي غيري بها انساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم ... ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذتها . [1] .

ولا شك أن ابن حوقل كان متحاملاً على الأندلسيين في كلامه ، ومبالغاً في اتهامه لهم بالضعف ، ولهذا لم يظفر مشروعه بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية .

على أن نجاح الدعاية الفاطمية في اجتذاب أنصار لها في الأندلس كان محدوداً جداً ، وذلك لما كان للمذهب السني هناك من قوة متأصلة في نفوس الأندلسيين ، وإن كان ذلك لا يمنع القول من أن الفاطميين أفلحوا في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم ، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسي عمر ابن حفصون الذي ثار بجنوب اسبانيا ضد الحكم الأموي اواخر القرن الثالث الهجري ، واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي ودعا له في مساجد بلاده . وقد أمده المهدي بالذخيرة والاسلحة ، كما ارسل له داعيين أقاما عنده ، وأخذا يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين واقامة دعوتهم . غير أنه يبدو أن ابن حفصون لم يكن مخلصاً للدعوة الفاطمية ، وانما اتخذها وسيلة ليكايد بها الأمويين في قرطبة بدليل انه في أواخر أيامه استغنى عن الداعيين ، وأعادهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي .

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٤ — ١٠٥ .

وهناك ايضاً القائد الاندلسي على بن حمدون الجذامي المعروف بابن الاندلسي الذي ورد إلى المغرب من الأندلس ، واتصل بالمهدي ثم بابنه القائم . وقد عهد إليه هذا الأخير بناء مدينة المسيلة وهي التي سميت بعد ذلك بالمحمدية ، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط .

ولما قامت فتنة أبي يزيد الخارجي في جبال أوراس، كتب الخليفة القائم إلى علي بن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب ، فكانت لابن حمدون جولات مع أبي يزيد الخارجي تجلى فيها جلده وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشواهق فمات سنة ٣٣٤هـ . وعقد الخليفة اسماعيل المنصور الفاطمي (٣٣٤ — ٣٤١هـ) لجعفر بن علي بن حمدون على المسيلة والزاب ، فصارت له هناك دولة مز دهرة وقصده العلماء والشعراء مثل الشاعر الغرناطي محمد بن هانيء الأندلسي الذي مدحه بقوله :

المدنفان مـــن البرية كلّهــــا جسمي وطرفٌ بابليٌّ احورُ
والمشرقاتُ النيـــرات ثلاثــــة الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجعفرُ (١)

وهذا الشاعر ابن هانيء الأندلسي (٣٦٢ / ٩٧٢م) يعتبر أيضاً من الشخصيات الأندلسية الهامة التي فرت من الأندلس إلى المغرب حيث التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ — ٣٦٥هـ) ويعتبر شعره في مدح هذا الخليفة ، وثيقة هامة لنظريات العقيدة الاسماعيلية . ومن أمثلة ذلك قوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهـــار (٢)

---

(١) سيرة الاستاذ جوذر ص ١٧٥ ، مفاخر البربر ص ٧ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٣١١ .

(٢) راجع ديوان ابن هانيء الاندلسي تحقيق وشرح البستاني (بيروت ١٩٥٢) وكان ابن هانيء عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة . ويروى أن أبا العلاء المعري كان إذا سمع شعر ابن هانيء الاندلسي يقول : ما اشبهه إلا برحى تطحن قروناً أي تسمع قعقعة ولا طائل تحتها (ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ٤٤٤) وقد توفى هذا الشاعر وهو في طريقه الى مصر صحبة الخليفة المعز الفاطمي الذي حزن على وفاته وقال : كنا نريد أن نفاخر به شعراء المشرق .

على أن الحكومة الأموية في الأندلس لم تقف مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس ، فكان لها هي الأخرى عيون وسطاء منبثون في أنحاء المغرب . وكان هؤلاء الجواسيس الأمويون يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد . وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية في كل مدينة افريقية تقريباً . وكانت هذه الجاليات قوية التمسك بالعقيدة السنية شديدة الكراهية للمذهب الشيعي . وحسبي أن أضرب مثلاً لهذه المقاومة المالكية الداخلية بالنص الذي أورده المالكي في كتابه رياض النفوس تعقيباً على احتلال الإمام عبيد الله المهدي لافريقية . إذ يقول فيه بأن فقيهاً مالكياً يدعى جبله ترك رباطه بقصر الطوب ، وأقام في مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله ، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى ها هنا ! . فقال : كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، فتركناه وأقبلنا نحرس الذي قد حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم ! ! » .[1]

فهذا النص يدل بوضوح على مدى الانقسام الديني الذي أحدثه حلول الفاطميين في المغرب .

وكان يحكم الأندلس في ذلك الوقت رجل قوي الشخصية بلغت الأندلس في عهده ذروة القوة والاستقرار وهو الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الناصر لدين الله ، الذي حكم الأندلس مدة نصف قرن (٣٠٠ — ٣٥٠هـ — ٩١٢ — ٩٦١م) .

وقد قام هذا الرجل بأعمال ايجابية فعالة لمحاربة النفوذ الفاطمي نلخصها في الخطوات التالية : —

اولا : اعلان نفسه خليفة :

اعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة بعد أن كان أميراً ، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين ٣١٦هـ (٩٢٩م) وكان الدافع الاساسي لهذه الخلافة السنية الجديدة هو مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية في المغرب . وقد اعتبر

(١) راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس ص ٦٩).

الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم ، ولهذا فرضوا قتاله ، واستحلوا دمه ، وفي ذلك يقول الخليفة المعز الفاطمي في خطاب له وجهه إلى الأندلس : « وهو يزعم أنه أمير المؤمنين ، كما تسمى دون من سلف من آبائه ، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله . ونحن نقول : « اننا أهل ذلك دونه ودون من سواه ، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه ، مع ما بين. اسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الاسلام والجاهلية ... الخ » (١)

وواضح من هذه الرسالة وغيرها من المراسلات التي تبودلت بين الخلافتين أنه كان من المتعذر التوفيق بينهما . كذلك يلاحظ أن المذاهب الدينية في ذلك الوقت كانت تقوم مقام المذاهب السياسية الآن ، وهذا هو سبب الاهتمام بها والتعصب لها ! إذ كان من استطاعة كل حاكم أن يحقق باسم خلافته الروحية المكاسب المادية والسياسية التي ينشدها .

ثانياً : تقوية الاسطول الأندلسي :

اهتم الناصر منذ بداية حكمه بإعداد اسطول بحري كامل التنسيق والإعداد ، وبذلك استطاع أن يشحن موانيه بالسفن والعتاد الحربي والجنود . كذلك أصدر أوامره إلى الاسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ، ومنع وصول امدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : « وفي سنة ٣٠١هـ ، ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميره من العدوة المغربية ، فأحرق جميعها » (٢)

ثالثاً : تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية الموجهة للمغرب :

عمل الناصر على تحصين سواحله وثغوره ولا سيما في المنطقة الجنوبية التي

---

(١) راجع (القاضي النعمان بن حيون : المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٢٣٠-٢٣٤) .مخطوط بجامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

كانت عرضة لأي غزو مفاجيء يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده .
ويروي المؤرخون أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م) حيث أشرف على الأعمال الدفاعية في طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras . ولا يزال القصر الذي بناه في طريف باقية آثاره إلى اليوم . اما الجزيرة الخضراء ، فيروي الحميري أن الناصر بني فيها دار صناعة للأساطيل ، اتقن بناؤها ، وعلا أسوارها ، لان مرساها هو أيسر المراسي وأقربها من بر العدوة ، ويحاذيه مرسي مدينة سبتة . ونظراً لأهمية موقع هذا الثغر وخطورته ، فقد حرص الأمويون على جعله هو وما حوله من ثغور ، في يد أمير من الأسرة الأموية .

رابعاً : احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق :

استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لسواحل بلاده مثل مدينة مليلة Melilla سنة ٣١٤هـ(٩٢٧م) ومدينتي سبته وطنجة سنة ٣١٩هـ(٩٣١م)، وكذلك حاول احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط وهو جزيرة أرشقول التي تسمى اليوم رشجون Rachgoun أمام مصب نهر تافنا بالجزائر وهي جزيرة عالية منيعة تحصن بها أحد أمراء الأدارسة واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش . فحاصرها الاسطول الأندلسي مدة طويلة حتى كان أهلها يهلكون من العطش بعد أن فرغت جبابهم من المياه ، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظمأهم . عندئذ اضطر الاسطول الأندلسي أن ينصرف عنهم عائداً إلى المرية .[1]

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر في احتلال هذه القاعدة الجزائرية . إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى في المغرب الأقصى مثل سبته وطنجه ومليله أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق وأن يتدخل في سياسة المغرب لأثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمي .

---

(١) البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٧٧-٧٨ .

خامساً : اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب :

عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى ، مثل دولة الأدارسة التي كان نفوذها بعد الغزو الفاطمي قد انحصر في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة وأصيلاً وقلعة النسر أو حجر النسر (١) بين قبائل غمارة . ومثل إمارة نكور أو بني صالح وهي إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف ، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح بن سعيد . وتنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يمني من قواد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحميري ، كان قد استقر في هذه المنطقة ودفن بها ، وصار قبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح . ثم خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة . وقد لعبت إمارة نكور دوراً كبيراً في نشر الاسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة وصنهاجه ، كما أنها في الوقت نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة ، ولقيت من وراء ذلك عناء كبيراً خفف من حدته تأييد الأمويين في الأندلس لها .

ولم يقتصر الناصر على محالفة هذه الدويلات المغربية الشمالية ، بل تخطاها إلى ما ورا ها من قبائل البربر ولا سيما قبيلة زناتة التي عمل امدادها بالمال والسلاح وتحريضها على قتال صنهاجة حليفة الفاطميين .

سادساً : تأييد ثورة أبي يزيد الخارجي :

عمل الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية ، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر

---

(١) من المعروف أن البصرة وأصيلا وحجر النسر كانت أسماء مدن وقلاع مشهورة في ذلك الوقت ولكنها اندرست الآن ولم يعد لها وجود .

(٢) عاشت مدينة نكور بعد ذلك مدة طويلة إلى ان خربها عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٣ هـ . وقد اندرست هذه المدينة منذ ذلك الوقت إلا أنه لا يزال يوجد بعض اعمالها ومرانيها مثل ثغر المزمة الذي حرفه الاسبان إلى Alhucemas ثم عرب المسلمون هذا اللفظ الى الحسيمة الحالية في شمال شرق المغرب الأقصى .

بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي ضد الدولة الفاطمية وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة محمد القائم ، وجزءاً من عهد ولده اسماعيل المنصور . ولم يتردد خليفة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية . وفي مقابل ذلك اعترف ابو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية ، ودعا للخليفة الناصر في البلاد التي خضعت له ، فيروي ابن عذاري انه في سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م) أرسل أبو يزيد إلى الناصر وفداً يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما ، وانتصاره على جيوش محمد القائم ، ويظهر للناصر خضوعه واعترافه بولايته . وفي السنة التالية (٣٣٤هـ) أرسل أبو زيد إلى الناصر سفارة ثانية من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي . وفي السنة التي تلتها (٣٣٥هـ) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولده أيوب ، فاكرمه الناصر وأنزله في قصر الرصافة ، وأمده بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده . وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطراً كبيراً على الدولة الفاطمية ، إلا أنها انتهت أخيراً بالفشل وبقتل صاحبها سنة٣٣٦هـ. والفضل في ذلك يرجع إلى انضمام قبيلة صنهاجة إلى جانب الدولة الفاطمية لأن ابا يزيد الخارجي كان زناتياً وتؤيده قبيلة زنانة المنافسة لها.[1]

سابعاً : التحالف مع اعدا الدولة الفاطمية من ملوك أوروبا والمشرق :

لم يتردد الناصر في ابرام اتفاقيات تحالف مع ملوك الدول المعادية للفاطميين ، فتحالف مع ملك ايطاليا هوج دي بروفانس Hugues de Provence الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوه . كذلك تحالف مع قسطنطين السابع امبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين . وهنا تشيد المصادر الأندلسية بالاحتفالات الفخة والحفاوة البالغة التي استقبل بها الناصر رسل الروم في سنتي ٣٤٤هـ(٩٤٥م) ، ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م) . أما المصادر الاسماعيلية فإنها تؤكد وجود اتفاق حربي مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار الفاطميين : هؤلاء من المغرب ، وأولئك من المشرق ، وفي ذلك يقول القاضي النعمان :

---

(١) راجع كتابنا دراسات في تاريخ المغرب و الاندلس ص ٧٧ .

وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة ، وأهدى اليه هدايا ، وأرسل إليه رسلاً من قبله ، فأجابه إلى ذلك ، وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ، ومراكب بني أمية من الأندلس . (١)

والواقع اننا لا نستطيع الحكم على مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك ، لا سيما وان المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي ابرمت بين الناصر والبيزنطيين . وأغلب الظن أنها كانت على غرار المحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني ، والامبراطور تيوفيل سنة ٢٢٥هـ (٨٤٠م) وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال اعداء الدولة الأموية ، ولكن دون الارتباط معهم في عمل حربي مشترك.

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع الاخشيديين ملوك مصر ، فأرسل إليهم عشرة آلاف دينار لتوزيعها على علماء المذهب المالكي ، لمحاربة الدعاية الشيعية هناك . وجدير بالذكر ان رئيس المدرسة المالكية في مصر في ذلك الوقت كان عالماً اندلسياً اسمه ابو اسحاق محمد بن القاسم ويعرف بابن القرطبي ، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم ، ويدعو على نفسه بالموت قبل مجيء دولتهم . وقد استجاب الله لدعائه ، فتوفي في سنة ٣٥٥هـ أي قبل الغزو الفاطمي لمصر بنحو ثلاث سنوات . (٢)

الاشتباكات المسلحة بين الفاطميين والأمويين :

لم يقتصر النزاع بين الفاطميين والأمويين على هذه الحرب الباردة القائمة على التسابق في التسلح ، واحتلال المواقع الهامة ، واثارة الفتن بين قبائل البربر ، وتدبير المؤامرات من وراء ستار ، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما . وقد أعطانا ابن الأثير وصفاً لبداية هذا الإشتباك بقوله :

(١) القاضي النعمان : المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٢٢٦ ؛ حسن ابراهيم وطه شرف ، المعز لدين الله ص ٤٠ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٤٨ ، محمود مكي : التشيع في الأندلس . صحيفة معهد مدريد سنة ١٩٥٦ .

وفي سنة ٣٤٤هـ (٩٥٥م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الأموي ، صاحب الأندلس ، مركباً كبيراً لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق ، فلقى في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي ، فقطع عليه أهل المركب الأندلسي ، وأخذوا ما فيه ، واخذوا الكتب التي إلى المعز ، وبلغ ذلك المعز فعمر اسطولا واستعمل عليه الحسن بن علي صاحب صقلية ، وسيره إلى الأندلس ، فوصلوا إلى المرية ، فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب ، واخذوا ذلك المركب ، وكان قد عاد من الاسكندرية ، وفيه امتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات ، وصعد من في الاسطول إلى البر فقتلوا ونهبوا ، ورجعوا سالمين إلى المهدية » . [1]

واضح من النص السابق أن السبب الاساسي للاشتباك المسلح بين الدولتين هو تلك الرسائل التي كان قد بعث بها والي الفاطميين بصقلية إلى الخليفة المعز بالمهدية . وقد رجح دوزي أن تكون هذه الرسائل تتعلق بمشروع هجوم فاطمي على الأندلس ، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم بخطورتها ولهذا لم يتردد في الاستيلاء عليها . [2]

ولقد كان رد الناصر على هذا الاعتداء على مدينة المرية ، أن قام اسطوله بمهاجمة بعض المدن الساحلية الفاطمية مثل سوسة وطبرقه ومرسى الخرز — حاليا La Calle وهذا الأخير كان قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية الفاطمية ، فاضرم النار في بعض نواحيها . وتستمر هذه الغارات والاشتباكات البحرية ، كما يستمر الأمويون في إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية ، وجالياتهم الأندلسية الممتدة على الساحل المغربي .

وأخيراً شعر الفاطميون باستحالة غزو الأندلس ، كما شعروا بأن بقاءهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر امام وثبات البربر وتقلباتهم ، وامام غارات الأمويين ودسائسهم . ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم يصممون على اخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر .

---

(١) ميشيل أماري : المكتبة العربية الصقلية ص ٣١٢ .

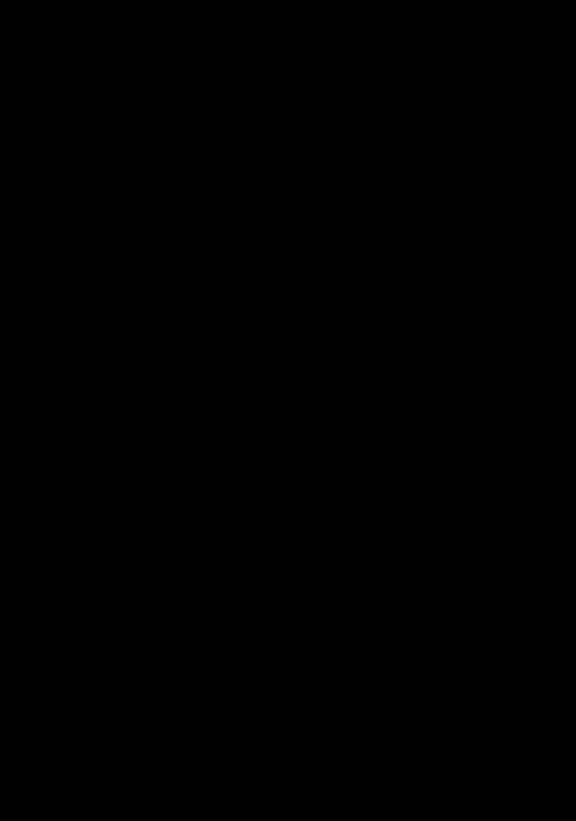
(٢) انظر Dozy : Histoire de Musulmans d'Espagne II, p. 165.

الفصل الثاني

انتقال الدولة الفاطمية الى مصر

١) الفتح الفاطمي لمصر

٢) مميزات الدولة الفاطمية



انتقال الدولة الفاطمية الى مصر

١) الفتح الفاطمي لمصر :

سبقت الإشارة إلى اهتمام الفاطميين بامتلاك مصر منذ بداية قيام دولتهم بالمغرب ، لما تمتاز به من موقع جغرافي فريد في قلب العالم العربي ، يتيح لهم فرصة الاستيلاء على المراكز الاسلامية القديمة مثل مكة والمدينة ودمشق بل وبغداد نفسها حاضرة الخلافة العباسية المعادية لهم .

ولقد بدأت حملات الفاطميين على حدود مصر الغربية منذ أيام خليفتهم الأول عبيدالله المهدي . ويلاحظ أن هذا الغزو يعتبر فريدا في نوعه ، لأن مصر كانت دائما تغزى من الشرق عن طريق غزة ورفح والفرما وبلبيس ، ولم يسبق أن فتحت مصر من حدودها الغربية إلا في أيام الفراعنة حينما غزاها الليبيون قديما من منطقة الفيوم غربا أيام الأسرتين ٢٢ و ٢٣ .

أرسل الفاطميون ثلاث حملات لغزو مصر : الأولى سنة ٣٠١ هـ، والثانية سنة ٣٠٧ هـ، والثالثة سنة ٣٢٢هـ. وكانت هذه الحملات برية وبحرية في آن واحد ، أي أن الأسطول كان يسير بجوار الجيش . وقد استغرقت كل حملة من هذه الحملات مدة سنتين على الأقل ، كانت تستولي خلالها على مدينة الاسكندرية وبعض أقاليم مصر الوسطى كالفيوم والأشمونين ، وتعيش على ما تأخذه من أهالي تلك البلاد من أقوات ومؤن .

ولقد فشلت هذه الحملات الثلاث لأن الخلافة العباسية في ذلك الوقت كانت من القوة بحيث تستطيع أن تصد تلك الحملات . وقد صد الحملة الأولى والثانية مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسي المقتدر ، وصد الحملة الثالثة القائد التركي العباسي محمد بن طغج الاخشيد أول امراء الدولة الاخشيدية في مصر .

ثم شغل الفاطميون بعد ذلك عن غزو مصر أيام الخليفتين القائم والمنصور بسبب الثورة الداخلية التي قام بها أبو يزيد الخارجي واتباعه الزناتيون ، وان كان هذا لم يحل دون قيام الفاطميين بمحاولات دبلوماسية في هذا السبيل. فالمعروف أن الخليفة القائم اتصل بمحمد الاخشيد أكثر من مرة محاولا استمالته إليه ضد العباسيين . ويقال أن الاخشيد فكر فعلا في الدعاء للفاطميين حينما دب النزاع بينه وبين الخليفة العباسي الراضي ، إلا أنه عاد وعدل عن هذه الفكرة خوفا على مركزه السياسي في مصر. وفي عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، قام الفاطميون بمحاولة رابعة ناجحة لغزو مصر بقيادة قائدهم جوهر الصقلي أو الصقلبي . وكان هذا القائد في الأصل مملوكا صقلبيا من سبي سواحل دالماسيا ، استقر في بادىء الأمر في جزيرة صقلية التي كانت تابعة للحكم الفاطمي فنسب إليها ، ثم التحق بخدمة الخليفة المعز ، وظل يترقى عنده حتى صار قائده وكاتبه أيضا ، وهذا يدل على علو منزلة جوهر في الناحية العلمية إلى جانب مواهبه الحربية .

وكانت مصر بعد وفاة عاهلها كافور الاخشيد سنة ٣٥٧ هـ تعاني أزمات سياسية واقتصادية شديدة ، إذ لم يكن بها حاكم قوي يستطيع أن يقبض على زمام الأمور فيها ، كما لم تكن بها قوة مادية أو معنوية من جانب شعبها الذي انهكه الجوع والمرض نتيجة لانخفاض النيل عدة سنوات متتالية . وما صحب ذلك من قحط وغلاء ومجاعات وأوبئة .

أما الخلافة العباسية التي استطاعت من قبل ارسال قوادها أمثال مؤنس الخادم ومحمد الاخشيد لصد الحملات الفاطمية السابقة ، فإنها في هذه المرة لم تستطع عمل أي شيء من هذا القبيل نتيجة لضعفها من جهة ، ولقيام دول معادية

لها في الشام مثل الحمدانيين في الشمال ، والقرامطة في الجنوب ، الذين حالوا دون وصول جيوشها إلى مصر للدفاع عنها .

ونتيجة لهذا الضعف السياسي والاقتصادي ، أصبحت مصر عاجزة عن صد أي غزو يأتيها من الخارج . ولا شك أن الخليفة المعز الفاطمي كان على علم تام بأحوالها عن طريق دعاته وجواسيسه ، بل وعن طريق بعض كبار المسؤولين المصريين أمثال يعقوب بن كلس الذي سافر إليه بنفسه وأطلعه على سوء الحالة في مصر . وقد يدل على ذلك تلك التصريحات التي أدلى بها المعز قبل ارسال حملته إلى مصر مثل قوله : « اني مشغول بكتب ترد علي من المغرب والمشرق ، أجيب عليها بخطي ». وقوله ايضا : « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ».

ثم أخذ المعز يعد العدة لفتح مصر ، فجمع الأموال الوفيرة التي يقال إنها بلغت أربعة وعشرين مليون دينار ، كما قضى سنتين في حفر الآبار وإقامة المنازل في الطريق إلى الإسكندرية لينزل فيها الجند أثناء زحفهم إليها . ثم عبأ جيوشه ومعداته ، فتجمع له مائة ألف رجل ، جعل قيادتهم في يد مولاه جوهر الذي كان سنه ينيف على الخمسين في ذلك الوقت . وقد وصف هذا الجيش الجرار شاعر المعز ، محمد ابن هانيء الأندلسي في القصيدة التي مطلعها :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع   وقد راعني يومٌ من الحشر أروعُ
غداةَ كأنَّ الأفقَ سُدَّ بمثله   فعادغروبُ الشمس من حيث تطلع

سار الجيش الفاطمي من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ (٥ فبراير سنة ٩٦٩م) [1] تصحبه بعض القطع البحرية ، فاستولى على الاسكندرية ، ثم

(١) يرى المستشرق دى خويه De Goeje أن غزو الفاطميين لمصر راجع لاسباب فلكية ، وان الذي دفع المعز إلى التفكير في غزو مصر هو التقاء المشتري بزحل في برج الحمل . وقد كان لعلم التنجيم شأن كبير في الحياة اليومية في الشرق وخاصة بين الفاطميين الذين كانت لهم كتب قديمة في التنجيم والعلوم الخفية توارثوها عن أجدادهم . ويقال ان هذه الكتب سرقت من المهدي حين كان فاراً من افريقية ثم استردها ولده القائم في حملته الفاشلة على مصر ، وكانت تتضمن نبوءات من هذا القبيل . راجع (كرزويل : تأسيس القاهرة ، ترجمة السيد محمد رجب ، المقتطف نوفمبر -- ديسمبر سنة ١٩٣٤م).

واصل زحفه إلى الجيزة فوصلها في ١٧ شعبان من نفس السنة ، ثم عبر مخاضة في النيل وقضى على المقاومة الاخشيدية التي أعدت لقتاله على الضفة الشرقية للنيل ، ودخل مدينة الفسطاط ظافرا .

ولقد كتب جوهر أمانا لأهل مصر أعلن فيه عن البرنامج الاصلاحي الذي سيسير عليه في سياسته المستقبلة مثل تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم ، وتركهم أحرارا على مذاهبهم الدينية المختلفة ، ورفع الظلم والغاء الضرائب الجائرة ، واصلاح الطرق وترميم المساجد ، وتجديد السكة وقطع الغش منها ... الخ [١] .

وعندما بلغ المعز نبأ انتصار جيوشه فرح فرحا شديدا تجلى بوضوح في قصيدة شاعره ابن هانيء الاندلسي التي يقول في مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبني العباس قد قضي الأمر.

تأسيس القاهـــرة :

عسكر جوهر بجيشه في الموضع الذي أنشأ فيه مدينة القاهرة ، وهو السهل الرملي الواقع في شمال شرق الفسطاط ، ويبعد عن النيل بحوالي ميل . وكان يحد هذا السهل من ناحية الشرق جبل المقطم ، ومن الغرب قناة الخليج أو خليج أمير المومنين الذي حفره عمرو بن العاص [٢] . وكان يخرج من النيل شمالي الفسطاط ويمر بمدينة عين شمس القديمة ويتصل في النهاية بالبحر الأحمر عند مدينة القلزم (السويس).

وكان هذا السهل الذي بنيت فيه القاهرة خاليا من البناء إلا بضعة مبان تتعلق

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) ص ٦٧-٧٠.

(٢) ردم هذا الجزء من قناة الخليج في القرن ١٩ وصار شارعاً يسمى شارع الخليج المصري ويمر فيه خط الترام القادم من السيدة زينب إلى الظاهر . وواضح من هذا التخطيط أن حدود القاهرة الشرقية ظلت كما هي تقريباً عند تلال المقطم ، أما حدودها الغربية فلم تتجاوز في ذلك الوقت شارع الخليج .

بستان أو حدائق كافور ، وديرا مسيحيا يسمى دير العظام ، وحصنا صغيرا يسمى قصر الشوك .

وفي مساء ذلك اليوم الذي وصل فيه (١٧ شعبان)، اختط جوهر موقع القصر الذي قرر أن يستقبل فيه مولاه المعز . ويقال إن المعز هو الذي وضع له رسمه وتصميمه وأنه كان يحتوي على أربعة آلاف حجرة . وقد عرف هذا القصر باسم القصر المعزي ثم عرف بعد ذلك باسم «القصر الشرقي الكبير»، تمييزا له عن القصر الغربي الصغير الذي بناه الخليفة العزيز بن المعز بعد ذلك . [١]

ولما فرغ جوهر من بناء القصر أقام حوله سورا كبيرا من الطوب اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة ، وتبلغ مساحة الأرض المحصورة داخل السور حوالي ٣٤٠ فدان . وقد أبدى المقريزي دهشته من سمك هذا السور وقال إن سمكه كان كافيا لأن يمر فوقه فارسان جنبا إلى جنب [٢] .

ومن الغريب أن ياقوت الحموي ذكر ما يشبه ذلك عند وصفه لسمك جدران العواصم الفاطمية الأولى في المغرب مثل المهدية والمنصورية .

والغرض من جعل الأسوار والحصون سميكة بهذا الشكل ، هو تمكين المدافعين عنها من التجمع السريع عند أية نقطة معرضة لهجوم الأعداء .

وكانت هناك سبعة أبواب بالسور ترتيبها كالآتي :

في الجنوب : باب زويلة (المزدوج الأقواس)

في الغرب : باب الفرج وباب السعادة [٣]

---

(١) يلاحظ أن مكان هذين القصرين الآن يوجد خان الخليلي ومسجد الحسين وسوق النحاسين وقبة الملك المنصور قلاوون، وبعض المساجد . وكانت الساحة التي بينهما تعرف باسم ما بين القصرين، وتسع عشرة آلاف جندي .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) يمر مكانه الآن شارع بور سعيد .

في الشرق : باب البرقية [1] وباب القراطين [2]

في الشمال : باب الفتوح وباب النصر .

ولما فرغ جوهر من بناء القصر والسور ، سمى المدينة كلها باسم المنصورية[3] تيمنا باسم مدينة المنصورية التي أنشأها الخليفة المنصور والد المعز خارج القيروان[4] . وظلت هذه التسمية حتّى قدم المعز إلى مصر بعد أربع سنوات فسماها بالقاهرة تفاؤلا بأنها ستقهر الدنيا وتقهر بني العباس [5] .

وهناك قصة خيالية يرويها بعض المؤرخين على أنهـا الأصل في تسمية القاهرة بهذا الاسم ، وفحواها أن جوهر لما أراد بناء القاهرة ، أحضر المنجمين وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فاختاروا طالعا سعيدا ، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس . وقالوا للعمال :

---

(١) البرقية نسبة الى أهل برقة الذين نزلوا هناك . ويسمى الآن باب الدراسة نسبة إلى اكوام الكيمان التي تراكت هناك لمنع السيول .

(٢) باب القراطين سمي فيما بعد في القرن السابع الهجري ايام دولة المماليك البحرية بالباب المحروق وذلك عندما قتل السلطان ايبك التركماني منافسه فارس الدين اقطاعي الذي اضطر اتباعه إلى الفرار من القاهرة من باب القراطين بعد حرقه لأنه كان مغلقاً .

(٣) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٣٧٧ .

(٤) يبدو ان جوهر كانت لديه أوامر من المعز بأن ينشىء مدينة تكون علاقتها بالفسطاط كعلاقة المنصورية بالقيروان . والدليل على ذلك أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على احدهما باب زويله والثاني باب الفتوح . وقد اطلق هذان الاسمان كما رأينا على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة .

راجع (المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٣٤٨-٣٨٣ ؛ كرزويل : تأسيس القاهرة ، مجلة المقتطف نوفمبر – ديسمبر ١٩٣٤) .

(٥) يقال إن عبيد الله المهدي أثناء فراره إلى المغرب قال لعامل مدينة الرملة وكان شيعياً : «لا تخش علي شيئاً ، فو الذي نفسي بيده ، لا وصلوا إلي أبداً ، ولنملكن أنا وولدي نواصي ولد العباس ولتدوسن خيولي بطونهم» راجع (ايفانوف : مذكرات في حركة المهدي الفاطمي – مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع سنة ١٩٣٦) .

«إذا تحركت الأجراس ارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة» ؛ واتفق ان غرابا وقف على حبل من تلك الحبال ، فتحركت الأجراس وظن العمال أن المنجمين حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة ، وكان كوكب المريخ في الطالع ، وهو المسمى عند المنجمين بقاهر الفلك ، فسموها القاهرة .

هذه القصة تبدو خيالية ، ومما ينفيها نفيا باتا أن المؤرخ المسعودي الذي توفي قبل انشاء القاهرة بنحو ١٢ سنة (٣٤٦هـ) ذكر مثل هذه القصة في كتابه مروج الذهب [١] ، ونسبها إلى الاسكندر عند بنائه الاسكندرية . وهذا يدل على أن قصة الغراب والأجراس كانت معروفة وشائعة في مصر قبل بناء القاهرة . ثم انه يفهم من هذه القصة ان اسم القاهرة اطلق على المدينة منذ تأسيسها ، ولكن الرواية العلمية الصحيحة ترجع تسميتها أولا بالمنصورية أيام جوهر ، ثم بالقاهرة أيام المعز تفاؤلا بأنها ستقهر الخلافة العباسية المعادية [٢] .

لماذا بنيت القاهرة ؟

الواقع إن بناء القاهرة يرجع إلى الفكرة السياسية التقليدية المتبعة بين ولاة المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد التي فتحوها . وهذه السياسة ترمي إلى تأسيس قاعدة لملكهم تشتمل على قصورهم ودواوين حكومتهم وثكنات جيوشهم ، أي انشاء مدينة رسمية خاصة بهم بعيدة عن المدن الآهلة بالسكان . وعلى هذا الأساس الاستراتيجي بنيت الفسطاط أول الأمر سنة ٢٠هـ على يد عمرو بن العاص ، ثم العسكر سنة ١٣٢هـ على يد صالح بن علي العباسي ، ثم القطائع سنة ٢٥٦هـ على

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ١ ص ٢١٥.

(٢) طالعنا الاستاذ لويس عوض في صحيفة الأهرام في عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٩/٢/٢٨ . برأي جديد حول أصل تسمية القاهرة خلاصته أنه كان يوجد في هذا المكان من قديم مدينة فرعونية اسمها «ابكاهنرع» Ebkahi enra أي «أرض رع» ، اله الشمس وكبير الآلهة لعدد من أسرات مصر القديمة . وكان مركزها ضاحية عين شمس أو هليوبوليس باليونانية (المطرية- الزيتونة) ثم حرف هذا الاسم إلى قاهرة . وقد كان هذا الرأي موضع نقاش بين علماء التاريخ والآثار الذين اجمعوا على عدم صحته .

يد أحمد بن طولون ، وأخيراً القاهرة المعزية سنة ٣٥٨هـ. فجوهر حينما بنى القاهرة أراد أن تكون دار خلافة ينزلها الخليفة فقط مع أسرته وخواصه وجنوده فيكون بذلك بمعزل عن عامة الشعب .

ويضيف المقريزي أن بناء القاهرة في ذلك الموقع بالذات شمالي الفسطاط ، كان لغرض سريع هو تغطية المدينة الثلاثية : الفسطاط والعسكر والقطائع ، وحمايتها من غارات أبناء عمومتهم القرامطة الذين اغاروا على جنوب الشام وهددوا مصر بالغزو . وتنفيذا لهذه الخطة الدفاعية أمر جوهر بحفر خندق كبير عميق حول القاهرة اتساعه عشرة أذرع ، وذلك في شعبان سنة ٣٦٠هـ.

وقد حفظ لنا التاريخ خبر غارتين للقرامطة عقب ذلك بقليل احداهما في أول سنة ٣٦١هـ والثانية في ٣٦٣هـ. وقد استطاع القرامطة أن يعبروا الخندق في غارتهم الثانية ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على القاهرة .

من كل ما تقدم نرى أن القاهرة نشأت مدينة حربية خاصة أي لم تكن مدينة عامة للسكنى ، بل أنه لم يكن يسمح لأحد بالدخول من أبوابها بدون إذن أو تصريح حتى إن سفراء الدول الأجنبية كانوا يترجلون عند وصولهم إلى أسوارها .

ولعل الصفة التي عرفت بها ، وهي القاهرة المحروسة ، توضح تلك العزلة والحراسة القوية التي كانت عليها .

وظلت القاهرة كذلك حتى أواخر ايام الخليفة المستنصر الفاطمي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حينما حلت بالبلاد تلك الازمات الاقتصادية والسياسية المعروفة بالشدة العظمى والتي احترقت فيها مدينة الفسطاط ، عندئذ دخلت العامة مدينة القاهرة وسكنتها .

بناء الجامع الأزهر :

يقترن اسم جوهر كذلك ببناء الجامع الأزهر . وقد بدأ في انشائه بعد وضع خطط القاهرة المعزية بنحو تسعة أشهر أي في ٢٤ جمادي الأول سنة ٣٥٩هـ.

وكان افتتاحه للصلاة بصفة رسمية في يوم الجمعة ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ.

والجامع الأزهر هو رابع المساجد الجامعة في حواضر مصر الاسلامية . أولها هو جامع عمرو بن العاص الذي بناه بالفسطاط عقب الفتح العربي لمصر ولذا سمي ايضا بجامع الفتح ثم اطلق عليه اسم الجامع العتيق لقدمه . ثم أسس العباسيون بعد سقوط الدولة الأموية جامع العسكر بمدينة العسكر التي أنشأها أول وال على مصر من قبل العباسيين وهو صالح بن علي العباسي ، ثم جاء احمد بن طولون وأسس الجامع المعروف باسمه حتى اليوم ، وأخيرا أتى جوهر فبنى الجامع الأزهر بمدينة القاهرة .

يروي المقريزي أنه بعد أن استولى جوهر على الفسطاط بأيام قليلة ، أقيمت الصلاة في المسجد العتيق (جامع عمرو) وخطب فيه للمعز الفاطمي وذلك في ١٩ شعبان سنة ٣٥٨هـ ، وفي يوم الجمعة ٢٨ ربيع الثاني سنة ٣٥٩هـ أي بعد ثمانية أشهر من اقامة أول خطبة في جامع عمرو ، تطورت الدعوة الشيعية بما طرأ عليها من زيادات في جامع احمد بن طولون ، وذلك بأن أدخل المؤرخون على الأذان : «حي على خير العمل». ولعل اختيار الفاطميين لمسجد ابن طولون بالذات لإقامة شعائرهم الدينية فيه راجع إلى ما رواه الرحالة ابن جبير من أن هذا المسجد كان مقرا للجالية المغربية في مصر ، يسكنون ويدرسون فيه منذ أيام مؤسسة أحمد بن طولون [1] . ثم رأى جوهر ضرورة انشاء مسجد خاص لإقامة شعائر المذهب الاسماعيلي فيه فبنى الجامع الأزهر .

ومن الواضح أن هذا المسجد لم ينشأ في الأصل ليكون جامعة أو معهدا للدراسة كما هو الحال اليوم ، وانما انشىء ليكون مسجدا رسميا للدولة الفاطمية ، ورمزا لدعوتها المذهبية .

أما فكرة الدراسة بالأزهر ، فقد جاءت بعد ذلك أيام الخليفة العزيز بالله ،

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٦–٢٧ (طبعة بيروت) .

وكانت حدثا عارضا ترتب على فكرة الدعوة المذهبية . ثم يلبث هذا الحدث العارض ان تغلب على صفة الجامع الأولى ، فتحول الجامع إلى جامعة .

وأهم حدث جامعي في حياة الجامع الأزهر كان في سنة ٣٧٨هـ في عهد الخليفة العزيز — كما ذكرنا — حينما قام وزيره يعقوب بن كلس — الذي كان يهوديا وأسلم — بتعيين ٣٧ فقيها ليقوموا بإلقاء الدروس والمحاضرات المنظمة في فقه الشيعة ، ورتب لهم الأرزاق والجرايات ، وأنشأ لهم دارا مجاورة لسكناهم ؛ كما أنشأ للطلبة القادمين من جميع انحاء العالم الاسلامي دورا للسكنى وهي المعروفة باسم الأروقة (جمع رواق) .

وهكذا اكتسب الأزهر صفة معهد للدراسة المستقرة المنظمة . ويبدو أن الفاطميين سموه بالأزهر للإشادة بذكر فاطمة الزهراء بنت الرسول التي ينتسبون إليها ، وإن كان البعض ينسب هذا الاسم إلى القصور والحدائق الزاهرة التي بنيت حوله .

وتجدر الملاحظة هنا على سبيل الاستطراد أن مساحة الأزهر حاليا هي ضعف مساحته الأصلية ، نتيجة للزيادات التي اضيفت إليه بعد ذلك أيام الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون والاشرف برسباي وقايتباي وقانصوه الغووي وعبد الرحمن كتخدا . كذلك يلاحظ أن مئذنة المسجد القديمة هدمت ، وأن المآذن الحالية بنيت كلها في العصر المملوكي : واحدة بناها الأمير أقبغا في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ومئذنة أخرى رشيقة بناها السلطان قايتباي ، وبجوارها مئذنة ثالثة عظيمة ذات رأسين بناها السلطان قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك .

أعمال جوهر الإدارية والحربية :

إلى جانب هذه الأعمال الانشائية السالفة الذكر ، قام جوهر أيضا بأعمال أخرى إدارية وحربية نذكر منها جهوده في مكافحة الغلاء والمجاعات التي استمرت بعد الفتح الفاطمي سنتين متتاليتين . فيروي المقريزي ان جوهر عاقب

التجار الجشعيين وضرب أعناق بعضهم بعد أن شهّر بهم في الأسواق والطرقات . كما أنه جمع سماسرة الغلال وتجار القمح في مكان واحد وسد عليهم من جميع الجهات ما عدا جهة واحدة كي يحصر خروج الغلال من مكان واحد تحت اشراف موظفيه . ويضيف المقريزي أن جوهر أشرك المغاربة مع المصريين في ادارة شئون البلاد لتدريبهم على الحكم ، وأنه كان يجلس بنفسه للمظالم يوما في كل اسبوع ليقضي بين الناس ، كما أنه فرض الشعائر الفاطمية الرسمية في البلاد ، فألغى الخطبة للعباسيين وأقامها للخليفة الفاطمي ، وضرب السكة باسمه (أي باسم الخليفة الفاطمي)، ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وقرر لبس الملابس الخضراء شعار العلويين ، وزاد في الآذان والإقامة بعد حي على الفلاح : حي على خير العمل . وروى مؤلفهم القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي (ت سنة ٣٦٣هـ) أن الأذان بحي على خير العمل كان على عهد رسول الله (صلعم) وبه أمر ، وأقر أيام أبي بكر وصدرا من أيام عمر ، ثم أمر عمر بقطعه وحذفه من الأذان والإقامة خشية أن يتهاون الناس بأمر الجهاد ويتخلفوا عنه [1] .

أما من جهة الأعمال الحربية . فإن جوهر لم يكتف بفتح مصر ، بل عمل على بسط سلطانه على بلاد الشام أيضا . ذلك لأن كلا من الشام ومصر امتداد يتمم الآخر ، ومنطقة أمان للآخر ، ولأن كليهما يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب . فهناك اذن مصالح تجارية وحربية مشتركة تربط الشام بمصر . ولهذا كثيرا ما كانا يكونان دولة واحدة على ممر العصور . يضاف الى ذلك أن الشام مدخل للعراق مقر الخلافة العباسية المعادية التي تعتبر في نظر الفاطميين خلافة مغتصبة للحكم غير شرعية .

أمام كل هذه الدوافع أرسل جوهر جيشا لغزو الشام بقيادة جعفر بن فلاح . واستطاع هذا القائد أن يستولي على دمشق سنة ٣٥٩هـ، إلا أنه لم يتقدم بعد ذلك

---

(١) راجع (النعمان بن محمد : دعائم الاسلام جـ ١ ص ١٧٢-١٧٣ ، القاهرة ١٩٥١) .

نحو الشمال لوجود دولة قوية في حلب وهي الدولة الحمدانية . والحمدانيون عرب من قبيلة تغلب إحدى بطون ربيعة ، نشأت دولتهم أول الأمر في الموصل ثم ضمت إليها حلب أيام الاخشيديين ، وصارت قوة يخشى بأسها في شمال الشام . واستطاعت أن تحمي الثغور الاسلامية هناك من خطر البيزنطيين . ومن أشهر ملوكها الأمير سيف الدولة الحمداني الذي كان بلاطه مركزا ثقافيا يجتمع فيه العلماء والشعراء أمثال المتنبي ، والفيلسوف الفارابي ، والامير الشاعر أبي فراس الحمداني .

وكان الخليفة المعز يعلم تماما بقوة الحمدانيين ، وبالدور الهام الذي يقومون به في حماية الثغور الشامية من غارات البيزنطيين ، ولهذا حرص على مهادنتهم وارسل في هذا المعنى كتابا من مقره بالمغرب إلى قائده جوهر يحذره فيه من عواقب الاصطدام بالحمدانيين ويأمره باستعمال اللين والسياسة معهم . وقد أورد المقريزي نص هذه الرسالة الهامة في كتابه اتعاظ الحنفا [1] .

أما في جنوب الشام فقد واجه الفاطميون خطر القرامطة وهم من الاسماعيلية ايضا وكانوا ينادون بالمساواة التامة بين الطبقات . وقد انتشروا في بادىء الامر في بلاد ما بين النهرين السفلى جنوبي العراق بعد حرب الزنج ، وكونوا دولة مستقلة ، عن الخلافة العباسية في منطقة الاحساء على الخليج العربي . ومن هناك قاموا بغارات على خراسان واليمن وكذلك على جنوب الشام حيث اتحدوا مع أهالي دمشق وقاموا بهجوم خاطف على الجيش الفاطمي فهزموه وقتلوا قائده جعفر بن فلاح سنة ٣٦٠هـ

وهكذا لم تدم السيادة الفاطمية على بلاد الشام في هذه الفترة الأولى من أيام جوهر الصقلي . ولم يكتف القرامطة بذلك بل قاموا بغارة على مصر وصلوا فيها الى القاهرة نفسها وحاصروا جوهر فيها . ولكنه استطاع أن يبعدهم عن البلاد بقوة المال والسلاح سنة ٣٦١هـ.

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٤١ نشر جمال الشيال

وأمام كل هذا الاضطراب الحربي والاقتصادي في مصر كتب جوهر إلى مولاه المعز يدعوه بسرعة إلى القدوم إلى مصر، وهرع الخليفة المعز إلى مصر لا لتسلم البلاد وإنما للدفاع عنها، وكان وصوله إلى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٢هـ.

من كل ما تقدم نرى أن الفتح الفاطمي لمصر حدث في ظروف قاسية بالنسبة للبلاد المصرية : نقص في الفيضان ، مجاعات ، أوبئة ، غارات القرامطة ...الخ. غير أن مصر ، رغم هذه الكوارث ، ارتفع مركزها السياسي والدولي ، إذ لم تعد القاهرة حاضرة لولاية تابعة للخلافة العباسية ، وانما حاضرة لخلافة مستقلة ، وامبراطورية واسعة الأرجاء .

٢) مميزات الدولة الفاطمية

الناحية السياسية والاجتماعية :

الدولة الفاطمية دولة شيعية اسماعيلية قامت في المغرب على اكتاف المغاربة من بربر كتامة وصنهاجة في أواخر القرن الثالث الهجري (٢٩٧هـ)، ثم انتقلت إلى مصر بعد منتصف القرن الرابع الهجري (٣٥٨هـ)، واستطاعت أن تمد نفوذها من القاهرة إلى معظم بلاد الشرق العربي إلى أن سقطت أخيرا على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م).

وواضح من التواريخ السابقة أن الخلافة الفاطمية لم تعش في المغرب أكثر من ٦٥ سنة ، بينما عاشت في مصر أكثر من مائتي سنة ، أي أن الجزء الأكبر من حياتها عاشته في مصر ، ولهذا اقترن اسمها دائما بأرض الكنانة رغم قيامها في المغرب لدرجة أن بعض المؤرخين امثال المقريزي وأبي شامة أطلقوا على خلفائها اسم الخلفاء المصريين كما سموها بدولة المصريين والدولة المصرية [١] . كذلك حرص المؤرخ الغرنـاطي لسان الدين بن الخطيب على التفرقـة بين الخلفـاء الذين حكموا في المغرب ، والخلفـاء الذين حكموا في مصر ، فسمى الأوائل بالعبيديين وسمى الآخرين بالفاطميين [٢] . وهذه ليست قاعدة

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ص ٥٦١، ٥٦٦ .

(٢) ابن الخطيب : كتاب اعمال الاعلام — القسم الثالث الخاص بالمغرب — نشر مختار العبادي وإبراهيم الكتاني ص ٤٦.

بطبيعة الحال ، ولكنها تبين أن الفترتين مختلفتان في البيئة والعادات والسياسة العامة . وقد لاحظنا أن الدولة الفاطمية حينما كانت بالمغرب ، كانت سياستها مغربية بالدرجة الأولى إذ حاولت توحيد المغرب الكبير وضم الأندلس أيضا إلى نفوذها . ولما فشلت في تحقيق هذا الهدف وانتقلت الى مصر ، إذا بسياستها تتجه نحو المشرق وتهتم به أكثر من اهتمامها بالمغرب . وقد يرجع ذلك إلى وضع مصر نفسها التي كان ارتباطها ببلاد الشرق وبخلافة المشرق أكثر من ارتباطها ببلاد المغرب . ولا شك أن الدولة الفاطمية قد تأثرت بهذا الوضع أيضا إذ نجدها تتجه نحو الشام واليمن والحجاز والسودان والعراق، بل وربما إلى أقصى المشرق مثل الصين والهند وبلاد ما وراء النهر ،اما صلتها بالمغرب فقد أخذت في الضعف تدريجيا إلى أن زالت نهائيا في منتصف القرن الخامس الهجري على عهد الخليفة المستنصر بالله .

ولقد اندمجت الدولة الفاطمية في الحياة المصرية وشاركت فيها بجليل الأعمال التي كان لها أثر كبير في توحيد عناصر الامة المصرية ونضوج شخصيتها . وذلك لأنها كانت دولة متسامحة إلى حدود بعيدة . فالمسلم والقبطي واليهودي كانوا يلقون معاملة واحدة ، وهذا ساعد على مزج العناصر المصرية بعضها ببعض ، كما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية والفنية في البلاد . فكثير من مخلفات الفاطميين المحفوظة في المتحف الاسلامي ، كالأواني الزجاجية والخزفية ذات البريق المعدني ، والمنسوجات ، قد نقش عليها أسماء صانعيها ، وأغلبها اسماء مسيحية .

ويتصل بهذا مشاركة الفاطميين في الاحتفال بالأعياد القومية والمسيحية في مصر مثل عيد : النوروز (١١سبتمبر)، ويوم الغطاس ، وخميس العهد ، وعيد وفاء النيل . اما احتفالاتهم بالأعياد الاسلامية ، فقد خرجت عن التقليد المعروف بالاحتفال بالعيدين فقط : عيد الفطر وعيد الاضحى . اذ تجاوزت ذلك إلى الاحتفال بميلاد أهل البيت كالمولد النبوي ، ومولد الحسين ، والسيدة زينب ، إلى جانب الاحتفال برؤيا هلال رمضان وبليالي رمضان ، وليلة الإسراء والمعراج (٢٧ – رجب) وليلة النصف من شعبان .. الخ . وكان يصاحب ذلك بيع الحلوى واللعب وعرايس المولد .. الخ . كل هذه الاشياء ابتدعها الفاطميون ، وهي بدعة

حسنة اكسبت مصر طابعا من البهجة والسرور حتى اليوم .

كذلك كان عهدهم عهد اصلاح وتعمير فقد بنوا القاهرة وكثيرا من المساجد التي لا تزال باقية الى اليوم كالجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله عند باب الفتوح وجامع العطارين الذي جدده وأعاد بناءه بدر الجمالي : بالاسكندرية .

وازدهرت الحركة الفكرية والأدبية والفلسفية في عهدهم لاتصالها بعقائدهم ، ويظهر ذلك بوضوح في امداح شعرائهم كابن هانيء الاندلسي وأبي الحسن الأخفش ، والأمير تميم بن المعز الفاطمي ، والمؤيد بالدين داعي الدعاة وغيرهم .

لهذا كله احبهم الشعب المصري وأحب أعمالهم واتبع تقاليدهم . وقد تجلى هذا الحب في ذلك القصصي الشعبي المعروف بألف ليلة وليلة ، حيث نرى اهتمام المصريين ببعض خلفائهم أمثال الخليفة الآمر ومحبوبته البدوية الحسناء وقصر الهودج الذي بناه لها في جزيرة الروضة عندما ضاقت بحياة المدن واشتاقت إلى بيئتها الصحراوية الأولى فبنى لها هذا القصر كي تتمتع بالفضاء المحيط به [1] . ومن المعروف أن قصص ألف ليلة وليلة اقتبسها المسلمون الأوائل عن الفرس ووضعوها في قالب اسلامي في العصر العباسي الأول ثم زادوا فيها في العصر الفاطمي بحيث لم يبق من التأثير الفارسي فيها سوى بعض الاسماء الفارسية .

على أن المصريين وإن كانوا قد أحبوا الفاطميين ، إلا أنهم لم يتابعوهم في مذهبهم الشيعي ، وذلك لأن الشعب المصري شعب محافظ حتى في المسائل الاعتقادية ، ولهذا ظل على مذهبه السني . ومن طريف ما خلفه الفاطميون في مصر في هذا الصدد بعض كلمات من سب السلف الصالح مثل أبي بكر وعمر بن الخطاب ، إذ لا تزال تقال كلمة يا عمر !! على سبيل السخرية إلى اليوم .

الناحية الدينيـــة :

والامامة أو الخلافة الفاطمية[2] ، خلافة دينية وراثية تقوم على أساسين هامين :

---

(١) راجع التفاصيل (المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٤٨٥) .

(٢) كلمة امامة لها مدلول كلمة خلافة إلا أن الفاطميين كانوا يفضلون لقب امام على لقب خليفة =

الأساس الأول هو العلم اللدُنّي (الإلهي) الموروث عن النبي عن طريق علي ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين .

والأساس الثاني هو مسألة الوصية باعتبار أن الامامة الفاطمية وارثة لوصية علي .

أما عن الأساس الأول ، فالإمام في نظر الشيعة عموما معصوم من الخطأ ، وطاعته جزء من الايمان ، وهو المعلم الاكبر لانه ورث العلوم اللدنية عن النبي عن طريق علي بن أبي طالب ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين . وهناك نوعان من العلم : علم الظاهر وعلم الباطن ، أي ظاهر القرآن وباطنه (أي المؤول). وقد علم النبي هذين النوعين من العلوم لعلي بن أبي طالب ، فأطلعه على السر المكنون والغامض المصون من العلوم وخفايا الكون . وكل إمام ورث هذه الثروة العلمية لمن جاء بعده . ولهذا كان الامام معلما اكبر .

وقد أجاز قانون الوراثة الشيعي أن يتلقى أسرار العلم اللدني من لم يبلغ الحُلُم بعد ، وعلى هذا الأساس كان من الممكن أن يلي الخلافة من كان قاصراً .

ولقد جرد الاسماعيلية الله سبحانه وتعالى من كل صفة ، فتوحيد الله عندهم هو بأن ينفي عنه سبحانه جميع ما يليق بمبدعاته ومخلوقاته من الأسماء والصفات . فأسماء الله الحسنى التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم ، لا تقال لله تعالى بل جعلوها للعقل الكلي الذي تحدث عنه الفلاسفة . كذلك اطلقوا على العقل الكلي ايضا اسم المبدع الأول : فهو الخالق المصور الواحد القهار الجبار العزيز العلي القدير .... الخ . وأنه هو الذي ابدع النفس الكلية أو المبدع الثاني . وجعلوا للنفس الكلية جميع الصفات التي للعقل الكلي ، إلا أن العقل الكلي كان أسبق إلى الوجود وإلى توحيد الله وتنزيهه .

- لأن كلمة خليفة فيها معنى النيابة بعد النبي اما الإمام فلا يعني فقط المجيء بعد النبي بل يدل أيضاً على السلطان الديني الذي جاءه مباشرة من الله .

وبواسطة العقل الكلي والنفس الكلية وجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية بل كل ما نشاهده في هذه الدنيا . فالخالق عند الاسماعيلية إذن هو العقل الكلي والنفس الكلية . ثم ذهبوا إلى أن العقل الكلي في العالم العلوي يقابله الامام في العالم الجسماني ، ويبني هذا عندهم ان كل الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضا اسماء وصفات الإمام . فأسماء الله بالحسنى التي قالوا إنها اسماء العقل الكلي هي أسماء الإمام . فالإمام إذن هو الواحد الأحد الفرد الصمد المنتقم الجبار ... الخ .[1] ولعل شعر ابن هانيء الاندلسي أكبر شاهد على ذلك عند قوله :

ما شئت لا شاءت الأقدار	فاحكم فأنت الواحد القهارُ
وكأنما أنت النبي محمد	وكأنما أنصارك الأنصار

وقوله :

ندعوه منتقما عزيزا قادرا	غفارَ موبقةِ الذنوب صفوحا
أقسمت لولا أن دُعيت خليفةً	لدعيتَ من بعد المسيح مسيحا

وقوله :

هذا ابن وحي الله تأخذُ هَدْيَها	عنه الملائكُ بكرةً وأصيلا
وغلمتَ من مكنون سرِّ الله ما	لم يؤتَ في الملكوت ميكائيلا

من هذه النظرة الاسماعيلية إلى الإمام ، نفهم السر في سبب تقديسهم له ، وركوعهم عند مروره ، وتقبيل الأرض ، بين يديه ، وطاعته طاعة عمياء .

أما من جهة الأساس الثاني للإمامة الفاطمية ، وهو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد ؛ فمن المعروف أن الخلافة الفاطمية خلافة رافضية أي أنها ترفض امامة أبي بكر وعمر ، وترى أن عليا يستحق الامامة بعد النبي لا عن طريق الكفاية فقط بل عن طريق النص عليه بالإسم . فيقولون إن النبي بعد حجة الوداع . قال

---

(١) راجع (محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها ص ١٥٧–١٦٠)

في غدير خم بالقرب من مكة : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ». وقوله أيضا : « عليّ مني بمنزلة هارون من موسى ».

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ولقب علي بالوصي ، ولقب من جاء بعده بالأئمة، ومرتبة الوصاية عندهم أعلا من مرتبة الإمامة وتلي مرتبة النبوة .

وانتشرت الوصية بين الشيعة واستعملها أيضا الفاطميون ، فقالوا إن الامامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ولديّ علي بن أبي طالب . فالأب ينص على ابنه في حياته ، ولا يشترط النص على الابن الاكبر ، فالامام يستطيع أن ينص على أي ابن له ، فهذا أمر يخصه وحده لأنه يتلقى علمه ووحيه من الله .

ولقد أوجد مبدأ النص أو الوصية اضطرابا كبيرا في الدولة الفاطمية ، إذ انقسم الفاطميون إلى فرق وطوائف نتيجة للنص الذي لم يتفقوا عليه . فالخليفة الحاكم بأمر الله حاول أن يقصي ابنه الظاهر عن الخلافة ، وعهد إلى ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس سنة ٤٠٤هـ (١٠١٣م) بولاية العهد من بعده . ولكن اخته ست الملك أبعدت عبد الرحيم بعد موت الحاكم سنة ٤١١هـ، وعهدت إلى الظاهر بن الحاكم بالخلافة .

وبعد موت الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٨٧هـ انقسم الفاطميون على أنفسهم إلى قسمين :

النزارية أنصار ولده الأكبر نزار .

والمستعلية أنصار ولده المستعلي .

وسبب ذلك ان الزعيم الاسماعيلي الفارسي الحسن بن الصباح حين زار مصر سنة ٤٧١هـ طلب من الخليفة المستنصر ان ينص على خلفه في الامامة ، فافهمه الخليفة بأن ولده الاكبر ، نزار ، سيكون وليّ عهده . ثم حدث أن ولي الخلافة بعد موت المستنصر ابنه الاصغر المستعلي بسبب تدخل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي

الذي كان يكره نزارا . وكانت النتيجة أن الحسن الصباح واتباعه تمسكوا بإمامة نزار وانشقوا عن الدعوة الفاطمية أو الدعوة القديمة كما كانوا يسمونها ، وكونوا سنة ٤٨٨هـ دعوة في فارس مركزها قلعة ألموت بجوار بحر قزوين . وقد عرفت هذه الدعوة باسم الدعوة الجديدة ، وعرف انصارها بالاسماعيلية النزارية أو الاسماعيلية الشرقية ، ومنهم فئة الحشاشين أو الحشيشية أو الفداوية . ولقد سقطت هذه الدولة الاسماعيلية على يد هولاكو المغولي سنة ٦٥٤هـ، غير أن الدعوة النزارية لم تمت بموت دولتها ، بل استمر أنصارها يعملون في الخفاء حتى بعثوا من جديد في الهند باسم الخوجات أو الأغاخانية (اتباع اغا خان) وهؤلاء هم النزارية المحدثون . أما أنصار الدعوة القديمة في مصر ، فانهم أطاعوا الخليفة المستعلي وسموا بالمستعلية .

انقسم الفاطميون مرة أخرى بعد مقتل الخليفة الآمر بن المستعلي سنة ٥٢٤هـ دون أن ينجب ولدا . ويقال إنه ترك امرأة حاملا ولدت بنتا . فالفاطميون في اليمن وهم الصليحيون ، لم يعترفوا بهذا الوضع ، وذهبوا إلى أن الآمر انجب ولدا هو الطيِّب بن الآمر ، وأنه دخل السّر وجعل الملكة الحرة الصليحية حجته وصاحبة السّر عليه . وهكذا نشأت دعوة جديدة أخرى للاسماعيلية في اليمن عرفت بالدعوة الطيّبية إلى اليوم وأتباعها يعرفون باسم البُهَرة .

أما في مصر ، فلم يعترف الفاطميون بالطيب بن الآمر ، وأقاموا في الخلافة عبد المجيد بن محمد بن المستنصر المعروف بالحافظ لدين الله . ويعتبر هذا العمل خروجاً عن أسس الإمامة عند الاسماعيلية لأن الإمامة عندهم لا تكون الا في الأعقاب ، والحافظ هذا لم يكن ابنا لإمام بل حفيدا له ومع ذلك اعترف به المصريون إماما لهم .

لا شك ان هذه الانقسامات كانت من العوامل التي أدت إلى ضعف الخلافة الفاطمية وضعف هيبتها أمام الناس في أواخر أيامها .

الناحية الحربية :

الدولة الفاطمية لم تعتمد على المصريين في الدفاع عن نفسها أو في توسيع

بمتلكاتها إلا في حدود ضيقة . فقد ظل المصريون كما كانوا منذ الفتح العربي بعيدين عن الجندية والفنون الحربية ، واستمروا يزرعون الأرض ويتكسبون بالتجارة والحرف .

اعتمدت الدولة الفاطمية على جنود مرتزقة اجانب عن البلاد مثل المغاربة والاتراك والصقالبة والسودان والأرمن والروم إلى غير ذلك من العناصر المختلفة التي كانت تتخذ من الحرب والقتال حرفة يعيشون منها .

اعتمدت الدولة في بادىء الأمر على قوة المغاربة ، وعلى أيديهم دخلت البلاد المصرية ، فاستأثروا بمناصب القيادة والإدارة في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي . ولما ولي الخليفة العزيز بن المعز ، مال إلى اصطناع الموالي من الترك والصقالبة للحد من نفوذ المغاربة فقدمهم في الجيش والإدارة والقصر مما أثار حسد المغاربة [1] . وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله بن العزيز يقع التصادم بين برجوان الصقلبي رئيس الحزب التركي الصقلبي ، وبين الحسن بن عمار الكتامي رئيس الحزب المغربي ، وينتهي الصراع بتغلب برجوان وحزبه .

وخشي الخليفة الحاكم من الحزب التركي المنتصر ، فقتل زعيمه برجوان ، واتخذ عنصرا جديدا وهو عنصر السود أو السودان للحد من نفوذ الطوائف الأخرى [2] .

ولما احس الأتراك والمغاربة بخطر هؤلاء السودان ، نسوا أحقادهم القديمة وتحالفوا ضدهم . ثم قامت حروب بين الجانبين كان من نتيجتها أن أحرق السود مدينة الفسطاط ونهبوها ثلاثة أيام سنة ٤١١هـ. ولكن الأمر انتهى بانتصار الترك والمغاربة وطرد السود إلى صعيد مصر .

بعض المؤرخين يعزو حريق الفسطاط إلى الخليفة الحاكم بأمر الله نفسه الذي اراد الانتقام من أهلها لأنهم سخروا منه بالرقاع القاذفة ، أو لأنهم رفضوا الدعوة القائلة بألوهيته . وقد صور هؤلاء المؤرخون الخليفة الحاكم في صورة بشعة تذكرنا

---

(١) المقريزي الخطط جـ ٢ ص ٢٨٤-٢٨٥ .

(٢) المقريزي : نفس المرجع جـ ٣ ص ١٧-١٨ ، جـ ٤ ص ٦٨ .

بنيرون عندما شهد مدينة روما وهي تحترق . والواقع ان الحاكم بريء من هذا الحادث ، وكل ما هنالك أن هذا الحريق جاء نتيجة لتنافس طوائف الجندالمختلفة. والعالم الاسلام مليء بحوادث مشابهة نتيجة لاعتماده على جنود مرتزقة من مختلف الأجناس والأشكال .

ثم ولي الخليفة الظاهر بن الحاكم فمال إلى الحزب التركي واعتمد عليه في قيادة جيوشه وإدارة شئون دولته [1] ونذكر على سبيل المثال القائد التركي ابامنصور انوشتكين [2] الذي ولاه الظاهر قيادة الجيش الفاطمي ، ثم ولاه بعد ذلك على دمشق سنة ٤١٩هـ . ولما ولي ابنه الخليفة المستنصر مال إلى عنصر السودان ثانية لأن أمه كانت أمة سوداء [3] . وهنا تتجدد الفتن بين الترك والسود في جميع انحاء البلاد مما اضطر المستنصر اخيرا إلى الاستنجاد بحاكم دمشق الأرمني بدر الجمالي وجنوده الأرمن . وهكذا دخلت مصر طائفة جديدة من الجنود ظلت تصارع الطوائف الأخرى حتى نهاية الدولة .

وإلى جانب هذه الطوائف العسكرية السالفة الذكر ، أعد الفاطميون فرقا من المماليك للقيام بمهمة الحرس الخلافي . وقد اهتم الفاطميون بتربية هؤلاء المماليك منذ صغرهم ، وهم في هذا يعتبرون أول من وضع نظاما تربويا للمماليك في مصر . فيروي المقريزي أن الاساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيرا من أسرى الحروب ، وجرت العادة أن يوضع هؤلاء الأسرى في مكان يسمى المناخ [4] (جهة الاسماعيلية بالقاهرة اليوم) فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى السابقين ، ويمضي بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة بعدما يعطي الوزير منهم طائفة ، ويفرق

---

(١) ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٧ ؛ على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٩ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٥٢ ، ٢٦٨ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧ — ١٩ .

(٤) المناخ المكان الذي تناخ به الجمال . وأطلق الفاطميون هذا الاسم على عدد من المخابز والمطاحن والمخازن المدنية والعسكرية في هذا المكان . وكان أغلب الصناع والعمال فيها من أسرى الحرب من الفرنج وكانوا يقطنون بها (المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٤٤٤) .

الباقي لخدمة المنازل . ثم يدفع بالصغار من الأسرى إلى الاستاذين، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم «الترابي». وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء [1] . ويلاحظ أن أصل هذه الفرقة يشبه كثيرا أصل الفرقة المعروفة باسم الانكشارية في الدولة العثمانية . غير أن الترابي لم تلعب في حوادث الدولة الفاطمية دورا ظاهرا مثل الدور الذي قامت به الانكشارية في الدولة العثمانية ، لأنها لم تخصص مثل الانكشارية للحياة الحربية وميادين القتال ، بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر [2] .

وهناك نظام تربوي آخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحجرية ، وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الاسم لأنهم عاشوا في ثكنات تعرف بالحجر ، وموقعها بجوار قصر الخلافة ، بالقاهرة . وجاء ذكر تلك الطائفة في دائرة المعارف الاسلامية على أنها طائفة من المماليك كونها الأفضل شاهنشاه وزير الخليفة المستعلي الفاطمي سنة ٤٨٧هـ كفرقة عسكرية تحت قيادة أمير يحمل لقب الموفق لتكون حرسا له ، وبلغ عدد تلك الفرقة ٣٠٠٠ مملوك . [3]

غير أن المرجع الذي استمدت منه دائرة المعارف الاسلامية هذا الوصف يقول إن الحجرية كانوا «يختارون من أولاد الأجناد» ، [4] وإذا سلمنا جدلا أن أولئك الأجناد من المماليك الاتراك والصقالبة أو غيرهم مما امتلأت بهم جيوش الدولة

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٢) الانكشارية من اللفظ التركي يني تشرى أي الفرقة الجديدة. وقد حوره الأوربيون إلى Janissaries وكان جنود هذه الفرقة يؤخذون أطفالا من العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية (ضريبة الدم) ثم يربون تربية عسكرية اسلامية ويلحقون بالجيش العثماني كفرقة من المشاة تحيط بالسلطان كالقلعة الحصينة . ويرجع الفضل في انشائها الى السلطان العثماني أورخان الأول سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦) راجع :

(Lybyer : The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman p. 91-98 & Ency. of Islam art. Janissaries)

(٣) راجع (Ency. of Islam art. Huggrah)

(٤) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٤٤٣ .

الدولة الفاطمية ، فانه لا يمكن تطبيق تلك التسمية على أبنائهم ، فأولئك لم يكونوا مماليك في يوم من الأيام ، إذ أن المملوك في المصطلح الرسمي المملوكي لا بد وأن يكون قد مسّه الرق أي مسّته يد النخاس [(١)] ، [(٢)] .

ويرى بعض المؤرخين أن الحجرية في بادىء الأمر أي منذ عهد الخليفة المعز ، كانوا من المصريين من أهل الحرف والصناعات ، يختارون اطفالا بواسطة ولاة الاقاليم ، ثم يدربون على القتال ويستخدمون في الحروب ، وقد قادهم الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي اواخر القرن الخامس الهجري) ضد الصليبيين في عسقلان ولكنهم خذلوه وانفضوا من حوله واحرقوا مستودعات ذخيرته . فاضطر الأفضل منذ هذه الحادثة إلى اعادة تنظيم هذه الفرقة ، واستبعد العنصر الوطني وأحل محلة أولاد الأجناد أي أولاد الجند الأجانب من مماليك وغيرهم كما هو مبين في نص المقريزي [(٣)] . وهذه الرواية — إن صحت — فانها تعتبر أول محاولة في تجنيد المصريين منذ الفتح العربي حتى عهد محمد علي .

مما تقدم نرى أن الفاطميين نجحوا في تكوين جيش كبير ضخم ، اعتمد فيه على عناصر وجنسيات مختلفة غريبة على البلاد وعلى الخلافة نفسها . وهم في هذا يشبهون كثيرا من الدول الاسلامية والمسيحية الأخرى في العصور الوسطى .

على أن أهم عمل حربي امتازت به الدولة الفاطمية هو عنايتها الخاصة

---

(١) راجع (محمد مصطفى زياده : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٣٦ .

(٢) لعل دائرة المعارف الاسلامية تأثرت في وصفها الحجرية الفاطميين بالمماليك ، بتكوين طائفة أخرى من الغلمان الحجرية في بغداد ايام الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩–٢٨٩ هـ) فهؤلاء كانوا فعلا من المماليك الذين اختارهم الخليفة من بين غيرهم من المماليك الذين يحسنون الركوب والرمي ، ويقيمون أيضاً في الحجر تحت مراعاة الخدم والأساتذة . راجع (متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ص ٢٤٢ ترجمة عبد الهادي أبو ريده) .

(٣) راجع التفاصيل في Kay : Yaman, its early medieval history by Omara p. 264
وهو عبارة عن تحقيق ونشر وترجمة كتاب تاريخ اليمن لأبي الحسن نجم الدين عمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) .

بالبحرية والأساطيل وحفظ ثغور المملكة بعد أن زاد امتدادها باحتلال مصر

الشام واصبحت مسيطرة على جزء كبير من سواحل البحر الأبيض المتوسط وبعض جزره مثل صقلية وقوصره ومالطة . والجدير بالذكر أن البحرية الفاطمية وصلت إلى درجة كبيرة من القوة والنظام قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، يدل على ذلك هذا النشاط العظيم الذي أشرنا إليه في نزاعهم مع النصارى ومع الأمويين في الأندلس . فلما انتقل الفاطميون إلى مصر ، انتقل معهم هذا الاهتمام بالبحر وشؤونه خصوصا عندما وجدوا في هذه البلاد تقاليد بحرية قائمة ودور صناعة صالحة .

وقد أعطانا القلقشندي في كتابه صبح الأعشى نصا على جانب كبير من الأهمية صف فيه سياسة الفاطميين البحرية بقوله :

واما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور واعتناؤهم بأمر الجهاد ، فكان ذلك من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام ، حين كانت بأيديهم ، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج . وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدونة ، وجوامكهم في كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر د نارا إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين . وعلى الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جأشا . وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالات . وعما ة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفسه حتى يكملها ، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمقس ، فيجلس في منظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعة. ويأتي القواد بالمراكب التي تحت المنظرة ، وهي مزينة بالأسلحة المنجنيقات واللعب منصوبة في بعضها . فتسير بالمجاديف ذهابا وعودا كما يفعل في حالة القتال ، ثم تحضر إلى بين يدي الخليفة المقدم والريس ، فيوصيهما ويدعو لهما بالسلامة .

وتنحدر المراكب إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح ، فيكون لها في بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مركبا ، اصطفى الخليفة لنفسه السبي الذي فيه من رجال أو نساء أو أطفال ، وكذلك السلاح ، وما عدا ذلك يكون للغانمين . وكان لهم ايضا اسطول بعيذاب يتلقى به الكارم [1] فيما بين عيذاب [2] وسواكن [3] وما حولها ، خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميهم الأسطول منهم . وكان عدة هذا الاسطول خمسة مراكب ، وكان والي قوص هو المتولي لأمر هذا الاسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه».

على أنه يلاحظ أن الخلافة الفاطمية وان كانت قد اهتمت بتقوية جيوشها وأساطيلها إلا أنها لم تلبث آخر الأمر أن خضعت لهذه القوة العسكرية حينما استبد الجيش بالوزارة ، وصارت الأمور كلها بيد أمير الجيوش . وقد حدث هذا التحول في سنة ٤٦٧هـ(١٠٧٤) حينما تولى أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة في عهد الخليفة المستنصر . فمنذ ذلك الوقت أخذت الوزارة معنى آخر ، فبعد أن كانت

---

(١) اختلف الرأي حول أصل كلمة كارم ، فالبعض يرى أنها تعني العنبر الأصفر والبعض الآخر يرى أنها تحريف لكلمة كانم وهي اسم احدى بلاد جنوب افريقيا شمال شرق بحيرة تشاد ، وتنسبها إليها جاليات تجارية في مصر واليمن . وقال فريق ثالث انها تعني أكارم التجار في عدن . وكيفما كان الأمر فإن هذه الكلمة اطلقت على تجارة التوابـل أو البهار Spice ، وسمي تجارهـا بالأكارم أو الكارمية .

(٢) عيذاب مدينة مندرسة على ساحل البحر الأحمر الافريقي جنوبي مصر قرب الحدود السودانية وتقابلها ميناء جده على الضفة الأخرى المقابلة . كانت محط التجار والحجاج في العصور الوسطى حينما هدد الصليبيون طريق الحج الشمالي عبر سيناء إلى الجزيرة العربية فاضطروا إلى اتباع طريق صعيد مصر إلى قوص ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب ومنها إلى جده عبر البحر الأحمر . ولما قضى سلاطين المماليك على قوى الصليبيين في الشام وزال خطرهم عن سيناء تحولت التجارة إلى خليج السويس في شمال البحر الأحمر حيث ازدهرت كل من مدينتي السويس والطور بينما اضمحلت عيذاب والجنوب إلى ان خربها السلطان برسباي سنة ١٤٢١ م .

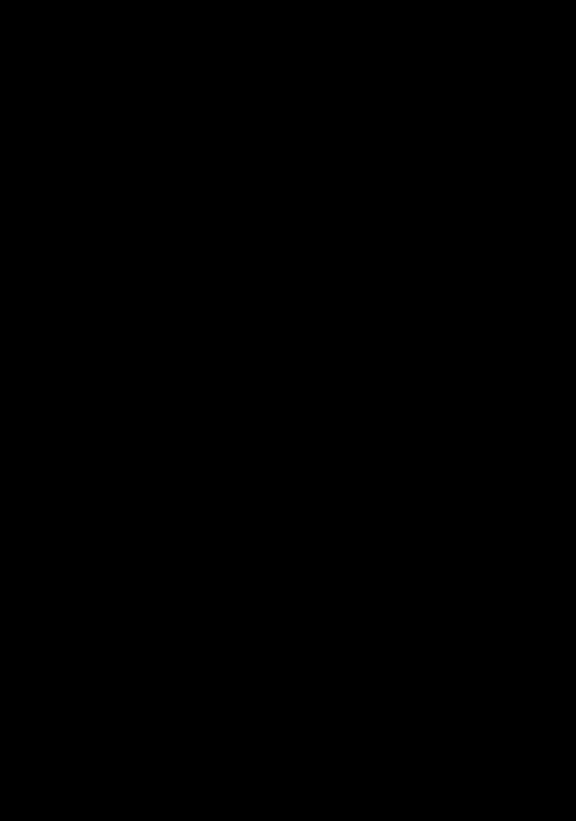
(٣) سواكن مرفأ في السودان على ساحل البحر الأحمر الغربي جنوب عيذاب . وقد حرصت مصر على احتلاله لضمان سيطرتها على البحر الأحمر وتجارته

وزارة تنفيذ ، أصبحت وزارة تفويض ، أي بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ ، صار الخليفة يفوض إلى الوزير جميع أمور الدولة لتصريف شؤونها بينما بقي هو كالمحجور عليه .

وعلى هذا الأساس قسم المؤرخون العصر الفاطمي في مصر إلى قسمين :

القسم الأول : وهو عصر الخلفاء ، ويمتد من عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إلى أواسط عهد الخليفة المستنصر بالله ، وفيه كانت السلطة بيد الخلفاء .

القسم الثاني : وهو عصر الوزراء ويمتد من أواسط عهد المستنصر إلى آخر الدولة الفاطمية ، وفيه كانت السلطة بيد الوزراء بينما كان الخلفاء فيه مسلوبي السلطة .



الفصل الثالث

العصر الفاطمي الاول

عصر الخلفاء

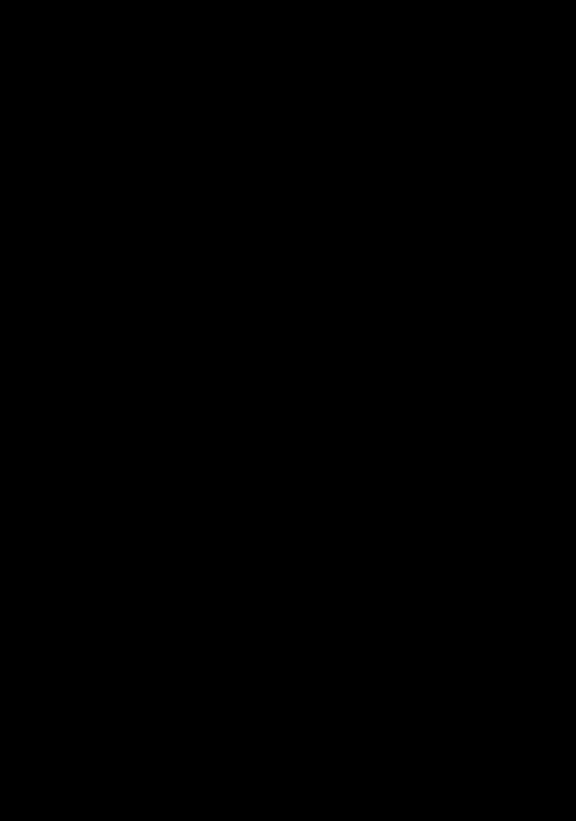
١ ـ المعز لدين الله أبو تميم معد (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ ـ ٩٥٢ـ٩٧٥ م)

٢ ـ العزيز بالله أبو منصور نزار (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ ـ ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م)

٣ ـ الحاكم بأمر الله أبو علي منصور (٣٨٦ـ٤١١ هـ ـ ٩٩٦ـ١٠٢٠م)

٤ ـ الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي (٤١١ـ٤٢٧هـ ـ ١٠٢٠ـ ١٠٣٥ م)

٥ ـ المستنصر بالله أبو تميم معد (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ ـ ١٠٣٥ـ١٠٩٤ م)



١ ـ المعز لدين الله أبو تميم معد

(٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ = ٩٥٢ ـ ٩٧٥ م)

وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ ومات بها سنة ٣٦٥هـ، فهو لم يمكث فيها أكثر من سنتين ونصف . غير أنه مع هذا استطاع في هذه المدة القصيرة أن يقوم بكثير من الإصلاحات .

المعز كان شخصية قوية حازمة ، ويظهر لنا حزمه بوضوح حينما سئل عن نسبه ، إذ أخرج سيفه للناس وقال لهم : هذا نسبي !! وليس معنى هذا أنه يتعاضى عن صحة نسبه [1] ، لأن الفاطميين كانوا يؤمنون تماما بصحة نسبهم ، وانما أراد المعز بهذه العبارة أن يقطع أي جدال في هذا الموضوع بطريقة حاسمة ، لاسيما وأن السّر والكتمان أصل من أصول الدعوة الاسماعيلية ، وأنه من ضعف العقيدة كشف المستور .

كان المعز كذلك صاحب براعة وفصاحة في اللغة العربية ، يحب الكلام في الجموع المحتشدة سواء أكانت من المصلين في أيام الجمعة والأعياد أو من

---

(١) يروى أن المعز كان كثيراً ما يفتخر بالانتماء إلى الرسول عن طريق علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء ، ومثال ذلك قوله : فما من ناطق نطق ، ولا نبي بعث ، ولا وصي ظهر ، إلا وقد أشار إلينا ، ولوح بنا ، ودل علينا في كتابه وخطابه وأعلامه ومرموز كلامه . راجع (المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٣٦) .

من المهتمين في قصره . ويقال إنه كان تقن خمس لغات أخرى كالبربرية والسلافية والرومية ، وهذا يدل على سعة اطلاعه .

ولقد اهتم المعز بنشر الدعوة الاسماعيلية ، ووضع لذلك نظاما دقيقا كي يسير عليه دعاته في انحاء البلاد . كذلك كان المعز نفسه يؤلف الرسائل والمحاضرات ويبعث بها إلى قاضي قضاته أبي حنيفة النعمان بن حيون (١) كي يلقيها على الناس في الجامع الأزهر المقر الرئيسي للدعوة الفاطمية .

وعلى الرغم من أن المعز لم يكن ميالا إلى حياة الترف ، إلا أنــــه يعتبر أول من استن الفخامة والأبهة في حياة الخلافة الفاطمية : فالعرش الذهبي الذي كان يجلس عليه ، والتاج العظيم الذي فوق رأسه ، والمواكب الحافلة التي كان يخرج بها ، والزينات والولائم ... الخ (٢) . كل ذلك كان حدثا هاما في تاريخ مصر ، إذ لا نسبة في هذا الشأن بين البلاط الفاطمي والبلاط الطولوني والاخشيدي من قبل .

على أن أهم عمل اهتم به المعز هو العناية بتقوية اسطوله وبحريته . ولا شك أن مركزه الجديد في شرق حوض البحر المتوسط بعد احتلال مصر قد فرض عليه هذه العمل . فأنشأ الشواني (٣) الضخمة والسفن الحربية المختلفة في دور الصناعات

---

(١) هو القاضي ابو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن احمد بن حيون التميمي . ويسمى في كتاب الفاطميين باسم سيدنا القاضي النعمان ولا يقال له أبو حنيفة خشية الالتباس بأبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني العراقي المعروف . والقاضي النعمان خدم خلفاء الفاطميين منذ عبيد الله المهدي ثم صار قاضي القضاة في عهد المعز وصحبه الى مصر وتوفى سنة ٣٦٣ ﻫ . وتوجد قائمة باعماله وكتبه في ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ٧ نشر محمد كامل حسين .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٠ .

(٣) الشواني جمع شيني أو شونة وهي أهم قطع الاسطول الفاطمي وأطولها ، تجذف بمائة وثلاثة واربعين مجذافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وتحتوي على عنابر لخزن القمح ، وصهاريج لخزن الماء العذب .

المصرية . وكانت المقس هي ميناء العاصمة الجديدة القاهرة ، وتقع في شمالها على ساحل النيل ، وتقوم ببناء ستمائة قطعة [1] . كما كانت كل من الفسطاط وجزيرة مصر (الروضة فيما بعد) والإسكندرية ودمياط ، تقوم أيضا بإنشاء المراكب الحربية . وكان الخليفة يشاهد بنفسه حفلات توديع الاسطول واستقباله ليبارك رجاله وينعم عليهم . وقد خصص المعز للاسطول ديوانا خاصا للإشراف على شؤونه يسمى بديوان العمائر أو ديوان الجهاد .

فالمعز هو أول من وضع نظام البحرية الفاطمية في مصر ونهج على منواله من جاء بعد من الخلفاء . وتوفي المعز سنة ٣٦٥هـ.

---

(١) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين (القاهرة ١٩٥٣)

٢ ـ العزيز بالله أبو منصور نزار

(٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م)

ولد بمدينة المهدية ، أي أنه بدأ حياته في المغرب ، وعاصر الفتح الفاطمي ، ثم رافق أباه إلى مصر وكان عمره وقتئذ ثمانية عشر عاما ثم ولي الحكم وهو في الثانية والعشرين من عمره .

على أيامه بلغت سلطة الفاطميين أوجها ، وخفقت راياته على الأقطار الواقعة بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر واليمن والحجاز والشام حتى بعض مدن الجزيرة مثل حران والرقة . غير أن سلطانه على تلك الجهات كان يعوزه الاستقرار والاستمرار ، بحيث يمكن القول بأن نفوذه الحقيقي كان قاصرا على الديار المصرية .

كان العزيز مثل أبيه المعز شخصية قوية من أجلّ الشخصيات الفاطمية ، غير أنه امتاز عنه بعدة صفات حميدة جعلته محببا ومقربا إلى قلوب الناس . من ذلك أنه كان أكثر من أبيه مرحا وحبا للأبهة والترف ، يلعب بالرمح والصولجان ويتصيد السباع ، ويخرج في مواكب أكثر فخامة من مواكب أبيه ، ويبني في القصر الشرقي الخلافي قاعة الذهب أو الإيوان الكبير وهي قاعة عظيمة فخمة خصصت لعرش الخليفة واجتماع مجلسه . وقد جرت العادة أن يحجب الخليفة بستور حتى إذا انعقد المجلس رفعت تلك الستور — ومن منشئات العزيز القصر الغربي الصغير الذي يقع غربي القصر الشرقي الكبير . وبين القصرين ميدان فسيح

لعرض الجند أطلق عليه ما بين القصرين .

كذلك امتاز العزيز بحلمه الذي كثيرا ما دفعه إلى الصفح[1] . عن أعدائه رغم انتصاره عليهم ، مثل القائد التركي افتكين الذي خرج من بغداد واستولى على دمشق من أيدي الفاطميين ودعا فيها للخليفة العباسي الطائع ثم تحالف مع القرامطة على طرد الجيش الفاطمي الذي كان يقوده جوهر الصقلي في الشام .

ودامت الحرب بين الجانبين مدة سنتين حتى اضطر العزيز الى الخروج بنفسه الى الشام ومحاربة افتكين وحلفائه القرامطة . واستطاع العزيز أن يتغلب على أعدائه ويبسط نفوذه على الشام ويأسر افتكين اثناء فراره ، إلا أنه رغم كل هذا ، صفح عنه واكرمه وقربه إليه حتى خجل افتكين من نفسه .

كذلك امتاز العزيز بكرمه وحبه للخير إذ يؤثر عنه انه قال لعمه يوما : أحب يا عمي أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل والضياع والعقار واللباس ، وأن يكون ذلك كله من عندي! »[2] .

هذه أمثلة عن نبل العزيز وحلمه وكرمه ، والنبل والكرم في السياسة يعد من أجمل صفات الحاكم .

اشتهر العزيز كذلك بتسامحه الديني وعطفه الشديد على أهل الذمة إلى درجة تذمر لها المسلمون . ذلك انه اكثر من استخدام الموظفين النصارى واليهود ورفع بعضهم إلى أرقى مناصب الدولة مثل منشا اليهودي ، وعيسى بن نسطوروس النصراني الذي عهد إليه بمنصب الوزارة . ويرى البعض أن ذلك العطف راجع إلى حد كبير إلى زواج العزيز بسيدة مسيحية هي أخت بطرياركي الاسكندرية وأورشليم الملكانيين .

كذلك كان العزيز رجلا عالما محبا للعلم والعلماء ، فيروي المؤرخون أنه كان

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٣ .

(٢) نفس المرجع جـ٤ ص ١٢٥ .

شاعرا وأن له شعرا جيدا ، كما يعتبرونه أول من جعل الدراسة في الأزهر دراسة جامعية منتظمة . والواقع أن الفضل في تحويل الأزهر من جامع إلى جامعة لا يرجع الى العزيز وحده وانما يرجع ايضا إلى وزيره يعقوب بن كلس .

ويعقوب هذا ، كان في الأصل يهوديا من يهود العراق ، اشتغل بالتجارة ، ورحل الى الشام ثم مصر سنة ٣٣٤هـ حيث اتصل بكافور الاخشيد ونال اعجابه حتى قيل إن كافور تمنى اسلامه ليرشحه للوزارة .

وفي أواخر أيام كافور سنة ٣٥٦هـ، اعتنق يعقوب الاسلام ، وصلى في جامع عمرو صلاة الصبح ، وعاد في موكب حافل فخلع عليه كافور وقربه إليه . وعكف يعقوب بعد ذلك على دراسة القرآن ، ورتب لنفسه رجلا من أهل العلم ليعلمه أصول الدين حتى بلغ فيه درجة عالية من الفهم والتعمق . وقد أثار هذا العمل حسد الوزير جعفر بن الفرات فعمل على اقصائه . وخاف يعقوب على نفسه من عداء ابن الفرات خصوصا بعد موت كافور ، فهرب إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالخليفة المعز الفاطمي وحرضه على غزو مصر . وظل في بلاطه حتى عاد معه إلى مصر . وقد ولاه المعز شؤون البلاد المالية مثل الخراج والأحباس والحسبة ، فقام يعقوب بمهمته خير قيام وزادت موارد الدولة المالية في عهده . ولما ولي العزيز عينه وزيرا له سنة ٣٦٨ هـ ولقبه بالوزير الأجــل ، وأمر بألا يخاطبه ولا يكاتبه أحد إلا بهذا اللقب . ويعتبر العزيز بهذا العمل أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيرا .

اعتمد العزيز على وزيره يعقوب في نشر المذهب الفاطمي ، وقام يعقوب في هذا المضمار بنشاط كبير ، إذ حول الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم النقلية والعقلية ، وساهم هو نفسه بإلقاء المحاضرات في بعض ما كتبه مثل اصول المذهب الشيعي ، والرسالة الوزيرية ، ومختصر فقه الشيعة ... الخ . هذا إلى جانب المجالس الأدبية والعلمية التي كان يعقدها في قصره لتشجيع الآداب والعلوم من جهة ولنشر الدعوة الشيعية من جهة أخرى .

ولعل مما يدل على فضائل هذا الرجل وعلو منزلته ، أنه لما أشرف على الموت ، زاره الخليفة العزيز وقال له : «وددت أن تباع فاشتريك بملكي ، أو تفتدي فأفديك بولدي». ويقال أن العزيز دفنه في داره وفي قبة كان قد أعدها لنفسه ، وأن الناس أقاموا عند قبره شهرا ورثاه مائة شاعر اجيزوا كلهم .

ولقد عهد العزيز إلى الكاتب المسيحي عيسى بن نسطوروس القيام بشؤون الوزارة خلفا ليعقوب فقام بها خير قيام .

وتوفي الخليفة العزيز في مدينة بلبيس[1] وهو في طريقه إلى الشام لصد غارات البيزنطيين سنة ٣٨٦هـ وخلفه ابنه المنصور الذي لقب بالحاكم بأمر الله وكان سنه وقتئذ لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره .

---

(١) في رواية أخرى ، مات العزيز في مدينة بانياس جنوبي اللاذقية (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١٢١) .

٣ ـ الحاكم بأمر الله أبو علي منصور

(٣٨٦ ـ ٤١١ هـ = ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م)

الخليفة الحاكم من الشخصيات التي اختلفت فيها آراء المؤرخين ، ومن كلامهم نفهم أنه كان شاذا في تصرفاته ، وأنه جمع بين صفات متضاربة متناقضة ، أي أن شخصيته لا يمكن أن تقاس بمقياس منطقي معقول . يقول المقريزي إنه كان يعتريه جفاف في دماغه ولذلك كثر تناقضه ، وكانت افعاله لا تعلل ، وسياسته لا تؤول . وورد في كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ، أن الحاكم متضاد ، جمع بين الشجاعة والاحجام ، والجبن والاقدام ، وكان يحب العلم ويضطهد العلماء ، وكتب على المساجد سبا للصحابة ثم محاه ... الخ [1] .

والواقع ان شخصية الحاكم شخصية يحوطها الغموض ، واحكام المؤرخين عليها احكام عامة متضاربة ينقصها التمحيص والدراسة المقارنة التي تمكن الباحث من معرفة الاسباب والمسببات التي دفعت الحاكم إلى اتباع مثل هذه السياسة المتقلبة . وعلى الرغم من أن عددا من المؤرخين المحدثين أمثال المرحوم محمد كامل حسين وعبد المنعم ماجد ، قد نشروا نصوصا جديدة تتعلق بالحاكم بأمر الله وبالفاطميين عموما ، إلا أننا نأمل أن تظهر نصوص أخرى تزيل هذا الغموض الذي يكتنف هذه الشخصية الفذة .

ولا يسعنا الآن إلا عرض الاتهامات التي وجهت لهذا الخليفة ، ومحاولة التعرف على اسبابها ودوافعها حسب النصوص التي لدينا .

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٧٦ .

اولا : يؤخذ على الحاكم أنه كان سفاكا للدماء ، وأنه كان حاد المزاج وهذا صحيح ولكن مجرد اتهام الحاكم بالقتل لا يكفي ، إذ يجب معرفة الدوافع والملابسات التي أحاطت بتلك الحوادث حتى يمكن الحكم إن كان الحاكم قد سفك الدماء بسبب أو بغير سبب . فيروي الكندي مثلا أن الحاكم قتل قاضيه الحسين بن علي النعمان وأحرقه بالنار عندما ثبت لديه أن هذا القاضي قد مد يده إلى أموال اليتامى رغم المرتب الضخم الذي كان يتقاضاه كي لا يتعرض لأموال الرعية . [1]

كذلك قتل الحاكم قاضيه مالك بن سعيد الفارقي بسبب الشائعات التي ترددت عن اتصاله باخته ست الملك . فيروي المسبحي ، وهو مؤرخ معاصر اشتغل في بلاط الحاكم ، أن القاضي المذكور كان يدخل كل يوم إلى دهليز قصر ست الملك ليعلم بعض الخدم هناك ، فلما اثيرت الشائعات ضده ، سأله الحاكم يوما ، وكان قادما من القصر : من أين جئت ؟ قال : من داري . قال : لا ، بل من قصر امامتك . فقال : لا أعرف لي إماما غيرك . فقتله الحاكم لكذبه وللقضاء على الشائعات ، وذلك في سنة ٤٠٥هـ [2]

ويروي المسبحي كذلك ، أن سبب مقتل قائد القواد الحسين بن جوهر الصقلي يرجع إلى حقد الحاكم عليه بسبب مجالس الشراب التي أقامها في قصره المطل على النيل والتي كان من نتائجها أن مات أحد ضيوفه غرقا في النيل أثناء خروجه من عنده وهو ثمل . وكان هذا الغريق هو الطبيب أبو يعقوب ابن نسطاس صديق الحاكم وطبيبه . وقد أثار هذا الحادث غضب الحاكم وشكوكه ، فاتهم الحسين ابن جوهر بقتله . وعلى الرغم من أن الحسين أقسم ببراءته من دم هذا الطبيب إلا أن الحاكم أمر بقتله [3] ، مما يدل على أن هناك ظروفا مختلفة تمت فيها

---

(١) ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ص ٥٩٨ (في آخر كتاب الولاة والقضاة للكندي نشر روفن جست) .

(٢) ابن حجر العسقلاني : المرجع السابق ص ٦٠٨ .

(٣) ابن حجر العسقلاني : المرجع السابق ص ٦٠١ .

حوادث القتل ، وأن الحاكم لم يسفك الدماء لمجرد الرغبة في القتل .

ثانياً : من جهة التشريعات الاجتماعية القاسية التي فرضها الحاكم على الأهالي ولا سيما النساء ، فينبغي أن ننظر إليها بروح ذلك العصر الذي صدرت فيه . وهي كلها ترمي إلى منع الناس من شرب الخمر ، ومنعهم من الاسراف في اللهو ولا سيما اثناء الليل ، ومنع النساء من الخروج إلى الأسواق كوسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق العامة ، فهي بمثابة مراسم اخلاقية .

ونحن نعلم أن الخلافة الفاطمية خلافة مذهبية يقوم سلطانها السياسي على صفة الامامة الدينية ، فهي لذلك حريصة على أن تحيط نفسها بهالة من الفضائل والخلال القويمة كما كان حالها في المغرب في بادىء الأمر . .

غير أنها وجدت في مصر مجتمعا يميل إلى الترف والمرح والسهر في الليل والانصراف إلى المغاني والطرب .. الخ . وكانت هذه الحالة تشتد في أيام الأعياد . ولم تستطع الخلافة الفاطمية في بادىء الأمر أن تمنع الشعب المصري من هذه العادات لأنها كانت في حاجة إلى تأييده وكسب رضاه ، فاضطرت إلى مسايرته ومشاركته بالمراسم والحفلات والمواكب مما أدى في النهاية إلى الغلو والخروج عن الحد المألوف . ويجمع المؤرخون على أن الحاكم كان شخصية شعبية يحب السير السير والتجوال ليلا ونهارا للاختلاط بالشعب ومعرفة أحواله وقضاء حاجاته لدرجة أنه كان يقيم الحسبة بنفسه في الأسواق أي يراقب الموازين والمكاييل ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر والفحشاء .

ولا شك أن الحاكم قد لمس بنفسه انتشار الفساد والانحلال ، وهو الرجل المتصوف ، المتقشف ، مما جعله ينشط في إجراءاته وقراراته ، فيعلنها حربا على الفساد ويصدر أمرا بحظر التجول ليلا من غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، وينفي المغنيين والمغنيات ، ويقضي على تحايـــل الناس في بيع المسكــرات فيحرق اشجار الكروم ، ويمنع بيع الزبيب والعسل (لأنه يتحول إلى مسكر بعد تخميره). كذلك منع النساء من الخروج أو التطلع من النوافذ . وقد لجأ إلى وسيلة

طريقة لمنع خروجهن ، إذ أمر صانعي الأحذية أن يمتنعوا عن صنع الأحذية لهن ، كما أمر الباعة بدخول الحارات كي يبيعوا للنساء ما يرون من سلع دون الظهور من وراء الباب . فكان على البائع أن يقدم السلعة في شيء أشبه بالمغرفة لها يد طويلة .

لا شك أن الحاكم كان مغاليا في حجره على المرأة بتلك الصورة المتطرفة ، ولكن ينبغي أن نتصور هذه التشريعات بروح العصور الوسطى حيث كان الدين ورجال الدين مسيطرين على كل شيء تقريبا سواء في المسيحية أو الإسلام .

وقد أشار المؤرخون إلى مواكب النساء التي كانت تخرج في يوم عاشوراء (١٠ المحرم) حيث ينشدون المراثي في الشوارع حزنا على استشهاد الحسين في ذلك اليوم . كذلك كنّ يخرجن في الجنازات ويسرن وراءها بالصراخ والعويل . وكان رجال القضاء يشكون للحاكم من كثرة الجرائم النسائية ومن كثرة السرقات للسلع والبضائع المعروضة في الأسواق أثناء سير هذه المواكب والجنازات فأمر الحاكم بمنعها استجابة لمطالب القضاء من جهة ، وإرضاء لوازعه الديني من جهة أخرى .

ثالثاً : من جهة التشريعات الدينية للحاكم ، فيؤخذ عليه أيضا أنه كان متناقضا في سياسته ، فطورا يستعمل الشدة لحمل الناس على اعتناق المذهب الشيعي ، واكراههم على سب السلف الصالح من الصحابة امثال أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية ، وطورا يتركهم احرارا يعتقدون ما يريدون ، ويأمرهم بعدم الخوض في المناقشات الدينية ولا سيما حول سبب السلف الصالح .

والواقع أننا لا نستطيع اتهام الحاكم بالتناقض إلا بعد معرفة الحالة الدينية والسياسية في ذلك الوقت ايضا . وقد سبقت الاشارة إلى أن الفاطميين كانوا أصحاب دعوة دينية يعملون على حمايتها من أعدائها العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس الذين كانوا يطعنون في عقائد الفاطميين ونسبهم ، وكلفوا كتابهم وعلماءهم بالقيام بهذا العمل ، فكتب في هذا الصدد الفيلسوف ابو حامد الغزالي بالعراق ، كتاب فضائح الباطنية (نشره جولدزيهر) وكتاب المنقذ من الضلال (دمشق ١٩٣٤) كذلك يروي الكندي أن رجلا أندلسيا حاول قتل

قاضي القضاة على عهد الحاكم ، الحسين بن علي الفاطمي ، وهو يؤم المسلمين في الجامع الأزهر سنة ٣٩١هـ وقد اضطر القضاة إلى اتخاذ حرس خاص اثناء الصلاة [١].

فمن هذه الحوادث وأمثالها ، اضطر الفاطميون أن يكونوا على حذر من كل مخالف لعقيدتهم واعتبروه عدوا لهم .

على أن السبب المباشر الذي جعل الحاكم يضطهد أهل السنة في مصر هو تلك الثورة السنية الخطيرة التي قامت في اقليم برقة سنة ٣٩٥هـ وكادت أن تقضي على ملكه . قام بهذه الثورة أحد رجال البيت الأموي بالأندلس وهو الوليد بن هشام بن المغيرة بن عبد الرحمن الداخل الملقب بأبي ركوة لانه كان يحمل ركوة في أسفاره على عادة الصوفية . خرج هذا الثائر من الاندلس مظهرا التصوف ، واستقر في اقليم برقة ، حيث اشتغل بتعليم الصبيان . وفي الوقت نفسه أخذ يدعو الناس سرا لطاعة الخليفة الأموي الاندلسي هشام المؤيد ، فانضم إليه جميع الحاقدين على الدولة الفاطمية .

وفي سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٥) قام أبو ركوة بثورته واستولى على اقليم برقة وأخذ يلعن الحاكم بأمر الله وآباءه على المنابر ويدعو لخليفة الأندلس هشام المؤيد . ولقد وجه الحاكم إلى هذا الثائر عدة جيوش هزمت كلها ، واستطاع ابو ركوة في سنة ٣٩٧هـ أن يطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة ولكنه هزم آخر الأمر في اقليم الفيوم ، وأسر أثناء فراره في النوبة ، وعرضه الحاكم عرضا مزريا في شوارع القاهرة ، إذ وضع وراءه قرد يصفعه على رأسه ثم قتله وصلبه سنة ٣٩٧هـ.

لا شك أن هذه الثورة السنية كان لها تأثير كبير في تصرفات الحاكم خلالها ، نحو أهل السنة ، ففي سنة ٣٩٥هـ وهي السنة التي قامت فيها هذه الثورة ، نجد الحاكم يصب جام غضبه على أهل السنة في مصر ويأمر بسب الصحابة على

---

(١) ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ص ٥٩٦ .

جدران المساجد ولا سيما الأمويين منهم. ثم نجده في سنة ٣٩٧هـ أي بعد مقتل أبي ركوة يأمر بإيقاف سب السلف الصالح ومحو ما كتب منها على جدران المساجد .

وهكذا نرى أن الحاكم كان مضطرا إلى اتخاذ هذه السياسة المتقلبة حسبما تقتضيه الظروف مع أعدائه . فهو على هذا الأساس لم يكن متناقضا أو مجنونا كما تصوره كتب التاريخ وانما كان سياسيا حازما ، يعفو في وقت العفو ويقتل حين يشتد به الأمر .

رابعاً : مسألة الوهية الحاكم : عن هذه المسألة لا يوجد لدينا دليل قاطع على أن الحاكم ادعى الألوهية ادعاء ثابتا . وكل ما نعرفه هو أن بعضا من غلاة الاسماعيلية الفرس قدموا إلى مصر ونادوا بهذه الفكرة التي تقول بالوهية الحاكم . ومن هؤلاء الغلاة نذكر حمزة بن أحمد ، والحسن الفرغاني المعروف بالأخرم [١] ، ومحمد بن اسماعيل الدُرْزي . ولقد أبدى دعاة المذهب الاسماعيلي في مصر نفورهم واستنكارهم لدعاة التأليه هؤلاء ، كذلك ثار المصريون عليهم وقتلوا حمزة والأخرم بينما استطاع الدرزي الفرار إلى الشام حيث واصل دعوته هناك . نزل أول الأمر في وادي التَيْم في سهل البقاع بلبنان حيث كثر اتباعه الذين سمو بالدروز نسبة الى اسمه ثم انتقل بعضهم الى مناطق الشوف والمتن حيث لا يزالون إلى اليوم . وبعد مدة هاجر عدد منهم إلى جبل حوران جنوبي دمشق في سوريا فأقاموا فيه وعمروه فنسب إليهم وصار يعرف حتى اليوم بجبل الدروز .

ولقد نشر الدكتور محمد كامل حسين رسالة لداعي دعاة الدولة الفاطمية أيام الحاكم ، واسمه احمد حميد الكرماني ، ينفي فيها دعوى تأليه الحاكم ويفندها ، ويثبت عقيدة الفاطميين في الله الذي لا إله إلا هو الواحد القهار . ثم يشير إلى أن دعاة الفاطميين ذهبوا إلى الحاكم ليطالعوه بحركة الدرزي ، ويعلنوا استنكارهم لحركته ، وليستطلعوا رأيه فيه ، فاظهر لهم انكاره لهذه الدعوة . [٢]

---

(١) الأخرم هو الذي قطع طرف أنفه أو ثقبت أذنه .

(٢) راجع (محمد كامل حسين : الرسالة الواعظة في نفي دعوى الوهية الحاكم بأمر الله الداعي احمد حميد الكرماني (ت ٤١٢ م) ـ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مايو ١٩٥٢) .

وإلى جانب رسالة الكرماني السالفة الذكر ، نجد ابن خلدون يعترض في مقدمته على القول بكفر الحاكم وادعائه الألوهية ، ويقول إنه زعم لا يقبله العقل ، ولو صدر من الحاكم شيء من هذا القبيل لقُتل لوقته كما قتل مَن ألّهوه .

هذا ، ويشير المقريزي إلى أن الحاكم منع الناس من تقبيل الأرض أمامه ، أو تقبيل ركابه أو يده عند السلام عليه . كما أمر بألا يصلى عليه أحد في مكاتبة أو مخاطبة ، وأن يُكتفى بذكر عبارة : «سلام الله وتحياته على أمير المؤمنين» .

وكذلك في خطبة الجمعة يقتصر على القول : « اللّهم سلم على عبدك وخليفتك ، بدلا من : « اللهم صلي وسلم على أمير المؤمنين » . [1]

هذا وينسب للخليفة الحاكم شعر ديني يعبر عن ايمانه بالله ، وان كان البعض ينسبه إلى الخليفة الآمر [2] . مثل قوله :

اصبحتُ لا أرجو ولا أتقـــى   إلا إلهي ولـــه الفضلُ
جدّي نبي وإمـــامي أبـــي   وديني الاخلاصُ والعدل . [3]

كل هذه القرائن وأشباهها تبعد عن الحاكم تهمة ادعائه الالوهية .

غير أن الشيء الوحيد الذي قد يؤخذ على الحاكم في هذا الصدد هو أنه رغم شدته مع المخالفين ، قد ترك أصحاب هذه الدعوة سائرين في دعوتهم دون أن ينالهم بأذى . كان موقفه سلبيا في هذه المسألة تاركا للرأي العام البت فيها . والنصوص هنا غامضة لا تساعد على تفسير أو تبرير مسلك الحاكم في هذا الشأن . وكل ما نستطيع قوله هو أن الحاكم كان يميل إلى حرية الفكر والرأي، وأنه كان يشجع المناقشات الحرة في العلم والدين وخلافه ، وقد انشأ لهذا الغرض دارا للمناظرات والندوات الدينية والعلمية عرفت باسم دار الحكمة أو دار العلم . فلعل

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٣١٠ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٨٣ .
(٣) في رواية أخرى : ومذهبي التوحيد والعدل (أبو المحاسن : المرجع السابق) .

سياسته السلبية مع أصحاب هذه البدعة كانت ترجع إلى هذا الاتجاه الفكري الحر .

دار العلم أو دار الحكمة :

وما دمنا قد أشرنا إلى دار الحكمة فينبغي أن نقف عندها قليلا لأنها تعتبر من أشهر أعمال الحاكم بأمر الله . وواضح من اسم هذه الدار أنه مقتبس من اسم مجالس الدعوة الشيعية التي كانت تسمى أيضا بمجالس الحكمة . فالحاكم حينما اختار هذا الاسم أراد أن تكون هذه الدار العلمية رمزا للدعوة الشيعية بصفة خاصة ، إلى جانب اهتمامها بسائر العلوم والآداب بصفة عامة .

أنشأ الحاكم هذه الدار في سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٤م) وكانت عبارة عن قصر فخم من قصور الخلافة وبها مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام ، تحتوي على آلاف الكتب في شتى العلوم والمعارف : في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجوم والكيمياء والفلسفة والطب وغيرها ، من كل كتاب عدة نسخ . وفيها المصاحف المذهبة بالخطوط المنسوبة كخط ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من مشاهير الخطاطين . وقد نقل الحاكم بأمر الله إليها الكثير من كتب قصره ومن خزائن قصور الأمراء ما يقدر بستمائة ألف مجلد .

فدار العلم كانت بمثابة مكتبة عامة أو دار كتب يقصدها العلماء وطلبة العلم من مختلف الأقطار . ولكنها إلى جانب ذلك كانت جامعة علمية تقام فيها المناظرات والندوات العلمية والدينية بين علمائها . وكان الحاكم يشرف على هذه المناظرات ويباشرها بنفسه ثم ينعم على جميع المتناظرين .

فدار العلم إذن كانت اكاديمية علمية بمعنى الكلمة ، وهي تمتاز عن الأزهر من هذه الناحية ، لأن الأزهر كان يجمع بين صفتي المسجد والجامعة أما دار العلم فهي مؤسسة علمية صريحة .

واستمرت هذه الدار تؤدي عملها العلمي ويقبل عليها الطلاب والعلماء

من كل مكان إلى أن أغلقها الوزير الأفضل بن بدرالجمالي سنة ٥١٦هـ، وذلك بسبب تفاقم النزعات الإلحادية بين الطلاب لدرجة أن بعضهم أدعى الألوهية ، وهذا قد يبرر ضمنا ما سبق أن قلناه بصدد موقف الحاكم من غلاة الاسماعيلية .

وبعد قتل الوزير الأفضل سنة ٥١٩هـ أعاد الخليفة الآمر افتتاح دار العلم على يد وزيره المأمون البطائحي، ولكنه قيدها بالعلوم المتعلقة بالعقيدة الفاطمية فقط، وظلت كذلك حتى نهاية الدولة الفاطمية . ولما استولى صلاح الدين الأيوبي على الحكم هدم هذه الدار وأسس مكانها مدرسة للشافعية .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن هذه الدار لم تكن أول دار للعلم في العالم الإسلامي ، فقد أنشئت في بغداد دار للعلم على هذا الوضع ايضا سنة ٣٨٣ هـ أي قبل إنشاء دار العلم في القاهرة بنحو اثنتي عشرة سنة . فكأن بغداد سبقت القاهرة في تأسيس هذا النوع من الأكاديميات العلمية . إلا أنه يلاحظ أن إنشاء دار العلم في القاهرة لم يكن تقليدا لبغداد لأن انشاءها جاء نتيجة طبيعية لمبادىء العقيدة الفاطمية التي تجعل من العلم غاية يسعى إليها ، فالعلم عندهم غايةالمعرفة . فأسبقية بغداد لا تقلل من قيمة هذه المؤسسة المصرية العلمية التي تعتبر من أهم الأعمال التي خلدت اسم الحاكم بأمر الله .

أما بخصوص جامع الحاكم بأمر الله المعروف حتى اليوم عند باب الفتوح في القاهرة ، فالمعروف أن الجزء الأكبر منه بناه والده العزيز وأن عمل الحاكم اقتصر على اتمامه فقط .

الخليفة الحاكم بأمر الله قتل في سنة ٤١١هـ في ظروف غامضة ، وقد اختلفت الروايات حول من قتله وكيفية مقتله ، وإن كانت القرائن تدين اخته الأميرة ست الملك بالاشتراك مع شيخ قبيلة كتامة المغربية واسمه الحسين بن دوّاس .

كانت ست الملك امرأة ذكية ذات أطماع سياسية . وكانت تخشى على نفسها من بطش أخيها الحاكم خصوصا بعد أن هددها واتهمها في اخلاقها وشدد عليها الرقابة . فتقول الرواية إن ست الملك لجأت سرا إلى العناصر الناقمة

على الحكم ووقع اختيارها على زعيم قبيلة كتامة السالف الذكر الذي كان ساخطا على الحاكم لأنه أهمل جانب المغاربة واستعمل السودان .

وقد ساعد على تنفيذ المؤامرة ، كثرة خروج الحاكم أثناء الليل ، وطوافه بالمناطق المنعزلة في جنبات جبل المقطم لرصد النجوم . وكان يصحبه في العادة رجل أو اثنان من الركابية .

ولقد قتل الحاكم واختفت جثته اختفاء تاما مما جعل بعض الغلاة الذين المّوه يعتقدون انه رفع إلى السماء وأنه سيعود بعد اختفائه ليصلح العالم . وتضيف الرواية بأن ست الملك تخلصت من المتآمرين معها فدست من قتل ابن دواس بتهمة قتل الحاكم كما قتلت العبيد الذين اتّهموا بقتل الحاكم ، وهكذا اختفى سر الجريمة مع مرتكبيها .

بعض المؤرخين أمثال المقريزي والمسبحي ينفيان التهمة عن ست الملك ويلقيانها على عاتق بعض الفدائيين ، ويروون في ذلك قصة الرجل الذي ظهر في صعيد مصر وادعى أنه هو الذي قتل الحاكم واظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه . ولما سئل عن كيفية قتله ، قال هكذا قتلته ! ثم طعن قلبه بسكين فمات لوقته ! لا شك أن هذا الرجل كان مجنونا أو أنه يريد اكتساب شهرة كما يفعل بعض العجم عند مقام الحسين .

والواقع ان شخصية الحاكم شخصية غامضة محيرة سواء في حياته أو مماته . وقد اتّهمه البعض بالجنون ، ووصفه البعض الآخر بالعبقرية . ونحن وان كنا نميل إلى الأخذ بالرأي الثاني القائل بعبقريته ، إلا أننا لا نستطيع أن ننفي عنه تهمة المرض الذي تدل عليه بعض أعماله وتصرفاته . فالحاكم كان من أولئك المرضى العباقرة الذين يثمر مرضهم العبقرية .

٤ ـ الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن علي

(٤١١ ـ ٤٢٧ هـ = ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م)

الخليفة الظاهر لم يتولى الحكم مباشرة بعد اختفاء أبيه ، بل ظـــل نحوا من شهر على أمل عودةالحاكم . فلما تحقق الناس من موته أقاموا ولده الظاهر وكان لا يزال صبيا (١٦ سنة)، فقامت عمته ست الملك بالوصاية عليه في أول عهده ، وأظهرت كفاية ممتازة في ادارة شئون البلاد إلى أن توفيت سنة ٤١٥هـ.

وبعد موت ست الملك انتقلت السلطة إلى يد فئة أو حلف من كبار رجال الدولة . وكان هذا الحلف يتكون من الوزير الجرجرائي ، والشريف العجمي ، والقائد معضاد أمير الجيش . وبقي الخليفة بعيدا عن الحكم لا يستطيع أحد من رجال الدولة الوصول إليه غير هؤلاء الثلاثة .

وواضح أن هذه الحكومة لم تكن حكومة تنفيذية يتولاها الخليفة بنفسه ، بل كانت حكومة أقلية من رؤساء الإدارة والجيش . وهذا الوضع يعد تمهيدا لما سيعرف بعد ذلك بعصر الوزراء في الدولة الفاطمية .

وهكذا نجد أن خلافة الظاهر كانت خلافة ضعيفة كثر فيها المتغلبون على الحكم ، وهذا راجع إلى صغر سنه من ناحية ، وضعف صحته من ناحية أخرى ، إذ يقال إنه كان مصابا بعلة مزمنة مات بسببها وهي داء الاستسقاء (مياه أو سوائل في تجاويف الجسد أو خلاياه)

امتاز عهد الظاهر بالقضاء على كل تشريعات الحاكم الاجتماعية والدينية . وهذه التشريعات كان لا بد لها أن تستمر كي تؤثر في نظام الدولة . وكانت النتيجة أن عاد الناس في عهد الظاهر إلى سيرتهم الأولى ، فيروي المقريزي أن الظاهر شرب الخمر وأباحها للناس كما اباح شرب الفقّاع (البيرة) ، وأنه كان شغوفا ومحبا للغناء واتخاء الراقصات ، فتأنق الناس في أيامه ، ولا سيما النساء ، وضاعت بذلك آثار الحاكم ومجهوداته .

ظاهرة أخرى تميز بها عهد الظاهر وهي وقوع وباء شديد أصاب الحيوانات ولا سيما الابقار التي يستخدمها الفلاح في زراعة الأرض . وقد نتج عن ذلك حدوث أزمة اقتصادية أدت إلى ارتفاع أثمان الماشية وبالتالي أسعار بقية الأشياء مما اضطر الناس إلى بيع متاعهم ، وصاروا يصيحون في الطرقات : والجوع الجوع يا أمير المؤمنين ! لم يصنع بنا هذا أبوك ! !

ولعلاج هذه الأزمة أصدر الخليفة مرسوما يحرم فيه ذبح الأبقار أو الاتجار بها حرصا على زيادة الانتاج الحيواني من جهة ، ولتحسين حال الزراعة من جهة اخرى [1] . كما عقد معاهدة مع امبراطور الدولة البيزنطية تعهد فيها هذا الاخير بإمداد مصر بالغلال والحبوب ، وفي مقابل ذلك يقوم الظاهر بتجديد بناء كنيسة القيامة بالقدس التي سبق أن هدمها والده الحاكم .

لا شك أن هذه المشاكل الداخلية قد شغلت الدولة الفاطمية عن الاهتمام بمشاكلها الخارجية في ذلك العهد . وقد ترتب على هذا الاهمال اضطراب الحالة في الشام وخروج بعض الأمراء عن طاعة الفاطميين . ولقد استطاع واحد من

---

(١) كتب الخليفة الظاهر منشوراً إلى الناس في هذا الصدد يقول فيه : « إن الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته ، خلق ضروب الأنعام ، وعمل فيها منافع الأنام ، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض ، المذللة لمصالح الخلق ، فإن في ذبحها غاية الفساد ، واضراراً العباد والبلاد» . راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٥٢) .

هؤلاء الأمراء واسمه صالح بن مرداس أن يؤسس دولة مستقلة في حلب سنة ٤١٤هـ مكان الدولة الحمدانية وهي الدولة المرداسية .

والدولة المرداسية تنتمي إلى قبيلة كلب اليمنية بينما تنتمي الدولة الحمدانية إلى قبيلة تغلب الربعية ، وكلاهما كان شيعي المذهب .

ولقد سارت الدولة المرداسية على نفس سياسة الدولة الحمدانية ، وهي السياسة التي تتمشى مع وضعها الجغرافي كدولة حدود . وهذه السياسة كانت تقوم على محالفة الجانب الأقوى من حدودها ، بمعنى أنها كانت تتحالف أحيانا مع الفاطميين ، واحيانا أخرى مع البيزنطيين ، حسب الحالة السياسية التي تتضمن لها البقاء .

وتوفي الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧هـ وخلفه ابنه المستنصر الذي كان هو الآخر طفلا في السابعة من عمره .

٥ ـ المستنصر بالله أبو تميم معد

(٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ = ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م)

امتد عهده ستين سنة ، فهو أطول حكم عرف في الإسلام .

والمستنصر بالله يشبه اباه الظاهر في كونه لم يتولى السلطنة بنفسه تقريبا ، وانما تولتها أمه في بادىء الأمر ، إذ كان عمره وقتئذ سبع سنوات ، ثم انتقلت السلطة بعد ذلك إلى يد أمير الجيوش بدر الجمالي نتيجة لأزمات سياسية واقتصادية خطيرة ، فجمع بين يديه سلطتي السيف والقلم أي امرة الجيوش والوزارة ثم أورثها لذريته من بعده ، فابتدأ بذلك عهد الوزراء العظام .

وعلى هذا الأساس يمكننا تقسيم عهد المستنصر إلى فترتين : عظمة الخلافة الفاطمية ثم ضعفها .

الفترة الأولى : وتمتد من سنة ٤٢٧ إلى سنة ٤٥٠هـ

وتمتاز هذه الفترة بعظمة الخلافة الفاطمية واستقرار الاحوال في مصر ، وتمتعها بكثير من الطمأنينة والرخاء . وقد صور لنا هذا الرخاء كتاب سفرنامة للرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي طاف بانحاء العالم الاسلامي خلال هذه الفترة فلمس فيه اضطرابا وانحلالا في كل مكان حل فيه ما عدا مصر التي زارها في الفترة (٤٣٩ ـ ٤٤١هـ) فكانت على حد قوله تتمتع بالهدوء والرخاء والأسواق العامرة الغنية ، وكل هذا بسبب المذهب الاسماعيلي الذي تدين به الدولة الفاطمية والذي

هو كفيل بانقاذ العالم الاسلامي كله . وكان طبيعياً بعد هذا الحماس الذي أبداه ناصري خسرو نحو المذهب الاسماعيلي ، أن يعتنق هذا المذهب [1] وأن يعود إلى بلاده خراسان داعيا له ، عاملا على نشره فيها . ويقال إنه أسس لهذا الغرض مدرسة اسماعيلية عرفت باسمه وهي المدرسة الناصرية . غير أن الأتراك السلاجقة السنيين الذين كانوا في ذلك الوقت قد استولوا على مقاليد الحكم في فارس ، شعروا بخطر دعوته فاضطهدوه حتى اضطر الى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر سنة ٤٥٣هـ.

وتظهر عظمة الخلافة الفاطمية في هذه الفترة في اتساع نفوذها في الشرق الاسلامي ، فأمير اليمن علي بن محمد الصليحي مؤسس دولة بني صليح سنة ٤٢٩هـ) اعترف بسلطان المستنصر على اليمن ودعا له على منابرها سنة ٤٤٢هـ. ولم يكتف الصليحيون بذلك بل عملوا على مد نفوذ الفاطميين إلى الحجاز وعمان والهند ، فكانوا دعاتهم وسفراءهم في تلك البلاد . وتجدر الإشارة ايضا إلى جهود الحسن الصباح ودعاته التي كان لها أثر كبير في نشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس وخراسان حتى أواسط آسيا . كذلك اقيمت الخطبة للمستنصر الفاطمي على منابر بغداد نحو من سنة(٤٥٠هـ)على يد القائد التركي أبي الحارث البساسيري الذي أرسل إلى القاهرة عمامة الخليفة العباسي القادر وعرشه فكان هذا اكبر نصر أحرزته الخلافة الفاطمية .

هذا ، وتمتاز هذه الفترة الأولى من خلافة المستنصر بمهارة وزرائها وحسن سياستهم . ومن هؤلاء نذكر أبا سعد التستري اليهودي . كان هذا الوزير تاجرا في الأصل وكانت ام الخليفة المستنصر جارية سوداء في بيته ثم اشتراها منه الخليفة الظاهر وانجب منها ابا تميم معد الذي لقب فيما بعد بالمستنصر . وكان طبيعيا أن يصل التستري إلى منصب الوزارة لاسيما وأن أم المستنصر كانت صاحبة النفوذ في تلك الفترة .

ولقد أثبت التستري مهارة ومقدرة في تصريف أمور الدولة ، ولكن يبدو

(١) يرى البعض أن ناصرى خسرو اعتنق المذهب الاسماعيلي قبل زيارته لمصر .

أنه أكثر من تعيين اليهود من أبناء ملته في مناصب الدولة مما أثار كره المسلمين له . ويظهر ذلك واضحا في قول الشاعر المعاصر :

يهود هـــذا الزمـــان قـــد بلغوا   غـــــاية آمالهـــم وقد ملكوا
العز فيهـــم والمـــال عنـــدهمُ   ومنهـــــم المستشار والملـــكُ
يا أهل مصر اني نصحت لكـــم   تهودوا قد تهوّد الفَلَكُ [1]

انتهى أمر التستّري بأن اغتاله بعض الأتراك بتحريض من الوزير أبي منصور الفلاحي الذي كان يحقد عليه . وقد غضبت أم المستنصر لمقتل التستّري وأمرت بقتل الفلاحي سنة ٤٤٠هـ.

وخلف التستّري في الوزارة شخصية أخرى لا تقل عنه أهمية ومقدرة ، وهو الوزير أبو محمد اليازوري الذي استمرت وزارته تسع سنوات متتالية (٤٤١–٤٥٠هـ) أظهر فيها كفاية ممتازة ولا سيما في معالجة الأزمات السياسية والاقتصادية .

اما كفايته السياسية فتظهر بوضوح حينما استقلت الدولة الزيرية في تونس عن تبعيتها للدولة الفاطمية في مصر ، ودعت للخلافة العباسية ببغداد سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) وهنا يعمل اليازوري على الانتقام من الزيريين بطريقة فذة لم تكلف الدولة الفاطمية شيئا . ذلك أنه سلط عليهم القبائل العربية المتفرقة على حدود مصر الشرقية والغربية ، مثل بني هلال وبني سُليم ورياح . وكانت هذه القبائل كثيرا ما تغير على الأراضي المصرية وتفسد فيها ، وهو ما يسمى في المصطلح التاريخي بفساد العربان . فاليازوري أراد أن يتخلص من هؤلاء الأعراب من جهة ، وينتقم من الدولة الزيرية من جهة أخرى ، فأغراهم بالسير إلى افريقية وأعطاهم المال والسلاح فنزلوا طرابلس والقيروان وعاثوا فيها فسادا وتخريبا . وهكذا ضرب اليازوري عصفورين بحجر واحد .

أما مقدرة اليازوري الاقتصادية ، فتظهر بوضوح أثناء أزمة الغلال التي حلت

---

(١) السيوطي حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٣ .

بمصر سنة ٤٤٧هـ. وكان تجار القمح في ذلك الوقت يدفعون الى الفلاحين أموالا مقدما حتى إذا جاء موعد الحصاد ، أخذوا القمح سدادا لأموالهم . وكانت هذه الاتفاقيات المبرمة بين الفلاحين والتجار تسجل في عقود ويقوم بتسجيلها اناس عرفوا باسم الجهابذة . فاليازوري حل هذه الأزمة ، أحضر هؤلاء الجهابذة وأمرهم أن يحولوا اليه كل المحاصيل المسجلة عندهم ، ثم قام بدفع ثمنها لأصحابها التجار مع منحهم نسبة ١/٨ أموالهم كربح لهم.وبهذه الطريقة استطاع اليازوري أن يستولي على كل محاصيل البلاد من الغلال ، ويقوم بتوزيعها على الأهالي .

حياة اليازوري تنتهي بمأساة أيضا ، إذ قتله الخليفة المستنصر سنة ٤٥٠هـ بتهمة الاتصال سرا بطغرلبك ودعوته لغزو مصر .

الفترة الثانية من خلافة المستنصر وتمتد من سنة ٤٥٠ هـ الى سنة ٤٨٧ هـ أي حتى نهاية عهده .

في هذه الفترة انتقلت السلطة من يد الخليفة وأمه إلى أيدي وزراء السيف . وهذا الانتقال جاء عن طريق أزمة خطيرة هي المعبر عنها في كتب التاريخ بالشدة العظمى .

ويصور المؤرخون هذه الشدة العظمى على أنها أزمة اقتصادية حادة نتجت عن قصور النيل ودامت سبع سنين عجاف (١) ، ويشبهونها بأزمة يوسف الصديق . والواقع إن هذه الأزمة لم تكن مجرد أزمة اقتصادية فقط ، وإلا لكان من الممكن أن تمر كغيرها من الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر نتيجة لانخفاض النيل . ولكن هذه الأزمة كان قوامها عاملين اساسيين : عامل اقتصادي وآخر سياسي أدى إلى تفاقم الأزمة بالصورة الخطيرة التي وصلت إليها مما اضطر المستنصر إلى الاستنجاد بأمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٦٦هـ.

فالشدة العظمى إذن ، كانت أزمة اقتصادية سياسية عنيفة ، بدأت بقصور

(١) من معاني العجاف انعدام المطر ومن معانيها ايضاً المحظل أي أنها سنين مرة غير ممطرة .

النيل والقحط الشديد وما تبع ذلك من غلاء الأسعار وانتشار المجاعات والأوبئة حتى أكل الناس القطط والكلاب ، وازدادت الحالة سوءا بعد أن رفضت الدولة البيزنطية امداد مصر بالغلال ، وبلغ الحال أن أكل الناس بعضهم بعضا ، وصاروا يخطفون بعضهم بخطاطيف يدلونها من النوافذ . ويروي المقريزي أن أحد الوزراء ترك بغلته عند باب الخليفة ، فأخذها عدد من الناس وأكلوها ، فعاقبهم الوزير بأن صلب ثلاثة منهم ، فلما اصبح الصباح وجد عظامهم فقط [1] .

وقد ساعد على تفاقم الحالة ضعف الحكومة وعدم وجود وزراء أقوياء مثل وزراء الفترة الأولى من خلافة المستنصر ، ومن ثمّ صاروا يعينون ويعزلون بعد أيام معدودات من توليهم الحكم وهذا دليل على ضعفهم .

وبدلا من أن تعمل الحكومة على علاج الأزمة بالقضاء على أصحاب الأطماع ومدبري الفتن إذا بها تتشدد في جمع الضرائب وتساعد على اشعال نار الفتن بين طوائف الجند . وكانت أم الخليفة المستنصر مسؤولة إلى حد كبير من هذه الفتن لأنها كانت تعطف على أبناء جنسها الجنود السود وتستكثر من شرائهم وتمدهم سراً بالمال والسلاح . وقد أثار هذا العمل غضب الجنود الترك ، ولم يلبث هذا الغضب أن تحول إلى حرب مسلحة بين الفريقين انتهت بانتصار الترك وارتداد السود إلى جنوب مصر . وقد نتج عن هذه الحروب الأهلية أن تعطلت الزراعة بسبب موت الفلاحين أو فرارهم من الحقول ، وقلّ ايراد الحكومة تبعا لذلك ، وتجرأ الجنود على الخليفة وطالبوه بالمال ، واضطر الخليفة أن يبيع كل ما في خزائنه من نفيس الأشياء بأبخس الأثمان .

وارتفع النيل أخيرا وروى الأرض ، ولكن الأزمة لم تحل ، لأن الأرض لم تجد من يزرعها ، وبقيت المواصلات مقطوعة لكثرة قطاع الطرق من البدو والجنود . هذا إلى جانب تسلط الأتراك بزعامة ابن حمدان على البلاد ومنعهم المواد الغذائية عن القاهرة والفسطاط حتى يضطر الخليفة إلى اجابة ما يطالبون من أموال .

---

(١) راجع (المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر مصطفى زياده وجمال الشيال) .

ثم قتل ابن حمدان وحل محله قائد تركي آخر يدعى الدكز . ولكن الحالة استمرت على ما هي عليه ، وتجرأ الدكز على الخليفة مثل سلفه ابن حمدان .

عندئذ اضطر المستنصر إلى الاستنجاد بوالي عكا أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني الأصل ، فطلب منه القدوم إلى مصر لتنظيم أمورها واصلاح فا فسد فيها . ورحب بدر الجمالي بذلك ودخل مصر في جيش كبير من الأرمن سنة ٤٦٦هـ، وقتل القائد الدكز وقبض على زمام الأمور بيد من حديد .

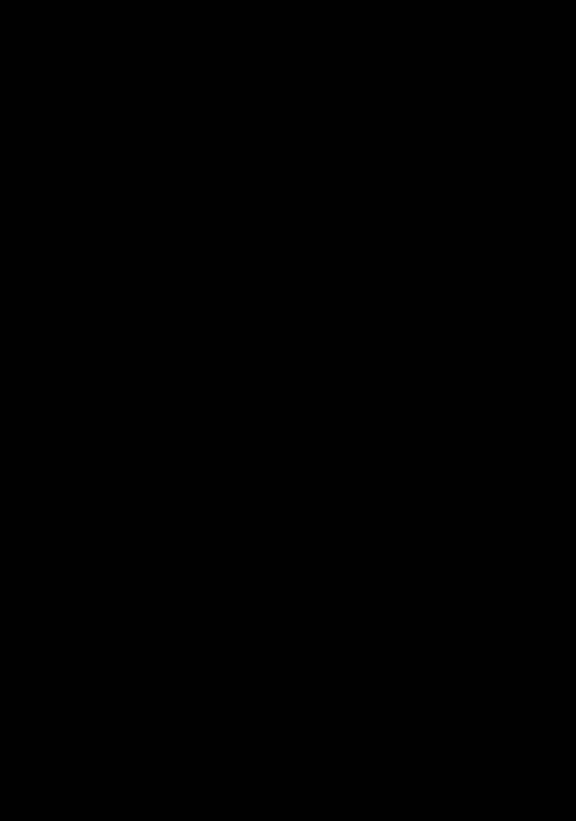
اهتم بدر الجمالي بإعادة الامن والسكينة إلى البلاد ، فقضى على المفسدين فيها من البدو والجنود ، وانتزع اقليم الشرقية من أيدي عرب لواتة بعد أن قتل زعيمهم سليم اللواتي ، كما اطلق الخراج للفلاحين مدة ثلاث سنوات فتحسنت أحوالهم . وقد خلع عليه الخليفة المستنصر خلعة الوزارة إلى جانب امرة الجيوش سنة ٤٦٨هـ فصار بيده كل شيء في الدولة .

وهكذا انتهت الشدة العظمى وما تبعها من فساد سياسي واقتصادي ولكنها تركت نتائج هامة في الحياة المصرية أهمها خراب مدينة الفسطاط نتيجة للحروب التي قامت بين طوائف الجند ، وتحول النشاط التجاري والصناعي إلى مدينة القاهرة التي بدأت منذ ذلك الوقت تتحول من مدينة خاصة للخلافة آإلى مدينة عامة للسكنى ، وكان هذا تمهيدا للمركز العظيم الذي تبوأته القاهرة بعد ذلك كعاصمة للقطر المصري .

الفصل الرابع

العصر الفاطمي الثاني

عصر الوزراء



العصر الفاطمي الثاني

عصر الوزراء

منذ أن تولى بدر الجمالي وزارة مصر سنة ٤٦٨هـ حتى أخذت الوزارة معنى آخر غير معناها القديم ، إذ تحولت من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض بمعنى أن الخليفة فوض إلى الوزير جميع سلطاته المدنية والحربية والتشريعية، فأصبح الوزير بذلك هو الرئيس الفعلي للدولة ، بينما بقي الخليفة صورة بجانبه .

ولعل الألقاب الجديدة التي أضافها الوزراء تدريجيا إلى أسمائهم تعطينا فكرة واضحة عن مدى اتساع نفوذهم في تلك الفترة ، مثل لقب :

«كافل قضاة المسلمين» و «هادي دعاة المؤمنين» ، وهذا يرمز إلى سيطرة الوزير على منصبي قاضي القضاة وداعي الدعاة ، وهما من أهم وأعلا المناصب الدينية والقضائية في الدولة الفاطمية .

كذلك تلقب وزراء هذا العصر بألقاب الملك مثل الملك المنصور فلان ، والملك العادل فلان .. وهكذا . وقد استمرت هذه العادة بعد ذلك أيام الأيوبيين والمماليك . وهكذا صار الوزير في أواخر العصر الفاطمي . هو القوة المحركة لسياسة الدولة ، وبيده وحده أمور السلم والحرب دون الرجوع إلى الخليفة في أي شيء منها .

توفي بدر الجمالي سنة ٤٨٧هـ، ثم توفي بعده بأشهر قليلة الخليفة المستنصر

بالله ، وخلف الأول في الوزارة ابنه القاسم شاهنشاه الملقب بالأفضل ، وخلف الثاني في الخلافة ابنه المستعلي .

ولقد بلغت الوزارة في عهد الأفضل أوج عظمتها وقوتها حتى إنه بعد وفاة الخليفة المستنصر ، لم يعبأ الأفضل بعقيدة هامة من عقائد الفاطميين وهي النص على من يلي الإمامة . فالأفضل رفض أن يجعل الإمامة لصاحب النص وهو نزار بن المستنصر لعداء شخصي بينهما ، إذ يقال إن الأفضل دخل قصر الخلافة يوما دون أن يترجل عن فرسه ، فرآه نزار وقال له : « انزل يا أرمني النحس» ! ، فحقد عليه الأفضل وعمل على تولية المستعلي الابن الأصغر للمستنصر .

ولما رأى نزار أن الخلافة افلتت من يده ، سار إلى الإسكندرية وقام بثورة فيها ، فبايعه أهلها ولقبوه بالمصطفى لدين الله ، ولكن الأفضل هزمه ، وبنى عليه حائطا حتى مات . على أن موت نزار لم يضع حدا للخلاف الذي قام بين الفاطميين ، إذ انقسمت الدعوة إلى فرعيها النزارية والمستعلية ، وكان هذا من الاسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية .

في ايام الافضل جاء الصليبيون في حملتهم الأولى التي اجتاحوا فيها بلاد الشام وفلسطين والجزيرة وأسسوا فيها اماراتهم الصليبية المعروفة في انطاكية وطرابلس والرها وبيت المقدس . وكانت القدس وقتئذ خاضعة لنفوذ الفاطميين الذين عجزوا عن انقاذها من براثن الصليبيين فسقطت في أيديهم سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) وتلا ذلك مذبحة عامة في المدينة قتل فيها عدد كبير من المسلمين المحاربين وغير المحاربين من النساء والشيوخ والأطفال . وخرج الأفضل من مصر لقتال الصليبيين ، ولكنه مني عند مدينة عسقلان سنة ٤٩٣هـ بهزيمة منكرة أثبتت عجز الفاطميين عن الدفاع عن الشام .

وارتكبت احوال الأفضل بعد هذه الهزيمة ، وساورته الشكوك والمخاوف من جميع من كان حوله ، سواء من جنوده الذين خذلوه في القتال ، أو من الخليفة المستعلي الذي بلغ الثامنة والعشرين من عمره ويريد التخلص من نفوذ الأفضل

وسيطرته . ولهذا عمد الأفضل إلى تغيير حرسه واستبداله بجنود جدد ، وهم الصبيان الحجرية الذين تحدثنا عنهم من قبل . كذلك عمل الأفضل على التخلص من الخليفة المستعلي ، فدس له من قتله أو سمّه سرا سنة ٤٩٥هـ، وولي مكانه ابنه الآمر بأحكام الله الذي كان طفلا في الخامسة من عمره (٤٩٥- ٥٢٤هـ).

كان عهد الخليفة الآمر امتداد لنفوذ الوزير الأفضل الذي حجر على الخليفة ولم يسمح له بالظهور إلا مرتين في السنة ، كما أبطل رسوم الخلافة وجعلها اسما على غير معنى ، ونقل دواوين الدولة من قصر الخلافة إلى مبنى مجاور خاص أعده لهذا الغرض ، وسُمّي بدار الوزارة أو دار المُلك . وقد جعل الأفضل مجلسه الرسمي في هذه الدار كما اتخذ جزءا منها سكنا خاصا له [1] .

كذلك بنى الأفضل قصرا وبستانا سماه بالروضة ، ومنذ ذلك الوقت عرفت الجزيرة التي بنى فيها باسم جزيرة الروضة حتى اليوم . وكانت قبل ذلك تعرف بأسماء عديدة مثل جزيرة مصر أو جزيرة الفسطاط لقربها منها . كذلك عرفت بجزيرة المقياس لوجود مقياس النيل فيها ، وعرفت ايضا بجزيرة الصناعة إذ كانت تقام فيها صناعة السفن ، وبجزيرة الحصن نسبة إلى الحصن الذي بناه فيها احمد ابن طولون .

ويعتبر عهد الأفضل من أزهى العهود الأدبية التي رأتها مصر الإسلامية ، فقد مدحه عدد كبير من الشعراء ونالوا منه الشيء الكثير من الصلات والهبات والعطايا . ويقال إنه اتخذ مجلسا بدار الملك عرف بمجلس العطايا للإنعام على

---

(١) ظلت دار الوزارة يسكنها وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل إلى أن زالت الدولة الفاطمية ، وكانت تعرف بالدار الأفضلية . ثم استقر بها صلاح الدين الأيوبي وابنه العزيز ثم الملك العادل ، وصاروا يسمونها بالدار السلطانية . وأول من انتقل عنها من الملوك وسكن قلعة الجبل (المقطم) الملك الكامل بن العادل الأيوبي الذي جعلها منزلا للرسل . ولما ولي سلطان دولة المماليك الأولى في مصر سيف الدين قطز ، وحضر إليك المماليك البحرية من الشام ، خرج قطز لقائهم ، وأنزل الأمير بيبرس البندقداري دار الوزارة .
راجع (المقريزي الخطط جـ ٢ ص ٣٠١-٣٠٢) .

الشعراء وغير الشعراء من المستحقين من أفراد الشعب . والواقع ان هذا المجلس لم يكن سوى مجلس الوزير الذي كان يحكم فيه ، وانما غلب عليه اسم العطايا لأن الوزير كان رجلا سخيا كريما [1] .

اشتد حجر الأفضل على الخليفة الآمر خصوصا بعد أن كبر سنه وصار شابا في الخامسة والعشرين من عمره . فلم يجد الخليفة وسيلة للتخلص منه إلا عن طريق المؤامرة . فيقال إنه اتصل في هذا الشأن بأحد قواد الوزير الأفضل واسمه محمد بن فاتك البطائحي ، ووعده بأن يوليه الوزارة بعد الأفضل . وبالفعل تمت المؤامرة وقتل الأفضل سنة ٥١٥هـ وولي الوزارة بعده البطائحي الذي تلقب بالمأمون [2] .

على أن الوزير الجديد سار على سياسة سلفه من حيث الاستبداد بالسلطان أيضا مما اضطر الخليفة الآمر أن يدس له أحد مماليكه فقتله سنة ٥١٩هـ.

وحكم الخليفة الآمر بعد ذلك بدون وزير مستعينا فقط باثنين من مماليكه وهما برغش وهزار [3] الملك . وبذلك استعادت الخلافة الفاطمية شيئا من قوتها وهيبتها القديمة .

تمتعت مصر في عهد الآمر بحالة من الرخاء والاستقرار الداخلي . وقد جرت العادة أن تكون عصور الرخاء مادة خصبة للقصص والنوادر . وكانت شخصية الآمر من الشخصيات التي استولى عليها هذا النوع من القصص كما عرف عنه من شغف شديد نحو الجواري والاهتمام باختيارهن من مختلف البلاد ، هذا إلى جانب شغفه بالورود والأزهار وبناء القصور والبساتين على ضفاف النيل مثل قصر الورود وقصر الهودج الذي بناه لمحبوبته البدوية الحسناء في جزيرة الروضة . [4]

---

(١) راجع التفاصيل في كتاب ادب مصر الاسلامية للدكتور محمد كامل حسين .

(٢) اهدى الفقيه الأندلسي ابو بكر الطرطوشي إلى الوزير المأمون البطائحي كتابه المعروف باسم سراج الملوك ، واستأذنه في بناء مسجد بالاسكندرية فأذن له بذلك ، وبنى الطرطوشي مسجده خارج باب البحر ، وقد زالت آثاره الآن الا أن مقام الطرطوشي لا يزال قائماً يزار في شارع الباب الأخضر بالجمرك (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣١) .

(٣) الهزار : طائر حسن التغريد .

(٤) راجع (المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٤٨٥) .

أما عن سياسة مصر الخارجية في عهد الخليفة الآمر فكانت سياسة ضعف ، وتهاون وعجز عن الدفاع عن الشام ضد الغزو الصليبي مما اضعف من مكانتها ومركزها أمام دول العالم الاسلامي .

وفي سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) قتل الخليفة الآمر أثناء ذهابه إلى قصر الهودج . ويقال أن القتلة كانوا من غلمان الأفضل الذين أرادوا الانتقام لسيدهم ، ويقال كذلك إنهم من النزارية الذين يعتبرونه غاصبا للخلافة .

وقد أورد لنا المؤرخ المغربي المعاصر ابن القطان وصفا عن كيفية قتل الآمر ، نسوقه فيما يلي لأهميته : —

«وقيل في هذه السنة كان موت الآمر صاحب مصر ، بعث الله تعالى قوما من عباده لم يعرف من هم ، تحالفوا وتعاقدوا على قتله . قيل إنهم قصدوا إليه من بلاد الشام ، فأقاموا بمصر وعلموا بيوم ركوبه .

وكان إذا ركب ، سدت الديار والحوانيت في ممره ، ولا يمر بطريقه أحد سواه ، ويجعل نصف عسكره أمامه ، ونصفهم وراءه ، وفي وسط كلتي المسافتين اللتين أمامه وخلفه فارسان بينهما وبينه مثل ما بينهما وبين العسكر . وحوله أربعة من خواص عبيده وصاحب المظلة . هؤلاء هم الذين يحفون به ويسمون الركابية . وهو راكب على فرس قد عُوّد ألا يبول ولا يتغوط . وقد اعتّم بعمامة عظيمة يخرج مقدمتها على جبهته مقدار شبر ، قد أمسك بعضها ببعض بإبر مغروزة فيها ، ويسدل من ورائه منها ذؤابة .

وكان كبدي اللون أعْيَن[1] ، غليظ الشفتين ، ضخم الجسم ، بين عينيه لؤلؤة كبيرة لم يخرج قط من البحر أعظم منها ، قدر بيض الحمام ، كانت خرجت من البحر أيام المستنصر جد هذا الجبار العنيد فقصد بها .

فكان هذا المارد إذا خرج ، يعلقها بين عينيه ، ليس على رأسه ولا منكبيه رداء ولا طيلسان ، ويداه في كميه ، لا يمسك عنانا ولا يشتغل بشيء سوى ركوبه على السرج . وكان يفرش له طريقه بتراب لم تطأه قدم قط ، فقصد هؤلاء إلى

(١) الأعين الذي عظم سواد عينه في سعة .

طريقه الذي عهد سلوكه عليه وفيه فرن على ممر الشارع ، وكانوا عشرة رجال، فقصدوا إلى الفران ومعهم دقيق ، وقالوا له : نريد منك ان تخبز لنا خبزا من هذا الدقيق ، فإنا قوم غرباء مسافرون . فقال لهم الفران : مولانا اليوم يمر على هذا الشارع ، فإن انتم أبطأتم فلا يصبح لكم ما تريدون ، وان انتم عجلتم صح لكم ذلك . فقالوا له : الساعة نفرغ من ذلك ، وأرغبوه في الأجرة ودفعوها إليه ، فأذن لهم ، وشرط عليهم العجلة . فجعلوا يتأنون ويحدثون اشغالا ، والفران يتعجلهم إلى أن مر عليهم مقدم العسكر الأول الذي يمشي امامه ، فأعنف عليهم الفران في الخروج ولم يمهلهم ، فلما رأوا ذلك منه ، اجتمعوا عليه ودسوه في داخل الفرن وسدوا فمه بغطائه فشووه . وأقاموا بالفرن وبابه مغلق عليهم إلى أن سمعوا وقع حوافر فرسه ، فأول من خرج من الفرن كهل منهم ، وجعل يسجد إلى الأرض وينادي : انا بالله وبعدل مولانا ! ويسجد سجدة أخرى ويقول مثل قوله ، ويتقرب منه وهو يمشي إليه إلى أن ألقى يده في شكائم الفرس ، وسل من حزامه سكينا وضرب بها بطن الفرس ، فسقط جميع ما في بطنه وسقط على الأرض . وخرج اصحابه من الفرن بعد ذلك ، وألقى أحدهم يده في مجامع ثياب الآمر وضربه ضربة فرى بها أوداجه ، وتبادر اصحابه فضربوه بسكاكينهم ضربات كثيرة ، وألقى الله السبات على ركابية الجبار إلى أن فرغ من قتله . وحينئذ صرف الله تعالى أرواحهم إليهم ، فوقعوا على الفاعلين فقتلوهم أجمعين . ووجهوا إلى مقدمة الجيش بسد الدرب القريب منه ، وفعلوا كذلك بالذين من خلفهم ، وذكروا لهم أن مولانا كبا به فرسه .

وكان هذا الموضوع قريبا من النيل ، فأتوا بزورق وحملوه وفرسه وأدخلوه الزورق ، وأزالوا الدم من ذلك المكان وغيره ، وغيروا من أمره ما استطاعوا ، وقذفوا به وحملوه إلى قصر القاهرة وانقضى خبره وتمت مدته» . (1)

لم يترك الآمر سوى امرأة حامل مما أدى إلى حدوث أزمة في ولاية العهد .

---

(1) راجع (ابن القطان : نظم الجمان ، نشر وتحقيق محمود علي مكي ، الرباط سنة ١٩٦٥)

وقد حاولت عمة الآمر أن تقيم مملوكه هزار الملك نائبا أو كفيلا للخليفة المنتظر في بطن أمه ، فأدخلته القصر وعزمت على ذلك ، ولكن الأمراء والقواد أنفوا من ذلك ، وثار الجند واحاطوا بالقصر وهددوا باحراقه ، فأمرت العمة بقتل هزار الملك ، ورمى برأسه إليهم ، فسكنت ثورتهم ، وتولى الأمر شيخ فاطمي من ولد المستنصر كان يغسل موتى القصر واسمه عبد المجيد العسقلاني . ثم حدث أن جاء المولود انثى ، وعندئذ اقيم الامير عبد المجيد المذكور خليفة وتلقب بالحافظ لدين الله سنة ٥٢٤هـ.

وفي عهد هذا الخليفة الحافظ استبد بالسلطة الوزير الأكمل بن الأفضل الذي قبض على الخليفة وسجنه واستولى على ما في القصر الخلافي من ذخائر وأموال زاعما بأن هذه الثروة كانت لوالده الأفضل ، وأنها نقلت إلى قصر الخلافة بعد مقتله . وكان هذا الوزير يتبع مذهب الامامية الاثنا عشرية فأسقط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق جد الفاطميين من الخطبة ، ودعى للمهدي المنتظر ، وذم الخليفة الحافظ ذما قبيحا ، واتخذ لنفسه ألقابا دينية ودنيوية كثيرة عجب بها بعض المؤرخين أمثال ابن الأثير الذي نسب ذلك إلى تربة مصر بلد العجائب .

ولقد أثارت سياسة الوزير الأكمل غضب الأمراء ودعاة الفاطميين ، فدسوا له مملوكا افرنجيا قتله حين كان خارجا للهو سنة ٥٢٦هـ، وخرج الخليفة الحافظ من السجن ، واعتبر هذا اليوم يوم عيد يحتفل به في كل عام سماه عيد النصر .

بعد وفاة الخليفة الحافظ سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) اشتد التنافس بين كبار موظفي الدولة على منصب الوزارة ، وقد ساعد ذلك صغر سن الخلفاء الفاطميين الذين جاءوا بعد الحافظ وهم الظافر والفائز والعاضد ، فكان طبيعيا أن يكثر الطامعون ، وتشتد المنافسة بينهم .

ومن بين هؤلاء الموظفين الكبار الذين تولوا الوزارة في هذه الفترة الأخيرة من حياة الدولة الفاطمية نذكر :

رضوان بن ولخشي والي الغربية ، والعادل بن السلار والي البحيرة ، وطلائع

بن رزيق والي الأشمونيين ، وشاور والي قوص ، وضرغام حاجب القصر ... الخ .

ومن الطريف أن بعض هؤلاء الوزراء قد تهاونوا في الحفاظ على مذهب الدولة الشيعي وأنشأوا مدارس سنية في مدينة الاسكندرية . ومثال ذلك المدرسة الحافظية التي أسسها الوزير رضوان بن والحشي سنة ٥٣٣هـ وأسند التدريس فيها إلى الفقيه المالكي ابي الطاهر بن عوف الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على زوج خالته ابي بكر الطرطوش . وبعد عشر سنوات بنى العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمي مدرسة سنية اخرى بالاسكندرية ايضا واسند التدريس بها إلى الفقيه الشافعي أبي الطاهر احمد السِّلَفي . ولعل اختيار مدينة الاسكندرية بالذات لهذه المدارس السنية راجع إلى وضعها الجغرافي واتصالها الشديد بالمغرب السني لدرجة أنها كانت تعرف بباب المغرب .

وكان طبيعيا أن يصاحب هذا التنافس على الوزارة حروب ومنازعات مستمرة جعلت البلاد في حالة من الضعف والفساد . فكان حالها اشبه ما يكون بالحال الذي كانت عليه حين فتحها الفاطميون على يد جوهر . ولهذا كان من السهل أن تقع فريسة للغزو الأجنبي .

ومن الغريب أن الوزراء أنفسهم هم الذين استدعوا العنصر الاجنبي أيام الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . فالوزير شاور استنجد بقوة نور الدين محمود زنكي صاحب حلب ودمشق ، وضرغام استنجد بقوة عموري ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ، وأسفر هذا السباق بين القوتين عن انتصار الزنكيين . فكأن مصر قد اختارت سيادتها وفضلت سيادة المسلمين على سيادة الفرنج ، أو لعل طمع الزنكيين في حكم مصر كان أقوى من طمع الفرنج ، المهم أن هذا التسابق أدى الى قيام الدولة الأيوبية المتفرعة عن الدولة الزنكية ، وسقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)

الفصل الخامس

سياسة الفاطميين الخارجية

١ ــ نحو المغرب والأندلس

٢ ــ نحو الدولة البيزنطية

٣ ــ نحو جزيرة صقلية

٤ ــ نحو الحجاز

٥ ــ نحو اليمن

٦ ــ نحو الخلافة العباسية

٧ ــ نحو السلاجقة



١ ـ سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس

حينما عزم الخليفة المعز الفاطمي على الانتقال من المغرب إلى مصر سنة ٣٦١هـ ، كان يعلم أن طاعة المغرب للفاطميين لن تدوم طويلاً ، وأن الصحراء التي تفصل مصر عن بلاد المغرب سوف تحول دون فرض سلطانهم على قبائل البربر التي خبرها عن كثب وعرف مقدار قوتها وشدة بأسها . يروي المقريزي أن المعز قبل رحيله إلى مصر استقدم جعفر بن علي ابن حمدون ، وعرض عليه أن يكون نائبه في المغرب ، غير أن جعفر اشترط لقبول هذا المنصب شروطاً تجعله شبه مستقل عن مصر ، فيقول للمعز « اترك معي أحد أولادك أو اخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر ، ولا تسألني عن شيء من الأموال لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقته ، وإذا أردتُ أمراً ، فعلته دون أن انتظر ورودَ امركَ فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إليّ » .

ولقد غضب المعز من هذا القول وقال « يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي فيه شريكاً في أمري ، واستبددت بالأعمال والأموال دوني ! قم فقد أخطأت حظك » . ثم استدعى يوسف بلكين بن زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجه ، وعرض عليه ولاية المغرب . غير أن الزعيم الصنهاجي خشي منافسة القبائل وخروجها عليه فقال للمعز :

« يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله (صلعم) ما صفا لكم المغرب ،

فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري ؟ قتلتني يا مولانا بغير سيف ولا رمح !!».

غير أن الخليفة هون عليه الأمر ولم يزل به حتّى قبل هذا المنصب بعد أن حدّ كثيراً من اختصاصاته ، فلم يجعل إليه ولاية القضاء ولا جباية الضرائب بل جعله والي حرب فقط ، كذلك جعل اتصال صقلية بمصر مباشرة ، كما جعل من طرابلس وبرقة ولايتين مستقلتين تتصلان رأساً بمصر دون الرجوع إلى أمير افريقية .

ويضيف المقريزي أن الخليفة المعز قال لعمه بعـد أن انصرف يوسف بلكين : « يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ! فاعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر مبتدئاً ما هو إلا آخر ما يصبو إليه أمر يوسف ، وإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوي العقل ، وهو نهاية ما يفعله »[1] وهذه العبارة تدل من غير شك على بعد نظر الخليفة الفاطمي وحسن سياسته .

ويبدو أن تعيين الفاطميين ليوسف الصنهاجي على إمارة افريقية قد أثار غضب منافسه جعفر بن علي بن حمدون ، إذ نراه يترك البلاد هارباً إلى الاندلس حيث لجأ هو وأخوه يحي إلى بلاط الخليفة الحكم المستنصر . وقد رحب بهما الخليفة الأموي وعقد لهما على بلاد المغرب الأقصى ، إذ وجد فيهما سلاحاً جديداً يمكن استخدامه ضد الفاطميين وانصارهم بالمغرب .[2]

أما نائب الفاطميين يوسف بلكين أو بلقين ، فإنه ما كاد يباشر شئون إمارته الجديدة حتّى اضطربت الأوضاع في بلاد المغرب وثارت عليه قبيلة زناته يساعدها الأمويون في الأندلس ، وهاجمت بلاد المغرب الأوسط وعاثت فيها فساداً ،

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٤٢ — ١٤٣ ؛ الخطط جـ ٢ ص ١٦٥ — ١٦٦ ، وكذلك مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس في صحيفة معهد مدريد ١٩٥٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٣ ، ص ٨٢ — ٨٤ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٣ حيث ترد ترجمة جعفر بن علي بن حمدون .

فقام يوسف من فوره واتجه بجيوشه نحو زناتة فطردهم من المغرب الأوسط ، وخرب مدينة تاهرت معقل الخوارج ، ثم واصل زحفه نحو المغرب الأقصى ، ويقال إنه حينما وصل إلى ظاهر مدينة سبته واشرف على معسكرات الأمويين والزناتيين ، من أعلى جبل النور المطل على سبتة ، هاله ما رأى من ابيضاض بحرهم وقال لمن حضر : « انما سبتة حيّة ولت ذنبها حذاءنا ، وفغرت فاها نحونا ! » وانصرف عائداً إلى معسكره . [1]

واستمرت إمارة افريقية حكماً ووراثياً في بيت يوسف بلكين بن زيري يستمد سلطانه الشرعي من خليفة مصر . وظلت السيادة الفاطمية في المغرب قائمة على مبدأ المنافسة بين القبائل ، حتى إذا ما انتهت هذه المنافسات وتصالحت القبائل ، استطاع المغرب أن يستقل نهائياً عن مصر . وهذا الاستقلال لم يحدث فجأة ، وانما جاء على خطوات تدريجية عدائية نحو السياسة المصرية انتهت أخيراً بالانفصال الروحي والسياسي بين الأسرتين الحاكمتين في البلدين .

ويبدأ هذا العداء في خلافة العزيز بالله الفاطمي ، وامارة المنصور بن يوسف بلكين الصنهاجي على افريقية ، فهذا الأخير حينما تسلم من العزيز كتاب الولاية على افريقية سنة ٣٧٣هـ ، قال للذين جاءوا لتهنئته بمدينة أشير [2] عاصمة ملكه : « إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهراً ، وأنا لا آخذهم إلا بالاحسان ، وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأني ورثته عن أبائي واجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْيَر . » [3] وواضح من كلام المنصور أنه يشير إلى أن الخليفة في مصر لا يستطيع عزله وأنه قد صار نداً له .

وشعر العزيز بقوة المنصور واشتداد بأسه ، فرأى أن يعمل على اضعافه

---

(١) مفاخر البربر ص ١٧

(٢) مدينة أشير عاصمة ملوك بني زيري كانت تقع في جنوب مدينة الجزائر وقد اندرست وحلت محلها الآن مدينة بنيه

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٣٤٣ (طبعة بيروت) .

بإثارة القبائل ضده وهي السياسة التقليدية التي اتبعها الفاطميون دائماً مع البربر من قبل ومن بعد .

يروي الأثير في حوادث سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) أن الخليفة العزيز أرسل داعياً له إلى قبيلة كتامة يقال له أبو الفهم واسمه حسن بن نصر ، لكي يدعوهم إلى طاعته . وكان غرضه من ذلك أن تميل كتامة إليه فيستطيع مقاتلة المنصور وأخذ افريقية منه . وقد نجح أبو الفهم في جذب كتامة إليه ، فكثر اتباعه وعظم شأنه ، فأرسل المنصور إلى العزيز يخبره بأمر هذا الداعي ، فبعث له العزيز برسولين ورسالة ينهاه فيها عن التعرض لأبي الفهم وكتامة . وغضب المنصور من رسالة العزيز وأغلظ القول للرسولين وللعزيز أيضاً ، ثم جمع جنوده وسار إلى كتامة والرسولان معه حتى بلغ مدينة سطيف ، وهي مركز نفوذهم ، فاقتتلوا عندها قتالا شديداً انهزمت فيه كتامة وهرب أبو الفهم إلى جبل وعر يسكنه أناس من كتامة يقال لهم بنو ابراهيم ، فأرسل اليهم المنصور يهددهم بالقتال إن لم يسلموه ، فقالوا هو ضيفنا ولا نسلمه ، ولكن ارسل أنت من يأخذه ونحن لا نمنعه . فأرسل المنصور من أخذه وضربه ضرباً شديداً ثم قتله وسلخه ، وأكلت صنهاجة وعبيد المنصور من لحمه . كذلك قتل المنصور جماعة من الدعاة ووجوه كتامه . ثم رد الرسولين إلى العزيز فأخبراه بما حدث وقالا « لقد جئنا من عند شياطين يأكلون الناس » ..

كان رد العزيز على هذا الحادث هدية ثمينة بعث بها إلى المنصور ومعها رسالة معسولة يطيب فيها خاطره دون أن يذكر له شيئاً عن أبي الفهم [1] . وهذا يرينا أن السياسة الفاطمية كانت تقوم على إثارة الفتن من وراء استار .

ولم يرض العزيز بهذه الهزيمة التي منيت بها سياسته ، فعاد يعمل على اثارة كتامة من جديد ، فقامت بثورة عام ٣٧٩هـ بقيادة رجل يقال له ابو الفرج الخراساني الداعي ، زعم أن أباه من ولد الخليفة القائم جد المعز الفاطمي . وقد

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٣ – ٢١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٣٤٨ .

عمل أبو الفرج أكثر مما عمله أبو الفهم إذ اتخذ البنود والطبول وضرب السكة . وقامت بينه وبين نائب المنصور بمدينة ميله حروب كثيرة انتصر فيها الداعي ، فسار إليه المنصور بنفسه وحاربه حرباً شديدة انتهت بهزيمة أبي الفرج وقتله.[1]

لا شك أن هاتين الثورتين قد أضعفتا من قوة كتامة ، فلم نعد نسمع عنها شيئاً بعد ذلك ، وتمكنت صنهاجة من بسط سيطرتها التامة على جميع النصف الشرقي للمغرب ، أما القسم الغربي فقد رأى أن يتركه لزناتة والأمويين في الأندلس. وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين القبيلتين المتنازعتين في المغرب وهما صنهاجة وزناته .

وكانت سياسة الخليفة العزيز نحو الأندلس عدائية أيضاً ولا أدل على ذلك من الخطاب الذي أرسله إلى الحكم المستنصر يهجوه فيه . وقد رد عليه الخليفة الأموي بعبارة موجزة حاسمة : « قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك »[2] وفي هذا اشارة إلى الطعن في نسبه .

توفي العزيز سنة ٣٨٦هـ وخلفه ابنه الحاكم بأمر الله . وفي هذه السنة ايضاً توفي المنصور أمير افريقية وخلفه باديس الصنهاجي .

كانت علاقة الخليفة الحاكم بنائبه باديس في مجموعها عدائية ايضاً . ويظهر هذا العداء في الخلاف الذي قام بين الطرفين حول ولاية طرابلس الغرب . فخليفة مصر يأمر واليه على برقة يانس الصقلي بالذهاب إلى طرابلس والاستيلاء عليها ، ويقوم الوالي بتنفيذ أوامر سيده سنة ٣٩٠هـ . ولم يرض باديس بهذا الوضع ، لأن طرابلس كانت تابعة له من قبل ، فحارب يانس الصقلي وقتله . وغضب الحاكم لمقتل قائده وأرسل جيشاً بقيادة يحي بن علي بن حمدون[3] أحد أعداء الزيريين ،

---

(١) ابن الأثير المرجع السابق ص ٦٣

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٥٥ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٤ .

(٣) فر يحيى بن علي بن حمدون من المغرب إلى مصر بعد أن قتل أخوه جعفر في الأندلس بدسيسة من الحاجب المنصور ابن أبي عامر .

ومنحه مال برقة ، غير أن يحيى لم يجد ما لا في برقه فأختل حاله وفشلت مهمته واضطر إلى الرجوع إلى مصر . وهنا تظهر قبيلة زناته في طرابلس وتستولي عليها سنة ٣٩٣هـ . ويبدو أن الخليفة الحاكم هو الذي لجأ إلى هذه القبيلة وأطمعها في الاستقرار هناك لاستغلالها في ميدان المنافسة ضد أطماع صنهاجه. وقد نتج عن هذا العمل أن سادت ولايتي برقه وطرابلس حروب واضطرابات شديدة هلك فيها خلق كبير من الزناتيين . [١]

ويبدو ان الأمويين في الأندلس أرادوا أن يستغلوا هذه الاضطرابات لصالحهم ، فأخذوا يدبرون المؤامرات والثورات في وجه القاطميين [٢] . كما أنهم لم يترددوا في اظهار نواياهم واطماعهم في الاستيلاء على ملك الفاطميين في مصر الشام . ونجد ذلك واضحاً في شعر حاجبهم المنصور بن عامر على عهد الخليفة وهشام المؤيد مثل قوله :

عن قريب ترى خيول هشـــام يبلغ النيل خطوها والشآمــا [٣]

ومن الغريب أن ما تنبأ به المنصور من شعر هنا ، قد كاد أن يتحقق فعلاً بعد وفاته بقليل . إذ يروي المؤرخون انه في سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٥م) قامت في اقليم برقة ثورة سنية خطيرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله ، قام بها أحد أفراد البيت الأموي ويسمى الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل ، ويلقب بأبي ركوة [٤] . وكان قد خرج من الأندلس مظهراً التصوف ، واشتغل

---

(١) راجع (ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٣ ، ٢٣٦ حيث ترد تفاصيل عن كيفية ابادة الزناتيين من أهل برقة على يد الزيريين) .

(٢) يروي ابن حجر العسقلاني في ان رجلا اندلسيا حاول اغتيال قاضي قضاة مصر الحسين بن علي الفاطمي أثناء تأديته الصلاة في أحد مساجد القاهرة سنة ٣٩١ هـ في عهد الحاكم بأمر الله . وأنه منذ ذلك الوقت اضطر القضاة إلى إتخاذ حرس خاص أثناء الصلاة (رفع الإصر عن قضاة مصر ص ٥٩٦) .

(٣) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٨٣ .

(٤) سمي بذلك لركوة كان يحملها في أسفاره على عادة الصوفية .

بتعليم الصبيان ، ثم زعم أن مسلمة بن عبد الملك بشر بخلافته ، ودعا على المنابر باسم خليفة الاندلس هشام المؤيد ، وكان يلعن الحاكم بأمر الله وآباءه ، واستولى على برقه واستحوذ على ما فيها من أموال ، وتبعه بنو قرة وبايعوه ، وضرب عملة جديدة . واضطرب الحاكم لهذه الثورة وأرسل جيشاً كبيراً لمحاربته بقيادة ينال الطويل أحد قواده الأتراك . ولكن الجيش هزم وأسر قائده ، ويقال أن ابا ركوه قال للقائد ينال : إلعَن الحاكم ! فبصق ينال في وجه أبي ركوه ، فأمر هذا به فقطع إرباً ، واستولى على الأموال التي كانت معه فزاد خطره على مصر . واستطاع أبو ركوة في سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٦م) أن يصل في زحفه إلى أهرام الجيزة ، ولكنه انهزم أخيراً في الفيوم لتخلي بني قرة عنه . وفر إلى النوبة في جنوب مصر حيث أسرته قبيلة ربيعة وسلمته إلى الحاكم الذي عرضه في شوارع القاهرة عرضاً مزرياً . إذ جعل وراءه قرداً يصفعه على رأسه ثم قتله وصلبه .[١] وقد كافأ الحاكم أمير قبيلة ربيعة أبا المكارم هبة الله على نجاحه في القبض على هذا الثائر ، فمنحه لقب كنز الدولة ، وتوارث أبناؤه هذا اللقب من بعده . ولهذا عرف بنو ربيعة ببني كنز ، وهم الكنوز الحاليون في النوبة .[٢]

على أنه يبدو أن هذه الثورة الأموية السنية وان كانت قد فشلت في القضاء على دولة الفاطميين في مصر ، إلا أنها قد تركت آثاراً سنية معادية للفواطم في مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنى . ويظهر ذلك جلياً في سياسة المعز بن باديس الصنهاجي[٣] حينما فتك بالشيعة في إمارته سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧م) . ويقال في تعليل ذلك إن المعز وقع تحت تأثير استاذ سني المذهب كان قد تولى تربيته

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٢٨٧ ؛ محمود مكي : التشيع في الاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد سنة ١٩٥٤ .

(٢) مصطفى سعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٣٥ .

(٣) ولى المعز بعد وفاة أبيه باديس سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) على امارة افريقية ، وأرسل اليه الخليفة الحاكم الخلعة والتقليد كالمعتاد ولقبه بشرف الدولة ، غير ان المعز سار على نفس السياسة العدائية نحو الخلافة الفاطمية .

منذ صغره . غير أن هذه المسألة في نظرنا ترجع قبل كل شيء إلى الروح الانفصالية عن مصر التي كانت هدف المعز وآبائه من قبل . يروي ابن الاثير أن المعز بن باديس كان ماشياً في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة كانت هناك فقيل له هؤلاء رافضة يسبون ابا بكر وعمر ، فقال المعز « رضي الله عن أبي بكر وعمر » ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلي بالقيروان وهو مكان يجتمع فيه الشيعة ، فقتلوا فيهم ، ثم انتشرت المذابح في جميع انحاء الدولة الزيرية . وكانت الشيعة تسمى في المغرب بالمشارقة نسبة إلى عبدالله الشيعي الذي يعرف ايضاً بالمشرقي لأنه جاء من المشرق .[1]

ولم يقتصر أمير افريقية على اضطهاد الشيعة بل أخذ يحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي وترك ما دونه من المذاهب الأخرى حتى يتم له بذلك الانفصال الروحي أو المذهبي عن مصر . وكانت تونس والقيروان من أهم مراكز انتشار هذا المذهب . ويبدو أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد شعر بهذه النهاية المحتومة ، فحاول استمالة المعز عن طريق تكليف بعض العلماء بتدريس الفقه المالكي بالجامع الأزهر ، غير أنه لما فشل في تحقيق أغراضه أمر بقتل هؤلاء الفقهاء المالكية .[2]

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ — ٤٨٧هـ — ١٠٣٥ — ١٠٩٤م) يقع حدثان حاسمان في تاريخ علاقة الدولة الفاطمية بالمغرب والأندلس :

الحدث الأول : هو تحسن العلاقات بين مصر والأندلس نتيجة لسقوط الخلافة الأموية المعادية للفاطميين وقيام عصر جديد بالأندلس هو عصر ملوك الطوائف (١٠٣١ — ١٠٨٦م) (٤٢٢ — ٤٧٩هـ) . فيروي المؤرخون أن أقبال

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٠٠ — ١٠٥ ، وأنظر المعنى الخاص للفظ تشرق في المغرب في (المالكي : رياض النفوس ج ١ ص ٤١٩ حاشية ٣ نشر الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨ .

الدولة على بن مجاهد العامري ملك دانية وجزر البليار في شرق الأندلس ، أخذ يتقرب من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، ويرسل له الهدايا والرسائل الودية معلناً فيها عن عزمه على الدعاء للخلافة الفاطمية ومفتخراً بأنه أول من فعل ذلك بالأندلس ، مثل قوله في احدى رسائله « فكنتُ أبا عُذرتها ، وسالكَ منهجها ، فبرزتُ بين أبناء مغربي بمداخلتها (أي الخلافة الفاطمية) ، وعرضِ طاعتي وخدمتي عليها » .

وهذه الرسائل وردت في القسم الثالث من كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام الشنتريني الأندلسي [1] . وهي في مجموعها لا تبين صراحة ان كان على بن مجاهد قد دعا فعلاً للخلافة الفاطمية ، أم أنه اكتفى بالوعود المعسولة وعرض طاعته وخدمته كما يقول . وكيفما كان الأمر ، فإن المراجع الأخرى تنص على ان علي بن مجاهد حينما علم بأنباء المجاعات التي حلت بمصر في أيام الخليفة المستنصر ، وهي المعروفة في كتب التاريخ باسم الشدة العظمى ، أرسل سفناً مملوءة بالطعام والغلال للتخفيف من حدة هذه الأزمة ، وأن المصريين أعادوا له هذه السفن مملوءة بالذخائر والأموال . [2]

أما الحدث الثاني : فيقع في شمال افريقيا سنة ٤٤٣هـ (١٠٥١م) [3]

---

(١) يقوم بنشر هذا القسم الثالث من كتاب الذخيرة الدكتور محمود علي مكي .

(٢) راجع (الحلل الموشية لمؤلف مجهول. ص ٧٢ طبعة علوش ؛ أحمد مختار العبادي : الصقالبة في اسبانيا ص ٢٦ حاشية ٣ (مدريد ١٩٥٣) .

(٣) اختلف المؤرخون حول تحديد تاريخ هذا الانفصال فجعلوه في السنوات ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ هـ (ابن الأثير حـ ٩ ص ٢١٧ ، النجوم الزاهرة حـ ٥ ص ٥١) غير أن المؤرخ الانجليزي لين بول حدده بسنة ٤٣٨ هـ معتمدا على آخر عملة تحمل اسم الخليفة الفاطمي في مدينة المنصورية (Lane-Poole : A. History of Egypt in the middle ages p. 138) وأغلب الظن أن التاريخ الصحيح لهذا الانفصال السياسي هو عام ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) كما ورد في اتعاظ الحنفا للمقريزي (النسخة الخطية بمكتبة أحمد الثالث باستانبول ورقة ٨٨) ودليلنا على ذلك وزارة اليازوري التي تبدأ في سنة ٤٤٢هـ، وهي التي كانت من دواعي هذا الانفصال نظرا للنزاع الذي دب بين اليازوري والمعز بن باديس .

عندما انفصل المعز بن باديس نهائياً عن الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة لخليفة مصر المستنصر بالله ، وأحرق اعلامه الخضراء وأزال اسمه من الطرز والرايات ثم دعا لخليفة بغداد القائم بأمر الله العباسي الذي بعث إليه الخلعة والتقليد والألوية السوداء العباسية عن طريق القسطنطينية . [1] وواضح أن أمير افريقية اتخذ هذا الإجراء كوسيلة للاستقلال ببلاده لبعد المسافة التي بينه وبين العباسيين ببغداد، وان كان المقريزي يرجع سبب هذا الانفصال إلى عداء شخصي بين المعز بن باديس والوزير الفاطمي أبي محمد اليازوري ، سببه أن المعز قصّر في صيغة مكاتبته لليازوري ، فبعد ان كان يكاتب كل وزير قبله بلفظ عبده ، صار يكاتبه بصنيعته بحجة أن اليازوري كان من أرباب الزراعة والفلاحة وليس من أرباب الكتابة أو الوزارة . فلما احتج اليازوري على هذه المكاتبة ، قال المعز « ما الذي يريده مني هذا الفلاح ! اكتبُ عبده ؟ لا كان هذا ولا يكون أبداً ، وما كتبت إليه فكثير » . ثم أعلن العصيان على الخليفة الفاطمي المستنصر ودعا للخليفة العباسي القائم كما هو مذكور آنفاً .

سياسة الانتقام التي سلكتها الدولة الفاطمية نحو الدولة الزيريه ، كان لها نفس الطابع التقليدي الذي سارت عليه من قديم ، وهو إثارة المنافسة بين القبائل ، وضرب بعضها بالبعض الآخر . فالوزير اليازوري يرى أن القبائل العربية المقيمة على حدود مصر الشرقية بالوجه القبلي مثل بني هلال وسُلَيْم ،

---

(١) اعترض وصول هذه الخلع والألوية العباسية إلى القيروان عقبات كثيرة في أول الأمر ، يروي المقريزي : « وفي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة أظهر المعز بن باديس صاحب افريقية الخلاف على المستنصر ، وسير رسولا إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية ، واستدعى منهم الخلع ، فأجيب إلى ذلك ، وجهزت الخلع على يد رسول يقال له أبو غالب الشيرازي ومعه العهد واللواء الأسود ، فمر ببلاد الروم ليعدي منها إلى افريقية ، فقبض عليه صاحب الروم وبلغ ذلك المعز بن باديس فأرسل إلى قسطنطين ملك الروم في أمره، فلم يجبه رعاية لحق المستنصر . واتفق قدوم رسول المستنصر اليه بهدية عظيمة ، فبعث معه رسول الخليفة العباسي القائم بما على يده ، فدخل الى القاهرة على جمل ، فأحرق العهد واللواء والهدية في حفرة بين القصرين » . راجع مقالنا (سياسة الفاطميين الخارجية نحو المغرب والأندلس ص ٢٢٢ ، صحيفة معهد مدريد ١٩٥٧) .

وعلى حدودها الغربية بالوجه البحري مثل زغبة ورياح ، كانت دائبة على إثارة الشغب والفساد في الأراضي المصرية [1] ، فيغريهم بالسير إلى القيروان ويمدهم بالمال والأسلحة وهكذا يضرب عصفورين بحجر واحد : يتخلص من فساد العربان ، وينتقم من الزيريين .

يروي ابن الأثير أن اليازري كتب وقتئذ إلى المعز بن باديس يقول له : « أما بعد فقد أرسلنا اليكم خيولاً فحولا وحملنا عليها رجالا كهولاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » [2] .

اجتاحت القبائل العربية بـــلاد برقة وطرابلس وافريقيـــة كالجراد المنتشر وطردت البربر منهـــا وعاشت فيها فساداً وتخريباً . فخرج إليهم المعز بكل جيوشه وعـــدده . فهال العرب منظرهم ، وقالوا لقائدهم مؤنس بن يحيى الضنبري : أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا المغافر والكزغندات [3] ؟ فأجابهم : « في اعينهم » . ولهذا سمي هذا اليوم بيوم العيون ، التحم فيه الفريقان بالقرب

---

(١) هؤلاء الأعراب بنو هلال وسليم من مضر ، وكانوا يقيمون في بوادي الحجاز في بادىء الأمر حيث نزل بنو سليم مما يلي المدينة النبوية ، بينما نزل بنو هلال في جبل غزوان عند الطائف . وكانوا يغيرون على أطراف العراق والشام ويفسدون ، كما كانت بنو سليم تغير على الحاج أيام الموسم وزيارتهم المدينة . ثم تحيزوا إلى القرامطة منذ ظهورهم وصاروا جندا لهم بالبحرين وعمان ، وقدموا معهم إلى الشام في أيام المعز لدين الله . ولما انهزم القرامطة في عهد العزيز وانسحبوا من الشام إلى البحرين ، نقل العزيز من كان معهم من بني هلال وسليم إلى مصر وأنزلهم بالجانب الشرقي من بلاد الصعيد فأقاموا هناك واضروا بالبلاد . أما زغبة ورياح ، فهما قبيلتان من العرب كانتا تقيمان على حدود مصر الغربية في اقليم برقه ، وكانت بينهما حرب وعداوة ، فأصلح اليازوري ذات بينهما وتحمل ما بينهما من ديات ، وحمل إلى مشايخهم الأموال ، وأنعم على سائرهم بفرو ودينار لكل واحد منهم ، وأمرهم بالمسير إلى المعز وأباح لهم دياره . وفعل مثل هذا لاخوانهم الذين بشرقي الصعيد من بني هلال وسليم . (المقريزي : اتعاظ الحنفا لوحة ٨٧ — ٨٩ نسخة استانبول .

(٢) ابن الاثير : الكامل حـ ٩ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٣) الكزاغند معطف قصير يلبس فوق الزردية . راجع (المقريزي : السلوك حـ ١ ص ٣٥٣ حاشية ٥)

من القيروان ، وانتهى القتال بهزيمة المعز واستيلاء العرب على مدينة القيروان وتخريبها سنة ٤٤٩هـ ، وفي ذلك يقول الشاعر :

وإنّ ابن باديسَ لأفضل مالكٍ لعمري ولكن ما لديه رجـالُ
ثلاثون ألفـاً منهمُ هزمتهـمُ ثلاثةُ آلاف وذاك محـالُ (١)

اقتسم العرب بلاد افريقية ، فاستقرت زغبة ورياح في برقة وطرابلس ، كما استقر بنو هلال وبنو سليم في منطقة تونس وما يليها غرباً ، كان لسليم الشرق ولهلال الغرب . اما المعز بن باديس ، فقد فرّ بعد هزيمته متخفياً في زيّ امرأة إلى مدينة المهدية ، وهناك ثار عليه اقرباؤه وأولاد أعمامه بنو حماد الذين استقلوا بمنطقة بجاية ، فتضاءل بذلك نفوذه ، وتوفي المعز سنة ٤٥٤ (١٠٦٢م).

واستمر سلطان الدولة الزيرية محدوداً جداً في المنطقة الساحلية المحيطة بعاصمتهم المهدية . وهذا الموقع الجغرافي دفعهم إلى أعمال القرصنة ومهاجمة السفن المسيحية وقد تعرضت المهدية لغارات بحرية شديدة قام بها الجنويون والبيازنة (اهل بيزا) سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) ثم تلاهم النورمانيون الذين استولوا عليها آخر الأمر سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) . (٢)

وظلت المهدية خاضعة للنورمانيين إلى أن جاء الموحدون فاستولوا عليها سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) ، كما استولوا على بقية أراضي الزيريين في افريقية والحماديين في الجزائر .

وهكذا انتهت الدولة الزيرية ومات آخر ملوكها الحسن بن علي بن يحيي الصنهاجي منفياً لدى الموحدين سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) فكان الدولة الزيرية قد

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٥ .

(٢) أورد ابن الأثير وصفا تفصيليا لسقوط المهدية في أيدي النورمانيين واستيلاء الامبراطور روجار الثاني Roger II الصقلي على نفائسها . ثم يقول ان الأمير الحسن بن علي آخر ملوك الزيريين ، فكر في الهروب إلى مصر والالتجاء إلى الخليفة الحافظ الفاطمي ، واشترى مركبا لهذا الغرض غير أن قائد الأسطول الفرنجي علم بذلك وأخذ يستعد لأسره ، عندئذ غير الأمير الحسن اتجاهه إلى عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين بالمغرب (ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٥٦ – ٥٨) .

انتهت تماماً قبل نهاية الدولة الفاطمية في مصر بأربع سنوات فقط [١] . [٢]

نقطة أخيرة ينبغي أن تشير إليها وهي أن الفرقة السياسية والمذهبية التي حدثت بين الفاطميين والأمويين في الإندلس ، لم تحل دون لقائها على الصعيد الحضاري والفني أذ يروى أن عدداً من الصناع المصريين في ذلك العصر انتقلوا إلى الإندلس حيث ادخلوا بعض الصناعات المصرية في كثير من التحف الأندلسية التي ترجع إلى العصر الأموي . ومن أهم تلك الصناعات صناعة السجاد والمنسوجات وطريقة زخرفتها . فجميع قطع السجاد والمنسوجات الأموية المحفوظة بالمتاحف المختلفة تشبه تماماً في شكلها وزخارفها المنسوجات والزرابي (السجاد) الفاطمية لدرجة يصعب التمييز بينها . وقد عثر على مئزر من هذا النوع للخليفة الأموي هشام المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩هـ) ، كذلك عثر على سجاد أندلسي مصنوع من البردي ومطرز بالذهب والفضة على غرار السجاد الفاطمي ، اطلق عليه في الأندلس اسم الحمرة ، وهو اللفظ الذي اشتق منه لفظ **Alfombra** في اللغة الاسبانية بمعنى السجاد . كذلك يروي المقري أن أحد المشرفين على بناء مدينة الزهراء التي بناها الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر في شمال غرب قرطبـــة ، كان مصرياً من أهل الأسكندرية واسمه علي بن جعفر .

هذا إلى جانب الصلات التجارية والاقتصادية التي ظلت متبادلة بين البلدين رغم العداء السياسي بينهما .

---

(١) من المعروف أن الدولة الفاطمية في مصر سقطت سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) .

(٢) من المعروف أن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور اصطنع معظم هذه القبائل العربية واستعان بها في جهاده ضد المسيحيين في اسبانيا . ولقد أبقى المنصور على بني سليم في افريقية لأنهم سالموه منذ بداية الأمر ولم يقاتلوه ، أما بنو هلال وبنو جشم والمعقل وغيرهم فقد نقلهم إلى المغرب الأقصى ، فأنزل جماعة من بني هلال في بلاد الغرب وهي المنطقة التي حول مصب نهر سبو ، وجماعة أخرى منهم نزلت في بلاد الهبط وهي المنطقة الممتدة من القصر الكبير إلى ساحل البحر المتوسط شمالا . ثم أنزل قبائل جشم في بلاد تامسنا وهي البسيط الممتد من مدينة الرباط على ساحل المحيط الأطلسي حتى مصب أم الربيع ، ثم امتدت سكناهم إلى مدينة مراكش جنوبا . أما قبائل بني معقل فقد استقر قسم منهم في تلمسان ، وقسم آخر في بلاد فازاز بجوار تادلا ، وقسم ثالث وهم بنو حسان ، فقد استقروا في منطقة السوس الأقصى وما يليها من صحراء شنجيط أو موريتانيا الحالية ، بجوار صنهاجة الثام .

راجع (السلاوي . الاستقصا جـ ٢ ص ١٥٠ ، ١٥٩) .

٢ ـ نحو الدولة البيزنطية

عاصرت الدولة الفاطمية في مصر أواخر عهد الاسرة المقدونية التي حكمت الامبراطورية البيزنطية من سنة ٧٦٧ إلى سنة ١٠٥٧م (٢٥٣ — ٤٤٨هـ) . ومؤسس هذه الاسرة هو باسيل الأول الذي كان اصله من مقدونيا .

وقبل أن يصل الفاطميون إلى مصر ، كانت الجبهة الاسلامية المواجهة للحدود البيزنطية الشرقية ، غير موحدة ومنقسمة إلى دويـــلات محدودة القوى مثل امارة حلب والموصل الخاضعة للحمدانيين ومن خلفها الدولة البويهية في العراق والدولة الأخشيدية في مصر والشام . وكانت هذه الدول حديثة النشأة ولم تستقر أمورها بعد، وكثيراً ما كانت تقوم حروب ومنازعات بين بعضها البعض. وبذلك حانت الفرصة للبيزنطيين كي يزحزحوا الحدود الإسلامية إلى ما وراء جبال طوروس بعد أن ظلت ثابتة هناك زمناً طويلاً .

وبدأ البيزنطيون فتوحاتهم الشرقية على يد القائد والامبراطور فيما بعد نقفور فوكاس الثاني Nicephorus Phocas II ، فاستردوا جزيرة كريت من أيدي المسلمين سنة ٩٦١م (٣٥٠هـ) ، ثم عبروا لأول مرة ممرات جبال طوروس وشنوا هجوماً على ثغور المسلمين في آسيا الصغرى واستولوا على طرسوس وكليكيا ، وهزموا جيوش سيف الدولة الحمداني ثم استولوا على مدينة حلب نفسها سنة ٩٦٢م

(٣٥١هـ) ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب منها امام مقاومة السوريين ونجدات الإخشيديين.

ثم دخل الفاطميون مصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) ، وحاولوا فتح الشام ولكنهم وصلوا إلى دمشق فقط ، ووجدوا عقبات تحول دون وصولهم إلى البيزنطيين مثل قوة القرامطة في جنوب الشام ، وقوة الحمدانيين في شماله . وكانت سياسة المعز لدين الله الفاطمي سياسة حذره تجاه الحمدانيين ، بدليل خطابه إلى قائده جوهر يحذره فيه من قتالهم .

وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة واحتلوا مدينة انطاكية مفتاح الشام على يد الامبراطور نقفور فوكاس سنة ٣٥٩هـ (٩٦٩م) ثم خلفه ابن عمه الامبراطور يوحنا الأول الشميشق (تزيمسكيس) John Tzimisces الذي بلغت غاراته ارباض بيت المقدس وبغداد . [١]

ولما ولي الخليفة العزيز الفاطمي، اتخذ سياسة مغايرة لسياسة أبيه ، فقضى على قوة القرامطة في الشام ثم اصطدم بالدولة الحمدانية التي تحول بينه وبين البيزنطيين ، فاستولى على بعض مدنها مثل حمص وحماة ، وحاصر حاضرتها مدينة حلب سنة ٣٨٤هـ ، واستمر الحصار مدة ١٣ شهراً حتى اضطر اميرها ابو الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني إلى الاستنجاد بالامبراطور البيزنطي باسيل الثاني قائلاً له : « متى أخذت حلب ، أخذت انطاكية ، ومتى اخذت انطاكية ، أخذت القسطنطينية» [٢] .

وكان الامبراطور البيزنطي يدرك تماماً صحة هذا الكلام ، ولهذا عمل على امداد الامير الحمداني بجيش من انطاكية ، ولكن هذا الجيش هزم امام الفاطميين

---

(١) راجع (ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٤٧ — ٤٨ ترجمة عبد العزيز جاويد ؛ مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمداني ص ١٣١) راجع كذلك :
(A. Vasiliev : History of the Byzantine Empire p. 324-453, Madison 1952)

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٢٠ .

مما اضطر الأمبراطور البيزنطي باسيل الثاني إلى ترك حروبه مع البلغار والتوجه بنفسه نحو الشام .

وكان الجيش الفاطمي في ذلك الوقت قد مل الحرب ونفدت ميرته ومؤنه وأقواته ، فكتب قادته إلى الخليفة العزيز يستأذنونه في الانسحاب إلى دمشق ، وقبل أن يصل جواب الخليفة رحلوا عن حلب إلى دمشق . عندئذ هاجم الجيش البيزنطي المدن الشامية الشمالية حتّى بلغ مدينة طرابلس . وهناك اشتدت عليه المقاومة واضطر إلى العودة إلى القسطنطينية .

وغضب الخليفة العزيز لانسحاب جيشه عن حلب دون اذنه فأمر بعزل قائده أبي الحسن علي بن الحسين المغربي ثم نادى في الناس بالنفير وفتح الخزائن وأنفق على جنده ثم خرج على رأس جيوشه إلى الشام حاملاً معه توابيت آبائه . وحينما وصل إلى بانياس بالقرب من اللاذقية ، أخذه مرض مفاجيء مات على اثره سنة ٣٨٦ هـ [(١)]

وفي أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، استمرت الخصومة بين الفاطميين والبيزنطيين ، واستطاع الفاطميون احراز انتصارين على أعدائهم : الانتصار الاول كان في البحر حيث انتصرت الاساطيل المصرية على الاساطيل البيزنطية في مياه صور سنة ٣٨٨هـ. والانتصار الثاني كان في البر عند مدينة فاميه **Aphamea** حيث انتصر القائد الفاطمي حسين بن الصمصامه على جيوش البيزنطيين وظل يطاردهم حتّى أبواب انطاكية ثم عاد إلى دمشق دون أن يستولي على انطاكية مما يدل على أن الفاطميين آثروا الانتقام فقط من البيزنطيين .

ولما علم أمبراطور الروم بما حل بجيشه من الهزيمة أرسل رسولاً لمفاوضة الخليفة الفاطمي في الصلح . فأعد له الحاكم استقبالاً فخماً ، وأمر بتزيين القصر ، وتم الاتفاق بين الطرفين على عقد صلح يقضي بوقف الحرب لمدة عشر

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٧–١٢١ . وتشير بعض المراجع إلى أن وفاة العزيز كانت بمدينة بلبيس في شرق الدلتا .

سنوات ، وتوفير الحرية الدينية للمسيحيين المقيمين في كنف الدولة الفاطمية ، وامداد مصر بالحبوب والغلال من بيزنطه .

وتاريخ هذه الهدنة مختلف فيه ، فالمصادر الاسلامية تجعله في العشر سنوات التي بين سنة ٣٨٨ إلى سنة ٣٩٧هـ (٩٩٨ — ١٠٠٧م) وأهمية هذا التحديد ترجع إلى أن العداء بين الطرفين يعود من جديد وتكون مصر هي البادئة ، في ذلك عندما يهدم الخليفة الحاكم كنيسة القيامة بالقدس سنة ٣٩٨هـ [1] (١٠٠٨م) . فتاريخ الهدم حسب المصادر الاسلامية يقع بعد انتهاء أمد الهدنة المقررة وهي عشر سنوات . اما المصادر البيزنطية فإنها ترى ان الاعتداء وقع أثناء الهدنة ، وان الحاكم خرق بذلك شروط المعاهدة المبرمة بين الطرفين والتي تنص على أن الهدنة تقع في الفترة التي بين سنة ١٠٠٠ — سنة ١٠١٠م (٣٩٠ — ٤٠٠هـ)

الخليفة الحاكم ينسب إليه أيضا القضاء على الدولة الحمدانية والاستيلاء على مدينة حلب سنة ٤٠٤هـ . وهذا العمل يعد نصراً له على الدولة البيزنطية نفسها لانه صار في مركز يمكنه من مناوأة الروم مباشرة في انطاكية .

على أن هذا الوضع السياسي لم يستمر طويلاً ، إذ جاء الخليفة الظاهر وأهمل الشئون الخارجية للدولة ، وقد ترتب على ذلك أن خرج عليه كثير من الامراء في الشام ، واستطاع صالح بن مرداس أن يحل محل الحمدانيين في شمال الشام ، ويؤسس الدولة المرداسية في حلب سنة ٤١٤هـ [2] والدولة المرداسية دولة عربية مثل الدولة الحمدانية ، ولكنها تنتمي إلى قبيلة كلب اليمنية ، بينما ينتمي الحمدانيون إلى قبيلة تغلب الربعية . ولقد اتبعت الدولة المرداسية سياسة تشبه تماماً سياسة الحمدانيين ، وهي السياسة التي تتفق مع وضعها السياسي والجغرافي كدولة في منطقة الحدود والتي تفرض عليها أن تهادن الجانب الأقوى من حدودها . ولذا كانت سياستها مذبذبة : تارة مع البيزنطيين ، وتارة أخرى مع الفاطميين .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١٨ .

(٢) أبو المحاسن : المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٤٨ .

كذلك تغلب حسان بن المفرج البدوي صاحب الرملة على اكثر مدن الشام ، فتضعضعت بذلك دولة الظاهر .[1] وانتهز البيزنطيون فرصة الاضطرابات التي سادت الشام في ايام الظاهر ، وقاموا بغارات على البلاد الشامية مما اضطر الخليفة الفاطمي إلى ابرام هدنة مع الامبراطور قسطنطين الثامن سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧م) تنص على إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التي كان الحاكم قد هدمها ، وترك الحرية للمسلمين الذين تحولوا إلى الإسلام في عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم القديم ، وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بتجديد بناء جامع القسطنطينية واقامة الخطبة فيه للخليفةالفاطمي .[2] ومن المعروف ان هذا المسجد بناه اول الأمر مسلمة بن عبدالملك سنة ٩٦هـ (٧١٤م) في خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص على بناء مسجد في القسطنطينية كي يصلي فيه المسلمون من التجار وأرباب الحرف وغيرهم المقيمين أو المارين بالعاصمة البيزنطية . ثم لم يلبث البيزنطيون بعد ذلك ان استغلوا هذا المسجد في مساوماتهم السياسية مع الدول الاسلامية المجاورة ، فتارة يخطبون فيه للعباسيين ، وتارة أخرى للفاطميين ، وتارة يعمدون إلى هدمه ، وتارة أخرى يعيدون بناءه حسب الظروف والأحوال التي يمر فيها الرعايا المسيحيون ومؤسساتهم الدينية في البلاد الإسلامية .

ولما ولي الخليفة المستنصر الفاطمي الخلافة عمل على استمرار العلاقات الودية مع البيزنطيين ، فيروي ابو الفدا أنه في سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) تم الاتفاق بين الخليفة الفاطمي والامبراطور ميخائيل الرابع على ان يطلق الروم خمسة آلاف أسير للمشاركة في إعادة بناء كنيسة القيامة التي هدمها الحاكم بأمر الله . وقد تبرع الامبراطور البيزنطي بأموال جليلة لانجاز هذا العمل على حسابه الخاص[3] . وقد زار هذه الكنيسة بعد عشرة سنوات تقريباً (٤٣٨هـ) الرحالة الفارسي ناصري

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٨ .

خسرو ، فراعه عظمة بنائها ، وجمال زخارفها وصورها المطعمة بالذهب ، واتساع أبهائها التي تستوعب ثمانية آلاف شخص .

هذا ، ويروي المقريزي انه في سنة ٤٤٦هـ (١٠٥٤م) بعث الخليفة المستنصر إلى ملك الروم بقسطنطينية (قسطنطين التاسع) أن يحمل الغلال إلى مصر ، لمواجهة المجاعة التي حلت بمصر في تلك السنة ، فأطلق أربعمائة ألف أردب ، وعزم على حملها إلى مصر ، فأدركه أجله ومات قبل ذلك ، فقام في الملك بعده امرأة (الامبراطور ثيودورا) التي اشترطت على المستنصر أن يكون لها عوناً ويمدها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد . ولكن المستنصر أبى أن يسعفها في طلبها ، فجردت لذلك وعاقت الغلال عن المسير إلى مصر ؛ فحنق المستنصر وجهز العساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم ، ونودي في بلاد الشام بالغزو ، ونزل ابن ملهم قريباً من فاميه وضايق أهلها ، وجال في أعمال انطاكية فسبى ونهب ، فأخرج صاحب قسطنطينية ثمانين قطعة في البحر ، فحاربها ابن ملهم عدة مرات ، وكانت عليه ، وأسر (ابن ملهم) هو وجماعة كثيرة في شهر ربيع الأول » . [1]

واضطر الخليفة المستنصر امام هذه الهزيمة إلى وقف القتال وطلب الهدنة وأرسل في سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٧م) إلى الامبراطورة ثيودورا القاضي أبا عبدالله القضاعي لتسوية الخلاف . [2]

بعد هذا الوقت بقليل ظهر في الشام عنصران جديدان وهما : عنصر الأتراك السلاجقة الذين استقروا بوسط الشام ، وعنصر الفرنج أو الصليبيين الذين استقروا بالسواحل الشامية .

وهكذا صار الفاطميون بعيدين عن منطقة الثغور وعن البيزنطيين ، فاختفى

---

(١) المقريزي . الخطط جـ ١ ص ٣٣٥ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٩ .

بذلك الصراع الفاطمي البيزنطي من مسرح الحوادث الشامية وحل محله صراع آخر عنيف بين السلاجقة والفرنج وهو المعروف باسم الحروب الصليبية .

مما تقدم نرى أن الفاطميين قد تركوا الحالة في الشام في أواخر عهدهم كما وجدوها في أوائل عهدهم مع اختلاف بسيط هو حلول المرداسيين محل الحمدانيين في منطقة الثغور

أما البيزنطيون فقد ظلوا محتفظين بالفتوحات والمكاسب التي احرزوها قبل دخول الفاطميين مصر . فالموقف إذن لم يتغير والحروب بين الدولتين لم تأت بنتيجة .

٣ ـ نحو جزيرة صقلية

تتمتع جزيرة صقلية بموقع جغرافي واستراتيجي هام بين ساحل ايطاليا الجنوبي الذي لا يفصلها عنه سوى مضيق مسيني شمالا ، وبين الساحل التونسي القريب منها جنوبا . لهذا أخذ الأغالبة حكام افريقية من قبل الخلافة العباسية يتحينون الفرصة المناسبة لامتلاكها ، وكانت في ذلك الوقت تقع تحت سيادة الدولة البيزنطية .

وحانت الفرصة عندما قدم إلى تونس قائد الاسطول البيزنطي في صقلية ويدعى Eufemio ويسميه العرب فيمي ، طالبا من الأغالبة معونة حربية لعداء بينه وبين الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني (٨٢٠ ـ ٨٢٩ م) .

واختلفت المصادر البيزنطية في سبب هذا النزاع بين الامبراطور وقائده ، فالبعض يرجعه إلى أن هذا القائد فيمي أحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها ، فأمر الامبراطور بقطع أنفه عقاباً له على جرمه ، ففر إلى أمير الأغالبة بتونس زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب ، ودعاه إلى فتح صقلية مبينا له غناها وسهولة فتحها . ويرجع البعض الآخر هذا الخلاف إلى أن القائد البيزنطي كان يطمع في انشاء دولة مستقلة تضم ايطاليا وصقلية معا ، أو بمعنى آخر احياء الدولة الرومانية القديمة .

أما المصادر الاسلامية ، فإنها لا تذكر شيئا عن سبب هذا النزاع ، واكتفت بالإشارة إلى غضب الامبراطور على قائده فيمي وفرار هذا الأخير إلى القيروان مستنجدا بأميرها الأغابي .

وكيفما كان الأمر فإن زيادة الله استجاب لنداء هذا القائد وسير جيوشه وأساطيله لغزو صقلية بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات . وكان ابحارهم جميعا في ربيع سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) من ميناء سوسة التونسية في مائة مركب ، واتجهوا إلى الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة صقلية حيث استولوا على ثغر مازرة Mazara وهو أقرب ثغورها إلى افريقية . ثم توغل أسد بن الفرات في داخل الجزيرة حتى وصل إلى شرقها ، وقامت بينه وبين الروم معارك مستمرة بالبر والبحر ، ثم وقع وباء بمعسكر المسلمين راح ضحيته أسد بن الفرات نفسه في سنة ٢١٣ هـ وقيل انه استشهد في احدى هذه المعارك ودفن عند أسوار مدينة سرقوسه (سيراكوز) شرقي الجزيرة [١] .

واشتد الأمر على المسلمين لولا أن توالت عليهم الامدادات من افريقية والاندلس فاستولوا على العاصمة بلرم سنة ٢١٦ هـ . ثم أخذوا في افتتاح مدن الجزيرة تباعا وببطء لوعورة مسالكها إلى أن سقطت جميعها سنة ٩٠٣ م أي بعدما يقرب من الثمانين سنة وهي مدة طويلة إذا قورنت بمدة فتح المسلمين للأندلس التي لم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن المسلمين لم يجدوا في اسبانيا سوى جيش محلي مفكك ، بينما كان وراء صقلية الامبراطو ية البيزنطية تمدها بالمال والرجال فضلا عن قوة حصون الجزيرة ومناعتها .

ولما قضى الفاطميون على دولة الأغالبة في المغرب سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) ، ورثوا أيضا أسطولها وممتلكاتها ، ومن ثم دخلت صقلية في فلك الدولة الفاطمية وصار يحكمها ولاة باسم الخلافة الفاطمية سواء في المهدية أو في القاهرة بعد

---

(١) راجع (المالكي : رياض النفوس ص ١٨٥ — ١٨٩ نشر حسين مؤنس ، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية ص ٦٥ ، احسان عباس : العرب في صقلية ص ٢٤) .

ذلك . إلا أن هذه التبعية كانت اسمية في غالب الأحيان خصوصا في عهد أسرة الكلبيين الذين حكموا صقلية حكما ذاتيا وراثيا أكثر من مائة سنة (٣٣٦ — ٤٤٤ هـ — ٩٤٨ — ١٠٥٢ م) .

ومؤسس هذه الدولة هو الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي الذي ولاه الخليفة المنصور الفاطمي على صقلية سنة ٣٣٦ هـ مكافأة له على الخدمات التي أسداها للدولة الفاطمية . وخاض هذا الأمير حروبا كثيرة مع البيزنطيين في البر والبحر هُزم في بعضها ، وانتصر في البعض الآخر . وكان آخر نصر له على الروم عقب استيلائه على طبرمين Taormina وميقش Miqus على الساحل الشرقي لجزيرة صقلية سنة ٣٥٢ هـ ثم حصاره لقلعة رمطه Rametta سنة ٣٥٣ هـ التي استنجد صاحبها بالبيزنطيين . عندئذ وجه إليه الأمبراطور نقفور فوكاس حملة عسكرية ضخمة لم يدخل صقلية مثلها قط ، فقاتلهم الحسن بن علي في البر والبحر وقتل منهم خلقا عظيما حُزّت منهم رؤوس عشرة آلاف ، وسقطت قلعة رمطة في يده سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) .

ويضيف المؤرخون ان الحسن بن علي اعتل لفرط فرحه بما أنعم الله به عليه . فكانت وفاته من حمى حادة لسبعة أيام . وحزن عليه أهل صقلية حزنا عظيما لما كان قد أجرى الله على يديه من العدل والظهور والخير [1] .

وولي بعده ابنه احمد بن الحسن الذي قام بأمور صقلية خير قيام ، وواصل سياسة والده في جهاد البيزنطيين ، ثم استدعاه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي لما رحل إلى تملك البلاد المصرية والشامية ، فقدّمه على جيوش البحر ، وكانت أساطيله عظيمة قد ذكرتها شعراؤهم ، فخرج عن صقلية في اخريات شوال سنة ٣٥٩ هـ . وعاجلته وفاته بعد الرحيل بالاسطول بساحل طرابلس ودفن في سنة ٣٦٠ هـ .

---

(١) راجع (ابن الخطيب . كتاب أعمال الأعلام — القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب — ص ١٢٣ نشر أحمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني) .

ثم ولي بعده أخوه أبو القاسم بن الحسن الذي حكم جزيرة صقلية مدة اثنتي عشرة سنة (٣٦٠ – ٣٧٢ ﻫ) جرى فيها على سنن سلفه بإقامة رسم الجهاد ، وانتهت حياته شهيدا في أرض قلوريه (كلابريا) في جنوب ايطاليا بعد أن أحرز نصرا حاسما على البيزنطيين هناك .

وخلفه ابنه جابر الذي اختلف عليه الجند وأنفوا من ولايته لضعف رأيه وقلة حزمه ، عندئذ أرسل الخليفة الفاطمي العزيز جعفر بن محمد بن أبي الحسين الكلبي من مصر إلى صقلية . وكان بمصر في رتبة الوزارة وله حال جليلة . فلما وصل جعفر إلى صقلية سلّم له ابن عمه جابر الأمر ولم يمانعه . وكانت مدة جابر بعد أبيه سنة ، واستقام أمر صقلية لجعفر وخلف عمه الشهيد خير خلافة .

ويروي ابن الخطيب عن هذا الأمير جعفر رواية هامة تبين لنا مدى الاستقلال الذي تمتعت به الأسرة الكلبية في حكم صقلية بعيدا عن سيطرة الفاطميين حكام الجزيرة الشرعيين ، قال :

ومن أخبار فضله وصرامته ، أنه وصله كتاب من مصر من العزيز بالله يأمره أن يدفع إلى الراهب الذي هو أخو جاريته السيدة العزيزة [1] ، قلاعا من بلاد صقلية كان افتتحها حسن بن علي بن أبي الحسين وهي : ميقش ، وطبرمين ، ورمطة ، وأن يدفع إليه كل سبي عنده قديم وحديث ! فلما وصله الراهب بعد شهر إلى صقلية ، أنزله جعفر ، ورقب عليه . ومنعه من لقاء من يريده نحوا من أربعة أشهر . ثم أمر بشيوخ وعجائز ومرضى وأصحاب زمانات ، فدفعهم إليه ، وأزعجه للرحيل ، فأفلت وما صدق بنجاته . وكتب إلى العزيز من قسطنطينية يخبره عن جعفر بن أبي الحسين : أنه لم يفعل ما أمره به ، وعلم جعفر ذلك ، فأمر بعد رحيل الراهب باشتراء مركب أندلسي شحنه بجميع طرف الأندلس ، وأظهر أن المنصور بن أبي عامر (حاجب الأندلس) بعثه

(١) سبقت الإشارة إلى أن هذه الجارية النصرانية التي تزوجها العزيز هي اخت بطرياركي الاسكندرية والقدس الملكانيين .

إليه ، وكتب إلى العزيز بالله يذكر أن صاحب الأندلس قد كتب يسأله الرجوع في جملته والدخول تحت طاعته ، وبسط أمله بأنه يقطعه من عمل الأندلس كلما سأل ! . فراجعه العزيز بالله يذكّره أن سلفه بني أبي الحسين لم يعرفوا قط إلا طاعته وطاعة آبائه ، ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد أبوه ، وحسين جده وعمار وعلي وغيرهم ، ويشكره على امتناعه مما دعاه إليه صاحب الأندلس[1] .

واضح من النص المتقدم أن الأمير جعفر الكلبي ، استغل العداء القائم بين الفاطميين الشيعة في مصر وبين الأمويين السنيين بالأندلس في تدعيم استقلاله بالجزيرة وذلك عن طريق التهديد بالانضمام إلى المعسكر الغربي الأموي اذا ما حاول الفاطميون التدخل في شئونه ومس استقلاله .

ثم تداول ولاية صقلية أمراء هذا البيت ، إلى أن انقطع عنهم امداد المسلمين سواء من مصر والشام أو المغرب والأندلس ، لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن . فكان ان انقرضت دولة الكلبيين سنة ١٠٥٢ م ودبت المنازعات الداخلية في الجزيرة مما أدى إلى قيام فترة شبيهة بفترة ملوك الطوائف بالأندلس . ومن ثم كان من السهل على أي فاتح أن يغزو الجزيرة من الشمال أو الجنوب .

وفشل الزيريون أو بنو زيري أمراء افريقية في تحقيق ذلك من الجنوب ، بينما نجح النورمانديون حكام جنوب ايطاليا في الاستيلاء على صقلية من الشمال على يد الكونت روجار الأول حاكم قلورية (كلابريا) سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

بقي أن نشير إلى أن علاقة الفاطميين بصقلية لم تقتصر على هذه التبعية السياسية أو الروحية بل شملت أيضا النواحي الحضارية . فلقد عم الرخاء أنحاء الجزيرة في أثناء هذا العهد الفاطمي ، وازدادت موارد البلاد الزراعية والتجارية حتى صارت صقلية من أغنى أقطار الدولة الفاطمية . وكان التسامح الديني هو أساس المعاملة بين الحكام والمحكومين بالجزيرة . فكان المسلمون والنصارى

---

(١) راجع (ابن الخطيب : كتاب أعمال الاعلام ص ١٢٧ – ١٢٨) .

يعيشون جنبا إلى جنب على قدم المساواة . وانتشرت العادات الاسلامية بين سكان الجزيرة حتى تشبه نساء النصارى بنساء المسلمين في أزيائهن وزينتهن [1] .

واستمر هذا التأثير الفاطمي إلى ما بعد زوال الحكم الاسلامي من الجزيرة أي في عهد أسرة الهوتفيل النورماندية وأسرة الهوهنشتاوفن الألمانية . وتتجلى مظاهر هذه الحضارة الفاطمية في الآثار الباقية في الجزيرة حتى اليوم كالقصور والقلاع والقباب والأبواب والأسوار والقناطر ... إلى غير ذلك من الأعمال العمرانية التي اتسمت بالطابع الفاطمي رغم انها بنيت في عصر مسيحي .

---

(١) راجع (مارتينو مورينو : المسلمون في صقلية ص ١٦ — ١٧ (بيروت ١٩٥٧) .

٤ ـ نحو الحجاز

الحجاز هو أصل العرب والملة ، ومركز العصبية ، ومقر الحرمين الشريفين . والخليفة الشرعي في نظار المسلمين أصلا هو حامي حمى الحرمين في مكة والمدينة أي المسيطر على الحجاز . لهذا حرص خلفاء المسلمين على بسط نفوذهم على هذه المناطق المقدسة كي يكتسبوا شرعية في الحكم ، وزعامة روحية في العالم الاسلامي كله [1] .

وصلة مصر بالحجاز ترجع إلى عهود قديمة قبل ظهور الاسلام . وعندما فتح عمرو بن العاص مصر ، اختط مدينة الفسطاط العاصمة في مكان تسهل فيه المواصلات البرية والبحرية مع شبه جزيرة العرب ، كما أنه أعاد حفر قناة تراجان القديمة التي تربط النيل بالبحر الأحمر عند مدينة القلزم أو السويس ، وأطلق على هذه القناة اسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . ومن ثم صارت الغلال والأموال ترسل إلى الحجاز عن طريق هذه القناة ، وبذلك احتفظت مصر بعلاقاتها الوثيقة مع شبه جزيرة العرب .

واستمرت صلة مصر بالحجاز قائمة على هذه التبعية أو الصلة الاقتصادية أي ارسال الغلال إلى الحجاز . وفي أيام الطولونيين والاخشيديين صارت هذه

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .

التبعية فعلية ، بمعنى أن الخليفة العباسي قلّد الطولونيين والاخشيديين ولاية الحرمين الشريفين فصار يدعي لهم على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسي .

وحينما سيطر بنو بويه الشيعة على الخلافة العباسية في بغداد ، قامت في مكة امارة محلية مستقلة سنة ٣٣٨ هـ للإشراف على الحرمين الشريفين أسندت رياستها إلى جماعة من الشرفاء من بني الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومن بني جعفر الطيار بن أبي طالب : أبناء عم الرسول (صلعم) .

غير انه سرعان ما دب الخلاف بين بني الحسن وبني جعفر ، وقامت حروب بينهم ، وهنا يجد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الفرصة سانحة للتدخل في شئون الحجاز ، فأرسل إليهم رسله من المغرب ومعهم الأموال والهدايا . وأخذ يتقرب إليهم ، ويتوسط في الصلح بينهم ، ويدفع لهم ديات قتلاهم ، فحفظوا له هذا الجميل . وحينما انتقل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، اعترف به الشرفاء اماماً ، وخطبوا له على منابر الحجاز إلى أن مات سنة ٣٦٥ هـ [١] .

على ان هذه السيادة الفاطمية لم تدم في الحجاز بصفة مستمرة ، فأحيانا كانت الخطبة تقطع للفاطميين وتقام للعباسيين مثلما حدث أيام الخليفة العزيز بالله الفاطمي الذي اضطر إلى إرسال حملة حاصرت مكة والمدينة وأعادت الخطبة للفاطميين .

وفي عهد كل من الحاكم والظاهر والمستنصر ، كان الحجاز يذعن بالطاعة للفاطميين كلما أرسلوا إلى أشرافه أحمال الغلال والأموال والخلع والهدايا ، [٢] وكسوا الكعبة بالقباطيّ البيض [٣] .

وفي خلال عهد الخليفة المستنصر ، استولى حلفاؤه الصليحيون حكام

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ ؛ جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ١٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٢ ، جمال الدين سرور : المرجع السابق

(٣) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢١٧ .

اليمن على الحجاز سنة ٤٥٦ هـ ، وأقاموا في مكة أسرة علوية أخرى عرفت بالهواشم أو الهاشميين .

ولقد استمر حكم الهواشم بالحجاز حتى سنة ٥٩٨ هـ ، وكانت سياستهم مثل أسلافهم سياسة نفعية مذبذبة ، إذ استغلوا مركزهم الفريد بين الخلافتين المتنافستين العباسية والفاطمية ، وصاروا يخطبون على منابرهم لمن يدفع لهم أكثر . فمثلا في خلال أزمة الشدة العظمى التي حلت بمصر أيام المستنصر ، انقطعت الغلال والأموال التي اعتادت مصر أن ترسلها إلى الحرمين ، فاتصل الهواشم بالعباسيين وبالسلطان ألب ارسلان السلجوقي سنة ٤٦٢ هـ ، فوصلتهم عطاياهم وهباتهم ، فخطبوا عندئذ للخليفة القائم العباسي واستمروا كذلك حتى سنة سنة ٤٦٩ هـ [1] . ففي هذه السنة عادوا وخطبوا للفاطميين لأن الغلال والأموال المصرية عادت إلى الوصول إليهم مرة اخرى بعد أن استتب الأمن في مصر على يد أمير الجيوش بدر الجمالي .

هذه السياسة النفعية التي سار عليها أمراء مكة ، قد ملأت خزائنهم بالأموال والصلات ، ولكنها عادت على الشعب الحجازي وعلى الحجاج عامة بالضرر الجسيم . ذلك لأن الدعاء لخلفاء مصر كان يصحبه اعتداء على حجيج العراق في الطرقات بل وفي الكعبة نفسها . كذلك كان الدعاء لخلفاء بغداد يعقبه حدوث مجاعات بين سكان الحجاز بسبب امتناع الفاطميين عن ارسال الغلال اليهم . وزاد الأمر تعقيدا أن هذا الاضطراب الاقتصادي والسياسي كانت تصحبه غارات اللصوص وقطاع الطرق من البدو والأعراب على قوافل التجارة والحجاج . هكذا كان حال الحجاز حتى آخر أيام الفاطميين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢١ .

٥ ـ نحو اليمن

كانت بلاد اليمن منذ وفاة الرسول (صلعم) ولاية اسلامية يحكمها ولاة من قبل الخلفاء شأنها في ذلك شأن بقية الاقطار الاسلامية الأخرى . وحينما ضعف نفوذ الخلافة العباسية منذ أوائل القرن الثالث الهجري ودبت المنازعات الاستقلالية في أطراف الدولة ، كانت اليمن من أوائل البلاد التي استقلت سياسياً عن طاعة العباسيين ، فقامت بها حكومات محلية مستقلة لا يربطها بالخلافة العباسية سوى التبعية الروحية .

وأول دولة مستقلة قامت في اليمن هي الدولة الزيادية أو دولة بني زياد الذين حكموا اليمن منذ سنة ٢٠٤ هـ واتخذوا من مدينة زبيد ، المجاورة لساحل البحر الأحمر ، عاصمة لهم .

ولما اضمحلت هذه الدولة ، قامت على أنقاضها دولة بني يعفر أو الدولة اليعفرية سنة ٢٤٧ هـ ، وكانت عاصمتها مدينة صنعاء في شمال شرق زبيد . وفي عهد هذه الدولة اليعفرية قامت دعوة سرية اسماعيلية سنة ٢٦٨ هـ تزعمها إثنان من دعاة الاسماعيلية وهما علي بن الفضل ورستم بن حوشب . وقد استقر الأول في نواحي مدينة الجند بالقرب من صنعاء ، بينما استقر الثاني في جنوب صنعاء .

أخذ هذان الداعيان يدعوان الناس سرا للمذهب الاسماعيلي ، ولما قوي أمرهما أعلنا الثورة ونجحا في الاستيلاء على صنعاء وزبيد من أيدي اليعفريين . بعد ذلك وقع خلاف بين هذين الداعيين ثم تصالحا ثانية ثم ماتا في وقت واحد تقريبا ، ابن حوشب سنة ٣٠٢ هـ ، وابن الفضل سنة ٣٠٣ هـ . هذا ومن المعروف أن أبا عبد الله الشيعي كان من أصحاب ابن حوشب وعن طريقه ذهب إلى المغرب ليؤسس هناك الدولة الفاطمية . وبعد موت هذين الداعيين ، عادت الدولة اليعفرية إلى الظهور في صنعاء من جديد ، ولكن الدعوة الاسماعيلية ظلت مستعرة في الخفاء واتخذت بلدة مشور بنواحي عدن قاعدة لها . وكان الفاطميون يغذون هذه الدعوة سرا من المغرب ثم من مصر إلى أن تمخضت عنها ثورة الصليحي الشيعي اليمني .

خرج علي بن محمد الصليحي من بلدة مشور سنة ٤٢٩ هـ ونجح في الاستيلاء على صنعاء ومعظم أنحاء اليمن مؤسسا بذلك الدولة الصليحية ، ومتخذا مدينة صنعاء عاصمة له . وفي سنة ٤٥٢ هـ اعترف الصليحي رسميا بسلطان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، ودعا له على منابر بلاده ، فأرسل له المستنصر الألوية والتقليد والخلع سنة ٤٥٣ هـ [١] وفي سنة ٤٥٦ هـ أدى الصليحي فريضة الحج ، واستولى على الحجاز ، ودعا للفاطميين هناك . وقد كافأه المستنصر على هذا العمل بأن خلع عليه لقب « عمدة الخلافة » أو « عمدة الإمامة » نظير الخدمات الجليلة التي أسداها للخلافة الفاطمية [٢] .

ثم توفي الصليحي واختُلف في سنة وفاته فقيل في سنة ٤٥٩ هـ أو سنة ٤٦٣ هـ أو سنة ٤٧٣ هـ . وقد خلفه في حكم اليمن ابنه أحمد المكرّم الذي سار سيرة أبيه في الولاء للفاطميين ، تشهد بذلك سلسلة المراسلات التي دارت بينه وبين الخليفة المستنصر [٣] .

---

(١) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢٠٠ .

(٢) عبد المنعم ماجد : سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٣ ص ٣٧ (القاهرة ١٩٥٤) .

(٣) سجلات وتوقيعات المستنصر رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

ثم توفي أحمد المكرم سنة ٤٨٤ هـ بعد أن أوصى بأن يخلفه ابن عمه الداعي ابو حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحي ، ولكن زوجته السيدة الحرة أروى لم ترض بهذا الاختيار لأنها كانت تريد أن تولي ابنها عبد المستنصر الذي كان لا يزال طفلا . وقام نزاع بين الفريقين هدد اليمن بحرب أهلية . وهنا يتدخل الخليفة المستنصر بالله لفض هذا النزاع مؤيدا جانب عبد المستنصر الصليحي مرشح الملكة أروى . ويبدو أن النفوذ الفاطمي كان لا يزال قويا في اليمن في ذلك الوقت بدليل أن الحزب المعارض استجاب لنداء الخليفة الفاطمي وبايع الجميع عبد المستنصر الصليحي ليكون ملكا على اليمن .

على ان عبد المستنصر لم يعش بعد ذلك طويلا ، وكانت والدته أروى هي المسيرة لأمور الدولة ، فقام نزاع بينها وبين أبي حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحي الذي كان يطالب بملك اليمن لنفسه . وهنا يتدخل الخليفة المستنصر من جديد ويحل هذه الأزمة بطريقة منطقية معقولة ، ذلك أنه أمر الملكة أروى بالزواج من أبي حمير سبأ الصليحي ، إذ قال لها رسوله « قد زوّجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن احمد بن المظفر على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار عينا وخمسون ألفا أصنافا من تحف وألطاف »[1] .

واستجابت أروى لطلب الامام الفاطمي وتزوجت سبأ الصليحي ، وظلت على ولائها للدولة الفاطمية في عهد كل من المستنصر والمستعلي والآمر ، وتبادلت معهم الرسائل والهدايا .[2] .

على أن موضع الأهمية هنا هو ما تشير به الرواية اليمنية من ان الخليفة الآمر بعث إلى السيدة الحرة أروى رسالة في شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ يبشرها فيها بمولد ولي وعهده أبي القاسم الطيب ، ويطلب اليها أن تذيع هذا

---

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ٣٢ — ٣٣ ، حسن سليمان محمود : الملكة أروى سيدة ملوك اليمن ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٤٦ .

النبأ في بلاد اليمن [١] . ولكن الخليفة الآمر لم يلبث أن قتل في نفس هذه السنة دون أن ينجب ولدا آخر ، فأخفى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر خبر الطيب بن الآمر الذي ولد في تلك السنة ، وولى الخلافة باسم الحافظ لدين الله . سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) .

وغضبت الملكة الحرة أروى لهذا التصرف ، واعتبرت إمامة الحافظ مغتصبة باطلة ، ودعت للطيب بن الآمر على منابر بلادها ، وذهبت إلى أن الطيب دخل السّتر وأنها — أي الملكة الحرة الصليحية — حجته وصاحبة السّتر عليه .

واستطاع الخليفة الحافظ الفاطمي أن يوجد أنصارا لخلافته في اليمن ، لا سيما بعد وفاة الملكة أروى سنة ٥٣٢ هـ وبذلك انقسمت الاسماعيلية في اليمن إلى طيبية وحافظية ، وظل الأمر كذلك إلى أن قضى عليهما معا صلاح الدين الأيوبي على يد أخيه تورانشاه سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) [٢] .

بقي أن نشير إلى شاعر كبير من شعراء هذه الدولة الصليحية وهو الشاعر أبو الحسن نجم الدين عمارة اليمني الذي زار مصر في أواخر عهد الفاطميين ومدحهم في كتاباته وشعره . وظل بمصر إلى أن قتله صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ بتهمة التآمر ضد الحكم الأيوبي ومحاولة إعادة الحكم الفاطمي [٣] . وقد كتب هذا العالم كتابين ، أحدهما تاريخ اليمن [٤] ، والثاني في تاريخ مصر بعنوان « النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية » [٥] .

---

(١) عمارة اليمني ، تاريخ اليمني ص ١٠٢ ؛ حسين الهمداني وحسن سليمان محمود الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢١٨ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٤٨ .

(٣) يقال ان الشاعر عمار ، هو الذي حرض صلاح الدين على غزو اليمن لا بعاد الجيوش الأيوبية عن مصر فيسهل بذلك على الجيوش الصليبية والشيعية القضاء على صلاح الدين .

(٤) نشر وترجم هذا الكتاب المستشرق الانجليزي كاي بعنوان :
Cassels Kay : Yaman its early medieval history by Omara (London 1892)

(٥) نشره ديونبورج بعنوان : Omara du Yemen : sa vie et son Oeuvre par Hartwig Derenbourg, 2 Vols. (Paris 1909)

٦ ـ نحو الخلافة العباسية

لا شك أن الصفة المذهبية الشيعية التي اتسمت بها الدولة الفاطمية ، كانت من أهم عناصر الخصومة بينها وبين الدولة العباسية السنية خصوصا بعد أن اقتطعت قسما كبيرا من أراضي الخلافة العباسية . ولهذا كانت العلاقة بينهما علاقة عدائية بصفة عامة .

غير أن هذا العداء لم يظهر بصورة دائمة بين الخلافتين المتنافستين ، خصوصا في المائة سنة (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) التي سيطرت فيها دولة بني بويه على الخلافة العباسية . فمن المعروف أن بني بويه كانوا فُرْسا من بلاد الديلم بفارس ، كما كانوا شيعة على مذهب الزيدية ، وهذا قرّبهم بطبيعة الحال من الفاطميين . وظل الأمر كذلك إلى أن ضعف نفوذ بني بويه وانشغلوا في منازعاتهم الداخلية ، عندئذ تمكنت الخلافة العباسية من التدخل في السياسة ومناوأة النفوذ الشيعي الفاطمي والبويهي على السواء .

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم العلاقات بين الخلافتين الفاطمية والعباسية إلى فترتين متمايزتين :

١ ـ الفترة الأولى : وهي الفترة التي عاصرت فيها الدولة الفاطمية ، دولة بني بويه أيام قوتها . ويلاحظ فيها أن العلاقات بينهما كانت حسنة بصفة

عامة لأن البويهيين كانوا يفضلون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية حتى انهم سمحوا لدعاة الفاطميين بنشر عقائد المذهب الاسماعيلي في البلاد الخاضعة لنفوذهم ، بل ويذهب بعض المؤرخين إلى أن معز الدولة البويهي حينما دخل بغداد ، فكر في القضاء على الخلافة العباسية واقامة خلافة علوية مكانها ، واتجه تفكيره إلى مبايعة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بدلا من الخليفة العباسي ، ولكن أحد أتباعه نصحه بقوله : « ليس هذا برأي ، فإنك اليوم مع خليفة (أي العباسي) تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه . ومتى أجلست بعض العلويين خليفه كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته . فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ، ولو أمرت بقتله لم تطع بذلك »[1] .

واقتنع معز الدولة وأصحابه بهذا الرأي ، فأبقوا على الخلافة العباسية خوفا على سلطانهم ، إلا أنهم حرصوا في نفس الوقت على التقرب من الخلافة الفاطمية في مصر ، وشاركوا في الاحتفالات بالأعياد الشيعية الدينية مثل يوم الغدير (غديرخم) الذي احتفل به البويهيون في بغداد احتفالا كبيرا ، فكانت تقام الزينات ، وتفتح الأسواق في الليل ، وتضرب البوقات ، وتشعل النيران عند أبواب الأمراء وكبار رجال الشرطة فرحا بهذا العيد .

كذلك كانت العلاقة الرسمية بين الدولتين الفاطمية والعباسية في هذه الفترة علاقة تفاهم واحترام متبادل خصوصا في عهد عضد الدولة البويهي الذي حكم بعد وفاة عمه معز الدولة واستطاع أن يوحد فارس والعراق ، وينتصر على منافسيه ، فبلغت الدولة البويهية في عهده أوج عظمتها .

لقد حرص عضد الدولة على توثيق علاقته بالخليفة الفاطمي العزيز بالله ، فابن الأثير عند كلامه عن حوادث سنة ٣٦٩ يقول : « وفي هذه السنة ورد رسول العزيز بالله صاحب مصر إلى عضد الدولة بمسائل أداها » . وإننا وإن كنا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٣١٥ .

لا ندري حقيقة هذه المسائل ، إلا أن الاستقبال الحافل الذي استقبل به رسول الخليفة الفاطمي في بغداد ، والرسائل الودية التي تبودلت بين العاهلين في تلك السنة ، يدل على أن العلاقة بين القاهرة وبغداد كانت على جانب كبير من الصفاء والتفاهم والرغبة في التعاون على الجهاد ضد العدو البيزنطي المشترك .

ولقد أورد أبو المحاسن جزءا من الرسالة التي بعث بها الخليفة العزيز إلى عضد الدولة وهي من انشاء وزيره يعقوب بن يوسف بن كلّس ، وفيها يقول بعد البسملة :

« من عبد الله ووليّه نزار أبي منصور الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين ، إلى عضد الدولة الإمام نصير ملة الإسلام أبي شجاع بن أبي علي . سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يَحْمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله الصلاة على جدّه محمد رسول رب العالمين ، وحُجة الله على الخَلْق أجمعين ، صلاةً باقية نامية متصلة دائمة بعترته الهادية ، وذريته الطيبة الطاهرة . وبعد ، فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين ، مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ما يحمله عنك من اخلاصك في ولاء أمير المؤمنين ومودتك ، ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين . فسُرَّ أمير المؤمنين بما سمعه عنك ، ووافق ما كان يتوسمه فيك ، وأنك لا تعدل عن الحق ... وقد علمتَ بما جرى على ثغور المسلمين من المشركين ، وخراب الشام وضعف أهله ، وغلاء الأسعار . ولولا ذلك لتوجه أمير المؤمنين بنفسه إلى الثغور ، وسوف يَقْدَم إلى الحيرة ، وكتابه يقدم عليك عن قريب ، فتأهب إلى الجهاد في سبيل الله » (١) .

فكتب اليك عضد الدولة كتابا يعترف فيه بفضل أهل البيت ، ويقر للعزيز أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة ، وأنه في طاعته ، ويخاطبه بالحضرة الشريفة » (٢) .

والعجيب في هذا الصدد أن رسالة الخليفة الفاطمي قرئت في حضرة الخليفة

(١) ، (٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٥ .

العباسي ، كما أن رسالة عضد الدولة أرسلت إلى مصر بعلم الخليفة أيضا ، وهذا يبين مدى الضعف الذي بلغه نفوذ الخليفة العباسي .

٢ — الفترة الثانية في علاقات الفاطميين بالخلافة العباسية هي الفترة التي عاصروا فيها دولة بني بويه ابان ضعفها ، أي بعد وفاة عضد الدولة البويهي سنة ٣٧٢ هـ وانقسام البويهيين على أنفسهم في منازعات داخلية . في هذه الفترة استطاع الخلفاء العباسيون أن يتدخلوا في سياسة الدولة مما كان له أثر كبير في تحويل سياسة التفاهم التي سلكها البويهيون مع الفاطميين حتى ذلك الوقت ، إلى سياسة عداء سافر بين الخلافتين .

ومن مظاهر هذا العداء أن الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) أمر في سنة ٣٨٢ هـ بوقف النواح والبكاء في بغداد في يوم عاشوراء ، كما رفض تعيين رجل شيعي اختاره البويهيون لشغل منصب قاضي بغداد . واضطر البويهيون إلى الرضوخ واكتفوا بتعيين قاض خاص للشيعة سموه النقيب أو نقيب الطالبين أو الهاشميين .

ومن مظاهر هذا العداء أيضا خروج أمير الموصل أبو الدرداء محمد بن المسيّب العقيلي ، عن طاعة الخلافة العباسية ، واقامة الدعوة في الموصل للخليفة العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨٢ هـ . كذلك قام الشيعة في بغداد بمظاهرة مسلحة سنة ٣٩٨ هـ طالبوا فيها باقامة الدعوة للخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله . وصاروا ينادونه في الشوارع : يا حاكم يا منصور !! واضطر الخليفة القادر أن يحاربهم بفرقة من حرسه ، وانتهت المعركة بهزيمتهم واخماد ثورتهم . وفي سنة ٤٠١ هـ خرج صاحب الموصل أبو المنيع قرواش بن المقلد عن طاعة الخليفة العباسي القادر ونشر الدعوة الفاطمية في الموصل والمدائن والأنبار والكوفة ، ودعا للخليفة الحاكم بأمر الله على منابر تلك البلاد . وقد وجه إليه الخليفة القادر جيشا أبطل دعوة الحاكم من بلاده وأعادها للقادر على العادة [1]

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ﻫ — ٤ ص ٢٢٤ — ٢٢٧ .

ولا شك أن سياسة الدولة الفاطمية كانت وراء هذه الأحداث بدليل أن الخليفة القادر لم يكتف بقوة السلاح ، بل لجأ إلى سياسة التشهير بسمعة الفاطميين والطعن في نسبهم ، فأصدر في سنة ٤٠٢ محضرا رسميا موقعا بأسماء كبار الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة مثل الشاعر العلوي ونقيب الاشراف الشريف الرضي وأخيه المرتضي . ومما جاء في هذا المحضر « ... والفاطميون منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي اخوان الكافرين ... أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ، وأن ذلك باطل وزور ... ، وأن هذا الناجم بمصر الملقب بالحاكم — حكم الله عليه البوار والخزي — هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ، كفار فساق فجار زنادقة ... الخ »[1] .

ولما ولى الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) سار هو الآخر على سياسة والده القادر ، فأصدر في سنة ٤٤٤ هـ محضرا آخر ضد الفاطميين يتضمن نفس المطاعن التي أثارها أبوه من قبل .

ولا شك أن كل هذا الاضطراب كان مصدره ضعف الدولة البويهية وعدم قدرتها على حسم هذه الفتن كما كان الحال من قبل في عهد عضد الدولة واخوته . وقد انتهت دولة بني بويه على يد الأتراك السلاجقة السنيين ، حينما دخل زعيمهم طغرلبك مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وقضى على دولة الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة — ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

٧ ـ نحو السلاجقة

عاصر الفاطميون بني بويه الشيعة كما رأينا ، ثم عاصروا بعد ذلك الأتراك السلاجقة في بغداد . وظهور السلاجقة على مسرح الأحداث السياسية في القرن الخامس الهجري (١١ م) يعد حلقة جديدة حاسمة في تاريخ الدولة الفاطمية ، ذلك لأن السلاجقة كانوا يختلفون تمام الاختلاف عن البويهيين ، فهم سنيون متعصبون ، وأشد بأسا في القتال منهم . ولهذا كان لقيام دولتهم في بغداد وقع سيء في الأوساط الفاطمية في القاهرة ، بل كان رد الفعل عنيفا ، اذ اتجهت الدولة الفاطمية نحو سياسة الانتقام من حكومة بغداد الجديدة ، وذلك بأن شجعت فتنة القائد التركي أبي الحارث أرسلان البساسيري الثائر على الخلافة العباسية في العراق .

كان البساسيري في الأصل مملوكا تركيا للسلطان بهاء الدولة البويهي ، ثم أخذ يتنقل في وظائف الدولة إلى أن عينه الخليفة القائم قائدا لحرسه ، وقربه إليه حتى صار لا يقطع أمراً إلا بعد استشارته ، وقد أثار ازدياد نفوذ البساسيري حقد الوزير أبي القاسم على بن المسلمة ، فأخذ يدس ويكيد له ، ويفسد ما بينه وبين الخليفة حتى غضب عليه الخليفة القائم ، واضطر البساسيري إلى الفرار من بغداد والاقامة في مدينة الرحبة شمالا على نهر الفرات .

ولما دخل طغرلبك بغداد ، اتصل البساسيري بالخليفة الفاطمي في القاهرة المستنصر بالله أبي تميم معد ، وطلب منه نجدة لفتح بغداد وطرد السلاجقة منها .

وأمام هذه الأحداث الجديدة ، قرر الخليفة الفاطمي أن يستجيب لنداء البساسيري بغية الانتقام لسقوط الدولة البويهية . قال أبو المحاسن : « ان الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار . ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك ، وخمسمائة فرس . وعشرة آلاف قوس . ومن السيوف آلوف ، ومن الرماح والنشاب شيء كثير » [1] .

واستطاع البساسيري بعد استلام هذا المدد أن ينتصر على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ . ثم أخذ ينتظر الفرصة المناسبة للهجوم على بغداد نفسها . وأخيرا ظفر بها سنة ٤٥٠ هـ عندما خرج طغرلبك السلجوقي من بغداد إلى شمال العراق لمحاربة أخيه ابراهيم ينال الذي يقال إنه انضم هو الآخر إلى الفاطميين على أن تكون الخطبة لهم بالخلافة [2] . فانتهز البساسيري هذه الفرصة وهاجم بغداد واستولى عليها بمعاونة أهل الكرخ ، وهو من أكبر أحياء الشيعة ببغداد ، ويقع في جانبها الغربي .

وقبض البساسيري على الوزير أبي القاسم بن المسلمة الذي كان سبب خروجه من بغداد ، فقتله بعد أن عذّبه ومثّل به . أما الخليفة القائم ، فقد نهبت العامة داره . غير أن البساسيري أحسن معاملته وسلمه لوالي مدينة عانة في شمال الفرات بعد أن أرغمه على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حقّ لبني العباس في الخلافة مع وجود أولاد فاطمة الزهراء . ورفع البساسيري الألوية المصرية في بغداد وفي غيرها من الأقاليم التي فتحها مثل البصرة وواسط . وخطب للخليفة المستنصر أبي تميم معد على منابرها ، وأعلن في الأذان بحي على خير العمل ، وهي من شعائر الشيعة ، كما أرسل إلى المستنصر عمامة الخليفة العباسي وعرشه .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١ .

(٢) السيرة المؤيدية ص ٢٦٣ ؛ حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ص ٢٣٣ .

وفرح المستنصر لهذا النصر الكبير الذي لم يحدث لأحد من آبائه وأجداده ، فأقيمت الزينات والأفراح في القاهرة ، ووقفت المغنية نَسَب الطباله تغني تحت القصر هي وبطانتها :

يا بني العباس صُدّوا ملك الأرضَ مَعَدُّ
مُلككُم كان مُعاراً والعواري تُستردُّ [1]

فطرب المستنصر لذلك وطلب منها أن تتمنى عليه ، فسألته أن تقطع الارض المجاورة للمقس ، فأقطعها إياها ، وسميت بأرض الطباله . ومكانها اليوم تلك المنطقة السكنية التي يحدها من الشمال والغرب شارع الظاهر ، ومن الجنوب شارع الفجالة ، ومن الشرق شارع الخليج المصري [2] .

هذا ، وتنبغي الإشارة هنا إلى الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن اليازوري الذي كان الرأس المدبرة لهذه القلاقل والأزمات سواء في العراق أو في افريقية . ولهذا نلاحظ تشابها عجيبا بين سياسة هذا الوزير تجاه الخلافة العباسية في العراق وبين سياسته تجاه الدولة الزيرية في المغرب . فهو يستخدم البساسيري في العراق ، كما يستخدم القبائل العربية في افريقية لا بهدف فتح هذه البلاد ، وانما لزيادة مشاكلها واثارة الاضطرابات فيها .

ولقد كان من المنتظر أن يواصل المستنصر تدعيمه لثورة البساسيري بالمال والسلاح ، ولكنه لم يفعل . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى سوء حالة مصر الداخلية ، وعدم ثقة المستنصر في القائمين بهذه الحركة أمثال البساسيري واليازوري وقد يؤيد ذلك أنه قتل وزيره اليازوري في نفس هذه السنة (٤٥٠ هـ) بتهمة الاتصال سرا بطغرلبك كما امتنع عن مواصلة امداد البساسيري .

وكيفما كان الأمر . فإن ثورة البساسيري لم تدم طويلا . لأن السلطان

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١١٥ والعواري ما يتداوله القوم فيما بينهم على سبيل الإعارة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢ حاشية رقم ٥ .

طغرلبك بعد أن انتصر على أخيه ابراهيم ينال ، رجع إلى بغداد وأعاد الخليفة القائم إلى عرشه ، ثم قاتل البساسيري حتى هزمه وقتله وصلبه ، فتخلصت الدولة العباسية بذلك من هذه الاضطرابات الخطيرة التي سببتها لها الدولة الفاطمية .

تحولت السياسة السلجوقية بعد ذلك الى محاربة النفوذ الشيعي في الشام على يد السلطان ألب أرسلان الذي خلف عمة طغرلبك في الحكم .

يروي ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) أن السلطان ألب أرسلان رأى أن يبدأ بالاستيلاء على حلب وشمال الشام كي يحمي ظهره من الخطر الشيعي قبل التوغل في أرض الروم شمالا . وعلم أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس بهذه الحركة مقدما ، وكان يدين بالمذهب الشيعي ، فجمع أهل حلب وقال لهم « هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم ، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم . والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتينا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل . فأجاب المشايخ إلى ذلك ، ولبسو السواد ، وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان . أما العامة فلم تقبل ذلك وأخذت حصر الجامع وقالوا : هذه حصر علي بن أبي طالب ، فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها الناس !!

وأرسل الخليفة القائم إلى محمود بن مرداس الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي فلبسها ومدحه الشعراء . وبعد قليل وصل السلطان ألب أرسلان إلى حلب ، وكان مندوب الخلافة لا يزال بها ، فطلب منه الأمير محمود أن يخرج إلى السلطان ليعفيه من الحضور عنده ، فخرج نقيب النقباء وأخبر السلطان بأن الأمير محمود قد لبس الخلع القائمية وخطب . فقال السلطان ألب أرسلان : « أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون : حي على خير العمل ؟ (الأذان عند الشيعة) ولا بد له من الحضور ودوس بساطي » . فامتنع محمود عن ذلك ، فاشتد الحصار على البلد ، وغلت الأسعار وعظم القتال . فلما عظم الأمر على محمود ، خرج ليلا ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري . فدخلا على السلطان

وقالت له : هذا ولدي ، فافعل به ما تحب ، فتلقاهما بالجميل ، وخلع على محمود ، وأعادة إلى بلاده ، فأنفذ إلى السلطان مالا جزيلا [1] .

ولم يكتف ألب أرسلان بالاستيلاء على حلب ، بل أرسل في نفس هذه السنة (٤٦٣ هـ) أميرا تركيا يدعى أتسز بن أوق الخوارزمي إلى جنوب الشام أي إلى فلسطين ، وكانت تحت حكم الفاطميين ، ففتح مدينة الرملة وبيت المقدس وما جاورها من بلاد ما عدا عسقلان مفتاح الطرق المؤدية إلى مصر ، ثم قصد مدينة دمشق وحاصرها وخرب أعمالها وقطع الميرة عنها ولكنه لم يستطع دخولها .

وهكذا يتضح من تحركات جيوش ألب أرسلان في بلاد الشام أنها كانت تهدف إلى ضرب القوى الشيعية في تلك البلاد قبل التوجه شمالا إلى آسيا الصغرى لجهاد البيزنطيين .

وخلف ألب ارسلان ابنه جلال الدين أبو الفتح ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ ١٠٧٢ — ١٠٩٢ م) الذي سار على سياسته في محاربة النفوذ الشيعي في الشام . واستطاع قائده أتسز أن يستولي على دمشق بعد عدة محاولات سنة ٤٦٨ هـ . ثم عين السلطان ملكشاه أخاه تتش بن ألب أرسلان ملكا على بلاد الشام ، وجعل حكمها وراثيا في بيته وبذلك قامت في دمشق دولة سلاجقة الشام التي حالت دون تقدم الفاطميين في مصر نحو الشام .

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى نزل الصليبيون في الشام واحتلوا سواحله كما استولوا على بيت المقدس من أيدي الفاطميين [2] (١٠٩٩ م) ، فضاع بذلك ملك الفاطميين في الشام نهائيا وصاروا فوق ذلك مهددين بالغزو في مصر من جانب السلاجقة والصليبيين في آن واحد .

في خلال ذلك الوقت كانت الحكومة المركزية السلجوقية في بغداد أو ما

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ١٠ ص ٦٣ — ٦٤ .

(٢) كان الفاطميون قد استعادوا بيت المقدس من أيدي السلاجقة .

يسمى بدولة السلاجقة العظام قد ضعفت بعد وفاة السلطان ملكشاه وابنه بركيارق، وانتهى الأمر بسقوطها وتفككها إلى دويلات مستقلة عرفت باسم الاتابكيات . وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة التركية المركبة أتابك ومعناها والدبك أو الأب الأمير ثم صارت تعني قائد الجيش باعتباره والدا أو أبا للجيش . وقد جرت عادة سلاطين السلاجقة أيام قوتهم أنهم اتخذوا أشخاصا من كبار مماليكهم ليكونوا مربين لأولادهم القصر ورقباء عليهم، ومنحوهم الاقطاعات الكبيرة كوسيلة من وسائل تدريب هؤلاء الأبناء على الملك وأطلقوا عليهم اسم الأتابكة .

وعلى هذا الأساس صارت معظم أراضي فارس والعراق والجزيرة والشام مقسمة إلى اقطاعات عسكرية أو أتابكيات يحكمها هؤلاء الأتابكة بتفويض من السلطان السلجوقي .

وحينما ضعفت الدولة السلجوقية ، انتهز هؤلاء الأتابكة هذه الفرصة واستقلوا بولاياتهم شيئا فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ما عدا الفرع الرومي في آسيا الصغرى ، فإنه ظل في حوزة أصحابه السلاجقة إلى أن قضى عليهم الأتراك العثمانيون بعد ذلك .

والدول الأتابكة كثيرة العدد ، وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد الا أنه يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الاقطاعي الاسلامي .

ومن هؤلاء الأتابكة الذين استقلوا وصاروا ملوكا نذكر ظهير الدين طغتكين ، وأصله من مماليك الملك السلجوقي تتش بن ألب أرسلان حاكم دمشق ثم صار أتابكا لأولاده من بعده . ثم استأثر طغتكين بملك دمشق بعد أن تزوج أرملة استاذه تتش . وخلفه ابنه بوري[1] وذريته من بعده ولذا سميت هذه الأتابكية بالدولة البورية .

ومن مشاهير الاتابكة في الشام أيضا عماد الدين زنكي مؤسس اتابكية

---

(١) بوري ومعناها بالتركية الذئب، والأتراك يمجدون الذئب ويعتبرونه جدهم الأسطوري ،

الموصل وحلب . وكان أبوه آق سنقر مملوكا للسلطان السلجوقي ملكشاه . واشتهر عماد الدين زنكي بجهاده للصليبيين ونجاحه في انتزاع امارة الرها في شمال العراق من أيديهم . فهدم بذلك ركنا هاما من الأركان الأربعة التي قامت عليها دولة الصليبيين في الشرق العربي وهي : انطاكية ، الرها ، طرابلس ، بيت المقدس .

وبعد وفاة زنكي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦ م) خلفه ابنه نور الدين محمود على ممتلكاته في الشام وهي أتابكية حلب . فكأن الشام في ذلك الوقت كانت تحكمه دولتان أو أتابكيتان وهما : الدولة الزنكية في حلب ، والدولة البورية في دمشق .

ورأى نور الدين ضرورة ضم دمشق إلى مملكة حلب لتوحيد الجبهة الإسلامية في الشام أمام الصليبيين جاعلا الجهاد رمزا وشعارا لهذه الوحدة . وقد ساعدته الظروف على تحقيق هذه الغاية ، إذ توفي الأمير معين الدين صاحب دمشق سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) . وبهذا اتيحت له الفرصة كي يسوي علاقاته مع دمشق ويضمها إلى مملكته .

ولا شك أن النجاح الذي أحرزه نور الدين في توحيد جبهة المسلمين في الشام قد أفزع الصليبيين ، ولكن الشيء العجيب الذي نلاحظه في هذا الصدد هو انه في نفس هذا الوقت الذي زحف فيه نور الدين جنوبا نحو دمشق ، كان الصليبيون بدورهم قد زحفوا جنوبا نحو مدينة عسقلان واستولوا عليها من أيدي الفاطميين سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) . أي أن كلا من الصليبيين والسلاجقة قد اتجهوا نحو الجنوب : السلاجقة نحو دمشق ، والصليبيون نحو عسقلان مفتاح المسالك الشرقية المؤدية إلى مصر . فهل كان هذا الاتجاه تسابقا متعمدا بين الفريقين لاحتلال مصر ؟

نحن لا نستبعد ذلك لأن نور الدين كان يرى في احتلال مصر ، امتدادا للحركة السنية من ناحية ، وتطويقاً للمالكة الصليبية من الجنوب من ناحية أخرى . كذلك كان الصليبيون بقيادة عموري الأول Amoury ملك بيت المقدس ،

يرون في مصر قاعدة هامة لمشروعاتهم الصليبية في الشرق الأدنى ، بدليل أن ملكهم عموري لم يخف اطماعه في مصر عندما صرح بأن مدينة بلبيس جبنه ، والقاهرة زبدة ، يمكن أكلهما بسهولة .

هذا من ناحية الدوافع الخاصة لكل فريق حول هذا التسابق نحو مصر ، أما الأسباب المباشرة التي استغلها كل منهما للتدخل في الديار المصرية ، فقد جاءت من مصر نفسها وعلى يد أبرز وأقوى شخصيتين في الدولة الفاطمية وهما شاور وضرغام .

فلقد بلغت شدة التنافس على الوزارة بين هذين الرجلين إلى درجة الاستعانة بهاتين القوتين : استعان ضرغام بقوة الصليبيين مقدما لهم جزية سنوية ، بنيما استعان شاور بنور الدين مقدما له ثلث خراج مصر في مقابل مساعدته له .

وصادف هذا الطلب هوى في نفس نور الدين فأرسل حملة إلى مصر بقيادة أكبر قواده أسد الدين شيركوه [1] الذي صحب معه ابن أخيه الشاب صلاح الدين الأيوبي .

ووصلت الحملة إلى بلبيس في ربيع سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ، وهناك اصطدمت بالجيوش الفاطمية بقيادة ضرغام . وانتهى القتال بهزيمة ضرغام ومقتله . كان هذا النصر في الواقع نصرا لشاور الذي تولى الوزارة على الفور ، إلا أنه نكص بعهده لنور الدين فامتنع عن دفع ما تعهد به من أموال ، ومنع شيركوه وجنوده من دخول القاهرة بل وطلب نجدة من الصليبيين لمناوأة شيركوه .

ورحب الصليبيون بهذا الطلب ، وسارعوا إلى مصر بقيادة عموري ملك بيت المقدس وحاربوا شيركوه خارج القاهرة سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) . وحينما علم نور الدين بحرج موقف قواته في مصر ، قام بهجوم عام على مملكة الصليبيين في فلسطين مما اضطر عموري إلى مفاوضة شيركوه والاتفاق معه على أن ينسحبا

---

(١) شيركوه معناها أسد الغابة (المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٤١) .

سويا من مصر . وهكذا خلا الجو لشاور بعد انسحاب الجيشين .

ورأى شيركوه ضرورة العودة إلى مصر للانتقام من شاور قبل أن يفيق من ذبول الحوادث السابقة ، واقتنع نور الدين بذلك ، وقرر ارسال حملة أخرى بقيادة شيركوه إلى مصر . وحينما علم شاور بنوايا نور الدين ، طلب من عموري الحضور لنجدته . ووصل الجيشان الصليبي والسلجوقي إلى مصر في وقت واحد تقريبا في ربيع سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) وتسابقا في الوصول إلى القاهرة ، وعسكر الصليبيون في الفسطاط ، بينما عسكر شيركوه في الجيزه ، ثم قامت بين الفريقين معركة انهزم فيها شيركوه واضطر إلى الانسحاب جنوبا نحو الصعيد . ويبدو أن الصليبيين أرادوا الوصول إلى نتيجة حاسمة في هذا السباق ، إذ تعقب عموري شيركوه وجنوده حتى الاشمونين في مصر الوسطى حيث التقى به من جديد في معركة ثانية عند بلدة البابين جنوبي المنيا بعشرة أميال تقريبا . وانتصر شيركوه في هذه المعركة ، وصار الصعيد في يده ، ويبدو أن العامل الديني كان له أثر كبير في ذلك الانتصار .

ثم قرر شيركوه أن يهاجم الوجه البحري ، واختار منطقة الاسكندرية بالذات هدفا لهذا الهجوم ، ولعل هذا الاختيار راجع إلى أن الإسكندرية كانت معقلا للمذهب السني . واتبع شيركوه الطريق الصحراوي الغربي للوصل إلى الإسكندرية ، واستولى عليها بدون مقاومة ، وساعده في ذلك العامل الديني أيضا . ثم عين على المدينة ابن أخيه صلاح الدين وترك معه نصف جيشه بينما أخذ هو النصف الآخر ليدعم به نفوذه في البلاد المصرية التي صارت تحت يده .

أما الجيوش الصليبية ، فإنها بعد أن استعادت قوتها على أثر هزيمة البابين ، زحفت نحو مدينة الاسكندرية وحاصرتها برا وبحرا . وهنا تجمع المراجع على المقدرة الفائقة التي أبداها الشاب صلاح الدين على حمل أهل الاسكندرية على مقاومة الحصار مدة ٧٥ يوما إلى أن جاء عمه شيركوه لنجدته . وفي هذا الوقت أيضا قام الملك العادل نور الدين بحركته التقليدية التي كررها من قبل وهي مهاجمة الصليبيين في أراضيهم ليحمل ملكهم على الجلاء سريعا عن مصر .

وقد أدت هذه التحركات العسكرية من جانب شيركوه ونور الدين إلى قبول عموري مبدأ الجلاء عن مصر بشرط أن يجلو عنها شيركوه أيضا وتترك مصر للمصريين كما حدث في المرة السابقة . وتم الجلاء فعلا في اغسطس ١١٦٧ م (شوال سنة ٥٦٢ هـ) وخلا الجو لشاور مرة أخرى .

على أن قرار الجلاء هذا ، لم يكن في حقيقة الأمر سوى هدنة مؤقتة بين الطرفين . فشيركوه لم يقتنع بمثل هذه الغنيمة الفاشلة ، وأخذ هو ونور الدين يعدان العدة من جديد لمعاودة الكرة على مصر . كذلك كان عموري يخالجه نفس هذا الشعور ، إلا أنه كان أسرع تنفيذا من منافسيه . فلم يكد ينتهي العام المذكور حتى عاد عموري إلى مصر فجأة وبدون اعلان ، فوصل بلبيس في سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) وأباح المدينة لعساكره . وكان من جراء هذا العمل العدائي أن انقلب شاور والخليفة الفاطمي العاضد والناس جميعا إلى جانب نور الدين ، وأرسلوا يستغيثون به ضد الصليبيين .

والواقع أن نور الدين لم يكن في حاجة إلى استغاثة ، فقد بلغ به الحماس أنه كان يرغب في الذهاب بنفسه على رأس الحملة التي أعدها لهذا الغرض ، ولكنه عدل عن رأيه وأرسل شيركوه للمرة الثالثة ومعه ابن أخيه صلاح الدين أيضا .

ووصل شيركوه إلى القاهرة في ربيع سنة ٥٦٤ هـ (يناير سنة ١١٦٩ م) وكان غرضه الرسمي في هذه المرة انقاذ شاور والدولة الفاطمية من الصليبيين ، بينما كان غرضه الحقيقي هو الاستيلاء على مصر والقضاء على الدولة الفاطمية . واستطاع شيركوه بمساعدة الجيوش الفاطمية وأهل القاهرة ، هزيمة الصليبيين وطردهم نهائيا من مصر . ثم استقبله الخليفة الفاطمي وخلع عليه كما استقبله الشعب المصري استقبالا حافلا .

ولم يرق في عين شاور أن تنتهي الحوادث بمثل ما انتهت اليه من دخول شيركوه القاهرة وتمتعه بعطف الخليفة الفاطمي ، ولذا لجأ إلى تدبير مؤامرة لاغتيال

شيركوه ، ولكن شيركوه علم بأمر هذه المؤامرة وقبض على شاورَ ثم قتله بموافقة الخليفة العاضد في أواخر يناير سنة ١١٦٩ م .

وعين الخليفة الفاطمي شيركوه وزيرا له مكان شاور ، وأنعم عليه بلقب الناصر . غير أن شيركوه لم يعش طويلا ومات بعد شهرين من توليه الوزارة في مارس سنة ١١٦٩ م . عندئذ تولى صلاح الدين الوزارة الفاطمية مكان عمه المتوفي بناء على موافقة الخليفة الفاطمي العاضد ، والملك العادل نور الدين . وقد أثار هذا التعيين غضب الكثيرين من كبار الضباط في جيش نور الدين الذين كانوا يرون أنهم أحق من هذا الشاب بالوزارة وبقيادة الجيش بعد شيركوه حتى اضطر عدد كبير منهم إلى مغادرة مصر والعودة إلى الشام احتجاجا على هذا التعيين .

كذلك واجهت صلاح الدين أزمات خطيرة من جانب الفاطميين من كبار رجال الجيش والقصر الذين تآمروا ضده [1] وتعاونوا مع الصليبيين للقضاء عليه . ولكن صلاح الدين استطاع أن يقضي على مؤامراتهم الداخلية ، كما استطاع أن يقاوم الأساطيل الصليبية التي هاجمت مدينة دمياط وأن يردها على أعقابها خائبة السعي ، وبذلك اقتنع الجميع بأن صلاح الدين قادر على احباط أية مؤامرة تدبر له من الداخل أو الخارج .

وانتهز صلاح الدين هذه الفرصة وطلب من نور الدين أن يرسل له أباه (نجم الدين) واخوته وأعمامه وأخواله كي يستعين بهم على خدمة نور الدين وعلى ازالة الدولة الفاطمية . ووافق نور الدين على طلبه ، وبعث بهم إليه فكانوا خير عون له في تدعيم دولته .

بقيت بعد ذلك مشكلة قطع الخطبة للفاطميين واقامتها للخليفة العباسي

---

(١) راجع ثورة قديد القفاص الفاطمي التي قامت بالاسكندرية وانتشرت دعوته بالشام وانضم اليها الشاعر عمارة اليمني والسودانيون والاسماعيلية في (ابو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٥٦٦) .

في ذلك الوقت المستضيء بنور الله [1] . اذ كان صلاح الدين يخشى أن يحدث هذا العمل ثورة في البلاد . ولهذا بدأ بتجربة أولية في هذا الصدد في أحد المساجد ، فتمت في صمت وهدوء دون أن يحتج أحد . عندئذ أمر بتعميم الدعوة للخليفة العباسي على جميع منابر القاهرة في ٧ المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وبهذا زالت الدولة الفاطمية زوالا هادئا . وكان الخليفة الفاطمي العاضد في ذلك الوقت مريضا ، ومات بعد هذا الحادث بثلاثة أيام دون أن يعلم أن الدولة الفاطمية قد زالت رسميا [2] . وهكذا مات الخليفة العاضد في يوم عاشوراء أي في ١٠ المحرم سنة ٥٦٧ هـ ، فكأن الدولة الفاطمية انقضت في اليوم الذي استشهد فيه الحسين .

---

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٤٤ .

(٢) يروي أبو شامه أن الخليفة العاضد علم بأنه قطعت خطبته فاغتم لذلك وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط فأقام متعللا خمسة أيام ومات . وقيل إنه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات . ولما اتصل موته بالملك الناصر صلاح الدين قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة . وحكى أن القاضي الفاضل قال لصلاح الدين : لو علم انكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت ، إشارة إلى أن العاضد قتل نفسه ، وكان موته يوم عاشوراء . راجع (أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية جـ ١ ص ٤٩٩ نشر محمد حلمي محمد أحمد) هذا ويروي السلاوي الناصري (الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى جـ ٢ ص ١٩٠) أنه في سنة ٦٠٠ هـ ثار بجبال ورغه من أحواز فاس بالمغرب الأقصى حفيد للخليفة العاضد اسمه محمد بن عبد الله بن العاضد ، ودعا لآل البيت والتشيع ، فظفر به الخليفة الناصر الموحدي وأمر بقتله وعلق رأسه على باب الشريعة أحد أبواب فاس وأحرق جسده في وسط الباب ، فسمى الباب باب المحروق بعد أن كان يسمى باب الشريعة . وفي سنة ٦١٠ ثار ولد هذا المحروق بجبال غماره وادعى انه الفاطمي فبعث إليه الناصر جيشا هزمه وقتله .

هذا النص يدل على أن عددا من أولاد العاضد قد فر إلى المغرب بعد انقضاء دولتهم في مصر . راجع كذلك (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣٢٧) .

مصادر تاريخ الدولة الفاطمية

ابن الأثير : عز الدين (ت ٦٣٠ هـ — ١٢٣٢ م) .
— الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا (بولاق ١٢٩٠ هـ) .
— أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ٦ أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ)

أسامة بن منقذ : (ت ٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) .
كتاب الاعتبار . نشر فيليب حتي (برنستون ١٩٣٠) .

التميمي أبو العرب محمد : (توفي في القرن الرابع الهجري) .
كتاب طبقات علماء افريقية (الجزائر ١٩١٤) .

الجوزري : (القرن الرابع الهجري) .
سيرة الأستاذ جوذر . نشر محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة .

ابن حجر العسقلاني : (ت ٨٥٣ هـ — ١٤٤٩ م) .
رفع الإصر عن قضاة مصر . نشره روفن جست في آخر . كتاب الولاة والقضاء لأبي عمرو الكندي (مجموعة جب الجزء ١٩ ، ١٩١٢) .

ابن حزم أبو محمد : (ت ٤٥٦ — ١٠٦٤ م) .
الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).

ابن حماد : القاضي أبو عبد الله محمد .

أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم . نشره فوندر هايدن . ٣ أجزاء (الجزائر – باريس ١٩٢٧) .

ابن حوشب (منصور اليمن) .

رسالة الرشد والهداية. نشر محمد كامل حسين في مجلة Collectanea المجلد الأول سنة ١٩٤٩ .

ابن حوقل ابو القاسم محمد البغدادي (ت ٣٨٠ هـ – ٩٩٠ م) .

كتاب صورة الأرض (طبعة بيروت) .

ابن خلدون : عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ – ١٤٠٥ م) .

العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء بما في ذلك المقدمة . (القاهرة ١٢٧٤ هـ) .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١ هـ – ١٢٨١ م) .

وفيات الأعيان . ٦ أجزاء ، طبعة الشيخ محيي الدين عبد الحميد .

الدباغ : عبد الرحمن بن محمد (ت ٦٩٦ هـ – ١٢٩٧ م) .

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ٤ أجزاء (تونس ١٣٢٠ هـ)

ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم القيرواني (١١١٠ هـ – ١٦٩٨ م) .

كتاب المونس في أخبار افريقية وتونس (تونس ١٢٨٦ هـ) .

الرازي : فخر الدين .

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، نشره علي سامي النشار (القاهرة ١٩٣٨) .

رسائل الحاكم بأمر الله : كتبها عدد من الدعاة الفاطميين سنة ٤٠٨ هـ .

(مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٠ (مذهب الشيعة) .

الشريف الرضي : أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى (ت ٤٠٦ هـ ـ ١٠١٥ م)
ديوان الشريف الرضي (بيروت ١٣٠٧ هـ) .

السلاوي : أبو العباس أحمد الناصري (ت ١٨٩٧ م) .
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٩ أجزاء (الدار البيضاء ١٩٥٦) .

أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٨ م) .
ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . جزءان (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .
ـ الذيل على الروضتين . نشر عزت العطار الحسيني بعنوان تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري (القاهرة ١٩٤٧) .

الشهرستاني : أبو الفتح محمد (ت ٥٤٨ هـ ـ ١١٥٣ م) .
الملل والنحل . ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) على هامش كتاب الفصل لابن حزم .

ابن شداد : بهاء الدين (ت ٦٣٢ هـ ١٢٣٤ م)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . نشر جمال الشيال (القاهرة ١٩٦٤ م) .

ابن شداد : محمد (ت ٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٥ م) .
الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة . جزءان ، نشر سامي الدهان (دمشق ١٩٥٦) .

ابن عذارى : أبو عبيد الله محمد المراكشي (توفي في أوائل القرن الثامن الهجري) .
البيان المغرب في أخبار المغرب ٤ أجزاء .
ا ـ الجزءان الأول والثاني ، طبعة دوزي (ليدن ١٩٤٨ـ ١٨٥١) .
ب ـ الجزء الثالث . نشر ليفي بروفنسال (باريس ١٩٣٠) .

ج ـ الجزء الرابع . نشر ويثي ميراندا وابراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت (الرباط ١٩٦٣) .

د ـ قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلة هسبريس سنة ١٩٦١ .

علي مبارك :

الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٠٦ هـ) .

ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ ـ ١١٧٥ م) .

تاريخ دمشق . ٥ أجزاء (دمشق ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ هـ) .

عمارة اليمني : أبو الحسن نجم الدين (ت ٥٦٩ ـ ١١٧٤ م) .

ـ تاريخ اليمن . نشره وترجمه إلى الانجليزية هنري كاي لندن ١٣٠٩ هـ) .

ـ النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية . نشر ديرنبورج (باريس ١٨٩٧ م) .

الغزالي : أبو حامد (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) .

ـ المنقذ من الضلال أو الملل والنحل (دمشق ١٩٣٤) .

ـ فضائح الباطنية أو المستظهري . نشره جولدزيهر (ليدن ١٩١٦) .

ابو الفدا : اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣١ م) .

المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

ابن القطان : أبو الحسن على الكتامي الفاسي (ت ٦٢٨ هـ ـ ١٢٣٠ م) .

نظم الجمان في أخبار الزمان . نشر محمود مكي (الرباط ١٩٦٤)

القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) .
صبح الأعشى في صناعة الانشا ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧) .

ابن فرحون : ابراهيم بن علي اليعمري (ت ٧٩٩ هـ — ١٣٩٦ م) .
الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

كاشف الغطاء : الشيخ محمد الحسين :
أصل الشيعة وأصولها (العراق ١٩٤٤) .

الكرماني : الداعي أحمد حميد الدين (ت ٤٠٨ هـ — ١٠١٧ م) .
— الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله .
نشر محمد كامل حسين في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة
مايو ١٩٥٢ .
— راحة العقل . نشر محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي .

المالكي : أبو بكر عبد الله المالكي (القرن الخامس الهجري) .
كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية .
نشر حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) .

الماوردي : أبو الحسن علي البصري (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٧ م) .
الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨ هـ) .

أبو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ — ١٤٦٥ م)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ظهر منه ١٣ جزءا (القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٥٢) .

المراكشي : عبد الواحد (٦٦٩ هـ — ١٢٧١ م) .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب . نشر سعيد العريان ومحمد
العربي العلمي (القاهرة ١٩٤٩) .

المسعودي : أبو الحسن علي (ب ٣٤٦ هـ — ٩٥٦ م) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر . جزءان (القاهرة ١٨٨٥)

المقري : أبو العباس أحمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ — ١٦٣٢ م)

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . ١٠ أجزاء نشر محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٩) .

المقريزي : تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥ هـ — ١٤٤١ م) .

— المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ) .

— اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . نشر جمال الشيال (القاهرة ١٩٤٨) .

المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي (ت ٤٧٠ هـ — ١٠٧٧ م) .

ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة . نشر محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) .

ناصري خسرو : (٤٨١ — ١٠٨٨ م) .

سفر نامه .

نقله عن الفارسية إلى العربية يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٤٦) ، كما ترجمه إلى الفرنسية شارل شيفر (باريس ١٨٨١) .

النعمان : القاضي أبو حنيفة بن محمد المغربي (٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م) .

— المجالس والمسايرات . ٣ أجزاء (مخطوط بجامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠) .

— دعائم الإسلام . نشر الجزء الأول . آصف على فيظى (القاهرة ١٩٥١) .

— كتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة . نشره محمد كامل حسين (دار الفكر العربي)

النوبختي : أبو محمد الحسن بن موسى (٣٠٢ هـ – ٩١٤ م) .
كتاب فرق الشيعة (استامبول ١٩٣١) .

استتار الامام وسيرة جعفر الحاجب . نشر و . ايفانوف بعنوان مذكرات في حركة المهدي الفاطمي . (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٣٦ ديسمبر) .

ابن هانىء الأندلسي : أبو القاسم (ت ٣٦٢ هـ – ٩٧٢ م) .
ديوان ابن هانىء نشر أكرم البستاني (بيروت ١٩٥٢) .

ياقوت : شهاب الدين الحموي الرومي (٦٢٦ هـ – ١٢٢٩ م) .
معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والسهل والوعر والخراب والعمار في كل مكان ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦) .

صفي الدين البغدادي (ت ٧٣٩ هـ / ١٢٣٨ م) .
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع . ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٥٤) .

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٢ هـ – ٨٩٥ م) .
– تاريخ اليعقوبي ، جزءان طبعة النجف بالعراق ١٣٥٨ هـ .
– كتاب البلدان ، طبعة دي خويه (ليدان ١٨٩٢) .

مصادر حديثه :

حسن ابراهيم حسن :
– تاريخ الدولة الفاطمية .
– تاريخ الاسلام السياسي والدين والاجتماعي ٣ أجزاء .
– النظم الاسلامية بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن .
– عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب بالاشتراك مع طه أحمد شرف .

- المعز لدين الله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر بالاشتراك مع طه أحمد شرف .

حسن الباشا :

الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار .

حسن سليمان محمود :

- الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨ - ٦٢٦ ه) بالاشتراك مع حسين الهمداني .

- الملكة أروى سيدة ملوك اليمن .

راشد البراوي :

حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين .

زكي محمد حسن :

كنوز الفاطميين .

عبد المنعم ماجد :

- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر

- السجلات المستنصرية نشر الدكتور ماجد .

عطية مشرفة :

- نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين .

علي ابراهيم حسن :

تاريخ جوهر الصقلي .

- تاريخ مصر في العصور الوسطى .

طه أحمد شرف :

- دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن الصباح .

صفحة

الفصل الخامس

العصر العباسي الرابع
عصر النفوذ التركي الثاني

القسم الثاني من الكتاب
تاريخ الدولة الفاطمية

الفصل الاول

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

الفصل الثاني

انتقال الدولة الفاطمية الى مصر

صفحة

الفصل الثالث

العصر الفاطمي الاول في مصر والشام
عصر الخلفاء

الفصل الرابع

العصر الفاطمي الثاني

الفصل الخامس

سياسة الفاطميين الخارجية



لطباعة الأوفست
كوم الدكة خلف شركة مياه الإسكندرية
ت، ٤٩١٦٥٩٧
محمد صبري



١٠ شارع الوردى . كوم الدكة ت ٤٩١٦٥٩٧ اسكندرية